



جامعة طرابلس
كلية اللغات
قسم اللغة العربية
شعبة الدراسات العليا

القيم المعنوية للكلمة في القرآن دراسة في تحليل عناصر السياق

إعداد الطالب: عادل مصطفى علي الكور

إشراف: أ.د/ عبدالله الزيات

قدمت الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الإجازة الدقيقة (الدكتوراه) في الدراسات الأدبية

بتاريخ 1442/4/25 الموافق 2020/12/10

الإقرار

أقر أنا **عادل مصطفى علي الكور** بأن ما اشتملت عليه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وان هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة علمية أو بحث علمي لدي أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى وللجامعة حق توظيف الرسالة أو الأطروحة والاستفادة منها كمصدر مرجعي للمعلومات لأغراض الاطلاع أو الإعارة أو النشر بما لا يتعارض مع حقوق الملكية الفكرية المقررة بالتشريعات النافذة.

التوقيع:

التاريخ:

الآية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾

صدق الله العظيم

الإهداء

إِلَى مَنْ أَضَافَتْ إِلَى حَيَاتِي مَعْنَى وَقِيَمَةً...
إِلَى نُورِ عَيْنَيَّ وَأُمِّ أَبْنَائِي... حَفِظَهَا اللَّهُ وَرَعَاهَا.
إِلَى أَبَوَيَّ الْكَرِيمَيْنِ الْفَاضِلَيْنِ.

شكر وتقدير

هذه رسالة أوجَّهها إلى أصحابِ القلوبِ الكبيرةِ والأأيادي البيضاء الذين كانوا شموساً في حياتي المعرفية والعلمية: ومنها ما أشرقت منذ بواكير الصِّبا، فعرفتُ من خلالها عِطْرَ الكتب، وتحسستُ صفحاتها قبل أن أقرأ منها سطرًا، أو أتعلّم من علومها شيئًا يُذكر.

وهنا أسجِّلُ أقلَّ ما يجب عليّ من العرفان والتقدير:

1. للأستاذ الشيخ: (محمد علي الكور) عمِّي الفاضل -رحمهُ اللهُ تعالى برحمته الواسعة- الذي كان أوَّلَ مَنْ هداني إلى طريقِ العلمِ واقتناء الكتب، وكان أهدى إليّ نسخةً من تفسير (التحرير والتنوير) في العام: (1986 م) عندما كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، وكان هذا التفسيرُ -بمشيئةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ- الكتابَ الأساسي الذي اعتمدتُ عليه خلال إعدادي لرسالة (الماجستير)، ولهذه الرسالة.

2. الأستاذ الشيخ: (عبد الرحمن العدولي) الفاضل العالمِ الحجَّة الذي كان في علومه كأنما يقرأ من كتاب، أو ينظرُ من وراءِ حجاب. تغمَّدَ اللهُ -تعالى- روحَهُ برحمته الواسعة.

3. د. (أحمد درويش): كان أستاذًا لي بكلية (دار العلوم - جامعة القاهرة)، وكان نسيجَ وحده أسلوبًا، وإلقاءً، وتنوعًا في مصادر المعرفة وسعة الثقافة.

4. د. (محمد بلحاج) الذي تلقيتُ عنه علوم المنهجية العلمية والنقد الحديث. وكانت محاضراته دروسًا لا تُعوَّضُ؛ لِمَا لها من الأهمية والقيمة العلمية.

5. د. (العربي سالم الشريف) الذي كان مُشرفًا على إعدادي لرسالة: (الماجستير). ولم يكن يألو جهدًا في توجيهي وتسيدي خطاي على طريق العلم، رحمه اللهُ رحمةً واسعة.

6. د. (عبد الله الزيات) المشرفُ على هذه الرسالة. وما زال لإرشاداته القويمة، ونصائحه القيِّمة، وحُسن تعهده، وكريم أخلاقه أكبرُ الأثر في توجيهي ومساعدتي على إنجازِ هذا العمل.

كل مَنْ كان عونًا لي بالقراءة، وبالمساعدة على التحصيل، وكل من مدَّ لي يدَ العونِ بأيِّ صورة من الصور. وأخصُّ بالذكر -هنا- أ. د. عبد الله الأزرق - أ. د. كولان الشريف الذي عهدناه أثناء دراستنا لموادِّ دبلوم الدكتوراه مثالا للإخلاص، وسعة الاطلاع، وعطائه العلمي المتجدد - أ. د. رمضان القماطي الذي أفدنا من علمه الغزير ومعارفه الجمَّة أثناء تدريسه لنا مادة الأدب المقارن - أ. د. بشير العتري صاحبِ القدرةِ الفذة على تحليلِ النصِّ الشعريِّ والأدبيِّ بشكلٍ عام - أ. د. احمد أبو حجر - أ. د. طاهر القراضي اللذين كانا عضوين باللجنة العلمية التي ناقشت رسالتي لنيل درجة الماجستير، وقد أفدت أكبرَ الفائدة من ملاحظتهما القيِّمة، وإرشاداتهما، وتوجيهاتهما العلمية الرصينة.

جزاهم اللهُ -سبحانه وتعالى- عني خيرَ الجزاء في الدنيا والآخرة.

الرموزُ والاختصارات:

أ: أستاذ- أساتذة.

اه: انتهى.

ت: تحقيق.

ت ت ت: تفسير التحرير والتنوير.

د.: دكتور، - دكاترة.

د.ت: دون تاريخ.

ر: رسالة جامعية.

ص: صفحة.

ط: طبعة.

ع: عدد الأجزاء.

ق.م: قبل الميلاد.

ق.ه: قبل الهجرة.

م: للميلاد.

(م): موقع إلكتروني.

ن: انظر أو يُنظر أو تُنظر.

ه: للهجرة.

اللسان: معجم لسان العرب لابن منظور المصري.

الأرقام الواردة - بحجم خط: 10- قبل العناوين تعمل على توضيح العنوان الأصلي

وما تحته من عناوين فرعية. وهي تُكتب متصلة، وتُقرأ منفصلة.

المُقَدِّمة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ: مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَمَنْ اهْتَدَى بِهِدْيِهِ.

تأتي هذه الدراسة في سياق القراءة الجمالية للنص القرآني. وهي القراءة التي أرى أنها تنطبق من حيث كونها جمالية - على كل النصوص الأدبية أو الفنية المقترحة للتحليل والتفسير الجمالي مع أهمية مراعاة الطبيعة الخاصة للنص القرآني. وهي -أيضاً- القراءة التي تبتعد عن أنواع القراءة اللسانية أو الألسنية تبعاً لنظرياتها في الغرب التي تطورت عبر القرن الماضي مؤثرة على أعمال نقدية مهمة، وعلى اتجاهات في دراسة الأدب.⁽¹⁾ وكذلك تبتعد عن كل الأشكال الأخرى لتناول الإبداع غير النابعة من عمق حقيقة فكرة التأثير على الوعي الإنساني بالأنساق المتميزة الفريدة أو النماذج الخاصة التي تندرج في سلك الإبداع أو الجمال. ومنها ما هو المثال أو النموذج الأعلى: ذلك هو القرآن.

لقد كان نزول القرآن مؤدناً ببقاء كتابٍ مُعْجَزٍ خالِدٍ ساطعِ البیانِ مُشْرِقِ النُّظْمِ نَزَلَ بين ظَهْراني أُمَّةٍ استعدتْ لاستقباله عن غير وعيٍ منها بما أُوتيتْ من رُقيٍّ في التعبيرِ ومَنْزِلَةٍ في الشاعريةِ أظهرتْ شِعْرَ شعراءِ احتقوا بِقُوَّةِ نُضْجِ اللغةِ، وبالجمالِ، والحكمةِ مع سطوةِ الشعورِ والتماهي مع الفنِّ الصادقِ النبيلِ. فكان الشعرُ ميدانَ هذه الأمةِ التي أبدعتهُ، وظَهَرَتْ عبقريتها في ذلك. وليس غريباً أن يكونَ لكلِّ أمةٍ مجالها الذي تختصُّ به، وتُعرَفُ بالإبداعِ فيه. وقد أرادَ اللهُ -تعالى- لهذه الأمةِ أن تبُلِّغَ في بيانها وسُمُوَ أشعارها ما بلغتهُ من استواءِ العُودِ، ورفعةِ القَدْرِ، وعلوِّ الكعبِ، ثُمَّ نَزَلَ القرآنُ مُعْجَزَةً

(1) ن: دروس في الألسنية العامة، فرديناند دي سوسير، الدار العربية للكتاب، 1985، ص: 10-14-22، والقراءة والحدثاء، حبيب مُنسي، (م)، ص: 211، والمسبار في النقد الأدبي، حسين جمعة، اتحاد الكتاب العرب، 2000 م، ص: 9، والنقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، عبد الله أبو هيف، (م)، 70/2-74.

تُعْجِزُ بُلْغَاءَ الْعَرَبِ، وَخُطْبَاءَهَا، وَشِعْرَاءَهَا، وَحِجَّةً عَلَى النَّاسِ كَافَةً، عَلَى أَنَّ مَدَارَ التَّحْدِي وَمُضْمَارَ التَّفُوقِ هُوَ -أَوَّلًا- فِي إِعْجَازِ نَظْمِهِ وَجَمَالِ لُغَتِهِ: فِي كَلِمَاتِهِ وَأَسَالِيْبِهِ. وَمِنْ هُنَا نَفْهَمُ أَنَّ سِرَّ رُقِيِّ التَّعْبِيرِ الْفَنِيِّ فِي أَيِّ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِهِ إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَسْتَوَاهُ مِنَ الْجَمَالِ وَالتَّأثيرِ أَي بِتَوَافُرِ سِمَاتِ وَخِصَائِصِ النِّسْقِ الْإِبْدَاعِيِّ فِي مَادَتِهِ وَمَدَى قَدْرَتِهِ عَلَى إِحْدَاثِ دَهْشَةِ السَّامِعِ أَوْ الْقَارِئِ الَّتِي تُوَدِّي إِلَى لَحْظَةِ الْإِسْتِعْرَاقِ. إِنَّهَا الْقِمَّةُ الْعُلْيَا فِي أَعْلَى ارْتِفَاعَاتِهَا الَّتِي يَبْلُغُهَا التَّعْبِيرُ الصَّادِقُ الْجَمِيلُ عِنْدَمَا تُصِيبُ الْإِنْسَانَ قَشَعْرِيرَةُ التَّلْقِي الَّتِي هِيَ أَعْلَى مِنْ لَحْظَةِ التَّذْوِقِ؛ لِأَنَّهَا تَعْكِسُ حَيْنَ التَّلْقِي وَحَرَكَةَ رُوحِهِ وَتَسَامِيَهَا إِلَى الْأَعَالِي.

إِذَنْ، فَالنَّقْدُ الْحَقِيقِيُّ أَوْ الْبَحْثُ الْجَمَالِيُّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُضْحِيَ بِلَانْهَائِيَّةِ اسْتِكْشَافِ أَسْرَارِ النَّصِّ أَوْ عُمُقِ فِحوَاهِ الْجَمَالِيِّ فِي سَبِيلِ مَغَامَرَةٍ تَتَابَعَتْ فِصُولُهَا: تِلْكَ هِيَ فِصُولُ النَّقْدِ التَّنْظِيرِيِّ فِي الْغَرْبِ وَمَا أَسْفَرَتْ عَنْهُ الْبِنْيُويَّةُ وَمَوْجَاثُ الْحَدَاثَةِ الَّتِي عَمَلَتْ -عَنْ غَيْرِ قِصْدٍ- عَلَى تَجْفِيفِ مَنَابِعِ الْجَمَالِ بِالْإِبْتِعَادِ عَنِ إِبْدَاعِيَّةِ الرُّوْيِ النَّقْدِيَّةِ، حَيْثُ قَطَعَتْ صِلَتَهَا بِالْمَشْرُوعِ النَّقْدِيِّ فِي الْغَرْبِ الَّذِي تَبَلَّوْرَ خِلَالَ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشْرٍ وَمَطَالَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ فِي أَعْمَالِ نُقَّادِ كِبَارٍ مِثْل: كُولَرْدِج، وَت. س. إِيْلُوت، وَرْتَشَارْدِز فِي كِتَابِيْهِ: مَبَادِي النَّقْدِ الْأَدْبِيِّ، وَمَعْنَى الْمَعْنَى... (1)

إِنَّ النِّزْوَعَ إِلَى التَّنْصِيْفِ، أَوْ الْإِحْصَاءِ، أَوْ الْوَصْفِ بِالْمُطْلَقِ لَهُ امْتِدَادَاتُهُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي تَصِلُ إِلَى عَصْرِ الْيُونَانِ وَفِكْرِ أَرِسْطُو بِمَنْطِقِهِ الصُّورِيِّ الَّذِي أَثَّرَ عَلَى الْحَضَارَاتِ التَّالِيَةِ (2) عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَرِسْطُو كَانَتْ لَهُ مَفَاهِيمُ تَتَّصِلُ بِالْإِحْسَاسِ

(1) ن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ستانلي هايمان، دار الثقافة، 1960، 17/1-23-25-132-117/2. لو ترك الأمر لسيرة الشرق القديم ورواه المشرقة في الأسطورة والشعر... بحيث يتنامى هذا الاتجاه التاريخي ليشمل الحضارات التالية، لكان مصير الثقافة الأدبية أكثر انسجامًا مع ما يريد الفن والأدب وما نريد نحن منهما.

(2) ن: هامشي: (1-2) -ص: 48 من هذه الدراسة.

بوظيفة الفنّ والأدب من خلال حديثه عن المحاكاة باعتبارها نظريةً في التصوير الفني، وعن فكرة التطهير في تفسير الأدب أو العملية الأدبية باعتبار التطهير كما يراه أرسطو - متنفساً للعواطف ومُحقِّقاً للسكينة الوجدانية. (1).

ويتجدد النزوع العقلي في تناول الأدب في التراث العربي في عصر السكاكي، وابن الأثير، والعلوي. حيث عني السكاكي بالتصنيف وإحداث التقسيمات والعناوين محدودة الإطار مع العناية بالشكل في كتابه: مفتاح العلوم (2) الذي كان مقدّمةً من مقدّمات عصر الجمود، حيث ضعفت صلته - كما تقدّم بخصوص النقاد في الغرب - بالمساحات المشرقة في أعمال أعلام أنتجوا في مجال البلاغة والنقد مستوى رفيعاً من الرؤية المبتكرة. وذلك من خلال إسهامات مضيئة في القديم في أعمال الجاحظ، وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، وحازم القرطاجني؛ فقد مثّلت هذه الإشراقات مناطق من اليقظة والإحساس بضرورة وفاعلية النقد الجمالي والفنّ وأثره على النفس والشعور. مع احتفاظ العلوي، والسكاكي، وابن الأثير بملكة متميزة في التحليل البلاغي للغة القرآن.

لقد كان علم الجمال في تطبيقاته (3)، ودراسات الخيال، وكثير من ممارسات التحليل النفسي الأدبية - وخاصة بعد فرويد - (4) تجليات حقيقية لمفهوم التذوق والإحساس بالقيم المعنوية والتصويرية. ولو استمرت هذه الأنساق النقدية والجمالية في دراسة النصّ الإبداعيّ دون أن تعترضها موجات التنظير التي لا تحتفي بالتطبيق العمليّ المستبصر،

(1) ن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، 17/1-25-132.

(2) ن: جمالية الخبر والإنشاء، حسين جمعة، اتحاد الكتاب العرب، 2005، ص: 19-20-22، والبلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، 1976، ص: 221-271-288.

(3) "علم الجمال أحدث فرع من فروع الفلسفة. وقد أُعطي الاسم الخاص به الذي استُخدم لأول مرة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. بيّد أنّ الفلاسفة - ابتداءً من قدامى الإغريق، وحتى العصر الحالي - ناقشوا فلسفة الفن"، الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: علم الجمال=Aesthetics. ن: أسئلة الحداثة بين الواقع والشطح، ميخائيل عيد، (م)، ص: 132، وعلم الجمال، بنديتو كروتشه، المطبعة الهاشمية، 1963، ص: 71، وعلم الجمال، داني هويمان، الشركة الوطنية للنشر، 1972، ص: 11-14-37.

(4) ن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، 248/1-260.

لكان الإسهام النقدي والأسلوبي اليوم أكثر انسجاماً مع طبيعة الأدب في نصوصه الرفيعة.

وبناءً على هذه الرؤية والتصوّر النظريّ لقيمة النقد الجماليّ نشأت فكرة القيم المعنوية؛ ولتتأسس هذه الدراسة -وفق مقتضيات النظرة الجمالية إلى الإبداع عمومًا، وإلى النصّ القرآنيّ بخاصة- ضمن القراءة التي تحاول أن تستمدّ أسرار التعبير في الآية القرآنية عبر دراسة العنصر الأساسيّ في سياق الجملة القرآنية -وهو الكلمة- لا ضمن حدودها الضيقة؛ بل اعتمادًا على دلالاتها المستمدّة من اكتناز القيمة المعنوية وكثافة الدلالة ذات الأبعاد والإحياء وفق طبيعة التأثير النوعيّ للأداء القرآني، واعتمادًا على الارتباطات السياقية للكلمة أي أنّ السياق لا يمكن أن يُغفل، أو يُستبعد من اهتمامات الباحث لأهمية دراسة العلاقات التي تنشأ من اتصال الكلمة بالسياق، وهو قانون التجاور الذي يقضي ببحث اتصال الكلمات ببعضها⁽¹⁾ واستمداد المعنى ممّا يتحقق من إسهام كلّ عنصرٍ في بناء السياق أو الخطاب.

ودراسة العنصر المفرد أي الكلمة يُعدّ نسقًا منهجيًا يُحقّق إتاحة أكبر مجالٍ ممكنٍ في إطار تأمل خصائص النصّ وسماته الأولية التي تُشكّل مع غيرها من السمات الدلالة الكبرى، أو السياق في مستواه العام، حيث ينتهي إليه البحث ضرورةً لاستخلاص أهمّ الممكنات الفنية التي يُسفر عنها النصّ.

وممّا يُعزّد الاتجاه نحو دراسة الكلمة القرآنية باعتبارها عنصرًا إفراديًا قدسيّة هذه الكلمة وفرادتها أي أنّ لها من عوامل القوة والتميز ما يأتي داعمًا لاتجاه البحث في دراستها وتأمّل وظيفتها وأسرار الأداء فيها.

ولا يمكن حصر الأبعاد البلاغية والجمالية للكلمة القرآنية، إذ هي مُجَدِّدة مُتَوَعِّة في الأداء. ولكلّ كلمةٍ في سياقها جوانبٌ تخصّها، أو تُميّزها عن غيرها. فللمفردة التي تُمَثِّلُ

(1) ن: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمد الداية، مكتبة سعد الدين، 1987، ص: 364.

قيمةً أو قِيَمًا معنويةً مُعْجَمِيَّتُهَا، وتركيبُها، وصياغَتُها، ودلالاتُها، ومستوياتُها اللغوية، وتأثيرُها، وارتباطاتُها، وعمقُها، وإيحاءُها، وظلالُها. وقد تُكوِّنُ لها قوتُها الإشارية، أو رمزِيَّتُها.

وقد رأيتُ في مُصطلحِ القيمة، أو القِيَمِ ما يُمثِّلُ كُلَّ هذه الجوانبِ وغيرها مما لا تُؤدِّيهِ مصطلحاتُ أخرى، مع تَضَمُّنِ هذا المصطلحِ لفكرةٍ أو مضمونِ الجمالِ الفنيِّ الذي تُقوِّمُ عليه هذه الرؤيةُ لمجالاتِ دراسةِ الأسلوب، وسماتِهِ، وتطبيقاتِهِ.

وأما الوصفُ بالمعنوية: (القيمِ المعنوية)، فهو يُشيرُ إلى دَوْرانِ الدراسةِ حولِ خصائصِ التعبير، وأبعادِ المعنى، ودلالاتِ الصياغة، وهو ما يُعَدُّ امتدادًا لفكرةِ علمِ المعاني الذي جعله السكاكِيُّ أولَ علومِ البلاغةِ الثلاثة: المعاني، والبيان، والمُحَسِّناتِ اللفظيةِ والمعنوية، مع إمكانِ الاعتراضِ على إفرادِ المُحَسِّناتِ البلاغيةِ بعلمٍ مستقل. حيثُ كان ينبغي أن تُدرَجَ في سلكِ علمِ المعاني لكونِها أنواعًا معنويةً في حقيقةِ الأمر. وهكذا كان من الأوفقِ تقسيمُ البلاغةِ إلى فرعين، هُما: المعاني، والبيان، وبعبارةٍ حديثة: القيمِ المعنويةِ أو خصائصِ التعبير، والصورةُ الفنية. ولا أقصدُ في هذه الدراسةِ إلى تحليلِ النصِّ القرآنيِّ وفق مباحثِ علمِ المعاني التقليدية؛ لأنَّها تُعنى بالمستوى التركيبِيِّ في أغلبِ الأحيان، كمباحثِ القصر، والإسناد، والإيجاز... ولا تدرُسُ العنصرَ الإفراديَّ إلا في حدودِهِ الضيقة، كما في مباحثِ التعريفِ والتكثير، أو تناوُفِ الحروف، أو فصاحةِ الكلمة. وهو -فيما أرى- المبحثُ الأقربُ إلى مجالاتِ علمِ اللغة. وأعملُ في هذه الدراسةِ على استحداثِ مجالِ بلاغيِّ جماليِّ يتعلَّقُ بوظائفِ الكلمةِ وصيغِها الأسلوبيةِ في مبحثِ مُستقلِّ أُقَدِّمُ من خلاله بعضَ التصوراتِ والتحليلِ لِنَمَازِجِ أقومُ باختيارها للدراسةِ والتطبيق. وتبتعدُ الدراسةُ عن مجالاتِ الصورةِ الفنيةِ ووسائلِ تشكيلِها في النصِّ القرآنيِّ لكونِ الصورةِ تستقلُّ بذاتها عن قِيَمِ المعنى حسبَ التصوُّرِ العامِّ لعلماءِ البلاغةِ قديمًا وحديثًا.

والصورة الفنية في القرآن نهج معرفي عُيِّنَ بالبحث فيه ودراسته رسائل علمية تنوعت في منهجياتها ومداخلها المعرفية. (1)

ومن آليات القراءة التي أعتدّها توظيف المعارف الداعمة لفهم وسبر أسرار التعبير القرآني، إذ أنّ الكلمة القرآنية في سياقها ذات ارتباطات موضوعية، فقد ترتبط بالمنحى التاريخي، أو الاجتماعي، أو السياسي، أو العلمي الطبيعي... وهذا - باعتبار شمول القرآن واتساع دلالاته - يتطلب توظيف الدعم المعرفي في حدوده الممكنة لغاية إرساء الدلالة المعنوية المؤسسة.

هذا إلى جانب استعمال الوسائل أو العلوم الموازية للنسق التعبيري، وهي النحوية، والصرفية، والصوتية، والدلالية....

وإعجاز القرآن في بيانه ونظمه هو الأصل الأصيل الذي ينتمي إليه كلُّ كتابٍ يبحَثُ في أسرار إعجاز هذا الكتاب العظيم. وهذه الدراسة - كذلك - تنهل من هذا المعين الكريم. ومن هنا تعدّدت المداخل التي تناولت من خلالها هذا المعنى أي معنى إعجاز القرآن بنظمه وبيانه في بعض فصول هذه الدراسة.

وبالنظر إلى الدراسات السابقة التي أفاد البحث منها على مستوى الأسلوب والتطبيق، فإنّها تتلخّص في ثلاثة كُتُب: تفسير الكشاف للإمام الزمخشري،⁽²⁾ وتفسير التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور،⁽³⁾ وكتاب الكلمة والمجهر د. أحمد درويش.⁽⁴⁾ لقد كان لهذه الكُتُب وغيرها أعظم الأثر في دعم الاتجاه التحليلي الجمالي الذي تبنّيته في كتابة مباحث هذه الدراسة، مع عملي على التوسع في الاستمداد من القراءات الفنية المتنوعة لغاية تحقيق الشمول على المستويين المعرفي والجمالي.

(1) ن: التصوير الفني لمشاهد الطبيعة في القرآن، عادل مصطفى الكور، ر.

(2) دار الكتاب العربي، 1987.

(3) الدار التونسية، 1984.

(4) دار الشروق، 1996.

أُتبنى في هذه الدراسة من بين مناهج البحث العلمي المنهج الوصفيّ التحليليّ الذي يقوم في تصوري لفكرة هذا البحث على تحليل النصّ على مستوى العنصر الإفراديّ أي الكلمة، وذلك بعد القيام بعملية الوصف. والكلمة المقصودة هي المختارة للبحث والتأمل باعتبارها قيمةً معنويةً تؤدي وظيفة، وترتبط بمجموعة علاقات أي أنّ لها ارتباطات سياقيةً قابلةً للتحليل وصياغة دلالاتها الناشئة عن انتظامها في السياق العام.

يُعدّ الوصف والتحليل منهجيةً مثلى في سبر السمات المعنوية، ومقارنة المفردة ببدايتها المستبعدة، وإدراك مدى ما تحويه من دلالات وإيحاءات يُجلبها الاستطراد والتتبّع بحيث ترتسم الصيغة النهائية للتعريف الجماليّ وقد تبلورت من خلالها مميّزات النصّ وطاقاته المعنوية المُفعمّة في شكل إضاءات أو مضامٍ مشعة.

تنقسم الدراسة إلى مُقدّمةٍ وبابينٍ وخاتمة:

تستعرض المُقدّمة الرؤية الجمالية التي يتبنّاها الباحث، وتقوم عليها أبحاثه التطبيقية.

يتناول الباب الأول قيم التعبير اللغويّ للكلمة القرآنية من خلال رصد ما تُسفر عنه عملية الفحص الجماليّ من مدلولات وإيحاءات ذات تأثير خاص. وذلك بالاستفادة من معطيات علوم اللغة من نحو، وصرف، وأصوات، ومُعجم.

أقوم في الفصل الأول بدراسة الحرف ابتداءً من الحروف المُقطّعة التي في أوائل السور التي تبتدئ بها، ثم حروف الجرّ باعتماد دلالاتها المعنوية التي قام علماء النحو بتصنيفها، والحروف البليغة التي استحدثت لها هذه التسمية، وهي التي يُطلق عليها أكثر العلماء قديمًا وحديثًا مصطلح الحروف الزائدة، وأحيانًا تدعى حروف الصلة. وقد آثر هذه التسمية -أي الحروف البليغة- لدقة مدلولاتها وخفاء دورها المعنويّ في بناء السياق. ومن المباحث الدقيقة في هذا الفصل دراسة الدلالات الصوتية للحروف، وسأبحث -هناك- القيم المعنوية لهذه الدلالات من خلال نماذج تُعرض قراءتها إلى أثر الدلالة الصوتية للكلمة القرآنية.

ومن ثمّ تنتقل الدراسة في الفصل الثاني إلى بحث الأنماط الاسمية أو المجردة أي المصادر التي أقومُ بتناولها باعتبارها أنماطاً أساسيةً تكتنرُ بالمعاني البلاغية والمفاهيم المُتممة للمعنى المثيرة للأفكارِ والتصوراتِ التي تمثّل في جملتها بناءً عامّاً وسياقاً كليّاً. وبالانحيازِ إلى شيءٍ من الحركةِ وجوانبِ التصويرِ تتجه الدراسةُ عبْرَ الفصلِ الثالثِ إلى عالمِ المشتقاتِ حيثُ تتعدّدُ عن طبيعةِ السكونِ في الأنماطِ المصدريةِ إلى الصورةِ ذاتِ الحركةِ التصويريةِ الحيويةِ من خلالِ دراسةِ الاسمِ المشتقِّ معِ وفرةِ الاستنتاجاتِ المصاحبةِ. وأخيراً - فيما يتعلق بهذا الباب - تنعطف الدراسةُ إلى بحثِ ما يختصُّ بالاسمِ المبنى وفق دلالتهِ البلاغيةِ الخاصةِ التي تثري السياقاتِ التي تَرُدُ فيها هذه التراكيب - أي الأسماءِ المبنية - بجمالياتها التعبيرية.

في أعطافِ البابِ الثاني أتجّه إلى دراسةِ القيمِ الأسلوبيةِ للكلمةِ القرآنيةِ قريباً من معطياتِ البحثِ الأسلوبِيِّ الحديثِ في مظاهرهِ الجماليةِ المُشرقةِ التي تجلّت في كتاباتِ الأسلوبيين المتيقّظين لمهّمةِ الفنِّ ووظيفةِ الأدبِ، وبخاصةِ في كتاباتِ النُقّادِ العربِ المُحدّثين أصحابِ القراءةِ الجماليةِ.

في ثنايا الفصلِ الأوّلِ أقومُ بتحليلِ نماذجٍ وفقِ وظائفِ الكلمةِ وصيغِها الأسلوبيةِ. وفي الفصلِ الثاني أعمدُ إلى تناولِ الكلمةِ على مستوى فضاءاتها التي تشمل قيمَ الزمانِ والمكانِ. والفصلُ الثالثُ يقومُ ببحثِ الرمزِ وفاعليتهِ في إحداثِ الطفرةِ المعنويةِ. وأخيراً أنهي الدراسةَ بالحديثِ عن الدلالةِ الموضوعيةِ. والموضوعُ إطارٌ واسعٌ تتعدّدُ نماذجُه بتعددِ موضوعاتِ القرآنِ. وقد اخترتُ في هذا السياقِ مسألةَ التطوُّرِ الدلاليِّ لكلمةٍ تُمثّلُ نموذجاً قرآنيّاً، ثمّ توجّهتُ إلى دراسةِ نماذجٍ تتعلّقُ بجانبٍ من عالمِ السيرةِ النبويةِ، وأنهيتُ البحثَ بدراسةِ موضوعِ الدلالاتِ العلميةِ في الآياتِ الكونيةِ التي تتّصلُ بظاهرتي الليلِ والنهارِ وفقِ سلسلةِ الدقائقِ والإشاراتِ حَسَبِ ما يستنتجُه البحثُ من السياقِ المعجزِ. وأمّا الخاتمةُ، فتتضمّنُ أهمَّ الاستنتاجاتِ والرؤى المستقبليةِ التي ينتهي إليها الباحثُ.

ومن منهجي في البحث أن أضع -في الأغلب- عَقَبَ كَلِّ عنوانٍ رئيسٍ أو فرعيٍّ نموذجًا قرآنيًا -للقيام بقراءته بلاغيًا - يتكوَّن من آية، أو آيتين، أو أكثر. وقد أقومُ بإضافة آيةٍ أو آياتٍ تتناسبُ في موضوعِها مع موضوعِ النموذجِ الأساسي، أي أنها تتصلُّ به اتصالًا مباشرًا، ويُمثِّلُ تحليلُها بلاغيًا إضافةً جوهريَّةً إلى سياقِ الموضوع. مع ملاحظة اتِّصالِ بعضِ نماذجِ التحليلِ في السُّورِ المختلفةِ مع آياتٍ مِنَ الفاتحةِ، والبقرةِ أي سُوْرِ القرآنِ الأوائلِ، إذا اقتضى الظرفُ الموضوعيُّ ذلك.

وقد حاولتُ أن أوائمَ بين الطبيعةِ الاصطلاحيةِ والطبيعةِ الموضوعيةِ للعناوين، وبخاصةٍ في البابِ الأولِ، فالعناوينُ الرئيسيَّةُ اصطلاحيةٌ، والعناوينُ الفرعيةُ موضوعيةٌ، والعناوينُ الموضوعيةُ تعني أن كُلاً منها يُمثِّلُ جانبًا من موضوعاتِ القرآن، كالقصةِ القرآنيةِ، والسيرةِ، والعقيدةِ، والأخلاقِ، والطبيعةِ الكونيةِ...

ويُمكنُ التمثيلُ لذلك بهذا المثال:

اللام: عنوانٌ اصطلاحِيٌّ رئيس.

مِمَّا اختصَّ اللهُ بهِ أَهْلَ التَّقْوَى: عنوانٌ فرعيٌّ موضوعي.

مِنَ قِصَّةِ الخُلُقِ: عنوانٌ فرعيٌّ موضوعي.

وفي ما يتعلَّقُ بمنهجيتي في إثباتِ بياناتِ المصادرِ والمراجعِ في الهوامش، فإنني حينَ أوردُ عنوانَ كتابٍ للمرةِ الأولى أثبتُّ أهمَّ البياناتِ بَعْدَ اسمِ الكتابِ على أن يكونَ هذا الكتابُ مطبوعًا أي صادرًا عن دارِ نشر. وهذه البياناتُ هي اسمُ المؤلِّفِ - دارُ النشر - تاريخُ الطباعة - رَقْمُ الصفحة. وعندما يردُّ مرةً أو مراتٍ تاليةً، أثبتُّ العنوانَ - ورقمَ الصفحة. وأمَّا الرسالةُ الجامعيةُ: (ماجستير - دكتوراه) فإنني أكتفي في أوَّلِ ورودٍ لعنوانِ الرسالةِ باسمِ الطالب، وأتبعُ ذلكَ بالرمزِ ر، ثمَّ رقمَ الصفحة. وإذا كانَ الكتابُ إلكترونيًا، أكتفي -في أوَّلِ ورودٍ له- بالعنوانِ، واسمِ المؤلِّفِ، ورقمِ الصفحة، وأشيرُ إلى كونهِ نسخةً إلكترونيَّةً بالرمز: (م). وفي حالِ كونِ المرجعِ صحيفةً، أو مجلةً، أو دوريَّةً أوردُ جميعَ

البيانات في الموضع الأول لورود العنوان. وفي حال تكراره أثبت العنوان، واسم الصحيفة
أو الدورية، ورقم العدد.

وعلى الله قصد السبيل، ولا معول إلا عليه سبحانه وتعالى.

1. الباب الأول: قِيمُ التعبيرِ اللغوي

1.1 الفصل الأول: الحروف والأدوات

111 المبحث الأول: الحروف المقطّعة

جاء في المُعْجَم الوسيط:

(الحرف): من كلِّ شيءٍ طرفُه وجانبُه، ويقال: فلانٌ على حرفٍ من أمره: ناحيةٍ منه.... ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾* ...ومن الدواب: الضامرة الصلبة. وكلُّ واحدٍ من حروفِ المباني... وتُسمى حروفُ الهجاء، وكلُّ واحدٍ من حروفِ المعاني، وهي التي تُدَلُّ على معانٍ في غيرها، وتربطُ بين أجزاء الكلام، وتتركبُ من حرفٍ أو أكثر من حروفِ المباني... والكلمة: يقال: هذا الحرفُ ليس في لسانِ العرب، واللغةُ واللّهجة. ومنه الحديث: [نزل القرآن على سبعةِ أحرفٍ] * والطريقةُ والوجه". (1)

وقد يُطلقُ الحرفُ على الاسمِ أو الفعل. ذَكَرَ في لسانِ العربِ أنّ أبا ترابٍ قال: "كنتُ سمعتُ من أبي الهُميسعِ حرفًا، وهو: (جَحَلْنَجَع)، فذكرته لِشَمِرِ بنِ حمدويه، وتبرأتُ إليه من معرفته". (2)

كان ابتداءُ سورةِ البقرةِ وسُورٍ أُخرى من القرآنِ بحروفٍ مقطّعةٍ مسرودةٍ سردًا متنوعًا إيدانًا بصريحِ التعجيزِ ومُطلقِ التحدّي، وهو ما تضمّنتهُ صراحةً- آيةٌ من آياتِ هذه السورة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. (3)

(1) أحمد الزيات وآخرون، دار الدعوة، د.ت. مادة: (حرف)، 167/1، * الحج، 11. ن: لسان العرب لابن منظور المصري، دار صادر، د.ت، 41/9، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، 1996، ص: 1032-1033. * والحديثُ في مسندِ أحمدَ بهذا اللفظ، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1995، 431/45، ن: صحيح البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، 1987، 851/2، وصحيح مسلم، تعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، د.ت، 560/1.

(2) مادة: (جحلنجع) 40/8، لم يوردُ ابنُ منظورٍ لهذا اللفظِ معنًى، وكذلك أهملهُ الزبيدي، ن: تاج العروس، دار الهداية، د.ت، 411/20.

(3) البقرة الآية: 23.

وحيث إنّ هذه السُّورة قد أتت تاليةً لفاتحة الكتابِ وديباجة القرآن، وحيث إنّها أولى السُّور الطُّوال، فقد لاءمَ أن يكونَ ابتداءُها مُتضمِّناً لمعنى التَّعجيزِ رامراً إلى عِظَم انحطاطِ همّةِ القومِ المُتحدِّينَ بنظمِ القرآنِ ونصاعةِ بيانه عن أن يأتوا بشيءٍ من مثله: آية، أو سورة، أو نحو ذلك...

لقد نزلَ القرآنُ في أمةٍ بضاعتها الكلام، وميادينُ نبوغها الفصاحةُ والبلاغةُ ونظمُ المعاني المتأخية في رائقِ المباني،⁽¹⁾ حتّى أنّهم جعلوا للشِّعرِ أسواقاً ومنتديات. وقد روي أنّهم أشادوا به أنماطاً معلّقات.⁽²⁾ وكانوا على يقينٍ أنّهم أربابُ الشِّعرِ والخطابة، وأنّهم أهلُ النجابة في البيان. قد فاقوا الأمم الأخرى التي انبرت لغيرِ هذه الأقاليم، ونبغت فيما عداها من أنماطِ العمرانِ والحضارة.⁽³⁾

وإنّما مادّةُ القرآنِ قد حيكتُ أنماطها من هذه الأحرف، وصيغت طرائفها منها، وهم متوافرون على اللُّغة: كلماتٍ وأساليب، ثمّ إنّهم أهلُ جدال، ومحاجّة، ولَدَدٍ في الخصومة، فما هذا العيُّ الذي انتابهم، وهذا الرهقُ الذي أصابهم؟ حتّى كأنّهم عمّوا، وصمّوا، وذُهلوا عن المُناقضة. ثمّ إنّ من عجيبِ أمرهم أن يشهدَ للقرآنِ رجلاً منهم، ومن أعظمهم جاهاً، وعناداً، ومناكفة، وهو الوليدُ بن المُغيرة.⁽⁴⁾ وكما أنّ هذه الأحرفَ وغيرها هي مادّةُ القرآنِ

(1) ن: المعجم المُفصّل في علوم البلاغة، إنعام عكاوي، دار الكتب العلمية، 1992، 430/6.

(2) ن: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، 1984، ص: 581.

(3) ن: البيان والتبيين، الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، الخانجي، 1988، 384/1، ومصادر اللُّغة، عبد الحميد الشلقاني، المنشأة العامة، 1982، ص: 31، ونظرية التراث، فهمي جدعان، دار الشروق، 1985، ص: 18. يقول لسان الدين بن الخطيب عن الشعر: "إلا أنّهُ في سجية العربِ أنْهَر، وهُم بِهِ أشْهَر؛ ولذلك يقول بعضُ حكماءِ الفرس: الشُّعْرُ حليّةُ اللسان، ومدرّجَةُ البيان، ونظامٌ للكلام. مفهومٌ غيرٌ محظورٍ ومُشترَكٌ غيرٌ مقصور؛ إلا أنّهُ في العربِ جوهرِي، وفي العجمِ صِناعِي"، رِيحانةُ الكُتّابِ وَجُعةُ المُنتابِ، ت: محمد عنان، الخانجي، 1980، 28/1، والمدرّجَةُ: مررُ الأشياءِ على الطريق، والأمرُ المُتوصّلُ به إلى غيره، ن: لسان العرب، مادة: (درج)، 266/2. راجعُ الرسالة الشافية، عبد القاهر الجرجاني، ت: محمد خلف الله- محمد زغول سلام، دار المعارف، 1976، ص: 118، ودراسات في علوم القرآن، محمد بكري إسماعيل، دار المنار، 1999، ص: 205 وما بعدها.

(4) ن: الشِّفاً بتعريفِ حقوقِ المصطفى، القاضي عياض، دار الفكر، 1988، 262/1، ومستدرك الحاكم، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1990، 550/2.

الَّذِي هُوَ مَعْجَزَةُ الْأَعْصَارِ، وَسِرَاجُ الْعُقُولِ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَإِنَّهَا -أَيْضًا- أَسُّ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ وَثَمَرَاتُ الْأَقْلَامِ النَّاطِقَةِ عَنِ الْأَبَابِ وَالْأَخْذَةِ عَنِ أَهْلِ الدِّرَايَةِ وَالزَّرْكَانَةِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ الْفُنُونِ الرَّائِقَةِ وَالْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالتَّجْرِبَةِ مِنْذُ بَوَاكِرِ نَهْضَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ سُبَاتِ الْبِدَائِيَّةِ الْمَفْتَرِضَةِ⁽¹⁾ بَعْدَ الْهَدَايَاتِ الْأُولَى، كَمَا قَدْ يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛⁽²⁾ وَلِذَلِكَ اعْتَبَرَ الْقُرْآنُ تِلْكَ الصِّلَةَ بَيْنَ نَتَاجِ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ وَبَيْنَ وَسِيلَةِ الْكِتَابَةِ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.⁽³⁾

وهذا الابتداءُ البديعُ -بعد فاتحة الكتاب- أَكَّدَ عَلَى أَهْمِيَّتِهِ، وَعَلَى عَمِيقِ مَعَانِيهِ ابْتِدَاءَ السُّورَةِ الَّتِي تَلِي سُورَةَ الْبَقَرَةِ -وهي سورة آل عمران- بهذه الحروفِ ذاتها. وهي أَحْرَفٌ تُعَبِّرُ لِلنَّاطِقِ فِيهَا عَنِ اسْتِعَابِهَا ثَلَاثَةَ مَخَارِجَ مِنْ مَخَارِجِ النُّطْقِ الَّتِي قَسَمَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى عَشْرَةِ أَقْسَامٍ.⁽⁴⁾ فَالْأَلِفُ جَوْفِيٌّ هَوَائِيٌّ بِاعْتِبَارِ الْمُسَمَى، وَحَلْقِيٌّ أَوْ مِزْمَارِيٌّ بِاعْتِبَارِ أَنَّ أَوَّلَ حُرُوفِ الْمَنْطُوقِ هُوَ الْهَمْزَةُ، كَمَا يَظْهَرُ مِنْ تَلَاوَةِ الْآيَةِ. وَقَدْ يَنْصَرَفُ مَعْنَى هَذَا الْاسْمِ: (أ) فِي الْآيَةِ إِلَى الْهَمْزَةِ. وَذَلِكَ إِذَا افْتَرَضْنَا أَنَّ الْأَلِفَ مَتَّسَعَةٌ الدَّلَالَةِ فِي

(1) ن: تاريخنا، الصادق النيهوم، 1976، 20/1.

(2) التين، 3-6.

(3) القلم، 1. ن: تفسير ابن كثير، ت: سامي سلامة، دار طيبة، 1999، 187/8، وت ت ت: تفسير التحرير والتنوير، الإمام الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، 1984، 60/29، والكتاب والقرآن، محمد شحرور، دار الأهالي، د.ت، ص: 298.

(4) الأحرف الحلقية: الهمزة- الهاء- العين- الحاء- الغين- الخاء. اللهوية: القاف- الكاف. اللهاة: تقع بين الحلق والغم. الشجرية: الجيم- الشين- الياء غير المدية بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى. الذلقية: اللام- النون المظهرة- الراء. ذلق اللسان: طرفه). النطعية: الطاء- الدال- التاء. النطع: سقف غار الحنك الأعلى. الأسلية: الصاد- السين- الزاي: ما بين رأس اللسان وصفحتي التئبتين الغلويتين. اللتوية: الطاء- الدال- التاء: لخروجها من قُرب اللثة. الشفوية: الفاء- الباء- الميم- الواو غير المدية. الخيشومية: النون الساكنة- النون والميم المشددان. الجوفية أو الهوائية: الألف- الواو الساكنة المضموم ما قبلها- الياء الساكنة المكسور ما قبلها. الجوف: فراغ الحلق والغم. ن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص: 44-45، ولسان العرب: المواد: (لهو- ذلق- نطع- أسل)، 14/11-357/8-109/10-258/15.

سياق الآية. وقد اعتبر الخليل كلاً من الألفِ والهمزة حرفين هوائيين. (1) واللّامُ ذَلَقِي، وهو بهذا يكاد يتوسّطُ أقسامَ المخارجِ العشرة. والميمُ شَفَوِيٌّ أَي أَنَّهُ وَقَعَ فِي مَنتهى القنَاةِ النُّطْقِيَّةِ. (2)

وأسماءُ الحروفِ الَّتِي فِي فَوَاتِحِ السُّورِ الْمُبتَدَأَةِ بِهذه المُقَطَّعَاتِ المرقومةِ هي نصفُ أسامي المعجمِ على اعتبارِ أَنَّ أَحرفَهُ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ حرفاً. وَإِنْ كَانَ اعتبارُها تسعةً وَعِشْرِينَ هو المشهور. (3) وقد يشقُّ لِلأوَّلِ التقاربُ بين الألفِ المُجَرَّدَةِ والألفِ المهموزةِ فِي الخط، وفي بعضِ الاستعمال. وقد وَرَدَتْ هذه الأحرفُ فِي تسعِ وعشرين سورة. وفيها من الأحرفِ المهموسةِ نصفُها، ومن المجهورةِ نصفُها، ومن كلِّ صِنْفٍ من أصنافِ الحروفِ قَدْرُ النِّصْفِ. وهذه الأصنافُ غَيْرُ ما تَقَدَّمَ: الشَّديدة، الرَّخوة، المُطَبَّقة، المنفتحة، المستعلية، المُسْتَقَلَّة، وأحرفُ القلقة. (4)

وهذا النَّسَقُ فَرِيدٌ فِي بابِ الإعجازِ وَشَاهِدٌ لِلبناءِ المُحْكَمِ فِي هذا الكتابِ الكَرِيمِ، وهو -على ذلك- نَمَطٌ عَجِيبٌ، وسَلَكٌ غَرِيبٌ، ونَهْجٌ فَارِهٌ، وأسلوبٌ رائقٌ، وَسَمْتُ بَارِعٌ أُنِيقٌ. وهي مُنْدرِجَةٌ تحتِ حدِّ الاسمِ بِدليلِ ما يعْتَرِيها من عوارضِ الاسميَّةِ (5) كالتعريفِ، والتَّنْكِيرِ، والتثنيةِ، والجمعِ، والتصغيرِ، والوصفِ، والإسناد... إلى سِوَى ذلك من

(1) ن: معجم العين، ت: إبراهيم السامرائي، دار الهلال، 1988، 58/1.

(2) ن: خصائص الحروف العربية ومعانيها، ص: 44-45.

(3) راجع في ذلك: ت ت ت، 216/1.

(4) الأحرفُ المجهورةُ ضِدُّها المهموسةُ، والمهموسةُ عشرةٌ يجمعُها: (سكت فحثه شخص). والحروفُ الرَّخوةُ، وهي ضِدُّ الشديدةِ والمتوسطةِ: (س- ف- ح- ث- ش- خ- ص- ذ- غ- ض- ر- ظ). والشديدة: (أجد- قط- بكت). والمتوسطة: (لن عمر)، والحروفُ المُسْتَقَلَّةُ: (قط- خص- ضغط). والمُطَبَّقةُ: (ص- ض- ط- ظ). والمنفتحة: ما خلا المُطَبَّقة، وحروفُ القلقة: (قطب- جد)، ن: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، تصحيح: علي الضباع، دار الكتب العلمية، د.ت، 228-229، واللباب في علل البناء والإعراب، محب الدين العكبري، ت: غازي طليمات، دار الفكر، 1995، 466/2.

(5) ن: نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، هادي مطر الهلالي، عالم الكتب، 1986، ص: 25-44-82.

خصائص الأسماء. وقد تسامح بعض المتقدّمين والمتأخّرين، فاعتبروها حروفًا -رُبّما- لاعتبار ما للخَطِّ من دلالة. (1)

ويُطلَق على اللغة من لغات القرآن حَرْف. (2) وهذه اللغات هي قراءات القرآن لكون الاختلاف بينها مداره على حرف في الأعمّ الأكثر. (3)

وهذه المقطّعات مسرودة على نمط التّعديد إيقاظًا لقواتر الهمم؛ وقرعًا للعصا؛ وإزعاجًا لربابنة المحاورة؛ وتنبهًا وإشعارًا لهم بأنّ القرآن إنّما هو مُنتظم من عين ما يُنظّمون منه كلامهم، فما خروجه عن طوقهم في تأليف الكلام إلاّ لأنّه وحي من العزيز العلّام، فهُم عاجزون عن المعارضة بما يدانيه، بلّه بما يساويه! (4)

هذه الأنماط المستحسنّة يُعدّ تصدير سور من سور القرآن بها دعوة للنظر والتفكير في مراميها، ولأيّ شيءٍ وردت هذه الموارد؟ ومن عساه يحظى من أهل التفسير، والبلاغة، والنظر بغاية نوالها ومنتهى الرجاء من فهم عضالها.

ولا يُنطق بهذه الأحرف إلاّ على حال السكّت، وهي الحال التي تُعامل مُعاملة الوَقْف. (5)

وهذه الأحرف أغفال عن سمة الإعراب؛ لأنّها ساكنة الأواخر أيّ أنّها لم تعترها العوامل، كما أنّها غير عاملة فيما أرى.

(1) ن: ت ت ت، 207-206/1، والكتاب لسبويه، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل، 1993، 320/3.

(2) ن: ت ت ت، 57/1.

(3) ن: لسان العرب، 41/9.

(4) ن: تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث، د.ت، 22-21/1، وتفسير الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي، 1987، 29/1، وإعجاز القرآن للباقلاني، دار المعارف، د.ت، ص: 31.

(5) السكّت أو انقطاع الصوت على مقطعٍ وقفة قصيرة فيما يُشبهه المفصل: (Juncture) الذي يُشير إليه المُحدّثون عند حديثهم عن الفونيمات فوق التركيبية هو انتقال (transition)، أو سكّتة خفيفة بين كلماتٍ أو مقاطع بقصد الدلالة على انتهاء جزء ما في السياق، كما في قوله -تعالى- من القيامة (28): ﴿وَقِيلَ مَنْ (س) رَاقٍ﴾، ومن المُطَفِّين (14): ﴿كَلَّا بَلْ (س) رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ن: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمّار، عالم الكتب، 1997، ص: 231، وإبراز المعاني من جزر الأمانى، أبو شامة المقدسي، ت: إبراهيم عوض، البابي الحلبي، د.ت، 566/2.

ولم تُدَبَّحْ سُورُ الْقُرْآنِ كُلُّهَا بِالْأَحْرَفِ الْمُقَطَّعَاتِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِخْلَالٍ بِشَرَطِ بَلَاغَةِ النَّظْمِ، فَتَصْدِيرُ أَنْمَاطِ الْكَلَامِ وَمِنْشآتِ النَّظْمِ بِاسْتِهْلالاتٍ أَوْ فَوَاتِحٍ مُتَغَايِرَةٍ هُوَ أَدْعَى لِنَعْتِ الْبَلَاغَةِ وَأَوْفَقُ بِأَسْسِ الْإِفْتِنَانِ فِي الْأَسَالِبِ وَتَنَوُّعِهَا، ثُمَّ إِنَّ الْمَبَاعِدَةَ بَيْنَ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ ذَاتِ الْمِرَامِي الْمَخْصُوصَةِ أَكَّدَ لِمَتَمَكَّنِ سَرِّهَا فِي تَبَكُّيْتِ الْمُقَارَعِينَ بِهَذَا السَّمْتِ الْمَعْجَزِ وَالْمَتَنِ الْمُبْهَرِ. كَمَا أَنَّ التَّبَاعَدَ بَيْنَ هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ أَنْكَى فِي مَلَكَاتِ الْقَوْمِ، وَأَنْفَعُ فِي الْمَحَزِّ، وَأَوْفَقُ لِلْمَبَاغِتَةِ، وَأَنْجَزُ لِلإِدْهَاشِ، وَأَظْهَرُ لِلتَّحْدِيِّ بَعْدَ تَشْرِيقِ الْقُرْآنِ بِهِمْ فِي عَجَائِبِهِ الْبَاهِرَةِ وَمَعَانِيهِ الرَّائِقَةِ.

وَأَمَّا عَنِ مَجِيءِ هَذِهِ الْفَوَاتِحِ عَلَى أَنْظِمَةٍ مِنَ الْعَدِّ مُخْتَلِفَةٍ أَيْ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ إِلَى خَمْسَةِ أَحْرَفٍ؛ فَذَلِكَ لِمَجِيءِ أُنْبِيَةِ كَلَامِهِمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ أَيْ أَنَّ بِنِيَةَ الْكَلِمَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ لَمْ تَتَجَاوَزْ هَذَا الْعَدَدَ، فَكَانَ هَذَا الْمَسْتَوَى مِنَ التَّرْمِيزِ نَكْتَةً بَلِيغَةً فِي تَحْقِيقِ الْمَسَاوَةِ فِي الْمَادَّةِ، ثُمَّ يَأْتِي عِظْمُ التَّفُوقِ فِي إِحْكَامِ النَّسْجِ، وَدِقَّةِ السَّبْكِ، وَرَوْنَقِ الصِّيَاغَةِ. (1)

"وَيَحْضُرُ لَنَا مِنْ أَغْرَاضِهَا -أَي سُورَةِ الْبَقْرَةِ- أَنَّهَا ابْتَدَأَتْ بِالرَّمْزِ إِلَى تَحْدِي الْعَرَبِ الْمُعَانِدِينَ تَحْدِيًا إِجْمَالِيًّا بِحُرُوفِ التَّهْجِيِّ الْمُفْتَتِحِ بِهَا رَمَزًا يُقْتَضِي اسْتِشْرَافَهُمْ لِمَا يَرِدُ بَعْدَهُ، وَانْتِظَارَهُمْ لِبَيَانِ مَقْصِدِهِ، فَأَعْقَبَ بِالنُّوْيَةِ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ، فَتَحَوَّلَ الرَّمْزُ إِيمَاءً إِلَى بَعْضِ الْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ الرَّمْزِ لَهُ أَشَدُّ وَقَعًا عَلَى نُفُوسِهِمْ، فَتَبَقَّى فِي انْتِظَارِ مَا يَتَعَقَّبُهُ مِنْ صَرِيحِ التَّعْجِيزِ الَّذِي سَيَأْتِي بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، فَعَدَلَ بِهِمْ إِلَى ذَاتِ جِهَةِ النَّوْيَةِ بِفَائِقِ صِدْقِ هَذَا الْكِتَابِ وَهَدْيِهِ". (2)

وَكُلُّ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ مَقْصُودٌ بِهَا الْإِعْجَازُ، حَتَّى إِنْ جَاءَتْ السُّورَةُ خَالِيَةً عَنِ هَذِهِ الدَّوَالِّ دَلَالَةً كِنَائِيَّةً. وَذَلِكَ مَصْدَاقُ التَّحْدِيِّ وَالتَّعْجِيزِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ. (3)

(1) ن: تفسير الكشاف، 21/1.

(2) ت ت ت، 203/1، * البقرة، 23، ن: من بلاغة القرآن، أحمد بدوي، نهضة مصر، 1950، ص: 230، ومنهجية البحث في التفسير الموضوعي، زياد الدغامين، دار البشير، 1995، ص: 118.

(3) ن: التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، حمدان محمد، جمعية الدعوة الإسلامية، 2002، ص: 350.

وللقرآن في هذه المُفْتَحَاتِ مزيدُ اختصاصٍ وتعلُّقٍ بالتَّعْرِيزِ بأهلِ المناوأةِ من فصحاءِ العربِ الذين يدعوهم القرآنُ مُستأنسًا لهم بمحاولةِ المعارضةِ بتَهْجِي الحروفِ استنطاقًا لهم وتعريضًا بهم، فهم يُلقَّنون بما يحاكي تهجِّي الصِّبْيَانِ في أوَّلِ تعلُّمِهِم بالكتابِ.

"وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمُبَرِّدُ، وَقَطْرُبُ، وَالْفَرَاءُ... وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ أَنَّ التَّهْجِيَّ ظَاهِرٌ فِي هَذَا الْمَقْصِدِ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ يَسْأَلُوا عَنْهُ لِظُهُورِ أَمْرِهِ، وَأَنَّ التَّهْجِيَّ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ لِلتَّعْلِيمِ، فَإِذَا ذُكِرَتْ حُرُوفُ الْهَجَاءِ عَلَى تِلْكَ الْكَيْفِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ فِي التَّعْلِيمِ فِي مَقَامٍ غَيْرِ صَالِحٍ لِلتَّعْلِيمِ، عَرَفَ السَّامِعُونَ أَنَّهُمْ عَوْمَلُوا مُعَامَلَةَ الْمُتَعَلِّمِ؛ لِأَنَّ حَالَهُمْ كَحَالِهِ فِي الْعَجْزِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ. وَيُعْضِدُ هَذَا الْوَجْهَ تَغْقِيبُ هَاتِهِ الْحُرُوفِ فِي غَالِبِ الْمَوَاقِعِ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِيلِهِ، أَوْ كِتَابَتِهِ". (1)

فكيف نفى الرِّيبِ على سبيلِ الاستغراقِ، وكم من مُرتابٍ فيه؟ إِنَّهُ -تعالى- ما نفى أَنَّ أَحَدًا لا يرتاب في القرآنِ. وإنَّما المنفيُّ كونه متعلِّقًا للرِّيبِ ومَظَنَّةً له؛ لأنَّه لوضوحِهِ وسطوعِ بُرْهَانِهِ بحيث لا ينبغي لأحدٍ أَنْ يرتاب فيه. (2)

(1) ت ت ت، 212/1-213.

(2) للاستزادة ن: الإعراب عند النحويين ونظرية العامل، عبد العزيز أبو عبد الله، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلام والمطابع، 1982، ص: 52 وما بعدها.

211 المبحث الثاني: من حروف الجر: (1)

1211 اللّام: (2)

11211 مِمَّا اخْتَصَّ اللَّهُ بِهِ أَهْلَ التَّقْوَى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾: (3)

يرى بعض النحاة أنّ الاختصاص هو من ألزم معاني اللام وأكثرها تعلقاً بهذا الحرف، فهو أولها عندهم بالتقديم. (4)

ومعنى الإلصاق معنى عامٌ يُرجع إليه بعض الدارسين معاني اللام كالاستحقاق، والملك، والاختصاص. (5) وهذا يُفيد دقّة ما يتّمخض عن اللام من دلالة الاتصال، وخاصيّة التعلّق، وقيمة الاختصاص؛ ولهذا عُديّ الفعل باللام في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي

(1) "الحرف ما دلّ على معنى في غيره. وما لم ينفك من اسمٍ أو فعلٍ يصحبه إلا في مواضع مخصوصة حُذِفَ فيها الفعل، واقتصر على الحرف، فجرى مجرى النائب نحو قولهم: (نعم، وبلى، وإي، وإنه، ويا، وزيدٌ قد في قوله: وكان قدي)، المُفصّل في صنعة الإعراب، الزمخشري، ت: علي بو ملحم، مكتبة الهلال، 1993، ص: 379. ن: الكتاب لسبويه، 419/1 وما بعدها. وحروف الجر: الباء - اللام - من - إلى - في - ربّ - حتى - التاء - الواو - عن - على - الكاف - من - مُنذُ ومُذ - خلا وعدا، وتُسمّى - أيضاً - حروف الإضافة، وحروف الصفات؛ لأنّها تُضيف معاني الأفعال إلى الأسماء، فاخترت بالدخول على الأسماء، وعملت فيها الجر. والأصل في استعمالها الجر. وقد تأتي للتعدية، ويُرادُ بها التوكيد، كما في البقرة 17: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فالمعنى: أذهب الله نورهم. وللجر حروفٌ ذاتُ معانٍ متعددة. ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: حروف الجر (=Preposition).

(2) ن: كتاب اللّامات، أبو القاسم الزجاجي، ت: مازن المبارك، دار الفكر، 1985، ص: 31، ومعجم القواعد العربية، عبد الغني الدقر، (م)، 20/24-21. جاء في الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: حروف الجر: "ومن معانيها الملك، أو الاختصاص: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، (فاطر، 36). وترد كثيراً للتعليل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، (الحديد، 16). وقد تكون بمعنى (إلى): ﴿كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، (الرعد، 2). وقد تُزاد اللام لتقوية العامل: ﴿فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾، (هود، 107).

(3) الأنبياء، 48.

(4) ن: الجنى الداني في حروف المعاني، ابن أم قاسم، ت: فخر الدين قباوة، الأفاق الجديدة، 1983، ص: 14-15.

(5) ن: حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، حسن عباس، (م)، ص: 2.

لِلْحَقِّ»⁽¹⁾ وذلك في معرض جوابِ قرآنيٍّ في مُحاجَّةِ المعاندين. يُؤسِّسُ لعقيدة، ويُرسِي بيانَ صلةِ هدايةِ الله -تعالى- بالحقِّ الَّذِي هو مُخْتَصُّ به عَزَّ وَجَلَّ.

وسُطِّرَ في الآيةِ موضوعِ البحثِ ثلاثُ مراتبٍ تدرَّجتْ بتوالي الدواعي المُوجِبَةِ لِكُلِّ مرتبةٍ منها، فالفرقانُ الَّذِي هو ما يُفَرِّقُ به بين الحقِّ والباطلِ مِن قولٍ أو فعلٍ أَوَّلُ ما يَتَبَادَرُ إلى مُسْتَقْبَلِي الرِّسَالَاتِ مِنَ الأَقْوَامِ، إِذْ تُبَيِّنُ لَهُم رِسْلَهُمْ وَأَنْبِيَاءَهُمْ السَّبِيلَ بِتَمْيِيزِ النُّورِ مِنَ الظُّلُمَاتِ، فَيَحْضُلُ مِنَ ذَلِكَ الضِيَاءِ أَي النُّورِ المُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي الأَهْدَى وَالْعِلْمِ، وَهُوَ اسْتِعْمَالُ شَائِعٍ، وَهُوَ المُرَادُ هُنَا. وَقَدْ قَالَ -تَعَالَى- فِي سُورَةِ المَائِدَةِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾⁽²⁾. وهذه المرتبةُ تتعقَّدُ بتوالي الموعظ، والتَّعَالِيمِ، وَأَوْجُهِ البَيَانِ، والبراهينِ مِنَ الدلائلِ العَقْلِيَّةِ، والإقناعيةِ، وَالزَّجْرِيَّةِ. ومع فتورِ بعضِ الهِمَمِ ورتابةِ الحياةِ يَغْفَلُ المرءُ، وَيصِيبُهُ النسيانُ، فلاءَمَ أَنْ تُكُونَ ثالِثَةُ المراتبِ الذِّكْرِ، وهو في الأَصْلِ خُطُورُ شَيْءٍ بِالْبَالِ بَعْدَ غَفْلَةٍ عَنْهُ. وَيُطْلَقُ عَلَى الكِتَابِ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى. وهذه المراتبُ تبدو زَمَانِيَّةً فِي تدرُّجِها؛ وذلك أَنَّها تَرَجِعُ إلى أَصْلِ واحدٍ، وهو الكِتَابُ أو الرِّسَالَةُ الإلهيةِ. والمتقونَ مستحقونَ لِأَنَّ يُحْصُوا بِهذهِ الأحوالِ والمبشِّراتِ. وَيَعْبُرُ عن هذا المضمونِ الحرفُ المُتَّصِمُ معنى الاختصاصِ.

ونظيرةُ آيةِ الأنبياءِ هذه ثَانِيَةُ آياتِ سُورَةِ البقرة: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّتِي تَرُدُّ فِيهَا اللَّامُ مفيدةٌ معنى الاختصاصِ تَمْيِيزًا لمجتمعِ التقوى الَّذِي انبرى لسلوكِ طريقِ الطاعاتِ، وأثرَ أهلِ الصِّلاحِ فِيهِ الاهتداءَ بأَنوارِ الحقِّ والهدى بَعْدَ أَنْ اخْتَصَّ اللهُ -تبارك وتعالى- مع الصِّفوةِ المُؤمنةِ بكتابٍ رفيعِ القَدْرِ عظيمِ الأثرِ: هو آخِرُ الكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَأَعْظَمُها هدايةً، وإعجازًا، واستيعابًا:

(1) يونس، 35.

(2) الآية: 44.

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾. (1)

21211 مِنْ قِصَّةِ الْخَلْقِ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (2)

في سياق قصة خلق أبي البشر آدم -عليه السلام- تأتي هذه المحاوره بين الله،
وبين الملائكة، وهي معطوفة على آية خلق السماوات والأرض: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (3) استدلالاً على الوجدانية،
وعلى بطلان الشرك. وهنا تخلص إلى ذكر خلق النوع الذي هو المستخلف في الأرض
والمتصرف فيها بتعميرها بحسب الأصل وبناء على القصد من إيجاده، مع أنه يخرج عن
هذا الأصل إلى نقض العمران، فذاك بخلاف الأمور به، وهو داخل في مسمى السيادة
خارج عن حكمة الاستخلاف.

"وَالْمَلَائِكَةُ مَخْلُوقَاتٌ نُورَانِيَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ مَجْبُودَةٌ عَلَى الْخَيْرِ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ فِي خَرْقِ
الْعَادَةِ؛ لِأَنَّ النُّورَ قَابِلٌ لِلتَّشَكُّلِ فِي كَيْفِيَّاتٍ؛ وَلِأَنَّ أَجْزَاءَهُ لَا تَنْتَزِحُ. وَنُورُهَا لَا شِعَاعَ لَهُ؛
فَلِذَلِكَ لَا تُضِيءُ إِذَا اتَّصَلَتْ بِالْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، وَإِنَّمَا تَتَشَكَّلُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ رُسُلَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ عَلَى وَجْهِ خَرْقِ الْعَادَةِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ -تَعَالَى- لَهَا قُوَّةَ التَّوَجُّهِ إِلَى
الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُرِيدُ اللَّهُ تَكْوِينَهَا، فَتَتَوَلَّى التَّدْبِيرَ لَهَا". (4)

(1) الأنعام، 88-89.

(2) البقرة، 30.

(3) السابق، 29.

(4) ت ت ت، 398/1، ن: التفسير البنائي للقرآن، محمود البستاني، (م)، 69/4.

وللتوجّهاتِ الملائكيةِ مراتبٌ وحيثياتٌ قُدِّرَتْ لها. وخواطِرُها خَيْرَةٌ بعكسِ خواطِرِ الشياطينِ وتوجّهاتِها، فهي ضاربةٌ في الشرِّ مُتَمَخِّصَةٌ فيه. (1)

واللّامُ في قولهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ تضمنتِ المنّةَ بمحلِّ العِبْرَةِ وقد أُدمِجت فيها. (2) حيثُ توطنَ في اللامِ معانٍ كثيرة. وقد أغنت هي عن جُمَلٍ كان يمكن إيرادها، استُغني عنها بهذا الخطابِ الَّذِي يشيرُ إلى معنى التفضيل، والتكريم، والاستخلافِ المنصوصِ عليه في آيةِ المحاورة. لقد ابتدأتِ الآيةُ بالقصرِ الحقيقي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إظهارًا للمنة العظمى؛ والعبرةُ المُعتَبَرَةُ؛ ولفّتِ الأنظارِ إلى أنّ الله -عزَّ وجلَّ- هو المتفردُ بالخلقِ والمُستحقُّ للعبادةِ وخَدَه. وكلمةُ (جميعاً) في الآية وردت استغرافاً لما في الأرضِ من سائرِ الموجوداتِ المسخَّرةِ لنفعِ الإنسان. وفي هذا تتميمٌ للمعنى بتوكيدِ المضمون.

ومراجعةُ الملائكةِ بصيغةِ الاستفهامِ مَبْنِيَّةٌ على معرفتها بأنَّ الله -تعالى- لم يشرعْ في محاورةِ ملائكتِهِ إلا ليرتّبَ القولُ على القول، كما هو المستفادُ من المحاوراتِ؛ وإلا فلا جدوى من الحوار، إذا كان ترديدًا للمعنى وتكريرا للفحوى.

وقد تكونُ الملائكةُ أدركت نزوعَ الإنسانِ الناشئَ عن الشهوة، أو الغضب، أو التعقلِ لكونِ الله -تعالى- أَخْبَرَ بذلك في كلامِهِ لهم ممّا لم يردُ في الآية. أي أدركوا -بسموِّ مداركِهِم المنزهةِ عن كُدْرَاتِ المادة- الطبيعةَ البشرية، وخاصيةَ الاختيارِ فيها، ودوافعها المُتضادةَ ممّا تعلقَ بحقيقةِ الاستخلاف. (3)

(1) السابق بتصرف، 398/1. ن: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، 2000 م، 74/1.

(2) الإدماج: وهو أن يُدمج المتكلم غرضين أو بديعين بحيث لا يظهُرُ إلا أحدهما كإدماجِ المبالغةِ في المطابقة، كما في القَصص: (70): ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ حيثُ لا ثناءَ بالحمدِ إلا عليه في الآخرة. ن: الإيضاح في علوم البلاغة لجلال الدين القزويني، ت: بهيج غزاوي، إحياء العلوم، 1998، ص: 348، وإعراب القرآن وبيانه، محيي الدين الدرويش، دار الإرشاد، د.ت، 367-366/7.

(3) ن: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي، دار النفائس، 1997، ص: 73.

"وَإِذَا كَانَ أَفْرَادُ الْبَشَرِ يَتَقَاوَتُونَ فِي الشُّعُورِ بِالْخَفِيَّاتِ... وَفِي النَّوْصِمِ وَالنَّقْرُسِ فِي
الذَّوَاتِ بِمِقْدَارِ تَقَاوُتِهِمْ فِي صِفَاتِ النَّفْسِ جِبِلِّيَّةً، وَكَتْسَابِيَّةً، وَلَدُنِّيَّةً الَّتِي أَعْلَاهَا النَّبُوءَةُ، فَمَا
ظَنُّكَ بِالنُّفُوسِ الْمَلَكِيَّةِ الْبَحْتَةِ؟" (1)

وظَهَرَ لِي مِنْ فَحْوَى كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُ عَظُمَ فِي تَصَوُّرِهَا أَنْ يَنْشَأَ عَلَى الْأَرْضِ مِمَّنْ
يَنْشَأُ عَلَيْهَا مَنْ يَعْصِي اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَوْ يَشْرِكُ بِهِ، وَيَتَجَرَّأُ عَلَيْهِ بِالْإِلْحَادِ وَالْجُحُودِ،
وَحَالُهَا تَعْظِيمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَسْبِيحُهُ، وَالتَّقْدِيسُ لَهُ مَعَ غَايَةِ الْإِذْعَانِ وَالْخُضُوعِ، فَهِيَ فِي
عِلْيَاءِ قُدْسِهَا عَلَى مَعْرِفَةِ كِبَرِي بَحْقِهِ -تَعَالَى- عَلَى خَلْقِهِ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الثَّنَاءِ، فَقَدْ
تَكشَّفَ لَهَا مِنْ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ مَا يَعْظُمُ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يَنْحَرِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَامْتِنَالِ شَرْعِهِ، مَعَ أَنَّهَا قَدْ اطَّلَعَتْ عَلَى عَالَمِ الْجِنِّ، وَمَا لَهُ مِنْ نَوَامِيسَ وَقُدْرَةَ عَلَى
الْإِمْتِنَالِ، وَعَلَى تَرْكِهِ، فَمِنْ الْمُحَقِّقِ سَبْقُهُمْ لِلْإِنْسَانِ فِي الْوُجُودِ وَالْإِخْتِيَارِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا
إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (2).

والفعلُ (قَدَسَ) يتعدى بنفسه. وتعدى باللام في الآية لأجلِ قِيمِ التوكيد؛ وبيانِ الصلةِ
بين المتكلمِ والمخاطبِ؛ وتمييزِ الخطابِ عن غيره، فخطابُ الله -تعالى- يتطلَّبُ ما
يُمَيِّزُهُ، ويفترقُ به عَمَّا سِوَاهِ. وَمِنْ ذَلِكَ الْجُمْلَةُ الْمُعْطُوفُ عَلَيْهَا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، إِذِ
الْمَعْنَى: نُثَنِّزُكَ، وَنُعْظِمُكَ بِالثَّنَاءِ عَلَيْكَ. وَلَمْ يَرِدْ الْفِعْلُ بِصِيغَةِ: (نُسَبِّحُكَ)، فَرُصِفُ
الْمَعْنَى أَعُوذُ عَلَى تَوْجِيهِ الْحَمْدِ وَإِقْرَارِ الثَّنَاءِ. وَمِنْ أَمْثَلَةِ تَعَدِّي الْفِعْلِ بِاللَّامِ لِلتَّوَكِيدِ وَنَحْوِهِ
فِي سِيَاقِ تَعْظِيمِ حَقِّ شُكْرِ اللَّهِ وَشُكْرِ الْوَالِدِينَ مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ﴾ (3).

"فَمَعْنَى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾: نَحْنُ نُعْظِمُكَ، وَنُثَنِّزُكَ، وَالْأَوَّلُ بِالْقَوْلِ
وَالْعَمَلِ، وَالثَّانِي بِإِعْتِقَادِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُنَاسِبَةِ لِلذَّاتِ الْعَلِيَّةِ، فَلَا يُتَوَهَّمُ التَّكْرَارُ بَيْنَ

(1) ت ت ت، 403/1.

(2) الكهف، 50.

(3) لقمان، 14.

(نُسِّبَ) و(نُقِدِسَ). وَأُوثِرَتِ الْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: «وَنَحْنُ نُسَّبُ» لِإِفَادَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى الدَّوَامِ وَالنَّبَاتِ أَيْ هُوَ وَصْفُهُمُ الْمَلَزِمُ لِجِبَلَّتِهِمْ. وَتَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ دُونَ حَرْفِ النَّفْيِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ لِلتَّخْصِصِ بِحَاصِلِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ مِنَ الدَّوَامِ أَيْ نَحْنُ الدَّائِمُونَ عَلَى التَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ دُونَ هَذَا الْمَخْلُوقِ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّ التَّقْدِيمَ لِمَجْرَدِ نَقْوَى". (1)

والملائكة في خطابها ربها تتغى مرضاته بالوسائل الموصلة والذرائع المفضية إلى رضاه. وذلك في كلامها وهيامها حيث الملاء الأعلى، فهي تهيم مسبحة ضارعة: «يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ». (2) ولهذا اقترنت اللام بكاف الخطاب: «وَنُقَدِّسُ لَكَ» تَوْسُلًا وَتَوْصُلًا بِالْأَدَبِ فِي خَطَابِهِ إِلَى الْمَرَادِ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَالْأَنْسِ فِي جَوَارِهِ. وَقَدْ قَدَّمُوا ضَمِيرَهُمْ: (نحن) استحضارًا لأنفسهم في قُدْسِيَّةِ الْمَعِيَةِ. (3)

1122 الباء: (4)

11221 الإيمان بالغيب:

إِذَا فُسِّرَ الْغَيْبُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» (5) بِالمصدر أَيْ بِالْغَيْبِيَّةِ، كَانَتْ الْبَاءُ لِلْمَلَابَسَةِ ظَرْفًا مُسْتَقْرًّا، وَكَانَ فِي الْكَلَامِ تَعْرِيفُ الْمُنَافِقِينَ، وَإِذَا فُسِّرَ بِالاسْمِ:

(1) ت ت ت، 406/1.

(2) الأنبياء، 20.

(3) ن: ت ت ت، 406/1، وتفسير الكشاف، 125/1، وأسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، محمود شيخون، دار الهداية، د.ت، ص: 13-26-44، والأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، 1999، ص: 283، والمسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، عبد المنعم رزق، ر، ص: 71.

(4) ن: حاشية الصبان، (م)، ص: 971 وما بعدها. من أهم معاني الباء: الإلصاق، كما في الأعراف، 150: «وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ». وقد تعيد السببية. ومثاله آية العنكبوت، 40: «فَكَلَّا أَحَدْنَا بِذَنبِهِ»، أو الاستعانة، وهي الداخلة على آلة الفعل، كما في القلم، 51: «لِيَرْلُفُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ». وتنبؤ عن (عن) في معنى المجاوزة، كما في قوله من الفرقان 59: «فَأَسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا»، الموسوعة العربية العالمية بتصرف، تحت عنوان: حروف الجر.

(5) البقرة، 3.

عالم الغيب، كان الحرف متعلّقًا بالفعلِ قبله: حَرْفٌ تَعْدِيَةٌ غَيْرُ ظَرْفٍ، وكان الوصفُ تعريضًا بالمشركين. (1)

وتحقيقُ النظرِ وتجريدُ الكلامِ يفيدُ أنّ بواطنَ أهلِ الشركِ وأهلِ النفاقِ متشابهةٌ فيما تضربُ فيه من ألوانِ الارتيابِ، والشكِّ، والجحودِ، وتخبّطاتِ الكفرِ والترددِ؛ لكنّ ظواهرهم متباينة؛ ولهذا راعى الخطابُ القرآنيّ -وكذلك الخطابُ النبويّ- هذا الاختلافَ الظاهرَ لما بين الفريقين من افتراقٍ في أسلوبِ العداوةِ والكيدِ. وقد ناسبَ ذِكرَ كلِّ فريقٍ آياتٍ مطّلعٌ هذه السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾. (2)

11222 بين آلِ عمرانَ وزكريا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنَاءٍ وَكُفْلًا زَكْرِيَّا كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ

(1) ن: ت ت ت، 229/1، وروح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث، 1985، 115/1، ومغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري، ت: مازن المبارك، دار الفكر، 1985، ص: 137.

(2) البقرة، 6-8.

يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادُّكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ: (1)

نَدَرْتُ امْرَأَةَ عِمْرَانَ مَا فِي بَطْنِهَا مُحَرَّرًا لخدمَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، إِذَا كَانَ الْمَوْلُودُ ذَكَرًا. وَلِتَطْلُبَهَا ذَلِكَ وَشِدَّةَ تَمَنِّيْهَا أَنْ تَلِدَ الذَّكَورَ نَدَرْتُ هَذَا النَّذْرَ. وَلِتَقْوَاهَا وَرَغْبَتِهَا فِي خِدْمَةِ الْبَيْتِ آثَرْتُ أَنْ يَتَفَرَّغَ ابْنُهَا، وَيَنْقَطِعَ لِلتَّحَنُّثِ وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْمُقَدَّسِ. (2)

"وَقَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: (وَضَعْتَ) بِسُكُونِ النَّوَاءِ، فَيَكُونُ الضَّمِيرُ رَاجِعًا إِلَى امْرَأَةِ عِمْرَانَ. وَهُوَ -حِينَئِذٍ- مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِهَا الْمَحْكِيِّ. وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ: أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ مِنْهَا بِنَفَاسَةِ مَا وَضَعْتَ، وَأَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ مُطْلَقِ الذَّكْرِ الَّذِي سَأَلْتَهُ، فَالْكَلامُ إِعْلَامٌ لِأَهْلِ الْقُرْآنِ بِتَغْلِيظِهَا وَتَعْلِيمِ بَأَنَّ مَنْ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَقَّبَ تَذْبِيْرَهُ". (3)

الْبَاءُ فِي ﴿أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ لِلإِصْطِقِ، وَهُوَ أَصْلُ مَعَانِي اللَّامِ. وَدَلَالَةُ ذَلِكَ إِظْهَارُ مَعْنَى إِحَاطَةِ الْعِلْمِ الإِلَهِيِّ بِنَفَاسَةِ هَذَا الْمَوْلُودِ، أَيِ بَقْدَاسَةِ مَرْيَمَ، وَحَقِيقَةِ مَكَانَتِهَا، وَإِعْدَادِهَا لِرِعَايَةِ مَقَامِ النَّبُوَّةِ: نَبُوَّةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالْبَاءُ فِي ﴿أَعِيدُهَا بِكَ﴾ لِلْسَبْبِيَّةِ أَيِ بِسَبَبِ مَنْكَ؛ أَوْ هِيَ لِمُوَافَقَةِ حَرْفِ الْجَرِّ: (إِلَى) أَيِ بِمَعْنَى الْغَايَةِ أَيِ إِلْجَائِهَا إِلَيْكَ إِلَى جَنَابِكَ الْعَظِيمِ وَجِوَارِكَ الْكَرِيمِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَقْبُولُ حَسَنٍ﴾ الْبَاءُ فِيهِ لِلتَّأْكِيدِ. وَأَصْلُ نَظْمِ الْكَلَامِ: فَتَقَبَّلَهَا قَبُولًا حَسَنًا، فَأَدْخَلْتَ الْبَاءَ عَلَى الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ لِيَصِيرَ كَالْآلَةِ لِلتَّقَبُّلِ، فَكَأَنَّهُ شَيْءٌ ثَانٍ. وَهَذَا إِظْهَارٌ لِلْعِنَايَةِ بِهَا، وَحَفْظِهَا، وَحُسْنِ رِعَايَتِهَا فِي هَذَا الْقَبُولِ. وَقَدْ عُرِفَ هَذَا الْقَبُولُ بِوَحْيِ مِنَ اللَّهِ إِلَى زَكْرِيَّا -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِذَلِكَ. وَأَمَرَ بِأَنْ يَكْفُلَهَا زَكْرِيَّا أَعْظَمَ أَحْبَابِهِمْ، وَأَنْ يَقِيمَهَا بَعْدَ

(1) آل عمران، 35-41.

(2) ن: ت ت، 235/3.

(3) السابق، 233/3.

ذلك لخدمة بيت المقدس. ولم تجرِ الشرائع في شأن النساءِ بذلك من قبل على الظاهر، وكلُّ هذا إرهابٌ بأنَّه سيكونُ منها رسولٌ ناسخٌ لأحكامٍ كثيرةٍ من التوراة ومجددٌ للدين؛ لأنَّ خدمةَ النساءِ للمسجدِ المقدَّسِ لم تكن مشروعَةً أي في شرعةِ موسى عليه السلام.

ومعنى: ﴿وَأُنْبِتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾: أنشأها إنشاءً صالحًا، وذلك في الخلق، ونزاهةِ الباطن، ومحبةِ الانقطاعِ للتعبُد، فَشُبِّهَ إنشأؤها وشبابُها بإنباتِ النباتِ الغضِّ على طريقِ الاستعارة. (ونباتًا): مفعولٌ مُطلقٌ ل(أُنْبِت). وهو مصدرٌ (نبت). وإنما أُجْرِيَ على (أُنْبِت) للتخفيف. (1)

وكفالةُ زكريا -عليه السلام- لمریمِ عُدَّ في فضائلها؛ لأنَّه من جُملةِ ما يزيدُ فضلها؛ لأنَّ أبا التريبةِ يمنحُ خُلُقَهُ وصلاحَهُ مُربِّاه. وزكرياءُ كاهنٌ إسرائيليٌّ من (بني أبيا بن باكر بن بنيامين) من علماء بني إسرائيل. جاءتهُ النبوءةُ في كِبَرِهِ. وكان مُتزوجًا امرأةً من ذُرِّيَّةِ (هارون عليه السلام) اسمُها (اليصابات). (2) قيل: كانت أختُ مریم. والصحيحُ أنها كانت خالتها، أو من قرابةِ أمِّها. ولَمَّا وُلِدَتْ مریمُ كان أبوها قد مات، فَتَنَزَّعَ كفالتها جماعةٌ من أحبارِ بني إسرائيلِ حرصًا على كفالةِ بنتِ حبرهم الكبير، واقترعوا على ذلك، فطارت القرعةُ إلى زكريا. والظاهرُ أنَّ جعلَ كفالتها للأحبار؛ لأنَّها مُحَرَّرَةٌ لخدمةِ بيت المقدس، فيلزمُ أن تُربَّى تربيةً سالحةً لذلك. (3)

والباءُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ للمصاحبةِ أو الملازمةِ أي رزقًا متلبسًا بكونه بغيرِ حساب. ويكفي عن هذه الباءِ -أيضًا- بباءِ الحالِ (4) أي أنَّ حالَ العطاءِ العظيمِ والإغداقِ الكريمِ يُوافقان رِزقَ اللهِ -تعالى- من يُنعمُ عليه من عباده.

(1) السابق بتصرف، 235/3.

(2) ن: موسوعة الكتاب المقدس، (م)، إصحاح: 1 - عدد: 4، 223/4.

(3) ت ت ت بتصرف، 235/3.

(4) ن: البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات الأنباري، ت: طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

1980، 77/1.

وإذا تُوسَّع، قيلَ أَنَّ الباءَ ظرفٌ واقعٌ موقعَ الحالِ أيَّ أَنَّ اللهَ يَرْزُقُ رزقًا مُستَقَرًّا بغيرِ حساب.

لَمَّا كانَ من لوازمِ كِفالةِ زكريا مريمَ -عليهما السَّلام- أن يتقَصَّى أحوالها، ويسألها عن شأنها، لزمه أن يتبينَ ما رأى عندها من فاكهةٍ في غيرِ موسمها، وهو سؤالُ الحكيمِ العارف، وليس سؤالَ الغافلِ غيرِ النابه. وكانت إجابتها إجابةَ الموقنِ المُقرِّ بقدرةِ الله عزَّ وجل. وتضمَّنَ كلامُها المؤكِّدَ وهو الناسخ: (إِنَّ) لغرابةِ الموقفِ وهيبةِ المقام.

وفي قولهِ تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ مُّصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ كِلا النَّبَأَيْنِ للسببيةِ أيَّ بسببِ مَوْلِدِ غلام، وبسببِ كلمةٍ أو وحيٍّ منه تعالى.

ولمَّا أمرَ اللهُ -تعالى- زكريا بكثرةِ الذِّكر، ثنَّى بأمرِهِ بدوامِ التسبيحِ من جهةِ تمييزِ الزمنِ بإيرادِ طرفيِ النهارِ: (العشيِّ - الإِبكار). وقد قال اللهُ -تعالى- على لسانِهِ في سورةِ مريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾⁽¹⁾ وبدأ بالعشيِّ؛ لأنَّ فيه ابتداءَ الاستعدادِ للقيامِ والدعاءِ ليلاً، إذ الليلُ مظنةُ الاستجابةِ وحُسنِ القبولِ، فإنَّ فيه خَيْرَ أوقاتِ الضراعةِ والإنابة. وعندَ أوَّلِ الصبحِ يفرغُ المؤمنُ الضارعُ المبتهلُ الداعي رَبَّهُ من صلاةِ الفجرِ وخواتيمِ القربى حتى أوَّلِ الضحى.

والباءُ في: (بالعشيِّ) متعينةٌ للطرفية، وفي مدلولها استيعابُ الزمنِ واقتضاءُ المداومةِ على الطاعة، والضراعة، والامتثال. وذلك لاقترانها بالعشيِّ وتقديرها مع الإِبكار.

وأمرَ بِتَسْبِيحِ اللهِ -تعالى- وَتَنْزِيهِهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ أَيَّ الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا، فَأَقْتَصَرَ عَلَى طَرَفَيْ أَوْقَاتِ الْعَمَلِ. وَالْعَشِيِّ: آخِرُ النَّهَارِ إِلَى ابْتِدَاءِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ طَعَامُ اللَّيْلِ عَشَاءً، وَسُمِّيَتِ الصَّلَاةُ الْأَخِيرَةُ بِاللَّيْلِ عِشَاءً. وَالْإِبْكَارِ: اسْمٌ لِلْبُكْرَةِ النَّهَارِ كَالْإِصْبَاحِ اسْمٌ لِلصَّبَاحِ. وَالْبُكْرَةُ أَوَّلُ النَّهَارِ. وَتَقَدَّمَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ سَبَّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فِي سُورَةِ

(1) الآية: 4.

مَرِيمَ. * وَتَقَدَّمَ الْعَشِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ. * وَهَذَا مَقَامُ التَّحْلِي بِالْكَمَالَاتِ النَّفْسِيَّةِ. وَبِذَلِكَ يَتِمُّ الشُّكْرُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا⁽¹⁾.

3211 الحرفان: (من - إلى): (2)

13211 مشهدٌ من ليلة الإسراء:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾⁽³⁾.
"الْإِفْتِتَاحُ بِكَلِمَةِ التَّسْبِيحِ مِنْ دُونِ سَبْقِ كَلَامٍ مُتَضَمِّنٍ مَا يَجِبُ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنْهُ يُؤَدِّنُ بِأَنَّ حَبْرًا عَجِيبًا يَسْتَقْبِلُهُ السَّامِعُونَ دَالًّا عَلَى عَظِيمِ الْقُدْرَةِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ وَرَفِيعِ مَنْزِلَةِ الْمُتَحَدِّثِ عَنْهُ"⁽⁴⁾.

لم يَرِدْ معنى تنزيه الله - تعالى - وتسبيحه في سور القرآن بالقدر الوارد في الإسراء: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا

(1) ت ت ت، 171/24، * الآية: 11، * الآية: 52، للاستزادة ن: 228/23-48/22-138/16-305/15-247/7،

وبحر العلوم، أبو الليث السمرقندي، ت: محمود مطرجي، دار الفكر، د.ت، 237/1.

(2) (من): من معانيها: ابتداء الغاية للزمان: (عوفي المريض من يوم الجمعة)، أو لابتداء الغاية للمكان: (خرجت من البيت). وقد تأتي لبيان الجنس: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾، (الحج، 30)، وللتبعيض: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا﴾، (البقرة، 8)، وللتعليل: ﴿مِمَّا حَطَبَتِاهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾، (نوح، ﷺ)، والبديلية: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، (التوبة، 38). وقد يرد حرف (من)، على أن يتقدمه نفي، أو نهي، أو استفهام، وأن يكون المجرور نكرة، وأن يكون المجرور فاعلاً، أو مفعولاً به، أو مُبْتَدَأً: (ما زارني من أحد اليوم). (إلى): وتأتي لانتهاه الغاية في الزمان: (سرت من أول النهار إلى آخره)، أو انتهاء الغاية في المكان: (جنث من المسجد إلى البيت). وتأتي بمعنى (مع): ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾، (النساء، 2)، الموسوعة العربية العالمية بتصرف، تحت عنوان: حروف الجر.

(3) الإسراء، 1.

(4) ن: ت ت ت، 9/15.

عَفُورًا»، (1) «سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا»، (2) «وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا».... (3)

أَسْهَمَ حَرْفًا الْجَرِّ: (مِنْ - إِلَى) فِي رَسْمِ الْمَشْهَدِ الْقُدْسِيِّ السَّمَاوِيِّ الْمُفَعَّمِ بِمَعَانِي الْقُدْرَةِ، وَالْجَلَالِ، وَالتَّجَلِّيَّاتِ الرَّبَّانِيَّةِ بِآيَاتِ الْمَلَا الْأَعْلَى، وَمَرَائِيهِ الْقُدْسِيَّةِ. وَيَمْتَدُّ خَيْطُ النُّورِ الْوَاصِلُ بَيْنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ بِمَكَّةَ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيَصِلَ بَيْنَ مَهْدِ التَّوْحِيدِ وَبَيْنَ الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي شَهِدَتْ نُبُوَّةَ الْخَلِيلِ، وَدَاوُدَ، وَسُلَيْمَانَ، وَالْمَسِيحِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَهَذَا يَحْكِي أُصْلَ الدِّينِ وَمَنْبَعِ الدِّيَانَةِ، وَيَرْتَسِمُ بِهِ النُّورُ الْأَصِيلُ لِرِسَالَاتِ السَّمَاءِ وَوَحْيِهَا الْقَائِمِ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ: "فَقَدْ صَدَرَتْ الْحَنِيفِيَّةُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَتَفَرَّعَتْ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ عَادَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، كَمَا عَادَ الْإِسْرَاءُ إِلَى مَكَّةَ؛ لِأَنَّ كُلَّ سُورَى يَغْتَفِبُهُ تَأْوِيلُهَا. وَبِذَلِكَ حَصَلَ رَدُّ الْعُجْرِ عَلَى الصَّدْرِ". (4)

وَلَا يَخْفَى إِيقَاعُ الْحَرَكَةِ النَّشِطَةِ فِي هِدَاةِ اللَّيْلِ السَّاجِي السَّاجِدِ لِعِظْمَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ؛ بَلْ تَسَارَعَتْ وَمَضَتْ الْإِنْتِقَالَ الْمُبَارَكِ لِطَيِّ الْمَسَافَةِ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ؛ وَلِلْإِيمَاءِ إِلَى قُدْسِيَّةِ الرَّحْلَةِ السَّمَاوِيَّةِ الْعُلُويَّةِ الْمُتَضَمَّنَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا»؛ بَلْ تَطْهَرُ هَذِهِ الْحَرَكَةُ بَيْنَ الْإِبْتِدَاءِ الْمَكَانِيِّ وَانْتِهَاءِ الْغَايَةِ الْمَكَانِيَّةِ لِتَرْبِطَ بَيْنَ طَرَفَيْ الصُّورَةِ الظَّاهِرِينَ الْمُتَقَابِلِينَ لِيَتَحَقَّقَ مِنْ ذَلِكَ دَلَالَاتٌ، وَإِشَارَاتٌ، وَلَطَائِفُ يَكْدُّ الذَّهْنَ فِي اسْتِخْرَاجِهَا وَتَأْمُلِهَا، وَيُظْفَرُ بِهَا الشُّعُورُ الْمُؤْمَنُ الْمُسْتَبْصِرُ فِي رُوعَةِ الْمَعَانِي، وَدِقَائِقِ التَّرَكِيبِ، وَقِيَمِ الْمَعْنَى. جَمَعَتْ الْآيَةُ -عَلَى إِجْازِهَا- بَيْنَ التَّنْزِيهِ، وَالتَّقْرِيرِ، وَالْوَصْفِ: (سُبْحَانَ - لِنُرِيَهُ - سَمِيعًا بِصِيرًا)، وَجَمَعَتْ بَيْنَ مَقَامِي الْأُلُوهِيَّةِ، وَالْعِبَادِيَّةِ، وَفَرَّقَتْ بَيْنَهُمَا بِإِيرَادِ صِيغَةِ التَّنْزِيهِ وَإِضَافَةِ الْاسْمِ إِلَى الْمَضْمَرِ الْعَائِدِ إِلَيْهِ تَعَالَى.

(1) الإسراء، 43-44.

(2) السابق، 93.

(3) السابق، 108.

(4) ت ت ت، 15/15.

"وَالْإِضَافَةُ إِضَافَةٌ تَشْرِيفٌ لَا إِضَافَةٌ تَعْرِيفٌ؛ لِأَنَّ وَصْفَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ مُتَحَقِّقٌ لِسَائِرِ
الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَا تُفِيدُ إِضَافَتُهُ تَعْرِيفًا". (1)

وهذا التفريقُ أو التمييزُ هو ممَّا يراعيه التنزيلُ الحكيمُ تحقيقًا لمعنى التوحيدِ
الخالصِ لئلا يلتبسَ المقامانِ، ويحدثَ من ذلك نسبةٌ ما لا يجوزُ نسبتهُ إلا إليه عَزَّ وَجَلَّ،
كما حَدَّثَ لِمُحَرَّرِي الْمَسِيحِيَّةِ الْأَوَائِلِ الَّذِينَ رَأَوْا فِيهَا أَجْرَاهُ اللَّهُ -تعالى- على يدِ الْمَسِيحِ
من آياتٍ ومعجزاتٍ دلالةً على ألوهيةِ في الْمَسِيحِ وبنوةٍ مزعومةٍ فيه لله، تعالى اللهُ عن
ذلك علوًا كبيرًا. (2)

وأصحابُ الرسالاتِ وَمَنْ يَسِيرُ على نَهْجِهِمْ من الحواريينِ وَأئمةِ الدِّينِ مَفْتَقِرُونَ إلى
تعزُّيدِ يَاقِينِهِمْ وإيمانِهِمْ بالتجاربِ الروحيةِ والماديةِ الَّتِي ترتقي بنفوسِهِمْ من مستوى البشريةِ
إلى مراتبِ جَنِّي ثمارِ العلومِ الإلهيةِ والحقائقِ العُلُويةِ بقَدْرِ ما في المنحةِ الربانيةِ لهم من
اتساعِ. ومن ذلك ما تعرَّضَ له نبيُّ اللهُ موسى --عليه السَّلَام-- في غيبتهِ عن قومِهِ
ورحلتهِ إلى سيناءَ حيثُ جَبَلُ الطُّورِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾. (3)

(1) السابق، 12/15.

(2) ن: في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، 1985، 2213/4.

(3) الأعراف، 143. ن: التفسير الوسيط، وهبة الزحيلي، دار الفكر، 1422 هـ، 1322/2.

﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِخَفَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا﴾: (2)

الفتنة لفظٌ يجمعُ معنىً مَرَجٍ واضطرابٍ أحوالٍ وتشتتٍ في البالِ بالخوفِ من الخطرِ على النفسِ والمالِ على غيرِ عدلٍ، ولا نظامٍ. وقد تُخصَّصُ وتُعمَّمُ بحسبِ ما تُضافُ إليه، أو بالرجوعِ إلى الحالِ والمقامِ. والنَّاسُ مختلفون في استعداداتهم النفسية والعقلية إزاءَ الفتنِ؛ ولهذا كان من لوازمِ الفتنةِ الابتلاءُ والاختبار، فكانَ ذلكَ من المعاني التي يُكْنَى بالفتنةِ عنها كثيرًا؛ ولذلك تسامحَ بعضُ علماءِ اللغةِ، ففسَّرَ الفتنةَ بالابتلاءِ. (3) وتَسَوَّعَ ذلكَ عنده بناءً على قولِ النَّاسِ: (فَتَنَّتْ الذَّهَبَ أو الفضةَ) إذا أذابَهُما بالنَّارِ لتمييزِ الرِّدِيِّ من الجيِّدِ. وهذا الإطلاقُ إن لم يكنْ مُؤلِّدًا، فإنَّ معنى الاختبارِ غيرُ منظورٍ إليه في لفظِ الفتنةِ. وإنَّما المنظورُ إليه ما في الإذابةِ من الاضطرابِ والمَرَجِ. وعُدِّي (لَيَفْتِنُونَكَ) بحرفِ (عَنْ) لتضمينه معنى فَعَلَ كَانِ الْفَتْنُ لِأَجْلِهِ، وهو ما فيه معنى (يَصْرِفُونَكَ). ودلالةُ (عَنْ) هنا المُجاوِزةُ أي أنَّ الغرضَ من مُكايداتِ القومِ في مُحاوراتهم أن يُجاوِزَ ما عنده إلى

(1) عن: الأصلُ في معناه المُجاوِزةُ: (بُعِدْتُ عن الشرِّ، أو رَمَيْتُ عن القوسِ). ويأتي بمعنى (بُعِدَ): ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، (الانشقاق، 19) أي حالًا بعد حالٍ. ويأتي بمعنى (على): ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ﴾، (محمد، 38)، ويأتي بمعنى (من): ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ﴾، (الشورى، 25). (على): أكثرُ استعماله في معنى الاستعلاء: ﴿لَتَسْتُورُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾، (الزخرف، 13)، وتكون بمعنى (في): ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾، (القصص، 15)، وتكون بمعنى (من): ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾، (المطففين، 2)، الموسوعة العربية العالمية بتصرف، تحت عنوان: حروف الجر. ن: الكتاب لسببويه، 419/1-420، وشرح الرضي على الكافية، ت: يوسف حسن عمر، جامعة بنغازي، 1978، 319/4.

(2) الإسرائ، 73.

(3) ن: الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهري، ت: أحمد عطار، العلم للملايين، 1987، مادة: (فتن)، 2175/6.

بعض ما يُرضي خواطرهم، وإلى ما يتطلبونه من انصرافه إلى ترك تنقيص الهتهم حين يجالسونه، وألا يكون من جلسائه حين يحضرون لمحاورته من يأنفون من رؤيته من فقراء الصحابة، ثم باستدراجه إلى ما يحتالون عليه من أمور تتعلق بعبادتهم وهما من عند أنفسهم.

والذي أوجي إليه هو القرآن مع ملاحظة ما تقتضيه أدلة عصمة الرسول -صلى الله عليه وسلم- من استحالة أن تتطرق إليه خواطر إجابة المشركين لما يطمعون من ركونه إليهم مع تظاهر الدواعي الدنيوية لا الأخروية، وهي دواعٍ قد تألبوا على تزيينها وعرضها عليه. (1)

والافتراء: نوع من الكذب، أو هو الكذب، والاختلاق، وتصنع الأخبار. وأصله: الفري⁽²⁾، وهو قطع الجلد قطعاً ليصلح به، كأن يُحذى النعل، ويُصنع النطع أو الفريزة. وافتري افتعالاً من (فري) لإفادة المبالغة في الفري. يقال: افتري الجلد، كأنه اشتد في تقطيعه، أو قطعه تقطيع إفساد، وهو أكثر إطلاق (افتري)، فأطلقوا على الإخبار عن شيء بأنه وقع، ولم يقع اسم الافتراء بمعنى الكذب، كأن أصله كناية عن الكذب وتلميح. (3)

والحرف الجار: (على) متعلق بالفعل: (تفتري)، وهو يفيد الاستعلاء المجازي. وهذا يقتضي أن المستعلي أمر معنوي لا مادي. ومساق الكلام أنهم أرادوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينسب إلى الله -تعالى- ما يرضي أهواءهم، ويحملهم على محامل من استصحابه والرضى بتقدمته بينهم، وهم صناديد الكفر من قريش. قد ظنوا أنه يستجيب لما يحاولون من استدراجه إلى ما يريدون مخادعة وتمويهاً على ما في نفوسهم من رغبة

(1) ت ت ت بتصرف، 171/15-643/1.

(2) ن: لسان العرب، مادة: (فري)، 151/15.

(3) ت ت ت بتصرف، 56/26-10/4. ن: البيان العربي، بدوي طبانة، المكتبة الأنجلو-المصرية، 1962، ص:32.

استئصاله لما ساورهم من الحقد عليه وبغضه، ثم هو بمحل العصمة والعناية الإلهية. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾. (1)

24211 قصة أصحاب الجنة:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخافتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَالُونَ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عسى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: (2)

يُؤَيِّ الجار: (على) وظيفه معنوية فنية في ربط مناحي القصة: قصة أصحاب الجنة لتردده في مفاصلها، وفي منحنياتها الأساسية. وله مثل هذا الدور في السورة كلها أي سورة القلم.

ومسرح القصة بلدة يقال لها: (ضروان) بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء. وهذه الأسرة إسرائيلية أي أنهم من يهود اليمن في إحدى الروايات (3) مع اختلاف الرواة في تحديد زمن وقوعها. هل كان على عهد (بليقيس) ملكة اليمن، أم بعده، أم بعد ميلاد

(1) الإسراء، 74.

(2) القلم، 17-33.

(3) ن: ت ت ت، 80/29. ومن المؤرخين من ذكر أنهم من نصارى اليمن، ن: البدء والتاريخ، ابن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، دت، 131/3.

المسيح عليه السلام، أم في عصر الأحباش، فهؤلاء الإخوة الثلاثة من حبشة اليمين على هذه الرواية. (1)

كانت هذه الجنة مؤئل المساكين لا يُردونَ عن جناها، إذ صاحبها أبو الثلاثة كان كريم الطبع زكي النفس على تعيظ من بنيه، أو من جُلهم. ولأب هيبته تمنع من مخالفتِه فيما يرى، حتى إذا آل الأمر إلى الأبناء، عمدوا إلى ما يحبون، وإلى ما كان يكره الأب، ويترفع عنه في حياته.

وقد أقسموا على قطع الثمار وإدخار الأوقات لأنفسهم بحرمان الفقراء الذين غاب عنهم صلاح الأب ورغبته في الخير والإحسان على سجية منه وألفة للمواساة واللين مع السائل والمحروم. ودعموا القسم بتوكيده، (2) وأنهم لا يستثنون حتى ما تزهّد فيه النفس من ساقط الثمر، أو ما أصابته آفة، أو إهمال، أو عطب. وأزمعوا فعل ذلك مُصبحين أي داخلين في الصباح أي عند الفجر. وهذا تعجّل منهم لما حبسوا أنفسهم عنه طويلاً. والقسم مُلزم لهم، فلا يتقاعس منهم من رآوا منه ميلاً عمّا أضمروا، وتألّبوا عليه. والطائف الذي أصاب الجنة ليلاً أي في وقت أمنهم وذهولهم عن انتقام الله - تعالى - قد يكون ناراً طافت بالبستان من جوانبه، وأحاطت بجنّاته مستعلية أي مصيبة أعالي الشجر، كما في قوله تعالى:

﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾. (3)

والحرف: (على) في هذا المشهد يرسم نهايةً قريبة غير متوقّعة بين حالين فصلت بينهما ليلة واحدة قبل إسفار الصبح عن الكارثة التي محقت ما لا نُزعت منه البركة والصلاح: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، فصيغة: (عليها) تشغل أعلى

(1) السابق والصفحة نفسها: وقد يكونون أكثر من هذا العدد. وظاهر الآية أنهم أول الجمع أي ثلاثة: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾.

(2) ن: ذرة التنزيل، الخطيب الإسكافي، ت: محمد آيدين، وزارة التعليم العالي بالسعودية، 2001، ص: 1290.

(3) البقرة، 266.

الصورة لنرى النَّارَ وقد تناولتْ أعاليَ الأشجار، فهي تنتقل من غصنٍ إلى غصن، ومن مجموعةٍ من الشَّجرِ والزرورِ إلى أخرى، حتى تأتي على المكانِ بفعلِ رِيحٍ أو إعصارٍ شديدٍ الوقعِ عظيمِ التَّنكيلِ. وَالصَّرِيْمُ بمعنى اسمِ المفعول، وهو يشملُ كُلَّ ما يقعُ عليه القَطْعُ، أو ما يصيبُهُ الحرقُ، فيكونُ رمادًا مُسودًّا، أو كاللَّيْلِ المُسودِ. والشَّيْءُ المَصْرُومُ الَّذِي ذَهَبَ ما فيه،⁽¹⁾ أو يكون غيرَ ذلكِ ممَّا يصلحُ أن يقعَ عليه الفعل. والعمومُ الَّذِي في اللَّفْظِ أوقِعُ في الدَّلالةِ على سوءِ المصيرِ، وشِدَّةِ النَّكالِ، وسَوْرَةِ الاضمِحلالِ.

وتناديهم للخروجِ دليلُ زَهُومِ وفرحهم بما زوروا في أنفسهم من الشَّحِّ والحرصِ. وتكرارُ مادةِ الإصباحِ في الآياتِ: (17-20-21) يشيرُ إلى توافقهم على الموعدِ وأهبتهم لما توجَّهوا إليه. والتَّعبيرُ بالحريثِ عن البساتينِ أو نحوها يتضمَّنُ المشقةَ في معالجةِ الأرضِ، ففي الحريثِ جُهْدٌ وشِدَّةٌ، وفي اكترائهم لمن ينوب عنهم في ذلكِ نفقةٌ ومُؤونةٌ. وفي كُلِّ هذا ما يجعلهم يَصِنُّونَ بثمرِ عنائهم على مَنْ رأوا فيهم عالةً يتكفَّفون الناسَ بقريضةِ استعمالِ الضَّميرِ في: (حريثكم).

وهنا يأتي (على): «أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرِيثَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ» للدلالةِ على معنى الاستعلاءِ الَّذِي يشيرُ إلى سطوةِ تَمَلُّكِ الأثرةِ لهم واستحواذها على نفوسهم، وأنهم قد اطْمَنَّنُوا إلى أَنَّ أيديهم موضوعةٌ على أرزاقهم لا يأذنون في تفلُّتِ شيءٍ منها إلى غيرهم. ومعنى الاستعلاءِ والكبرِ في سياقِ هذا التَّعبيرِ يُوَكِّدُ على العبرةِ التي ارتكزت عليها القصة؛ بل السورةُ في آياتٍ تقدَّمت، وأخرى تاليةٍ لهذه الآياتِ.

وقولهم: «إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ» صيغةٌ في الشَّكِّ الظاهريِّ بواسطةِ الشَّرْطِ تعكسُ -فيما أُقَدِّرُ- ترفُّعًا من المزمعِ أمرًا جازمًا يخشى فواته لقلَّةِ إلفه له مع إصراره عليه وخشيته الباطنةِ من عدمِ تحصيله.

(1) ن: لسان العرب، مادة: (صرم)، 334/12.

والانطلاق إسرَاعٌ في المَضِيِّ يَعْبُرُ عن دَأْبِهِمْ وسرعة حركتهم مُتَخَافَتِينَ أي مُدْخِرِينَ حتى لَجْهُدِ القَوْلِ برفع الصَّوْتِ الَّذِي يَسْتَبْقُونَهُ لدرءِ المساكينِ بزجرهم ونهرهم مع أمرِ عبيدِهِم باستقصاءِ المحصولِ والتحوُّطِ في ذلك. والأظهرُ أَنَّهُم أهلُ ثراءٍ واتساعٍ في البساتينِ والحدائقِ لكونِ أرضِ اليَمَنِ مَظِنَّةً لذلك في عصرٍ سبياً وما قَبْلَهُ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ﴾؛ (1) ولِذَا دُعِيَ اليَمَنِ السعيد. (2)

وفي قولِهِم: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ ذروةُ الحدث، وإن كان حدثاً مُتصَوِّراً في خيالِهِم. وهو يسبقُ وقوعَ الفاجعةِ الَّتِي مَثَلَتْ انْحِلَالَ عقدةِ الأحداث. وتقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ بسببِ حرصِهِم من التَّأدِّي من دخولِ المساكينِ عليهم مع توكيدِ الكلامِ بنونِ التوكيدِ الثَّقيلة. وقد لا يكونُ مُجَرَّدُ منعِ الدُّخولِ مقصوداً منهم، إذ إنَّ القصدَ هو منعُ الزَّكَاةِ والصدقةِ عن مُستحقِّيها. وقد تحقَّقَ ما قالوا بصيرورةِ الأرضِ يَبَابًا لا مطمَعَ لأحدٍ فيها، ولا في شيءٍ من ثمارِها ومنافعِها. ومَهَّدَ للحدثِ الأهمِّ -بَعْدَ كلامِهِم المتقدِّمِ- قوله تعالى: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ الَّذِي تَكَرَّرَ فِيهِ التَّعْبِيرُ عن العُدُوِّ أي استحضارِ الزمانِ الَّذِي خرجوا فِيهِ إلى حقولِهِم مرتبطينَ بالوصفِ وما تَقَرَّرَ في خواطِرِهِم مُلْتَبِسًا بنوازعِ الحرصِ، والحنقِ، والإسراعِ إلى الغايةِ والأملِ. وقد استوعبَ هذه المعاني لفظٌ صغيرٌ التركيبِ بالغُ الدلالة، وهو (حَرْدٌ) (3) بصيغةِ التَّنكِيرِ تعظيماً للدلالةِ المختارة، أو لمجموعِ الدلالاتِ متمازجةً مع ما في المصدرِ من النَّبَاتِ وقوةِ الإيحاءِ المخزونِ في المصادرِ. والوصفُ: (قادرين) مُتَمِّمٌ للصورةِ مستوفٍ لنعوتِهِم بصفةِ القدرةِ النَّجْزَةِ المؤثِّرةِ بمنعِ النَّفعِ، وبإِخَارِ الموسِمِ والأفواتِ. والقدرةُ أدقُّ في التَّعْبِيرِ من الاقتدارِ لخلوصِها من الافتعالِ والمشقةِ في الفعلِ. وهذا تمامُ زهْوِهِم وسوءِ نِيَّاتِهِم.

(1) سبياً، 15.

(2) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: اليمن، تاريخ=history of, yemen، ص: 6.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (حرد)، 144/3.

ويأتي حرفُ الجرِّ آخرَ القِصَّةِ حينَ إقبالِ بعضهم على بعضٍ باللُّومِ والتَّقرِيعِ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ مع ارتفاعِ نبرةِ التبرُّؤِ وإِعلاءِ الأنا عمَّا تهاوَّت إليه، واطمحلَّت فيه- مُصَوِّراً تأنيبَ بعضهم لبعضٍ مع الاتِّهامِ بالتقصيرِ في النُّصحِ وبيانِ المَغَبَّةِ الذي كان على أرجحِهِم عَقْلاً وأكثرِهِم اعتدالاً -وهو أوسطُهُم- أن يقومَ بهذا البيانِ، فهو أحرأهم بالزِّدِّ عن غُلُوِّ الحِرصِ ومنعِ المعروفِ، وهو الابنُ الَّذِي تكاثَرَ عليه إخوتُهُ، فأنفذوا أمرَهُم مستضعفينَ له مُستظهِرينَ عليه بقبائحِ نفوسِهِم وسوءِ طَبْعِهِم.

وفي: ﴿إِنَّا لَصَّالُونَ﴾ مُؤكِّداتٌ لم تَرِدْ في ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾؛ لأنَّ القولَ الأولَ لم يَزَلْ متصلاً بعنفوانِ الكبرِ وقساوةِ القلبِ، ثمَّ انجلى ذلك باستيثاقِهِم من حُلُولِ العقوبةِ، ثمَّ إنَّ الإضرابَ قد لا يخلو من استبقاءٍ لِمُسْتَنْبَعاتِ الكلامِ المُضْرِبِ عنه، فلا حاجةَ إلى أن يصيرَ التَّعبيرُ إلى: (بل إنَّا لمحرومون). وظهرَ بعضُ هذه التوكيداتِ بَعْدَ ذلك في قولِهِم: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

والفعلُ أبدلٌ: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا﴾ من الإبدالِ الَّذِي يتحقَّقُ دفعةً واحدةً بخلافِ التبدُّيلِ: (يُبَدِّلُنَا) الَّذِي يتحقَّقُ على مرَّاتٍ متتالية. وقد وردَ في خبرِ أصحابِ الجنةِ أَنَّ اللهَ -تعالى- قد استجاب لهم ببركةِ صلاحِ أبيهِم وصدقِ توبتِهِم، فأبدلَهُم جَنَّةً خيراً منها من يومِهِم. (1)

وردتْ هذه القِصَّةُ في منتهى خبرِ الوليدِ بنِ المُغيرةِ الَّذِي ذُكِرَ أمرُهُ في أوائلِ الآياتِ من قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾⁽²⁾ إلى قولِهِ سبحانه: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى

(1) ن: ت ت ت، 83/29، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ت: عبد القادر عرفات، دار الفكر، 1996، 371/5، وتفسير

أبي السعود، 16-15-14/9، ومفاتيح الغيب، 78/30.

(2) القلم، 10.

الْحُرْطُومِ» (1) وهو رأس قومِهِ في الكُفْرِ والضَّلَالِ الَّذِينَ ذَكَرُوا فِي قَوْلِهِ مِنَ السُّورَةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، ﴿فَ لَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (2).

وقد أنعمَ اللهُ عليهم بنعمة الإيلاف: ﴿لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾، (3) وبنعمة الأمنِ وجبايةِ الأرزاق: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾، (4) ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾، (5) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (6). وقد أبتلوا بسِنِّي القَحْطِ بَعْدَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى استغاثوا. (7)

خُلِقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَيِّدِ آخِرِ الْأُمَمِ وَأَفْضَلِهَا عَطَاءً مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَهُ، وَلِأُمَّتِهِ لِعِظَمَةِ هَذَا الْخُلُقِ وَاتِّسَاعِهِ. وَمِنْ أَخْلَاقِهِ الْعِظِيمَةِ تَوَاضَعُهُ الْجَمِّ، وَحُسْنُ عَشْرَتِهِ، وَطَيْبُ مَعْشَرِهِ. وَيَقَابِلُهُ أَخْلَاقُ رُؤُوسِ الشِّرْكَ مِنَ الْكِبْرِ، وَالْعِجْرَفَةِ، وَالظُّلْمِ، وَالْعُتُوِّ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْغِلْظِ وَقِسَاوَةِ الْقُلُوبِ.

«وَالْخُلُقُ: طِبَاعُ النَّفْسِ. وَأَكْثَرُ إِطْلَاقِهِ عَلَى طِبَاعِ الْخَيْرِ، إِذَا لَمْ يُتَّبَعِ بِبَعْثٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ * وَالْعَظِيمُ: الرَّفِيعُ الْقَدْرُ، وَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ صَخَامَةِ الْجِسْمِ. وَشَاعَتْ هَذِهِ الْاسْتِعَارَةُ حَتَّى سَاوَتْ الْحَقِيقَةَ. وَ(عَلَى) لِلِاسْتِعْلَاءِ

(1) السابق، 16.

(2) السابق، 8. ن: الدَّرَرُ فِي اخْتِصَارِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ، ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، ت: شَوْقِي ضَيْفٍ، وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ الْمِصْرِيَّةِ، 1995، ص: 49.

(3) قُرَيْشٍ، 1-2.

(4) الْعَنْكَبُوتِ، 67.

(5) الْقَصَصِ، 57.

(6) قُرَيْشٍ، 4.

(7) ن: الصَّحِيحِينَ، 1791/4، 2155/4، وَت ت ت، 79/29.

المجازي. المراد به التمكن كقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًىٰ مِنْ رَبِّهِمْ﴾*، * وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾*، * ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾*، * ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾* (1).
 وحيثُ وُصِفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بواسطة حرفِ الجرِّ: (على) بتمكُّنه من حياةٍ أعظمِ خُلِقَ كَرِيمٍ بِفَائِدَةِ الاستعلاءِ المجازيِّ تنظيرًا لعلِّو القدر، ورفعَةِ المكانةِ بِسامي التمكنِ من اكتسابِ الشَّمائلِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّحَلِّيِ بِالْخِصَالِ الدَّائِمَةِ - وُصِفَ مَنْ جَرَى التَّعْرِيفُ بِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - وَالْمَقْصُودُ رُؤُوسُ طِعَاتِهِمْ - بِجُمْلَةٍ أَوْصَافٍ مِنْ بَيْنِهَا الاستكبار والعُجب، وهي الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا آيَاتٌ مِنَ السُّورَةِ. وقد استحقَّ الوليدُ لذلك أَنْ يُتَوَعَّدَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ (2) إهانةً وتشويهاً لصورتهِ في الدنيا والآخرة. واستطاع الحرفُ تصويرَ قبحِ المنظرِ والهيئةِ مع إبداءِ التَّنْكِيلِ لِأَنْفَعَتِهِ واستعلائه.

وأخيراً: يُجَبِّدُ الحرفُ: (على) معنَى رابطاً لِمَا تَفَرَّقَ مِنَ المعاني لِنَتْنِظَمِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - مِنْ سُورَةِ الْقَلَمِ: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ (3). ونظامها - أي تلك المعاني - هذا الارتقاء في الاستدلال مع الاستفهام الإنكاري، فالآيةُ فَذَلِكَا (4) لِمَا تَقَدَّمَ وَجُمَاعٌ لِمَا سَلَفَ مِنْ إشارات. فهؤلاءِ الْمُعْتَرُونَ

(1) السابق، 63/29. * الشعراء، 137، * البقرة، 5، * النمل، 79، * الزخرف، 43، * الحج، 67. ن: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، (م)، ص: 682.
 (2) القلم، 16. "وَالْوَسْمُ لِلْإِبِلِ وَنَحْوِهَا: جَعَلَ سِمَةً لَهَا أَنَّهَا مِنْ مَمْلُوكَاتِ الْقَبِيلَةِ أَوْ الْمَالِكِ الْمُعِينِ... تَمَثِيلٌ تَتَّبَعُهُ كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَكُّنِ مِنْهُ وَإِظْهَارِ عَجْزِهِ. وَأَصْلُ (نَسِمُهُ) نُوسِمُهُ مَثَلٌ: يَبْعُدُ وَيَصِلُ"، السابق، 78/29، وَذَكَرَ فِي اللِّسَانِ أَنَّ الوَسْمَ أَثْرَ الكِي. وَيُجْمَعُ عَلَى وَسْمٍ، ن: مادة: (وسم)، 635/12.
 (3) السابق، 39.

(4) هي عبارةٌ تشيرُ صراحةً، أو على نحوٍ غيرِ صريحٍ إلى مضمونٍ جُمَلٍ تكون هذه العبارةُ تَتَمِيمًا لَهَا بالتعقيبِ ودَعْمِ الحُكْمِ أو القضيةِ كالحوصلةِ أو البيانِ الجامعِ، ولا تقتَرُنْ بعطفٍ، وتتصلُ - غالباً - بفاءِ الفصيحةِ أي التي من شأنها الإفصاحُ. وهذه الفاءُ استئنافية. ومن أمثلةِ الفَذَلِكَا آيَةُ الْقَلَمِ هذه، وقولُهُ مِنْ سُورَةِ النُّحَانَ 58: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِسَانَكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. وقد تأتي مَقَالِيَّةً، كما هنا، وفي الانشقاقِ 16: ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِالشَّقَقِ﴾، أو حَالِيَّةً، كما في سورةِ يُونُسَ 32: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ﴾، للاستزادةِ ن: ت ت ت، 453/30-215/30-15/16. وفي تاج العروس أنها مشتقةٌ من قولِ الحاسبِ إذا أنهى حسابَه: فذلك كذا. مادة: (فذلك)، 293/27.

المُكَابِرُونَ سِوَاءَ صِنَادِيدِ قُرَيْشٍ فِي شِرْكِهِمْ، أُمَّ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ فِي غَفْلَتِهِمْ، أُمَّ سِوَاهُمْ مِنَ الْمَجْرِمِينَ قَدْ بَدَوْا كَأَنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْتَقُوا بِعَهودِ، وَعَقُودِ، وَأَيْمَانٍ مُعَلَّظَةٍ بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مُؤَبَّدَةٍ بِغَيْرِ تَحَلَّةِ الْقَسَمِ أَيْمَانًا أَقْسَمَهَا اللَّهُ لَهُمْ، فَهَمَّ قَدْ اجْتَرَأُوا عَلَى مَا أَتَوْا بِتِلْكَ الْأَيْمَانِ الَّتِي كُنِّيَ بِهَا عَنْ ثِقَتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ بِالْإِثْمِ. وَدَعَوَاهُمْ فِي ذَلِكَ حَالِيَّةٌ، وَلَيْسَتْ مَقَالِيَّةً. وَالْحَسَدُ دَاءٌ عَضَالٌ وَخُلُقٌ خَبِيثٌ حَمَلَ طَوَائِفَ الْمُشْرِكِينَ وَمَانِعِي الْمَعْرُوفِ وَالزَّكَاةِ، وَحَمَلَ إِبْلِيسَ قَبْلَهُمُ الَّذِي قَالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾⁽¹⁾ عَلَى نَبِيٍّ أَمَرَ اللَّهُ -تَعَالَى- وَتَرَكَ امْتِثَالَهُ؛ وَلِذَا جَاءَ قَوْلُهُ أَوْخِرَ سُورَةِ الْقَلَمِ: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُرْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾.

5211 الحرف: (في): (3)

15211 وَعَدُّ وَبِشَارَةٌ:

﴿غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾⁽⁴⁾.

"[الرُّومُ]: اسْمٌ غَلَبَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى أُمَّةٍ مُخْتَلِطَةٍ مِنَ الْيُونَانِ، وَالصَّقَالِبَةِ، وَمِنْ الرُّومَانِيِّينَ الَّذِينَ أَضْلَهُمْ مِنَ (اللاتِينِيِّينَ) سَكَانِ بِلَادِ (إِيطَالِيَا): نَزَحُوا إِلَى أَطْرَافِ شَرْقِ (أُورُوبَا). نَقَوَّمَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْمُسَمَّاءُ الرُّومَ عَلَى هَذَا الْمَزِيحِ، فَجَاءَتْ مِنْهَا مَمْلَكَةٌ تَحْتَلُّ قِطْعَةً مِنْ أُورُوبَا، وَقِطْعَةً مِنْ آسِيَا الصُّغْرَى، وَهِيَ بِلَادُ الْأَنَاضُولِ. وَقَدْ أَطْلَقَ الْعَرَبُ عَلَى

(1) الأعراف، 12.

(2) القلم، 51-52.

(3) تأتي لمعنى الظرفية. وأكثر استعمالها فيها: (زيد في الدار)، وللتعليل: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾، (الأنفال، 68)،

﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾، (يوسف، 32)، وبمعنى (على): ﴿لَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، (طه، 71)، ن:

الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: حروف الجر، وشرح الرضي على الكافية، 279/4.

(4) الروم، 2-4.

مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأُمَّةِ اسْمَ الرُّومِ تَفْرِقَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرُّومَانِ [اللاتينيين]، وَسَمَّوْا الرُّومَ أَيْضًا بِبَنِي الْأَصْفَرِ". (1)

هذه الحربُ التي نَشَبَتْ كانت بين الفُرسِ والرومِ سنةَ (615 م)، وكانت الهزيمةُ العظيمةُ على الرومِ في أطرافِ بلادِ الشامِ المُحاذاةِ ببلادِ العربِ بين بُصرى وأذرعَات. وذلك هو المرادُ في هذه الآيةِ في أدنى الأرضِ أي أدنى بلادِ الرومِ إلى بلادِ العربِ. فالتعريفُ في الأرضِ للعهدِ أي أرضِ الرومِ المُتحدِّثِ عنهم، أو اللامُ عَوَضٌ عن المضافِ إليه أي في أدنى أرضِهِم أو أدنى أرضِ الله. وفي الكلامِ إضمار. والمقصودُ أدنى الأرضِ من أرضِكُم التي كانت بحيالِ الدولتينِ العظيمينِ ضحيةً للصراعِ وبؤرةً للاستقطابِ السياسيِّ والاقتصاديِّ. (2)

الحرف: (في) في الآياتِ بموضعِهِ للظرفيةِ: الظرفيةِ المكانيةِ، ثُمَّ الزمانيةِ. وقد قرَّرَ المظروفُ المكاني: (في أدنى الأرضِ) واقِعًا وحدثًا سَبَقَ قد اهتمَّ له المسلمونَ الذين ساءَ لهمُ غِبْطَةُ قريشٍ بانتصارِ الفُرسِ الوثنيينِ على فريقٍ من أهلِ الكِتَابِ أي النصارى الذين هُمُ أقربُ إلى أهلِ الإسلامِ من عبْدَةِ النارِ. (3) والمظروفُ الزماني: (في بضعِ سنين) تضمَّنَ إحالةَ الهزيمةِ إلى نصرِ على الوثنيينِ، ثُمَّ البشارةُ المستوعبةُ في عمومِ قوله: «يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ»، فالمُضارعُ يستوعِبُ الزَمْنَ لكونِ نصرِ اللهِ متحققًا بمُطلقِ المشيئةِ. وتعمَّقَ استيعابُ الزمَنِ قَبْلَ ذلك في قوله تعالى: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ».

"وَحِكْمَةُ إِبْهَامِ عَدَدِ السِّنِينَ أَنَّهُ مُقْتَضَى حَالِ كَلَامِ الْعَظِيمِ الْحَكِيمِ أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَى الْمُقْصُودِ إِجْمَالًا، وَأَنْ لَا يَتَنَازَلَ إِلَى التَّفْصِيلِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّفْصِيلَ يَتَنَزَّلُ مَنزِلَةَ الْحَشْوِ عِنْدَ

(1) ت ت ت، 42/21، ن: معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار الفكر، د.ت، 97/3.

(2) ن: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، التيجاني حامد، دار البشير، 1995، ص: 166.

(3) ن: سنن الترمذي، ت: أحمد شاكر، إحياء التراث، د.ت، 344/5، وت ت ت، 40/21.

أَهْلِ الْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ؛ وَلِيَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ رَجَاءٌ فِي مَدَّةٍ أَقْرَبَ مِمَّا ظَهَرَ، فَفِي ذَلِكَ تَفْرِيحٌ عَلَيْهِمْ". (1)

وفي سَوَقِ الْمَظْرُوفَيْنِ: (أَدْنَى الْأَرْضِ - بَضْعِ سَنِينَ) نَوْعٌ عَمُومٌ وَنَوْعٌ خُصُوصٌ يَلِيْقُ بِسَمْتِ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ، وَيُضْفِي عَلَى الْخِطَابِ مَهَابَةً يَتَقَاصَرُ عَنْهَا تَكْلُفُ إِقْحَامِ الْأَعْدَادِ وَأَسْمَاءِ الْأَمَاكِنِ إِلَّا لِمُسَوِّغٍ كَأَمْرِ سُؤَالِهِمْ عَنِ الْبَعْثِ مَتَى هُوَ؟ وَقَدْ يَكُونُ الْجَوَابُ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَجُوبَةِ بِتَحْدِيدِ عِلَامَاتٍ لَذَلِكَ الْيَوْمِ كَعِلَامَةِ الزَّلْزَلَةِ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾. (2) وَكَمَا فِي النَّصِّ عَلَى عَدَدِ السَّنِينَ الَّتِي قَضَاهَا فَتِيَةُ الْكَهْفِ فِيهِ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثِمِائَةَ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، (3) فَالْقِصَّةُ سَبَقَتْ فِي جَوَابِ الْقَوْمِ عَنِ أَسْئَلَةٍ يَتَعَلَّقُ أَحَدُهَا بِفَتِيَةِ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ. وَوَرَدَتْ عَلَى أَلْسِنِهِمْ تَحْدِيًا وَتَعْجِيزًا حَتَّمَهُ عَلَيْهِ يَهُودُ الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ وَقَدَّ عَلَيْهِمُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ. (4) وَلَعَلَّ بَعْضَ أَحْبَارِ الْيَهُودِ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِالتَّقْوِيمِ الشَّمْسِيِّ الَّذِي تَسَاوَى فِيهِ السَّنُونَ الثَّلَاثُ مِائَةَ الْعَدَدَ الْوَارِدَ فِي الْآيَةِ، وَهَذَا افْتِنَانٌ فِي تَبَكِّيَّتِهِمْ أَثْنَاءَ سَوَقِ خَيْرٍ مَا سَأَلُوا عَنْهُ. وَالْإِيْجَازُ، وَالْعَمُومُ، وَحُسْنُ الْاِنْتِقَالِ إِلَى الْغَرَضِ، (5) وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ أَبْلَغُ وَأَحَقُّ بِالسِّيَاقِ الْبَلِيغِ. وَيَتَقَوَّى هَذَا مِنْ مَبْدِئِ السُّورَةِ بِصِيغَةِ الْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ اسْتِغْنَاءً عَنِ ذِكْرِ الْغَالِبِ لِلْعِلْمِ بِهِ مَعَ ذِكْرِ الْمَغْلُوبِ أَيُّ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الرُّومِ الَّذِينَ سَاءَ الْمُؤْمِنِينَ انْهَزَامُهُمْ أَمَامَ الْوَثْنِيِّينَ الْفَرَسِ. وَالسِّيَاقُ

(1) ت ت ت، 44/21.

(2) الزلزلة، 1. ن: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، أحمد متولي، دار ابن الجوزي، 2005، ص: 293.

(3) الكهف، 25.

(4) ن: الروض الأنف، السهيلي، (م)، 52/2 وما بعدها. راجع سفر القضاة من العهد القديم وما فيه من الغلو العجيب في ذكر أسماء المواضع، والجبال، والقرى، حتى كأنه أطلس جغرافيا أو مسودة خارطة بدائية، ن: موسوعة الكتاب المقدس، 397/1.

(5) وهو ما يدعوه البلاغيون حُسنَ التخلص، وعلى العكس منه الاقتضاب الذي يخلو منه الكلام البليغ. وهو: قَطْعُ الْكَلَامِ وَاسْتِثْنَاؤُ كَلَامٍ غَيْرِهِ بِلا عِلَاقَةٍ تَكُونُ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ. ن: المثل السائر، ابن الأثير، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، 1995، 244/2، وتاريخ الأدب العربي، عَمْرُ فَرْوَح، دار العلم للملايين، 1984، 86/1 - 89.

سياقُ تبشيرٍ وتَأْسِيَةٍ دَعَمَهُمَا حَرْفُ الاسْتِقْبَالِ: (السين) الَّذِي يَفِيدُ تَقْرِيْبَ الْفِعْلِ الْمَسْتَقْبَلِ،
كَمَا دَعَمَ هَذَا النِّسْقَ الزَّمْنِي فِي تَسَارُعِهِ وَرُودُ حَرْفِ الْجَرِّ: (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
عَلَيْهِمْ﴾ الَّذِي يَفِيدُ تَقْرِيْبَ الْحَدِثِ بِقُرْبِ حَدُوثِ الْمَأْمُولِ بِتَوَافُرِ دَوَاعِي غَلْبَةِ الرُّومِ بِمُجَرَّدِ
وَقُوعِ الْهَزِيمَةِ، وَإِضْمَارُ الْحَرْفِ: (مِنْ) يُبَيِّنُ تَحَقُّقَ الْإِنْتِصَارِ عَلَى الْفُرْسِ، وَلَا يَنَاسِبُهُ
السينُ، بَلِ الْحَرْفِ: (سَوْفَ) هُوَ الْمَلَائِمُ لِلسِّيَاقِ عِنْدَهَا.

ذاع في كتب التراث مصطلح الحروف الزائدة أو زيادة الحرف في نظم الكلام في القرآن، والشعر، وغيرهما. وقد تُسمى حروف الصلة⁽¹⁾ وحروف الصلة ألفاظها: إن- أن- ما- لا- من- الباء. (2)

جاء في شرح الرضي على الكافية أن هذه الحروف يتوصل بها إلى زيادة الفصاحة، أو إلى إقامة وزن، أو سجع، أو غير ذلك. (3)

وقد آثرت تسميتها بالحروف البليغة؛ لأنَّ إمكان الاستغناء عنها بدوى كونها مزيدة- وهو ما دفع النحاة وغيرهم إلى وصفها بالزيادة- لا يستقيم مع دواعي البلاغة الناشئة في السياق باعتباره نسفاً معرفياً منضبطاً⁽⁴⁾ فضلاً عن أن يستقيم ذلك في كلام الله عزَّ وجل، وهو الكلام المعجز الذي لا يليق أن يقال في شيء من نظمها بالزيادة المحضة أو غير المحضة مع اتساع اللغة لإجراء اللفظ المعبر عن إمكان الاستغناء عن ورود اللفظ في السياق من حيث أصل المعنى. ووصف هذه الأحرف بالبليغة هو وصف طردي، وليس وصفاً مقتصرًا عليها دون سواها من الحروف والأدوات. وكون هذه الأحرف

(1) ن: معجم العين، الخليل بن أحمد، ت: مهدي المخزومي، دار الهلال، 1988، 434/8، والمُعرب في ترتيب المُعرب، برهان الدين المطرزي، ت: محمود فاحوري، مكتبة أسامة بن زيد، 1979، 439/2-440، والمفصل في صنعة الإعراب، ص: 423، وشرح الرضي على الكافية، 433/4، ورسالة منازل الحروف، أبو الحسن الرُّماني، دار الفكر، 1984، ص: 37، وحروف الجرِّ وأثرها في الدلالات، محمد الطيب، جمعية الدعوة الإسلامية، 2002، ص: 179.

(2) ن: شرح الرضي على الكافية، 433/4.

(3) ن: 433/4.

(4) يُعدُّ السياق في الدراسات اللغوية الحديثة من المصطلحات المعقَّدة. وإن كان يُعبر عن نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة (Semantics) انضباطاً منهجياً. ن: البحث الدلالي عند الأصوليين، محمد حبلص، عالم الكتب، 1991، ص: 28.

ذات دلالاتٍ خاصةٍ قد تنصرفُ في سببِها ملكاتُ الباحثِ البلاغيِّ يُعَدُّ من دواعي نعتِها بهذا النعتِ وحسابِها ضاربةً في استحقاقِ الاهتمامِ وتمييزِها بما يقوِّي دورَها في الصياغةِ والبيانِ.

ذَكَرَ ابْنُ هِشَامٍ أَنَّ هَذِهِ الْأَحْرُفَ دَخُولُهَا فِي الْكَلَامِ كَخُرُوجِهَا، وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾،⁽¹⁾ ف(لا) هنا زائدةٌ - كما يقول - بدليلِ قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أُسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.⁽²⁾ في حينَ أَنَّ الكَشْفَ عن سِرِّ الفَرْقِ بين تركيبِ وآخرِ يحتاجُ إلى إمعانِ الفكرِ، وإِنعامِ النظرِ، والتفتيشِ عن دقائقِ النظمِ وأسرارِ البلاغةِ أي القِيمِ المعنويةِ في الكلامِ الرفيعِ، وليس الاكتفاءُ بالركونِ إلى اعتبارِ الزيادةِ للتوكيدِ الَّذِي يُلجأُ إليه في أكثرِ الأحوالِ أو اعتبارِها زيادةً محضةً على نحوِ ما هو شائعٌ في كُتُبِ التراثِ وكثيرٍ من دراساتِ المعاصرينِ⁽³⁾ مُجدياً، ولا صارفاً عن البحثِ، والتتقيبِ، والاستدلالِ.⁽⁴⁾

(1) الأعراف، 12.

(2) سورة ص، 75.

(3) ن: شنور الذهب في معرفة كلام العرب، ابن هشام، ت: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، 1984، ص: 272.

(4) يُرَاجَعُ حَوْلَ قَضِيَةِ الزِيَادَةِ وَمَسَائِلِهَا: علل النحو، ابن الوراق، ت: محمود الدرويش، مكتبة الرشد، 199، ص: 219، والمُقْتَضَبُ لِلْمُبَرَّدِ، ت: محمد عَظِيم، عالم الكُتُب، د.ت، 48/1، وأوَضَحَ المسالك لابن هشام، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، 1979، 38/3-65، [والإِنصاف في مسائل الخلاف، أبو البركات الأنباري، ت: محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، 1982، 637/2، والخصائص لابن جَنِّي، ت: محمد علي النجار، عالم الكُتُب، د.ت، 273/2-284، وشرح الرضي على الكافية، 52/3-260/4-269، والمُحْكَم والمحيط الأعظم لابن سيده، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكُتُب العلمية، 2000 م، 580/10، وهَمَعُ الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي، ت: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، د.ت، 463-354/1-270/2-475-273/3، وشرح التصريح على التوضيح، زين الدين الأزهري، دار الكُتُب العلمية، 2000 م، 661/1-678، وسر صناعة الإعراب لابن جَنِّي، ت: حسن هنداوي، دار القلم، 1985، 299/1، والأصول في النحو لابن السَّرَّاج، ت: عبد الحسين الفلطي، مؤسسة الرسالة، 1988، 258/2، وكتاب الكليات لأبي البقاء الكُفَوي، ت: عدنان درويش، مؤسسة الرسالة، 1998، ص: 249، ومُشكِلُ إعراب القرآن، مكي بن أبي طالب، ت: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، 1985، 72/1-83، وجامع الدروس العربية، مصطفى الغلاييني، (م)، 71/5، والنحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف، د.ت، 70/1، ومعجم القواعد العربية، عبد الغني الدقر، (م)، 2/3.

وقد طغى التفكير اللغويّ النحويّ على الفكر العربيّ في حواضر الدولة العلميّة كالבصرة التي كانت تُمثّل مركزاً حضاريّاً مُشعّاً لعلوم العربيّة وقلعةً لحماية اللغة وتراثها الديني والأدبي. (1) إلّا أنّ الاتجاه الأدبيّ والبلاغيّ أو الجماليّ قد اقتصرَت مستويّاتُهُ النظرية وتطبيقاتُهُ على أعمالٍ متفرّقةٍ لأعلامٍ أدركوا وظيفة البلاغة والنقد الجماليّ بعيداً عن جفاف العلم وبراهينه القطعية، (2) أو سيطرة الفكر الأرسطيّ في المنطق الصوريّ - على سبيل المثال - على مجالاتٍ معرفيّةٍ عديدةٍ في التراث، هذا الأثر الذي انتقل حديثاً إلى اللسانيّات الغربيّة مُنعكساً على الدراسات الأسلوبية والفكر النقديّ عموماً. (3) ولو ذاعت هذه الفكرة أي الفكرة الجماليّة في النقد مع تأسس مدارس النحو والكتابة في المنطق والفلسفة مع اختلاط القضايا الكلامية بالموضوعات البلاغية وقضايا الإعجاز، (4) لما وُجِدَت لمسألة الزيادة في الحروف تلك الأهمية وذلك الانتشار.

ومن مُبرراتها التي يمكن سَوْفُها في هذا المقام الاحتفاءً بظواهر الإعراب في اللغة والعامل المؤثّر على الإعراب: هذه السِّمة التي تتعلّط منها الحروف الزائدة لكونها غيرَ عاملة، وهو ما يُفقدُها تأثيرها وفعاليتها.

(1) ن: ضحى الإسلام، أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، 1974، 248/2، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان، دار المعارف، 1968، 128/2، وعبقرى من البصرة، مهدي المخزوم، وزارة الإعلام العراقية، 1972، ص: 11.

(2) ن: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، 1988، ص: 18-35-182، وقضايا ومواقف في التراث البلاغي، عبد الواحد علّام، مكتبة النصر، جامعة القاهرة، 1992، ص: 15-28-99.

(3) ن: مناهج البحث عند مفكري الإسلام، علي سامي النشار، دار الفكر العربي، 1947، ص: 27، والمنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، علي سامي النشار، دار المعارف، 1971، ص: 54، والأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، 1977، ص: 44-45، ومفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ميشال عاصي، العلم للملايين، 1974، ص: 22-47-82، وفلسفة الجمال في الفكر المعاصر، محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، 1981، ص: 32، وفي جمالية الكلمة، حسين جمعة، اتحاد الكتاب العرب، 2002 م، ص: 7، والمسبار في النقد الأدبي، ص: 9، والخطيئة والتكفير، عبد الله الغدامي، النادي الأدبي الثقافي، 1985، ص: 64-74.

(4) ن: البلاغة العربية، بدوي طبانة، دار المنارة، 1988، ص: 52.

يقول ابنُ جنيّ:

"وزيادةُ الحروفِ كثيرة، وإن كانت على غير قياس... فأما عذرُ حذفِ هذه الحروف؛ فلقوةُ المعرفةِ بالموضع. ألا ترى إلى قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا*

لأنّه لو أراد الواجب، لَمَا جازَ؛ لأنَّ (أبرح) هذه لا تُستعملُ في الواجب، فلا بدَّ من أن يكونَ أراد: لا أبرح. ويكفي من هذا قولهم: رَبُّ إِشَارَةٍ أَبْلُغُ مِنْ عِبَارَةٍ. وأمَّا زيادتها؛ فلا زيادةَ التوكيدِ بها. وذلك أنّه قد سبقَ أنّ الغرضَ في استعمالها إنما هو الإيجازُ، والاختصارُ، والاكتفاءُ من الأفعالِ وفعالِها، فإذا زيدَ ما هذه سبيلُهُ، فهو تَنَاهٍ في التوكيدِ به". (1)

لقد أتى الإمامُ ابنُ جنيّ بتوجيهاتٍ حسنةٍ ومقارباتٍ جيّدة. ولو كان البناءُ على مثلِ هذا منه أو من غيره من العلماء، لكان القولُ بدورِ هذه الحروفِ أعظم، ولاتَّسعَ النظرُ في أدائها وظائفِ جماليتها بحسبِ السياقِ الخاصِّ للآيةِ أو السياقِ العامِّ للسورة. وهذا ينطبقُ على البيتِ والقصيدة. (2)

(1) الخصائص، 284/2. * وكبيت امرئ القيس بيتُ طرفة بن العبد: أَلَا أَيُّ هَذَا اللَّائِمِي أَحْضَرَ الْوَعْي. ديوان الأول، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، د.ت، ص: 32، وديوان الآخر، شُرح وتعليق: مهدي ناصر الدين، دار الكتب العلمية، 1987، ص: 25. والذي أراه أنّ لهذه التصرفات اللغوية أسبابًا ومبرراتٍ يهدي إليها النصُّ والموقف. ومن بينها في البيتين تمثُّلُ الشاعرين للفعلِ بسيطرةِ الحدثِ أو عدمها على الشعور؛ فلذلك يتجرّدُ الفعلُ من بعضِ عوالمه.

(2) ن: الكتاب لسبويه، 180/1-181-180/3-504/4-220-221. استعملَ سبويه -رحمه الله- مصطلحَ اللغو في التعبير عن معنى الزيادة في الحروف، وساقَ مثلًا لذلك قوله -تعالى- من سورة النساءِ (155): ﴿فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾. وفي هذا مُجَافَاةٌ للقيمةِ المعنويةِ لهذا الحرفِ في سياقِ الآية. زُيِّمًا لأنَّ سبويه الذي أضافَ بعبقريتهِ الفدّةَ إلى علمِ الخليلِ المؤسَّسِ معنويًّا بسياقيةِ النصِّ في زمنٍ مُبَكَّرٍ متقدِّمًا في ذلك على دي سوسير في مبدأ اللغويات الخارجية، ن: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1980، ص: 88-96، ودور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، مكتبة الشباب، 1986، ص: 32، ومناهج البحث البلاغي، عبد السلام عبد الحفيظ، دار الفكر العربي، 1978، ص: 54. وفي معاني اللغو يُراجَعُ اللسان، مادة: (لغو)، 250/15. وفي ما يتعلّقُ بدلالةِ (ما) في الآية ن: ص: 56 من هذه الدراسة.

"ووصف اللفظ بالزيادة يفيد أن لا يراد بها معنى، وأن يُجعل كأن لم يكن لها دلالة قط. فإن قلت: أوليس يقال: إن الكلمة لا تعرى من فائدة ما، ولا تصير لغواً على الإطلاق حتى قالوا: إن نحو (ما) في نحو: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾* تفيد التوكيد، فأنا أقول: إن كَوْن (ما) تأكيداً نَقْل لها عن أصلها ومجازاً فيها، وكذلك أقول: إن كَوْن الباءِ المزيديّة في: (ليس زيدٌ بخارج) لتأكيد النفي مجازاً في الكلمة؛ لأنَّ أصلها أن تكون للإصاق، فإن ذلك على بُعْدِهِ لا يَقْدَحُ فيما أردتُ تصحيحه؛ لأنّه لا يُتصوَرُ أن تصف الكلمة من حيث جُعِلَتْ زائدةً بأنها مجاز. ومتى ادعينا لها شيئاً من المعنى، فإننا نجعلها من تلك الجهة غير مزيديّة".⁽¹⁾

في هذا الكلام تضمينٌ لقدر الكلمة في السياق البليغ؛ ولكونها لا تنفك عن أداء الوظيفة الفنية والإسهام في دعم البناء وإثراء الصياغة. وهذا النَّصُورُ من مقتضيات نظرية النظم التي أرسى قواعدها وأصولها الإمام عبد القاهر الجرجانيُّ مُستَمِدّاً من فكر الجاحظ ومنهجه.⁽²⁾ مع أن الجرجانيّ في هذا الموضوع، وفي مواضع أخرى⁽³⁾ قد يبدو متردداً في الحكم بنفي الزيادة؛ إلا أن أصول نظريته يُرجع إليها في فهم مثل هذه المواقف.⁽⁴⁾

(1) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، ت: محمد رشيد رضى، دار المنار، 1947، ص: 368. * آل عمران، 159.

(2) ن: كتاب الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل، 1996، 231/3، والبلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية، 1997، ص: 7.

(3) ن: أسرار البلاغة، ص: 369.

(4) ن: عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المُفتن في العربية ونحوها، البدرابي زهران، دار المعارف، 1987، ص: 26-11.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾⁽¹⁾

لما ظهر عجز مشركي قريش -ويُنصاف إليهم المنافقون وكلُّ مناويٍ للحق- عن معارضة القرآن في النظم، وهو ما تحداهم القرآن به ضمناً في سرد أسامي الهجاء -كما في مطلع هذه السورة- وإفصاحاً، كما في قوله -تعالى- منها: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾⁽²⁾ انساقوا إلى شجب ما فيه من المعاني التي لم تبلغها عقولهم القاصرة، ولم تدرك ما تعلق بها من الإشارات التي تضمنتها آياته، فاتهموه بأن فيه من سخيْف المعنى سعيًا إلى التَّشْغِيبِ على مَنْ يلوح لهم اتباعه وتصديق ما جاء به؛ وقصدًا إلى إبطال كونه مُنْزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ وتلبيسًا على المؤمنين الَّذِينَ تتناهى إلى أسماعهم تخرصات القوم وأراجيفهم، فيعرضون عن ذلك إعراض الموقنين بالحق الذي جاء به الإسلام.⁽³⁾

تقدّم هذا المثل التمثيل بالهيئات المركبة من السورة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾⁽⁴⁾ ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾⁽⁵⁾ ومن ثمَّ جاء هذا التمثيل غير المركب الذي على الرغم من وضوح مدلوله؛ إلا أنه يستلزم من التأمل وتعرف الحكمة من سَوْقِهِ ما لا يُدْرِكُهُ

(1) البقرة، 26.

(2) السابق، 23.

(3) ن: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، ت: احمد شاکر، مؤسسة الرسالة، 2000 م، 399/1: ساق الإمام الطبري أخبارًا عن ابن عباس، وابن مسعود، وقتادة: فيها استخفاف المشركين بمثل هذه الأمثال ابتداءً من الرواية رقم: (545). ن: تفسير ابن كثير، ت: سامي سلامة، دار طيبة، 1999، 205/1.

(4) الآية: 17.

(5) الآية: 19.

السفهاء والجهلة الَّذِينَ شَنَّعُوا عَلَى ضَرْبِ الْقُرْآنِ هَذِهِ الْأَمْثَالَ الدَّقِيقَةَ الْبَاهِرَةَ. وَتَقَدَّمَ -
 أَيْضًا- الْحَدِيثُ فِي السُّورَةِ عَنِ خَلْقِ الْكَوْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
 فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾. (1) وَهَذَا انْتِقَالَ بِالتَّصْوِيرِ مِنْ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ إِلَى أَدْنَاهَا لِتَوْحِيدِ اعْتِبَارِ
 جَامِعِ الْقَدْرَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَفِي غَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي تَتَّوَحَّدُ فِي الدَّلَالَةِ
 الْعَامَةِ. وَتَتَنَاسَبُ مَعَ ذَلِكَ قِصَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي فِيهَا ذَكَرُ الْبَقْرَةِ الَّتِي أَمَرُوا بِذَبْحِهَا،
 وَكَانَتْ عَلَمًا عَلَى السُّورَةِ. (2) وَهُوَ مَا يُشَكِّلُ مَفَارِقَةً بَيْنَهُ الدَّلَالَةَ. وَبِخَاصَّةٍ إِذَا انْضَافَ إِلَى
 هَذَا آيَاتٍ أُخْرَى مِنَ السُّورَةِ: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ
 كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، (3)
 ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ
 سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (4)

تَأْتِي (مَا) فِي سِيَاقِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾ لِتَشْيَعِ جَوْاءَ
 مِنَ الْعُمُوضِ وَالْعُمُوضِ مَعَ الْإِشْعَارِ بِالْأَهْمِيَّةِ وَطَلَبِ الْإِهْتِمَامِ تَوَطُّنَةً لِذِكْرِ نَوْعٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ
 عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ الْبَعُوضُ.

الْبَعُوضَةُ هِيَ حَشْرَةٌ ضَيْلَةٌ الْحَجْمِ مِنْ ثَنَائِيَاتِ الْأَجْنَحَةِ=Diptera تَتَّبَعُ مَجْمُوعَةً
 ضَخْمَةً مِنَ الْحَشْرَاتِ تُعْرَفُ بِاسْمِ (FamilyCulicdae)، وَتَضُمُّ مَا بَيْنَ الْأَلْفَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ
 آلَافٍ نَوْعٍ مِنَ الْبَعُوضِ. وَيَتَكُونُ جِسْمُهَا مِنْ رَأْسٍ، وَصَدْرٍ، وَبَطْنٍ، وَلِهَا ثَلَاثَةُ أَزْوَاجٍ مِنَ
 الْأَرْجُلِ الطَّوِيلَةِ النَحِيلَةِ، وَزَوْجٌ مِنَ الْأَجْنَحَةِ الدَّقِيقَةِ الْقَوِيَّةِ الْقَادِرَةِ عَلَى الْخَفَقِ الْمُتَوَاصِلِ
 السَّرِيعِ الَّذِي يَصُلُّ إِلَى (600) خَفَقَةٍ فِي الثَّانِيَةِ الْوَاحِدَةِ، وَلِهَا قَرْنًا اسْتِشْعَارِيًّا فِي قِمَّةِ
 الْحَسَاسِيَّةِ وَالْكَفَاءَةِ. وَعَيْنُ الْبَعُوضَةِ عَيْنٌ مُرَكَّبَةٌ تَتَأَلَّفُ مِنْ مِائَةِ الْعَيْنِيَّاتِ الْمُسْتَقَلَّةِ

(1) الآية: 22.

(2) الآية: 67.

(3) الآية: 259.

(4) الآية: 260.

تسريحياً المتكاملة وظيفياً، وهو ما يعطيها قدرة هائلة للرؤية بالليل، وبالنهار في كل أطراف الضوء. وأنثى البعوض هي المسؤولة عن الأمراض التي تنقلها إلى الإنسان دون الذكور. وهذه الأمراض عديدة، مثل: الملاريا، والملاريا الخبيثة، وداء الفيل، وديد الحُميات، ومرضى فقد المناعة، وأمراض عصبية فائقة الخطورة، والالتهاب السحائي، وهو ما ينتج عنه موت الملايين في كل العالم.⁽¹⁾ وجاء التعبير بصيغة الإفراد، والتكثير، والتأنيث، وكل ذلك مقصودٌ وداخلٌ في مفهوم القيم المعنوية. فالإفراد داخلٌ في معنى أثر الخطورة التي لهذه الحشرة؛ بل لوادة منها تصيب فرداً في جماعة، وفي قدرتها على الفتك الذي قد يتسبب عنه هلاك فردٍ أو جماعات؛ بل قد يستفحل داؤها في جيش جرارٍ بعدته وعتاده. والتكثير جارٍ مجرى العموم. وهو ينطوي -أيضاً- على معنى جهالة عموم الناس بهذه الآثار، والأنواع، وأسرار الخلق. والتأنيث يشير إلى المعنى العلمي الذي تقدم كذلك. وقد تضمنت (ما) الإشارة إلى هذه الدلالات والتوطئة إلى خطرهما، فهي وصف للمثل. وأي مثل هو؟ وإرهاص بما تُسفر عنه أبحاث العلم وتجاربه. وهذا الكائن خطيرٌ من جهة ما تقدم من اعتبارات، وهو حقيرٌ في عرف اللغة أو التجربة العرفية لاعتبار ضالته واشتمزاز الناس منه، وبحكم العرف الذي تواضعت عليه المجتمعات في النظرة إلى مثل هذه الكائنات، وبخاصة في الأزمنة التي سبقت عصر العلم الحديث. ويُفهم هذا المعنى الجليل في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾،⁽²⁾

والفوقية في الآية هي من معاني الأضداد، فهي تشمل ما دون هذا الكائن، وما هو أعظم منه في الخلق، فالعبرة تتحقق في تأمل مخلوقات الله تعالى، الصغير منها والكبير، فالعالم الخفي الذي لا يدرك بالحواس إلا بواسطة وسائل العلم من أدق الآلات المخترعة

(1) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: البعوض = Mosquito

(2) العنكبوت، 73-74.

حافلٌ بملايين الأنواع من الجراثيم والفيروسات التي تقوم على بعضها علومٌ وتجاربٌ لا حصرَ لها.

ومن أبلغ ما دعا القرآنُ إلى تأمله في هذه العوالم الدنيا ما ورد فيه عن عالم النحل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (1) فقد عَرَفُوا العسلَ من أطيَبِ أشربتهم، ولعلمهم قد أدركوا أن فيه غذاءً نافعًا وشفاءً لبعضِ أسقامهم من تجاربهم في تطبُّبِ الدواءِ والعلاجات، وهو يخرجُ من حشرةٍ قد يستنكفون منها، ويتحاشون أذى لسعها وطنينها. ومن ذلك قصةُ قريةِ النمل التي نطقت واحدةً منها بالحكمة: حكمةٌ تضاهي العبرةَ التي يأنسها البشرُ في حياةِ النملِ وكونه مجتمعًا للعملِ والبناء: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾. (2)

وهكذا يُمَثِّلُ الحرف: (ما) قيمةً تختزلُ معاني ودلالات، وتُشيعُ -متوسِّطَةً السياق- الرغبةَ في التأمُّلِ وقراءةِ المشهدِ بما يتأتَّى من صيغِ الرصدِ وآلياتِ التعمُّقِ والاستغراقِ للمضامينِ المُستَكَنَّةِ في النسقِ الفريدِ المُعْجِزِ.

(1) النحل، الآيتان: 68-69.

(2) النمل، 18-19.

﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾: (1)

تَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ فِي الْآيَةِ مُفِيدٌ لِلْحَضَرِ الْإِضَافِيِّ أَيْ بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَا بِعَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ. وَفِي الْقَصْرِ تَعْرِيزٌ بِأَنَّ أَحْوَالَهُمْ اسْتَوْجَبَتْ الْغِلْظَ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ فِي خُلُقِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِينًا وَانِعْطَافًا رَحْمَةً بِهِمْ لِحِكْمَةِ قَدَرِهَا فِي سِيَاسَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَمَجِيءُ (مَا) بَعْدَ بَاءِ الْجَرِّ لِتَأْكِيدِ الْجُمْلَةِ بِمَا فِيهَا مِنَ الْقَصْرِ، فَتَعَيَّنَ بَكْوْنِ التَّقْدِيمِ لِلْحَضَرِ لَا لِمَجْرَدِ الْإِهْتِمَامِ. (2)

وقد اكتنفت معاني الرحمة واللطف الإلهي مفاصل السورة، وترددت في أعطافها ما يتصل بذلك من مُسْتَتَبَعَاتِ هذه المعاني، وهو ما يُفَسِّرُ ويتصل بظلال المعنى في هذه الآية. وذلك أن رحمة الله التي تجلت في إرساله نبيه إلى أمة سترحم بهذا النبي هو غاية العناية والرعاية الربانية. ومن هنا ارتسمت الصياغة على هذا النحو الفريد. (3)

اختزل الفعل: (لنْتَ) مع فاعله حقيقة لِينِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لأمتيه، وريقة طبعه معهم، وحسن تألفه لهم، وجميل صنعه بينهم، وتلطفه مع آحادهم. وهذه الكلمة المتفردة لينة في تركيب أحرفها، هينة في تكوينها، عظيمة الدلالة على مقصود الآية ومدلولها الخاص.

(1) آل عمران، 159.

(2) ت ت ت بتصرف، 4/144. ن: أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين، نهضة مصر، 1970، ص: 86.

(3) يُرَاجَعُ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الْكَلِمَاتُ وَالْآيَاتُ: الْأَرْحَامُ: 6، رَحْمَةٌ: 8، وَرِضْوَانٌ: 15، وَقَبُولُ مَرْيَمَ -عَلَيْهَا السَّلَامُ- بِقَبُولِ حَسَنٍ، وَرِزْقُهَا وَهِيَ فِي الْمِحْرَابِ، وَإِجَابَتُهُ دَعْوَةَ زَكْرِيَّا -عَلَيْهِ السَّلَامُ- فِي الْآيَاتِ مِنْ 36 إِلَى 40، وَبِشَارَةُ مَرْيَمَ: 45، وَرَحْمَتُهُ بِعَيْسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِرَفْعِهِ إِلَيْهِ: 55، وَالِاخْتِصَاصُ بِالرَّحْمَةِ: 74، وَالصَّفَةِ: رَحِيمٌ: 89، وَتَأْلِيْفُهُ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَنِعْمَةُ التَّأَخِي، وَإِنْقَادُهُمْ مِنَ النَّارِ: 103، وَالخُلُودُ فِي رَحْمَتِهِ: 107، وَالبُشْرَى وَالتَّمَانِينَةُ فِي الْقِتَالِ: 126، وَالصَّفَاتَانِ: غَفُورٌ - رَحِيمٌ: 129، وَالنَّهْيُ عَنِ الْوَهْنِ وَالْحَزَنِ: 139، وَالعَفْوُ: 152، وَالْأَمْنَةُ: 154، وَرِضْوَانُ اللَّهِ: 162، وَفِرْحُ الشَّهَادَةِ وَاسْتِنْبَازِهِمْ: 170 - 171، وَاسْتِجَابَتُهُ لَهُمْ، وَالتَّوَابُ: 195.

﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾: (1)

جاءت (ما) في الآية توطئة لسرد مثالب القوم وأنواع جرائمهم، فهي تفيد تعظيم ما أتوه من نقض الميثاق. وابتداءً ذلك بنكوصهم عن العهد الذي أخذه الله -عزَّ وجلَّ- عليهم بإيمانهم بدعوة موسى عليه السلام واتباع ما جاءهم به، حتى إذا نجوا من فرعون وجنوده، وتوالت عليهم النعم التي توسعت سورة البقرة في تعدادها، (2) شرعوا في استخفافهم بموسى وهارون -عليهما السلام- بخذلانهم للحق، وإعظامهم للفرى، وتواصيهم بالباطل، وجرأتهم على الله تعالى، واستهزائهم بالشعائر، وما أعقب ذلك في عصور التحريف والكذب على الله سبحانه، وتخليهم عن أوجب الواجبات: من إخلاص التوحيد، فما دُونَ ذلك مما افترضه الله عليهم: فعلوا كُلَّ ذلك حتى صاروا مثلاً بين الأمم في الخسة وانحطاط الأخلاق. وكانوا أحرىء بشكر النعمة والإخلاص لله المستحق لثنائهم وعرفانهم، إذ نجَّاهم من عدوهم، ومن عهد السخرة والاستعباد، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً. وتمحَّض في الآية من ذلك نقضهم للمواثيق. ويستتبع هذا نكث الأيمان، وخيانة العهد، وتأبئهم على الحق لما في قلوبهم من القساوة، ويستتبع -أيضاً- تحريف الكتاب، ونسيانهم لِعِبَرِ الأولين، وصدودهم عن التعاليم اتِّباعاً لأهوائهم؛ وتفادياً للتكاليف والوصايا؛ وارتكاباً للنواهي التي في الألواح التي هي أصلُ الشريعة. ثمَّ كان تألُّبهم على دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخيانتهم له، ونقضهم لحلفه وعهده بتواطئهم مع مشركي مكة والقبائل

(1) المائدة، 13.

(2) ن: التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمَّار، 1998، ص: 312.

ليغدروا بالنبي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في أسفارهم. (1) كان ذلك أعظم إجرامهم وأكبر انتقاصهم

على الحق ودعوتِهِ، وتطليهم طُرُق الضلال، وانحرافهم إلى تشعباتها، وعمائيتهم عن الطريق السوي، فالطريق السوي لا يُخوج السائر فيه إلى الروغان في ثنياتٍ قد تختلطُ عليه وتُفسي به إلى التيه في الضلال.

ومما تتبني عليه السورة موضوعات تتعلق بالالتزام الأخلاقي، والأدبي، والديني؛ ولهذا فإن احترام المواثيق وعدم نقض ميثاقه -تعالى- أمرٌ رفيع القدر ظاهر الأثر، وهو ما نتبينه في معنى هذه الآية، وفي ما يتصل بذلك من آيات السورة وموضوعاتها الأساسية. (2)

وهكذا يتبين دور (ما) في إثراء المعنى، وتأسيس الدلالة، وإرساء جانب من المقاصد العامة للسورة من خلال تظافر القيم المعنوية أو الخصائص التعبيرية على دعم المدلولات السياقية.

وتقديم المجرور مفيد للحصر الإضافي أي أن نقض ميثاقهم أمرٌ حقيقٌ باعتباره دون سائر عظام ذنوبهم، فقد ذُكر في سياق آية المائدة بلا معاطيف كالتي وردت في آية النساء التي تأتي قريباً. (3) وهذا النقض ينطوي -لا محالة- على أعمالهم المفيدة كفرهم ومروقهم من الشريعة، فهو يتضمن كل بوائقهم ومعاصيهم. وهذا مفيدٌ للتعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبةً تقريرهم، وفضيحتهم بين الأمم، وتسليط طبايعهم التي اكتسبوها بنزوعهم إلى العصيان على قلوبهم، حتى استوجبوا أنواعاً عديدةً وفرقاً شتى من العقوبات

(1) " (21-13): وَخِي مِنْ جِهَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ فِي الْوَعْرِ: فِي بِلَادِ الْعَرَبِ تَبَيَّنَ يَا قَوَائِلَ الدَّانِيَّيْنَ. (21-14): هَاتُوا مَاءً لِمُلَاقَاةِ الْعَطْشَانِ! يَا سَكَّانَ أَرْضِ تِيْمَاءَ وَأَفْوَا الْهَارِبِ بِخُبْرِهِ! (21-15): فَأَبَاهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا: مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُوقِ، وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ. (21-16): فَإِنَّهُ هَكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ كَسَنَةِ الْأَجِيرِ يَفْنَى كُلُّ مَجْدٍ قَيْدَارٍ. (21-17): وَبَقِيَّةُ عَدَدِ قَيْسِي أَنْطَالِ بَنِي قَيْدَارٍ تَقُلْ؛ لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ قَدْ تَكَلَّمَ، موسوعة الكتاب المقدس، العهد القديم - كُتُبُ الأنبياء - سفر أشعياء، إصحاح: 21 - عدد: 13 إلى 17، 29/3.

(2) راجع الآيات: 1-3-7-12-13-14-20-44-64-66-70-78-82-119 من سورة المائدة.

(3) ن: ص: 58 من هذه الدراسة.

الإلهية: منها ما تقدّم، ومنها تشريديهم في أصقاع الأرض. وابتدأ ذلك بالتيه الذي كان على عهد موسى عليه السلام، ثم مسح البعض قردة خاسئين، كما وقع في حاضرة البحر:

إيلياء. (1) فورود (ما) بعد باء الجر لتأكيد الجملة بما فيها من القصر الإضافي، فتعين بؤرودها كون التقديم للحصر، لا لمجرد الاهتمام. (2)

وفي آية النساء: ﴿فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقْتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (3) يرد الميثاق، وقد ورد في آيتين أخريين من سورة النساء: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، (4) ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾. (5) وقد تضمنت هذه الآية أصول جرائم التي تنوعت بين الكفر الاعتقادي والكفر العملي: سواء كان فعليًا أو قوليًا. وأول ذلك في الآية نقض الميثاق: الميثاق الذي أول لوازمه التوحيد وإخلاصه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، (6) وقال -تعالى- من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، (7) ثم سائر ما يجب الوفاء به تعبدًا لله تعالى. وثاني ذلك في الآية كفرهم بالآيات، وثالث هذه الأمور: قتل الأنبياء، وكفى به جرمًا ومحادثة لله عزَّ

(1) راجع الآيات: 88 من سورة البقرة - 26-60 من سورة المائدة، والآيات: 163 إلى 167 من سورة الأعراف، وغيرها... ن: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري، (م)، 230/15-299/13.

(2) ن: ت ت ت، 144/4.

(3) الآية: 155.

(4) الآية: 21.

(5) الآية: 90.

(6) الأعراف، 172.

(7) الآية: 63.

وَجَلَّ! وَأَخْرُهَا: عَزَّتْهُم بِالْإِثْمِ وَإِصْرَارِهِم الْعَظِيمِ عَلَى الْإِسْتِخْفَافِ، وَالْإِعْرَاضِ، وَالْعِنَادِ. وَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: قُلُوبُنَا غُلْفٌ. (1) وَقَدْ تَنَوَّعَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي آيَاتِ السُّورَةِ، (2) وَجَمَعَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَقْسَامَ ذَلِكَ، وَصُدِّرَتْ بِالْمِيثَاقِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ أَصُولَ الدِّينِ وَالْعَمَلِ. وَتَمَّ التَّمْهِيدُ لِذَلِكَ بِ(مَا) الْبَلِيغَةِ لِلأُوجِهِ الَّتِي تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهَا. (3)

وَمُتَعَلِّقُ قَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا نَقُضِهِمْ﴾ مُضْمَرٌ لِنَدَّهَبِ الْخَوَاطِرُ فِي تَصَوُّرَاتِ الْهَوْلِ. وَتَقْدِيرُهُ: فَعَلْنَا بِهِمْ مَا فَعَلْنَا. وَيَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، (4) وَمَا بَيْنَهُمَا مُسْتَنْطَرِدَاتٌ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾، (5) كَالْفَذْلِكَةِ الْجَامِعَةِ لِغَضَائِمِهِمُ الْمَسْرُودَةِ مِنْ قَبْلِ. وَلَا يَصْلُحُ تَعْلِيْقُ الْمَجْرُورِ بِ(طَبَعَ)؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ رَدًّا عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَعْطُوفَاتِ الطَّالِبَةِ لِلتَّعَلُّقِ؛ لَكِنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (طَبَعَ) قَرِينَةً عَلَى الْإِضْمَارِ وَدَلِيلًا عَلَيْهِ. وَهَذِهِ الْأَحْدَاثُ تُطَلَّبُ فِي مَوَاضِعِهَا مِنَ الطُّوَلِيِّينَ وَالنِّسَاءِ. (6) وَتَقَدَّمَ الْمُتَعَلِّقُ لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ، وَهُوَ أَنْ لَيْسَ التَّحْرِيمُ إِلَّا لِأَجْلِ مَا صَنَعُوهُ، فَالْمَعْنَى: مَا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ إِلَّا بِسَبَبِ نَقْضِهِمْ. وَأَكَّدَ مَعْنَى الْحَصْرِ وَالسَّبَبِيَّةِ بِ(مَا) الْبَلِيغَةِ، فَأَفَادَتِ الْجُمْلَةُ حَصْرًا وَتَأَكِيدًا. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفَاتِ. وَالطَّبَعُ: إِحْكَامُ الْغَلْقِ بِجَعْلِ طِينٍ وَنَحْوِهِ عَلَى سَدِّ بَحِيثٍ لَا يَنْفُذُ إِلَيْهِ مُسْتَخْرَجٌ. (7)

(1) النِّسَاءِ، 155.

(2) تُرَاجِعِ الْآيَاتِ: 44-55-60-153-165... مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ. مَعَ مَا اسْتَوَطَّنَ نَفْسَهُمْ مِنَ الْبِلَادَةِ وَجَمُودِ الطَّبَعِ مَعَ ذَهَابِ الْحَمِيَّةِ. ن: تَأْمَلَاتِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مُحَمَّدٌ بَاجُودَةَ، مَكْتَبَةُ مِصْرَ، 1992، 398/1.

(3) ن: ص: 56 مِنْ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ.

(4) النِّسَاءِ، 160.

(5) السَّابِقِ، 160.

(6) ن: مُعْجَمُ عُلُومِ الْقُرْآنِ، إِبْرَاهِيمُ الْجَرْمِي، دَارُ الْقَلَمِ، 2001 م، ص: 243.

(7) ت ت ت بتصرف، 17/6، ن: تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبَيَانُهُ وَإِعْرَابُهُ، مُحَمَّدُ الدَّرَّةُ، دَارُ الْفِكْرِ، 2002 م، 321/3.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرَقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾: (1)

هنا استدلالٌ بِشَوَاهِدٍ مِنْ نِظَامِ أَحْوَالِ الحَوِّ الَّتِي تَسِيرُ وَفَقَ نَوَامِيسِ القُدْرَةِ والحِكْمَةِ الإلهية بَعْدَ تَوَالِي النِّظَائِرِ المَسْرُودَةِ المَذْعَنَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ السُّورَةِ: مِنْ ذَلِكَ الشَّجَرَةُ المَبَارَكَةُ فِي الآيَةِ: (35)، وَالقُلُوبُ المُؤْمِنَةُ المَسْبُحَةُ فِي بِيوتِ اللَّهِ -تَعَالَى- فِي الآيَاتِ: (36-38)، وَالبحرُ اللُّجِّيُّ بِظِلْمَاتِهِ فِي الآيَةِ: (40)، وَالعِجْمَاوَاتُ الَّتِي مِثَالُهَا الطَّيْرُ بِمَا أُودِعَتْ مِنْ قَوَانِينِ الإِلْهَامِ وَالهَدَايَةِ مَسْبُحَةً لِلَّهِ -تَعَالَى- فِي الآيَةِ (41) مَعَ مَا تَخَلَّلَ ذَلِكَ مِنْ عَرَضٍ لِحَالِ الكَافِرِينَ الَّذِينَ آوَا إِلَى الخِسرَانِ مَعَ مَا غَرَّهَمَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا بِهَا غَيْرَ وَجْهَهُ تَعَالَى، وَهَمَّ مُتَوَافِرُونَ عَلَى دَوَاعِي القَبُولِ وَالتَّسْلِيمِ بِالحَسِّ وَقُوَى الإِدْرَاكِ وَالتَّعَقُّلِ، فَأَهْمَلُوا ذَلِكَ، وَانصَاعُوا لِنَوَازِعِ الضَّلَالِ، وَذَلِكَ فِي الآيَةِ: (39).

وَسَوَّقُ السَّحَابِ، وَالتَّأْلِيفُ بَيْنَهُ بِضَمِّ بَعْضِهِ إِلَى بَعْضٍ وَجَعْلِهِ مُتْرَاكِمًا، وَنَزْلُهُ بِالغَيْثِ وَالبَرْدِ آيَةٌ كَوْنِيَّةٌ تَضَمَّنَتْ نَفْعَ قَوْمٍ وَضُرَّ آخَرِينَ مِمَّنْ يَنَاسِبُ نَكْرَهُمْ مَقَامَ الإِعْتِبَارِ مِنْ صَنُوفِ أَهْلِ الإِيمَانِ، وَأَهْلِ الفِسْقِ وَالعِضْيَانِ، وَمرضى القلوبِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ الَّذِينَ يَأْتِي نَكْرَهُمْ -صِرَاحَةً- فِي الآيَةِ: (50)، وَهَمَّ -جَمِيعًا- الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُ أَنوَاعِهِمْ فِي السُّورَةِ مِنْ مُبْتَدئِهَا. وَمِنْ ذَلِكَ خَبَرُ حَدِيثِ الإِفْكِ فِي الآيَةِ السَّادِسَةِ مِنَ السُّورَةِ، وَمَا تَلَاهَا.

(1) النور، 43-44. الخلال: مخارج الماء من السحاب، والبرد: المطر الجامد، والودق: المطر شديد وهينته، والريخ: ترحي السحاب تسوقه. ن: لسان العرب، المواد: (برد- ودق - خلل - زجو)، 3/82-10/372-14/355.

السُّحْبُ الممطرُ تبدأُ على هيئةِ وحداتٍ يتألفُ عددٌ منها في مجموعاتٍ هي السُّحْبُ الركاميةُ ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا﴾ أي التي تنمو في الاتجاه الرأسي، وترتفع قممها إلى علو (15كم) أو (20كم)، فتبدو كالجبال الشامخة. وهذه السُّحْبُ تكونُ مشحونةً بالبرد والكهرباء، وقد يتردّدُ حدوثُ البرقِ بواقع (40) تفريغاً في الدقيقة، ويتأثرُ بصَرُ الراصدين من الطيارين، والملاحين، والهواة الذين يخرقون العواصف الرعدية في المناطق الحارة في هذه الأجواء الطقسية الخاصة. (1)

وبخارِ الماءِ الصاعدِ إلى الجوّ من البحرِ واليابسِ تدفعه حركةُ الرياحِ جانبياً ورأسياً على هيئةِ هوائٍ رطبٍ إلى مناطقٍ أبردٍ أو أقلَّ ضغطاً، فيبدأُ فيه التكتُّفُ على هيئةِ قُطيراتٍ متناهيةِ الدقّةِ من الماءِ، فتتكونُ السُّحْبُ، ثمَّ تدفعُ تياراتُ الرياحِ بهباءاتِ الغبارِ وغيرها من جزيئاتِ التكتُّفِ إلى داخلِ السُّحْبِ، فتُعِينُ على المزيدِ من تكتُّفِ بخارِ الماءِ ونُموِّ قُطيراتِهِ إلى الحجمِ الذي يسمحُ بنزولها مطراً، أو برداً، أو ثلجاً. وتدفعُ الرياحُ السُّحْبَ المُثقلَةَ إلى مناطقِ التجمُّعِ أو مناطقِ الهطولِ المقدّرة، فتستقبلُ صخورُ الأرضِ، وفجاجُها، ومسطحاتها المائيةُ ما ينزلُ من المطرِ، والبردِ، والثلجِ، فتتكونُ دورةُ الماءِ الكونيةُ بتسخيرِ الله وحكمته. والسُّحْبُ الركاميةُ عبارةٌ عن أكوامٍ من السُّحْبِ المكدّسةِ فوق بعضها على هيئةِ سلاسلِ الجبالِ يقطعها ما يُشبهُ الأخاديدَ والأوديةَ العميقة، وتتكونُ بلُوراتٍ من الثلجِ في قمةِ جبالِ السُّحْبِ الركاميةِ يليها إلى أسفلِ حُبّباتُ البردِ وقطراتُ من الماءِ شديدِ البرودة. والسُّحْبُ الركاميةُ هي النوعُ الوحيدُ من السُّحْبِ المعروفةِ لنا التي يصحبها ظواهرُ الرعدِ، والبرقِ، ونزولِ البردِ والثلجِ. وتتعدّدُ السُّحْبُ التي على هيئةِ سلاسلِ الجبالِ بتعدّدِ التياراتِ الهوائيةِ الصاعدةِ إلى داخلها المرتفعةِ بمكوناتها إلى أعلى مستوياتٍ تصلها قوةُ اندفاعِ تلكِ التياراتِ الصاعدة. وهذه التياراتُ الهوائيةُ تكونُ في أعلى

(1) من أسرار القرآن: الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالاتها العلمية بتصريف، زغلول النجار، صحيفة الأهرام- قضايا وآراء، عدد: (42168- 20 مايو- 2002 م. ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عناوين: السُّحْبُ = cloud- البرق= lightning .

سرعاتها في وسط الشُّب، وتتضاءل سرعاتها على الأطراف، فيظهر تأثيرها على هيئة النافورات المتدفقة بمائها إلى أعلى. والتعبير بالرَّكْم يصوِّر مدى التكوُّم، والتراكم، والتراكم، ومدى التكس. (1)

والخلال في الآية الشقوق، والفتوق، ومخارج الماء من السحاب. وقد ثبت علمياً أنه بتباطؤ سرعة التيارات الهوائية الصاعدة أو توقفها تتكون مناطق خلخلة في قاعدة الشُّب الركامية، فينزل منها الماء من مناطق الخلخلة. ومصدر الشُّخَنَات الكهربائية المندفعة من الشُّب الركامية إلى سطح الأرض، وبالعكس أثناء هطول كلِّ من الأمطار والثلوج يوجد على ارتفاعات تكاد تنحصر بين سطحين في الغلاف الغازي للأرض تتراوح درجتا حرارتهما من (15) درجة مئوية تحت الصفر إلى (25) درجة مئوية تحت الصفر. وعلى الرغم من اختلاف أنواع الشُّب الركامية مكاناً، وزماناً، وبناءً، وفي عوامل التكوين؛ إلا أن هذا الحيز الحراري يبقى ثابتاً. ويصحب عملية تكوُّن كلِّ من الثلج والبرد تخلُّق مجال كهربائي إذا وصل تركيز بلورات الثلج في الحيز المحصور من (-15م)، إلى (-25م) إلى (10) بلورات في اللتر الواحد. (2)

من هنا توصل العلماء في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين إلى أنَّ البرد - بمعناه الواسع - هو السبب الرئيس في تكوُّن ظاهرة البرق التي يصاحبها الرعد. (3)

وما ينزل إلى الأرض من جبال البرد والجليد تستقبل الأرض سواءً ممَّا تُقدِّف به من الحديد الذي ينزل على هيئة نيازك، وما ينزل إليها من مكونات هذه النيازك والشهب من صخور ومعادن مختلفة هو ممَّا تشير إليه الآية ضمناً في صياغتها المحكمة: ﴿وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾. ويدخل الحديد في تركيب نوع من الصخور النارية، وهي الصخور القاعدية وفوق القاعدية التي تميل إلى السواد بسبب من دخول عنصري

(1) السابق والموضع بتصريف.

(2) السابق والموضع بتصريف.

(3) السابق والموضع بتصريف.

الحديد والماغنيسيوم في تركيبها. قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾. (1)

الحديد لا يتكوّن في الجزء المدرك من الكون إلا في مراحل محددة من حياة نجوم تسمى بالعماليق الحمرة والعماليق العظام، وهي التي بعد أن يتحوّل لُبّها بالكامل إلى حديد تنفجر على هيئة المُستعرّات العظام. وبانفجارها تتناثر مُكوّناتها -بما فيها الحديد- في صفحة الكون، فينجذب الحديد إلى حيز أجرام يدخل في تركيبها. وقد كانت الأرض كومة رماد، فانصهر المعدن بحرارة الاستقرار في قلب الأرض. وتصل النيازك الحديدية إلى الأرض بملايين الأطنان كلّ عام. (2)

يتحقّق دور (من) الجارة البليغة في تجلية دقّة المعنى وترسيخ الدلالة العلمية باتساع المدلول، بحيث يستوعب السياق إشارات متنوعة يتحقّق من خلالها شمول المقصود وعموم الحقيقة الكونية. فالحرف في قوله: ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾ يفيد الابتداء لغة، وهذا يشير إلى مبتدأ نزل المطر من السحاب، كما تقدّم، وهو ما يدعو إلى تمثّل مناطق الخلخة في الغيوم مع ملاحظة علاقة هذا الاصطلاح العلمي -أي الخلخة- بكلمة: (خلال) الواردة في الآية من حيث الاشتقاق. وهنا تصوير دقيق لمناطق التخلخل في قاعدة السحب الركامية التي ينزل من شقوقها الماء، وهو المعنى الذي يبيّنه الحرف، ويُجسّد صورته.

(1) فاطر، 27. ن: من أسرار القرآن، صحيفة الأهرام، عدد: 42070 - 11 فبراير - 2002 م. والخُدد: جمع جُدّة، وهي الطرائق في الجبل تُخالِف لونه. ن: لسان العرب، مادة: (جدد)، 107/3.

(2) ومن إشارات الإعجاز العجيبة كون سورة الحديد تحمل الرقم: (56) في ترتيب المصحف، إذا استثنينا سورة الفاتحة التي وصفها القرآن بأنها السبع المثاني، وعطفت على هذا الوصف القرآن العظيم في سورة النحل 87: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، وهو الوزن الذري لأحد نظائر الحديد الثلاثة، كما أنّ الآية التي ذكر فيها هذا العنصر الذي جعل علماً على السورة تحمل رقم: (26) بإضافة البسمة إلى عدد أي سورة الحديد، وهو العدد الذري لهذا العنصر: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، (النساء، 166). من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 41958، 22 أكتوبر - 2001. ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الحديد والفولاذ = steel Iron and، والموسوعة الذهبية، ص: 106.

تردُ (من) البليغةُ في قوله تعالى: ﴿وَيُنزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ في موضعين تؤدي فيهما وظيفة دلالية، إذ هي في السياق جزء من الصياغة الجمالية التي يتَمَحَّضُ عن رسم مُكَوِّنَاتِهَا بنيةً معنويةً خاصةً تفيضُ بالأهمية من حيث تعميقُ البعدِ المعرفيِّ أو النظرِ العلميِّ ظاهرِ التأثيرِ والوضوح. وفي كلا الموضعين أعدّها تَبْعِيضِيَّةً، فالموضعُ الأولُ إشارةٌ إلى أن من بين ما ينزل إلى الأرضِ جبالَ البردِ وغيرها، ففي عدادِ ما ينجذبُ إلى المجالِ الجويِّ للأرضِ الكثيرُ من المعادن، والصخور، والموادِّ المختلفة، فصفحةُ الكونِ تُعجُّ بالأجسامِ الطائرةِ والنيازكِ الهائمةِ التي تتساقُ إلى مجالِ جاذبيةِ سطحِ من أسطحِ الكواكبِ كالأرضِ لتَقْتَحِمَ حَيَرَهُ المغناطيسي، وتهويَ إلى سطحه، أو لتخترقَ القشرةَ الخارجية، وتستقرَّ في عمقٍ من أعماقِ الكوكب. قال -تعالى- في سورة الحديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. (1)

في الموضع الثاني تأتي (من) لتشيرَ إلى البردِ وغيره مما تحتوي عليه السُّحُبُ الركاميةُ كِبَلُورَاتِ الثلج. وهذا تنوعٌ للمشهدِ بحيثُ يشملُ أكثرَ من مكوّن، فِبَلُورَاتُ من الثلج في قمةِ جبالِ السُّحُبِ الركاميةِ يليها إلى أسفلِ حُبَيْبَاتُ البردِ وقطراتُ من الماءِ شديدِ البرودة هي عناصرُ هذا المشهدِ.

ويعودُ الضميرُ المتصلُ في قوله تعالى: ﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ على البردِ مما يؤكدُ على دورِ البردِ في إحداثِ ظاهرةِ البرق. وقد ثبت هذا علمياً في العقودِ الأخيرة، كما تقدّم. ومؤدّي ذلك كُلِّهِ أَنَّ اختلافَ أنواعِ السُّحُبِ الركاميةِ مكاناً، وزماناً، وبناءً، وفي عواملِ التكوينِ يصحبُهُ ثباتُ الحيزِ الحراري. وأيضاً، فإنَّ عمليةَ تكوّنِ كلِّ من الثلجِ والبردِ يصحبُها تَخَلُّقُ مجالٍ كهربائيٍّ هو الأساسُ في إحداثِ الظاهرة.

(1) الآية: 25.

1411 لَامُ التَّعْرِيفِ:

11411 زَمَنُ الْوَحْيِ:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: (1)

وردت (أل) في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ للعهد (2) أي ذلك الكتاب الذي أُنزل من السماء بصدق ما فيه من حقائق لا ريب فيها. وهو ما يفيد الاستقلال في الاستدلال، كما أن هذه اللام تفيد بيان الجنس أي أن هذا الكتاب هو من جنس الكتب؛ إلا أن له سمًا ووصفًا ممتازين، فهو خالٍ عن مظنة الارتياح في حقيقته، وهدي في تعاليمه، ونور في جوهره.

"واللام للعهد، والمعنى أن هذه السورة هي الكتاب أي العمدة القصوى منه، كأنها في إحراز الفضل كل الكتاب المعهود الغني عن الوصف بالكمال لاشتهاره به فيما بين الكتب على طريقة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الْحَجُّ عَرَفَةٌ]*، وعلى تقدير كون المسمى كل القرآن، فالمراد بالكتاب الجنس، واللام الحقيقة، والمعنى أن ذلك هو الكتاب الكامل الحقيقي بأن يخص به اسم الكتاب لغاية نفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس، كأن ما عداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه، كما يقال: هو الرجل". (3)

(1) البقرة، 2.

(2) ن: شرح ابن عقيل، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، 1985، 178/1.

(3) إرشاد العقل السليم، 23/1. * سنن الترمذي، 237/3. ن: سنن الدارقطني، ت: عبد الله المدني، دار المعرفة، 1966، 240/2، والمستدرك على الصحيحين، 635/1، وإرواء الغليل للألباني، المكتب الإسلامي، 1985، 256/4. ذكر الزمخشري أن (أل) لها ما للتعريف من الفخامة. ن: الكشاف، 37/1، وتفسير القرآن العظيم، 162/1

وفي سياقٍ آتٍ من السورة تُعَبِّرُ كلمةُ الْكِتَابِ -مع هذه اللامِ الَّتِي للعهد- عن كتابٍ آخرٍ معهودٍ عندَ أصحابِهِ -وهم اليهود- إشارةً إلى التوراةِ قَبْلَ التحريفِ، حيثُ عُبِّرَ عنها بلفظِ الْكِتَابِ أيضًا، فيتولى السياقُ بيانَ المقصودِ مع ما في لفظِ التلاوةِ من دلالةٍ على المعنى المراد: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾⁽¹⁾.

"الْكِتَابُ بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ: وَهُوَ اسْمٌ جِنْسٍ لِمَا يُكْتَبُ، وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ هَذِهِ الرُّقُومُ وَالنُّقُوشُ ذَاتُ الْمَعَانِي. وَالْإِشَارَةُ تُفِيدُ التَّعْيِينَ الشَّخْصِيَّ أَوْ النَّوْعِيَّ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ -هُنَا- نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْكُتُبِ؛ بَلِ الْمُرَادُ كِتَابٌ مَعْرُوفٌ مَعْهُودٌ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِوَصْفِهِ، وَذَلِكَ الْعَهْدُ مَبْنِيٌّ عَلَى صِدْقِ الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ بِأَنَّهُ يُؤَيِّدُهُ بِكِتَابٍ تَامٍّ كَامِلٍ كَافِلٍ لِبَطْلَابِ الْحَقِّ بِالْهُدَايَةِ وَالْإِزْشَادِ فِي جَمِيعِ شُؤْنِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ".⁽²⁾

ولامُ التعريفِ في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جاءت في هذا السياقِ لاستغراقِ الجنسِ. وعلامةُ ذلك أن تصلحَ (كُلُّ) للوقوعِ موقعها أي كُلُّ المتقين، أو أَنْ (أل) لتعريفِ الحقيقة⁽³⁾ أي لتمييزِ هذه الجماعةِ الموصوفةِ بهذا الوصفِ عن أهلِ الضلالِ والغواية؛ إذ إنَّ من اليسيرِ استحضارَ ذِكْرِهِمْ أو معرفةَ وصفِهِم عند قراءة الآية. وكلا المعنيين أي الاستغراقِ وتعريفِ الحقيقةِ ممكنٌ في الفهمِ في هذا المقامِ.

(1) البقرة، 44.

(2) تفسير المنار، محمد رشيد رضى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، 104/1.

(3) ن: شرح ابن عقيل، 178/1.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾: (1)

يتكرّر وقوع أداة التوكيد في الآية لكونها ينضوي تحتها ويتصل بها مجموع الحقوق والواجبات، وما يلزم الوفاء به ممّا تضمنته السورة من أولها. ومن ذلك الأمر بتقوى الله تعالى، وصلة الرّحم، وحفظ حقوق اليتامى، وكذلك عدل الرجل بين نساءه، وفي يتامى النساء، ودفع الحقوق والصّدقات إليهن، وحفظ أنصباة الوارثين بالفروض والعصبات في التركات. (2)

وأمانة التوحيد والإخلاص لله -مع صدق النية ودرء الرياء وأخلاق المنافقين- هي أعظم الأمانات وأوجب الواجبات. قال -تعالى- في سورة النساء:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. (3) وكون التوحيد كذلك يتأكد من تكرار هذه العبارة في هاتين الآيتين. وقد صُدّرتا بأداة التوكيد: (إِنَّ). وتكرّر ورود هذه الأداة في قوله -تعالى- من السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. (4) ووجه هذا الاهتمام تعويل السورة من آياتها الأولى -وفي أكثر من موضع- على تعظيم حقّ اليتيم وحرمة ماله مع التشنيع على انتهاكه والتعدي عليه. وذلك ناشئ

(1) النساء، 58.

(2) ن: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، دار الفكر، 1992، 405/10.

(3) النساء، 48-116.

(4) السابق، 10.

من احتقائه الشارع واهتمامه بضعفائه المجتمع ومن هم في حكمهم ممن هم مظنة استضعاف المتربصين من أهل الجشع وقلّة المرورة الذين تستهويهم النساء المَطْمُوعُ فيما يحزنه من مال، أو تجارات، أو ما يرثه من حقوق التركة. وكذلك اليتامى، والمساكين، وأهل الفاقة والعوز الذين لهم حقوقٌ مُستَحَقَّةٌ في ثروات الأفراد، وفي ثروة المجتمع: منعها والتعدي عليها داخل في معنى أكل النار في البطون. واسمٌ وموضوعُ السورة الأبرز يؤكد على المعنى المتقدم.

وتقديم لفظ الجلالة في الآية يردُّ لتربية المهابة في النفوس، وتفخيم الأمر الصادر من الجناب العليّ؛ ولأجل انعطاف القلوب إلى الفحوى. والتوطئة بالأداة لترسيخ التأكد وعطف الذهن إلى علو القضية في ميزان القرآن العظيم

وقد جاء معنى الأمر في الآية بصيغة (المضارع) متبوعاً بالمصدر المؤول: (أن تؤدوا) تفصيلاً في العرض وتوسعاً في بناء الجملة لإظهار الاهتمام وتحقيق تهيو السامع لأمر عظيم تحرضُ السورة على بيان أهميته ومكانته في آيات متفرقة منها. من ذلك القيام بشهادة الحق مع القسط في أداء هذه الأمانة العظيمة، وهي أمانة الشهادة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾⁽¹⁾. وتنتهي الجملة ببيان من تُؤدى إليهم الأمانات، وهم أهلها، فبيان الغاية هو زيادة في إتمام الفائدة وربط للمعنى حتى يتم استحضار طرف الصورة الأبعد، وهم المستحقون للأمانات عند المأمورين بالأداء. وفي هذا تربية للخشية والالتزام بإيصال الحقوق إلى أهلها.

وورود (إن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ بناءً على التوكيد المتقدم بقرينة مجيء لفظ الجلالة تالياً للأداة هنا أيضاً، وهو تماثلٌ يحقق التمثل، ويرسخ تقوية الوعظ للأمر، ويعيد الفحوى بشيء من التطابق تحقيقاً لاستبعاد الغفلة أو الإغفال.

(1) النساء، 135.

وتحوي الجملة معنى الثناء على الأمر الإلهي ظاهراً وتحريضاً على القيام بالفعل بدلالة فحوى الكلام عليه.

ويتكرّر ما تقدّم في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيحًا بَصِيرًا﴾، وهو تساوق في التركيب يَعَكْسُ طَلَبَ تَرُدِّ المعنى في الذهن، ويبتني سياق الكلام على تكرار بعض أجزائه، وهو ما يعين النفس على تقبل الأمر، فهي تأنس بالترديد وإعادة استقبال المقصود. وترد هذه الجملة تذييلاً للكلام ليضفي عليه معنى إحاطة العلم الإلهي بالمفترطين المضيعين لأماناتهم، وبأهل الظلم الحاكمين بغير عدالة الإسلام وعدله، وبأهل الخشية والتقوى المحافظين عليها. (1)

"وَالْعَدْلُ: إِعْطَاءُ مَنْ يَسْتَحِقُّ مَا يَسْتَحِقُّ، وَدَفْعُ الْإِعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ عَلَى الْمَظْلُومِ، وَتَدْبِيرُ أُمُورِ النَّاسِ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ". (2)

3411 إِنْ الشَّرْطِيَّةِ

13411 مِنْ دَعَاوِي الْمَنَافِقِينَ

﴿أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: (3)

هذه زمرة من فريق المنافقين الذين تهاونوا بمقام النبوة بالاجترار على النبي -صلى الله عليه وسلم- وإبداء الزرارية بشخصه الكريم؛ وذلك لما بلغه أمرهم من كراهتهم لدعوته

(1) سأعود إلى تفصيل القول وعرض أوجه أخرى من قيم ودلالات هذه الآية عند الحديث عن الوظائف البلاغية للكلمة في أول فصول الباب الثاني، ن: ص: 193 من هذه الدراسة.

(2) ت ت ت، 8-أ/20.

(3) النساء، 78-79.

الَّتِي اسْتَوْتَنَّتْ قُلُوبَهُمْ، فلم يعودوا يطيقون إخفاء الاستهانة بتعاليمه وآثار دعوته بين المسلمين، وهذا فريق ضلالٍ وغوايةٍ لا يخلو منه عصرٌ من عصور الأمة الإسلامية، ولا تاريخٌ من تواريخ الكُتُبِ السماوية. وقد يسودُ في مجتمعٍ من مجتمعات النبوة حتى يطغى على غيره، كما حدث في عصر نبوة موسى عليه السلام، وهو ما حفظ الله -تعالى- أمة الإسلام منه، ومن استتباب الأمر لدعاية هذا الفريق بحيث يغلب على المجتمع المؤمن الانقيادُ لأساليب التبرُّم بقيم الدين وشرائعه الحقيفة. وما زال لهذا الفريق مددٌ ومؤازرةٌ من اليهود الذين هم عرفاء هذا النمط العجيب من المداورة، والتشغيب، وإثارة الفتن، وهو عين ما حدث في عصر الرسالة حين ادعى المنافقون الرغبة في القتال والخروج إليه، إذا أمروا بذلك، فلما نزل الأمر بالقتال، جَبُنُوا حتى عن التظاهر بإبداء الرغبة في النفير: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾. (1)

وإنَّ الشَّرْطِيَّةَ الَّتِي يَغْلِبُ وَقُوعُهَا فِي الشَّرْطِ الْمَشْكُوكِ وَقُوعُهُ أَيَّ فِي سِيَاقِ الشَّلْكِ بَعْضِ (إِذَا) الَّتِي تَرُدُّ فِي سِيَاقِ تَيَقُّنٍ وَقُوعِ الْخَبْرِ (2) تَرُدُّ هُنَا لِلتَّسْوِيَةِ بَيْنَ جَانِبِي دَعْوَاهُمْ فِي خُطَابِهِمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَامُهُمْ لَا يَنْبَعثُ عَنْ رُويَةٍ وَتَحَقُّقٍ؛ بَلْ يَنْشَأُ عَنْ تَخْبِطٍ وَمَكَايِدَةٍ. وَقَدْ سَأَقَهَا الْمَتْنَبِيُّ لِلتَّسْوِيَةِ فِي قَوْلِهِ:

فَإِنْ يُفْدِمَ فَقَدْ رُزْنَا سَمْنَدُو وَإِنْ يُحْجِمَ فَمَوْعِدُنَا الْخَالِجُ (3)

فالشَّرْطِيَّةُ -هنا- تُعْبَرُ عَنْ مَعْنَاهَا الْعَامِّ الَّذِي يَحَاكِي أَصْلَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَرَضِ الْقُلُوبِ، وَإِضْمَارِ الْعِدَاوَةِ وَالْخُصُومَةِ، وَسُوءِ الطَّوِيَةِ، وَاسْتِفْحَالِ الشَّلْكِ وَالرَّيْبَةِ مَعَ تَوْطُنِ ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ.

(1) النساء، 77.

(2) ن: الإنصاف في مسائل الخلاف، 632/2، وشرح ابن عقيل، 27/4.

(3) ديوان المتنبي، شرح عبود الخرزجي، المكتبة العالمية، 1988، ص: 67.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾: (1)

استهلال السورة بالنداء بحرفه الذي يُستعمل للقريب والبعيد حقيقة أي استعمالاً أصلياً - كما نص عليه الرضي - (2) يتضمّن الإشارة إلى أنّ السورة سورة أحكام، فهي مدنية باتفاق. (3) ونظيرتها في ذلك سورة النساء التي تسبّوها في ترتيب المصحف، وقد صُدّرت بالنداء. وهي سورة أحكام، وتشريعات، ونُظم اجتماعية. تضمّنت العديد من قضايا التشريع، ومن أشهرها العلاقات الاجتماعية والمواريث.

والنداء أسلوب قرآني استُهلّت به سور من القرآن هي هاتان السورتان، والحج، والخُجرات، والممتحنة، وآيات عديدة؛ وهو ما يُفصّح عن أنّ القرآن كتاب دعوة وتشريع. نزل خطاباً للمجتمع الإنساني، وللمجتمع المؤمن. وافتتاح مطالع السورتين بالنداء - وهما تاليتا الطولين من المصحف - افترق من حيث توجيه الخطاب: خطاب الناس في أولهما أي سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وخطاب الذين آمنوا في الأخرى. وهذا يؤكّد كون القرآن كتاب دعوة وهداية. في نظمه عموم وخصوص. يُخاطب البشرية من خلال دعوة الأمة المصطفاة، ويُخاطب المؤمنين ليُصغي إلى ذلك غيرهم، فينصّوا تحت لواء الإيمان والتوحيد. وقد تقاسمت البقرة وآل عمران استهلالهما بالحروف المقطّعة والنساء والمائدة بالنداء تقاسماً له دلالة موضوعية وقيمة معنوية، ففي البقرة إشارة إلى إعجاز القرآن ونص على أنّه كتاب هداية يخلو عن دواعي

(1) المائة، 1.

(2) ن: شرح الرضي على الكافية، 425/4.

(3) ن: ت ت ت، 69/6، ودراسات جديدة في إعجاز القرآن، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، 1996، ص: 268.

الشكِّ والرَّيبِ في صدقيته. وهذا المعنى ملائمٌ للتَّقدِّمةِ ومُمَهِّدٌ لمعاني التوحيدِ وإخلاصِ العبادة، كما في آيةِ الكرسيِ وأولى آياتِ آلِ عمران؛ لِإِنَّ التَّنْوِيَةَ بصدقِ القرآنِ وكونه من عندِ الله يُهَيِّئُ الأذهانَ إلى تقبُّلِ موضوعِهِ الأعظمِ، وهو الإيمانُ باللهِ وتوحيده. وتَوَحَّدَتْ النساءُ والمائدةُ في تصديريهما بالنداءِ، وتتوَعَّعُ المنادى على نحوِ ما تقدَّم. واشتملت فاتحةُ الكتابِ على المقاصدِ التي تَرَجُّعُ إليها هذه المعاني وغيرها من القضايا الكليةِ والجزئيةِ، كيفَ وهي أمُّ الكتابِ وديباجتُهُ!

و(يا) أصلُ حروفِ النداءِ وأكثرها استعمالاً، ولا يُقدَّرُ غيره عندَ حذفِهِ، و(أي) في الأصلِ نكرةٌ تُدَلُّ على فردٍ من جنسِ اسمٍ يتَّصلُ بِهَا بطريقِ الإضافةِ، نحو: أَيُّ رَجُلٍ، أو بِطريقِ الإبدالِ نحو: يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ. [وَقَدْ يُنَادُونَ الْمُنَادَى بِاسْمِ جِنْسِهِ، أَوْ بِوَصْفِهِ؛ لِأَنَّهُ طَرِيقٌ مَعْرِفَتِهِ أَوْ لِأَنَّهُ أَشْمَلٌ لِإِحْصَارِهِ، كَمَا هُنَا، فَقَدْ يَكُونُ الْمُنَادَى نَكْرَةً مَقْصُودَةً أَوْ غَيْرَ مَقْصُودَةً. وَقَدْ يَأْتِي اسْمُ الْجِنْسِ أَوْ الْوَصْفُ بِالْتعْرِيفِ الْجِنْسِيِّ تَنْوِيهَاً بِطُرُوعِ التّعْرِيفِ عَلَى الْجُمْلَةِ تَفَنُّنًا، فَكَانَ إِحْصَارُ اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَبَالِغَةً فِي التّعْرِيفِ. وَيُفْصَلُ بَيْنَ الْحَرْفِ وَالْمُنَادَى بِكَلِمَةٍ: (أَيُّ)، وَهَذَا بِخِلَافِ الْقِيَاسِ. (1) وَلَعَلَّ لِهَذَا جُذُورًا فِي اللُّغَةِ السَّامِيَةِ الْأُمَّمِ أَوْ إِحْدَى بَنَاتِهَا الْعَرُوبِيَّةِ. (2)]

وقد اختصروا اسمَ الإشارةِ، فأبقوا التَّنْبِيهِيَّةَ، وحذفوا اسمَ الإشارةِ، فأصلُ (يا) أيُّها (الناس) (يا أَيُّ هؤلاء). وقد صرَّحوا بذلك في بعضِ كلامهم كقولِ شاعرهم:

(1) ت ت ت بتصرف، 324/1.

(2) ن: رحلة الكلمات، علي فهمي خشيم، دار اقرأ، 1986، ص: 16-100، وعودة التاريخ، جمال الدين الخضور، (م)، ص: 20. ويُقصدُ بالعروبية لغاتُ تنتمي إلى الساميةِ الوسطى والجنوبية، ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: السامية، اللغات Semitic languages

أَيُّ هَذَانِ كَلَّا زَادَيْكُمَا

وَدَعَانِي وَغَلًّا فِي مَنْ وَغَلٌ (1)

يؤسّس النداء مطعّ السورة لعظم التكليف المنصوص عليه، وهو الوفاء بالعقود والالتزامات التي بين الله -تعالى- وبين عباده المؤمنين، وبينهم وبين غيرهم من القبائل والدول، والوفاء بتوجيه تعاليم الإسلام في التعامل بين أفراد الأمة المؤمنة. وقد ذكر القرطبي أن في سورة المائدة ثمانين عشرة فريضة ليست في غيرها. (2) وقد وردت فيها شعائر وأحكام من الحلال والحرام، وبعض المحرمات، وأصول المعاملة بين المؤمنين، وبين طوائف المشركين والمنافقين، وحديث عن العقائد الضالة، وغير ذلك مما هو داخل في عموم العقود الملزمة والعهود المبرمة.

وتنوع النداء في السورة، وتعدّد الخطاب المصدّر به في مناسبات وآيات لا يتسع المقام لعرضها؛ غير أنها تنتهي إلى آية النداء العظيم الحاصل يوم القيامة المتحقّق بخطاب الله -تعالى- للمسيح عليه السلام، وذلك في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. (3)

وقد تقنّ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾، فجاء بالأول بأداة الاستثناء، وبالثاني بالحالين الدالّين على معايرة الحالة المأذون فيها، والمعنى: إلا الصيد في حالة كونكم محرّمين، أو في حالة الإحرام. وإنما تعرّض لحكم الصيد للمحرّم هنا لمناسبة كونه مستثنى من بهيمة الأنعام في حال خاص، فذكر هنا لأنه

(1) ت ت ت بتصرف، 324/1. والبيت لشاعر مجهول، ن: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، شمس الدين الجوجري، ت: نواف الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، 1423 هـ، 324/1، ومجالس ثعلب، ت: عبد السلام هارون، دار المعارف، 1980، 42/1، وشرح عمدة الحافظ وعدة اللافت لابن مالك، ت: عدنان الدوري، مطبعة العاني، 1397 هـ، ص: 281. والواغل: الداخل مع الناس في شربهم أو طعامهم دون أن يدعى، أو ينفق معهم. ن: لسان العرب، مادة: (وغل)، 731/11.

(2) ن: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ت: هشام البخاري، دار عالم الكتب، 2003، 30/6.

(3) المائدة، 116.

تَحْرِيمٍ عَارِضٍ غَيْرِ ذَاتِي، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ مَوْضِعُ ذِكْرِهِ مَعَ الْمَمْنُوعَاتِ الْمُنْعَلَقَةِ بِحُكْمِ
الْحُرْمِ وَالْإِحْرَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾. * الآية. (1)

جرى الاستثناء في أول المائدة ب (إِلَّا) نَصًّا على عموم التحريم المستفاد من صيغة البناء
لِما لَمْ يُسَمَّ فاعله: (2) ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ بعد التوطئة بالإباحة في قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ
بِهَيْمَةَ الْأَنْعَامِ﴾؛ وذلك تنويها للخطاب وتدرجًا من الإباحة إلى النهي المُجْمَلِ الَّذِي يَأْتِي
تفصيله وبيانه في آيات من السورة. والاستثناء الحرفي أقوى منه أثرًا الاستثناء الاسمي
بغير المستثنى في الآية؛ وأوثر الاستثناء الاسمي لأن المنع من الصيد إِبَّانَ الإحرام هو
موضوع الآية التي نصت عليه استقلالاً، وهو داخل في باب تعظيم البلد الحرام وشعيرة
الحج، وآية ذلك نزول السورة بين حدثين يتعلقان بمكة، وهما صلح الحديبية وفتح مكة،
وما استتبع ذلك من أمر حجة الوداع. (3)

5411 لا الناهية

15411 الأُخُوَّةُ الإيمانيَّة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. (4)
تَهَيَّأَتْ نَفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ لِقَبُولِ النَّهْيِ عَنِ مُوَالَاةِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ مَا سَمِعُوا مِنْ
اضْطِرَابِ الْيَهُودِ فِي دِينِهِمْ وَمَحَاوَلَتِهِمْ تَضْلِيلَ الْمُسْلِمِينَ وَتَقْلِيْبِ الْأُمُورِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمُ بِالْخِطَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَى﴾، الآية؛ لِأَنَّ الْوَلَايَةَ تَنْبِي عَلَى الْوِفَاقِ، وَالْوَيْامِ، وَالصِّلَةِ. (5)

(1) ت ت ت، 80/6. * المائدة، 2.

(2) حول أسرار بناء الفعل لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله وأسرار المغايرة بينه وبين البناء للمعلوم، ن: التصوير الفني في القرآن،
سيد قطب، دار الشروق، 1996، ص: 36.

(3) ن: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ت: أحمد عبد الشافي، الكتب العلمية، د.ت، ص: 86.

(4) المائدة، 51.

(5) ت ت ت، 229/6.

يأتي النداء في هذه الآية مُهَيَّئًا نفوسَ المؤمنين لاستقبالِ نَهْيٍ بليغٍ تتضمنُهُ الآيةُ، وهو عَدَمُ اتِّخَاذِ أَهْلِ الْكِتَابِينَ أَوْلِيَاءَ وَظَهْرَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَعَالَى، وهذا داخلٌ في عمومِ قولِهِ في أولِ سورةِ الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾. ولم يتوجه النهي في آيةِ المائدةِ بالتعليلِ والبيان؛ لأنه قد تقدَّمت آياتُ نقضِ الميثاقِ والنكوصِ عن بشاراتِ الأسفار. (1)

وَالِاتِّخَاذُ: افْتِعَالٌ مِنَ الْأَخْذِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ. وَالتَّنَاوُلُ يُشْعِرُ بِتَحْصِيلِ مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلُ، فَالِاتِّخَاذُ مُشْعِرٌ بِأَنَّهُ صُنْعٌ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ التَّعْرِيفِ بِمَنْ لَمْ يَمْتَثِلْ لِهَذَا النَّهْيِ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا، جَعَلُوا هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ أَحْرِيَاءَ بِالْمَوَدَّةِ وَالْمُصَافَاةِ، وَهُمْ أَلْبَّ عَلَى الْإِسْلَامِ. وهذا أعظمُ بابٍ شرٍّ يدخلُ إلى الأمة، وينقضُ اجتماعها، ويُفَرِّقُ كلمتها.

لقد تعينت (لا) الناهية للنهي دُونَ سواها من الأدوات. وقد أوتِرَ النهي -هنا- دُونَ النفي، (2) كما في قولِهِ من سورةِ المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، (3) لكونِ المقامِ مقامَ زجرٍ وإيعازٍ بالامتثالِ لأمرٍ مضت شواهدُهُ في وقائعِ حربِ اليهودِ من بني قَيْنُقَاعَ، والنَّضِيرِ، وغيرِهِم. ويوشكُ أن تسفرَ الأيامُ عن حروبِ الرُّومِ في عهدِ قَريبٍ من وفاةِ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وقد وردَ النهي عن موالاتِ الكافرين في سورةِ آلِ عِمْرَانَ متبوعًا بالاستثناءِ لكونِهِ ليس من قَبِيلِ الْمُؤَادَّةِ الْقَلْبِيَةِ التي في آيةِ الْمُجَادَلَةِ، فليس يصلحُ مع الأمرِ القلبيِّ تحرُّزٌ أو احتياطٌ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ

(1) راجع من سورةِ المائدةِ الآياتِ من: 12 إلى الآيةِ 19: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْنَةٍ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(2) حول تعدُّدِ الوظيفةِ للعنصرِ اللغوي، ن: أقسامِ الكلامِ العربي من حيث الشكل والوظيفة، فاضل الساقى، الخانجي، 1977، ص: 17-18، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، د.ت، 14/1.

(3) الآية: 22.

ثِقَاءٌ⁽¹⁾. والنهي في الظاهر آكد في الدلالة على النَّزْكِ من النفي. وهو مُتَسَاوِقٌ مع ما تقدّم من معاني السورة. ويبقى للنفي دلالة معنويةً ضمنيةً في المنع من الشيء، فهو يقضي بعدم وجود مَنْ يفعل الأمر المنهي عنه وهو صحيح الإيمان: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ﴾⁽²⁾.

"وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بَعْدَ عَزْوَةِ تَبُوكَ أَوْ قُرْبِهَا، وَقَدْ أَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ مُجَاوِرِينَ تَحْتَمَ بِلَادِ نَصَارَى الْعَرَبِ. وَعَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ يَوْمِ أُحُدٍ عَزَمَ أَنْ يُوَالِيَ يَهُودِيًّا، وَأَنَّ آخَرَ عَزَمَ أَنْ يُوَالِيَ نَصْرَانِيًّا...فَيَكُونُ نِكْرُ النَّصَارَى غَيْرَ إِدْمَاجٍ...وَتَنْوِينُ بَعْضِ تَنْوِينِ عَوْضِ أَيِّ أَوْلِيَاءِ بَعْضِهِمْ. وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنِ نَفْيِ مَوَالَاتِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ نَهْيِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مَوَالَاةِ فَرِيقٍ مِنْهُمَا. وَالْوَلَايَةُ -هُنَا- وَوَلَايَةُ الْمَوَدَّةِ وَالنُّصْرَةِ، وَلَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْمِيرَاثِ".⁽³⁾

6411 لا النافية للجنس

16411 كِتَابٌ هَدَى مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿الْم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽⁴⁾

لا هذه هي النافية للجنس أو التي للتبرئة، وهي تفيذ الاستغراق، وتعمل عمل (إن) بحملها عليها لكونها نقيضاً لها ولازمةً لئلاسم لزومها إياه. واسمها مبني على الفتح لكونه مفرداً نكرةً لا مضافاً، ولا شبيهاً به.

"وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ الرَّجَاجُ مِنْ أَنَّهُ مُعْرَبٌ...فمما لا تعويل عليه، وسببُ بنائه تَضَمُّنُهُ لمعنى مِنَ الْإِسْتِغْرَاقِيَّةِ...وَحَبْرُهَا محذوفٌ أي لا ريبٌ موجودٌ أو نحوه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا

(1) الآية: 28.

(2) المجادلة، 22.

(3) ت ت ت، 229/6. ن: 58/28، وتفسير ابن كثير، 132/3.

(4) السجدة: 1-2.

عَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ* والظرفُ صفةٌ لاسمها، ومعناه: نفْيُ الكونِ المطلقِ وسلْبُهُ عن الريبِ المفروضِ في الكتاب، أو الخبرُ هو الظرفُ، ومعناه: سلْبُ الكونِ فيه عن الريبِ المطلق...وقرئ: (لا ريبَ فيه)* على أَنَّ لا بمعنى ليس، والفرقُ بينه وبين الأولِ أن ذلك مُوجبٌ للاستغراق، وهذا مُجَوِّزٌ له".(1)

حَقَّقْتُ (لا) التبرئةَ في سياقِ هذه الآيةِ نَفْيَ جنسِ الريبِ أو الارتيابِ عن هذا الكتابِ العظيم. وقد تحقَّقَ هذا المعنى إثرَ سَوَقِ الأحرفِ المُقطَّعةِ مُستَهَلِّ السورة: هذه الأحرفُ الَّتِي أريدَ بها استغرازُ ملكاتِ القومِ في البيان، وسطوةِ اللسان، وسعةِ الحافظة، وحبِّ الجدال، واتِّساعِ العَطَنِ في الاستدلالِ العقليِّ والقولي. عُرِفوا بذلك كُله في حُطْبِهِم، ومنافراتِهِم، وَسَجالاتِهِم في أُنديتِهِم، وفي ساحاتِ حروبِهِم، وفي سائرِ مناسباتِهِم، فكان من اللائقِ بَعْدَ إثباتِ مَزِيَّةِ التَّفُوقِ في الصياغةِ والبيانِ مِمَّا تَضَمَّنَه مقامُ التحدي والتعجيزِ في الآيةِ الأولى - أن يُثَبِّتَ ذلكَ بنفِي وإثباتِ عَقْلِيَيْنِ أَخْلَاقِيَيْنِ يتعلَّقانِ بصدقِ هذا الكتابِ، وخلوِّهِ مِمَّا يناقضُ الضميرَ، واشتمالِهِ على أنواعِ الهداياتِ القلبيةِ والسلوكيةِ لكونِهِ مُنَزَّلًا مِنْ رَبِّ العالمين. أمَّا النفيُّ، ففي قولِهِ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وأمَّا الإثباتُ، ففي قولِهِ: ﴿مَنْ رَبِّ العالمين﴾. ونظيرُ ذلكِ ومحاكيهِ في هذا التقسيمِ مُستَهَلُّ سورةِ البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(1) إرشاد العقل السليم، 43/1. * هود، 44. نَسَبَهَا ابنُ سَيِّدِهِ إلى أَبِي الشَّعْثَاءِ، ن: إعراب القرآن، (م)، 17/1، ولم يُورِدْهَا ابنُ جَنِّيٍّ في القراءاتِ الشاذَّة، ن: المُحتَسِبُ في تبيينِ وجوهِ شواذِّ القراءاتِ والإيضاحِ عنها، وزارة الأوقاف المصرية، 1999، 49/1. وقد ذَكَرَ الفَخْرُ أَنَّ سُلَيْمًا أبا الشَّعْثَاءِ قرأ بها. ن: التفسير الكبير، 18/2، وإتحاف فضلاء البشر لشهاب الدين البتاء، ت: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، 1998، ص: 167، وسير أعلام النبلاء للذهبي، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1985، 179/4. ن: الكتاب لسبويه، 275/2-293، وشرح ابن عقيل، 5/2، وشرح الرضي على الكافية، 293/1: وقد ذَكَرَ الرُّضِيُّ أَنَّ الظاهرَ أَنَّ خَبَرَ (لا) هذه لم يَرِدْ منصوبًا مثلَ خبرِ (ليس) في كلامِهِم لا شدوذًا، ولا قياسًا. و(لا) الَّتِي يَأْتِي بَعْدَهَا الاسمُ مرفوعًا هي الَّتِي لنفِي الوَحْدَةِ لا الجنس. أمَّا الَّتِي لنفِي الجنس، فيأتي اسمُها مُبْنِيًّا على الفتح، ويكونُ مُعْرَبًا منصوبًا، إذا كان مضافًا أو شبيهًا به. ن: النحو الوافي، 690/1 وما بعدها، وحاشية الصبان على الأشموني، 594/1، ومعجم القواعد العربية، 24/4

وخبر (لا) مُقَدَّرٌ أَي لا ريبَ موجودٌ أو كائن. والوقفُ على مُقْتَضَى معنى الظرفية
أَي على قوله: (فيه) في آية البقرة هو من وجهين بلاغيين أولى: (1)

الوجه الأول: أن نفي الريب أن يكون مُتَضَمَّنًا في شيء من الكتاب يلزم منه نفي
الريب عن صلة القرآن بالله عزَّ وجلَّ، وعن كونه كلامه الَّذِي نزل به الرُّوحُ الأمينُ على
قلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك أن إثبات هذه الصِّلة هو من فحوى هذا الكتاب.
ونفي الريب العام هو أتمُّ للفائدة من نفي الريب الخاص، ثمَّ إنَّ في هذا النسق تساوقًا مع
أسلوب القرآن في صوغ هذا التركيب: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، (2) ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، (3) ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ
لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (4) وكم من مُقَرَّرٍ بأنَّ القرآن مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سبحانه، ثمَّ هو متهاونٌ في
الإقرارِ بأنَّه خالٍ عما يخرمُ صدقَه، وكَمالِ اتِّساقِه، وصحة معانيه.

"ومعنى (في) هو الظرفية المجازية العرفية تشبيها لدلالة اللفظ باختواء الظرف،
فَيَكُونُ تَخْطِئَةً لِلَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، فَقَالُوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، اسْتِنزَالًا
لِطَائِرِ نُفُورِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَذَا الْكِتَابُ مُشْتَمِلٌ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْهُدَى، فَاسْمَعُوا إِلَيْهِ! وَلِذَلِكَ
نَكَرَ الْهُدَى أَي فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هُدَى عَلَى حَدِّ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي ذَرٍّ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: [إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ] *". (5)

(1) حول أهمية هذا العلم على المستوى البلاغي، ن: إيضاح الوقف والابتداء للأنباري، ت: محيي الدين عبد الرحمن
رمضان، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1971، ص: 109-110.

(2) آل عمران، 9.

(3) يونس، 37.

(4) الشورى، 7.

(5) ت ت ت، 1/222-223، * فُصِّلَتْ، 26، *ن: الصحيحين، 5/2248، 3/1282، وعون المعبود شرح سنن
أبي داود، شرف الحق العظيم آبادي، ت: عبد الرحمن عثمان، المكتبة السلفية، 1968، 14/66، وإرواء الغليل،
234/7-235.

وأما قول العرب: لا بأس، ولا بُد... وما وردَ في التنزيلِ الحكيم: ﴿قَالُوا لَا صَبْرَ﴾،⁽¹⁾ فهو بمعزلٍ عن هذا التركيب؛ لأنَّه مجردٌ عن الظرفيةِ ممَّا لا تعلقُ له بوجهي الوقفِ وأَيُّهما أبلغ. ومن ذلك قولُ الشاعر:

مَنْ صَدَّ عَنْ نَيْرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَاخُ⁽²⁾

الوجه الآخر: أنَّ الوقف على مقتضى الظرفية مفيدٌ لشمولِ الوصفِ الآتي في آيةِ البقرةِ مع استيعابهِ جملةِ الكتاب، وهو الملائمُ لعمومِ الدلالة، فالهدى وصفٌ لجميعِ الكتاب، ويشمل ذلك أنواعَ الهدايا المتحققة من اتباعِ هذا الكتابِ المجيد؛ ولهذا فإنَّ اعتبارَ الظرفِ متعلقًا بخبرٍ محذوفٍ وهُدَى هو المبتدأ يستوجبُ مباينةً للمعنى المتقدم.⁽³⁾ واستهلالُ آيةِ السجدةِ بالجملةِ الاسميةِ للدَّلالةِ على الثبوتِ ودوامِ الوصفِ الَّذِي لا يتخلفُ عن أن يُنعتَ بهِ هذا الكتابُ العظيم. وقد جاءَ نفي الرِّيبِ عنه جملةً متوسِّطةً لوصفيتها أو لكونها مُعترضةً بين كلامين؛ وهو ما يُشوقُ إلى مُنتهى الآية. وتضمَّنتُ الآيةُ معنى التنزيلِ بخلافِ آيةِ البقرة؛ لأنَّ مجتمعِ الناسِ في مكةَ قوامُهُ الشُّركُ والوثنية، بينما أهلُ الكتابِ في المدينةِ حيث نزلتِ البقرةُ أهلٌ نظرٌ في الأسفار، ويصدِّقون بتنزيلِ الكتبِ ومجيءِ الوحيِ لأنبيائهم السالفين. وكفارُ قريشٍ متعنتون جبابرة، وهؤلاء هم الزعماء، وجُهَّالٌ مُشكِّكون دون تأمل، ولا نظر، وهؤلاء هم دهماؤهم وسفهاؤهم.

(1) الشعراء، 50.

(2) البيت منسوب إلى سعد بن مالكٍ جدِّ طرفةَ بن العبد البكري. ورفع قوله (براح) لضرورة الشعر، ن: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، (م)، 153/1، والكتاب لسيبويه، 296/2-58/1، وخزانة الأدب ولُبُّ أبايُ لسان العرب لعبد القادر البغدادي، ت: محمد طريقي، دار الكتب العلمية، 1998، 151/2-445/1.

(3) ن: الفواصل الصوتية في الكلام وأثرها على المواقع النحوية- دراسة للوقف والسكت، مصطفى النحاس، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلد: 6- عدد: 24، 1986.

قد يتصل المعنى البلاغي بالعناصر الصوتية والإيقاعية للكلمة ليقوم من خلال هذا الاتصال الوظيفي بتسخير هذه العناصر لتكوين دلالات تزيد السياق الفني تمكناً في تحقيق الأثر الجمالي على قارئ النص الذي يكتشف الطاقة الفنية للصوت، والإيقاع، وجزس الكلمات وتنغمياتها الخاصة بقدر ما يمتلك من قوة الملكة التي تُهيئ له استيعاب الارتباط الحقيقي بين النص وبعض عناصره الصوتية، وبين النص والمؤثرات التي تتولد عن الموقف والسياق الخارجي بحيث يحدث تحوير في فكرة مقتضى الحال أو فكرة المقام التي ركز عليها النقد القديم⁽¹⁾ إلى فكرة الموقف الناشئ في السياق مُتصلاً بواقع الملابس التي يرسمه الخطاب.⁽²⁾

ونقرأ في الشعر العربي: قديمه وحديثه نماذج لا حصر لها في توظيف الشعراء للصوت والإيقاع لرسم صورة فنية تكتسب خصوصية إضافية من خلال الاستدعاء الخاص للعنصر الصوتي بما في ذلك القافية لاستيفاء جماليات النص.⁽³⁾ ومن ذلك بيت امرئ القيس الشهير في مُعلّفته:

-
- (1) ن: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص: 337، والنحو والدلالة- مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، محمد حماسة عبد اللطيف، 1983، ص: 98، والروابط اللفظية في سورة البقرة- دراسة نحوية دلالية إحصائية، رهام يعقوب، (ر)، ص: 20-71-125.
- (2) ن: الكلمة- دراسة لغوية ومعجمية، حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، ص: 190-212.
- (3) ن: نظرية الأدب، رينيه ويلك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1998، ص: 176، والغمدية في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق، ت: محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل، د.ت، 45/2، ومُعجم البلاغة العربية، بدوي طبانة، دار المنارة، 1408 هـ، ص: 283-284، ونقد الشعر، قدامة بن جعفر، ت: عبد المنعم خلفا، مكتب الكليات الأزهرية، 1978، ص: 167-170، والبدیع لابن المعتز، ت: أغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، 1982، ص: 47. جرى الحديث في هذه المواضع عن طبيعة الاستدعاء في الشعر، وعن التصدير، أو التوشيح، أو ردّ العجز على الصدر في البيت. وإن كنتُ أميلُ إلى أنّ الشاعر المتميز تتحقّق عنده المقولة الشعرية وفق معادلة شفرية تتعمّق في سرّيّتها تعمّق الملكة والموهبة أي أنّ مسألة الاستدعاء وصفية أكثر من كونها واقعية؛ إلا بقدر تناقض الموهبة والمؤثر.

مَكْرٍ مَقْرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ (1)

نلاحظ تكرارَ حَرْفِ الرَّاءِ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَيْتِ، وَهُوَ حَرْفٌ ذَلَقِيٌّ (2) وَحَرْفٌ حَرَكَةٌ بِامْتِيازٍ، إِذْ يَقُومُ عَلَى التَّرَدُّدِ فَائِقِ السَّرْعَةِ. وَهَذَا يَسَاهِمُ فِي تَصْوِيرِ عُنْصُرِ الْحَرَكَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ الَّتِي هِيَ قِوَامُ الصُّورَةِ فِي الْبَيْتِ، وَفِي الْقَصِيدَةِ بِأَسْرِهَا. وَكُونُ هَذَا الْحَرْفِ مُضَعَّفًا فِي مَوْضِعَيْنِ يُوَكِّدُ عَلَى أَدَائِهِ الْفَنِيِّ الْخَاصِّ مَعَ كَوْنِهِ مُسْتَقِرًّا فِي أَوَاخِرِ وَخَدَاتِ إِيقَاعِيَّةٍ أَوْ وَاقِعًا مُنْتَصَفَهَا، وَهُوَ مَا يَحَقِّقُ لَهُ أَثْرًا إِضَافِيًّا لِاتِّحَادِ النِّهَايَاتِ إِيقَاعِيًّا، وَعَلَى مَسْتَوَى الْمَعْنَى الْجَزْئِيِّ. وَاللَّامُ مُشَارِكٌ لِلرَّاءِ فِي كَوْنِهِمَا ذَلَقِيَّيْنِ؛ وَلِهَذَا تَمَّ تَوْظِيفُهُ صَوْتِيًّا فِي الْبَيْتِ فِي الْكَلِمَاتِ: مَقْبِلِ - السَّيْلِ - عِلِّ.

وَتَلْعَبُ الْحَرَكَاتُ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي دَوْرًا فِي مَحَاكَاةِ الصُّورَةِ وَحَرَكَتِهَا، فَكَأَنَّهَا تَتَرَجَّمُ عَنْهَا لِتَقْوَى الْإِحْسَاسَ بِدَفَقَاتِ التَّصْوِيرِ، فَصُورَةُ انْحِطَاطِ جُلْمُودِ الصَّخْرِ مِنْ عِلِّ بِفِعْلِ السَّيْلِ عَبَّرَ عَنْهُ ضَبْطُ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ فِي جُمْلَةٍ: (حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ) فِي مُتتَالِيَةٍ عَجِيبَةٍ بَيْنَ ارْتِفَاعٍ، وَتَوْسُطٍ، وَانْخِفَاضٍ. وَالتَّصْوِيرُ شَكْلٌ وَحَرَكَةٌ. (3)

وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَمَازُجٌ مُتَفَرِّقَةٌ لِلْوِظَافَةِ الصَّوْتِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يُفْرَدَ لَهَا بَحْثٌ مُسْتَقِلٌّ. وَهَذَا أَعْرَضُ لِبَعْضِ الْأَمْثَلَةِ.

(1) ديوان امرئ القيس، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، د.ت، ص: 19.

(2) راجع: هامش: 3-ص: 15 من هذه الدراسة.

(3) ن: ابن الرومي حياته من شعره، عباس العقاد، دار الكتاب العربي، 1967، ص: 309. وحول دقة اللغة العربية في بيان المعاني عن طريق الوسائل الصوتية أو إضمارها، ن: ابن جنيّ النحوي، فاضل السامرائي، دار النذير، 1969، 295/2. وكان استبصار الأوائيل كالخليل وسببويه بأهمية ملاحظة القيم الصوتية من السنة أهل البادية مُمَهِّدًا لِنظرات عمقها فكر من جاء بعدهم من أجيال العلماء.

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾: (1)

يُصَوِّرُ فعلُ البُطءِ متصلًا بنونِ التوكيدِ الثقيلةِ مسبقًا بلامينِ مؤكِّدتين: إحداهما اتصلت بالفعل، والأخرى: اتصلت بالموصولِ العائدِ عليه ضميرُ الفاعلِ - يُصَوِّرُ حالًا عجيبةً من أحوالِ ثَقَلَةِ المدْعُوينِ إلى النَّفِيرِ إلى الجهاد، فهذا التركيبُ الممتدُّ يمكنُ أن يُعَبَّرَ عنه في غيرِ القرآنِ بما هو أوجزُ وَأَخْصَرُ؛ ولكن توالفت هذه الأصواتُ بحركاتِها وَتَضْعِيفَاتِها - وهو تَأَزَّرُ للمؤكِّداتِ على تقويةِ المعنى - لتحكيَ فعلَ المتهاونِ في أمرِ الجهادِ لضعفِ في طبيعتهِ أورثهُ جُبْنًا وتفاعسًا لِتَقْوِيِ الداعيِ الجبليِّ على الداعيِ الشرعيِّ على نفسه؛ ولقلةِ حَظِّهِ من الطاعةِ والتسليمِ حتى أنه يودُّ أن تجري المقاديرُ على وفقِ مراده؛ أو بسببِ من النَّفاقِ، فتكون (مِنْ) في الآيةِ مُتَلَبِّسَةً بمعنى التبعيضِ، وهو تبعيضُ صوريٍّ لكونهم منتسبينَ إلى جماعةِ المؤمنينِ على ظاهرِ الأمرِ لا حقيقتهِ. وهذا هو الأرجحُ من بينِ أقوالِ المفسرينِ (2) لكونِ مَنْ يَعُدُّ أَنْ من إنعامِ اللهِ عليه سلامتهُ من القتلِ أو الأسرِ في سبيلِ اللهِ ليس من عدادِ المؤمنينِ وهو ينطقُ بما فرَّعتُ به الآيةُ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾، ويُردِّدُ مثلَ هذه الخواطرِ النفسانيةِ في خلوتهِ ابتهاجًا بنجاته، ويصيبُهُ التَّنَدُّمُ والتَّحْسِيرُ إذا فاتتهُ غنائمُ من جِراءِ النصرِ: ﴿وَلَيْنِ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا

(1) الآية: 72.

(2) ن: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، د.ت، 1758/4، وت ت ت، 118/5-119.

عَظِيمًا»⁽¹⁾ فهو أفوت لهذا الحظِّ ممَّن غاب عنه بعذرٍ لشهوده إياه عند إبانِه ولم يَكُنْ له عذرٌ يعتذرُ به.

ويأتي منطوقُ الآيةِ مُنرَّسلاً ينطقُ به القارئُ، فيتمثَّلُ مدى التراخي والتثاقلِ الَّذِي بدا على المذمومِ بهذا الفعلِ ممَّن آثرَ القعودَ على الخروجِ والجهادِ. وإن خرجَ بعدَ ذلك، كان متمهلاً متوانياً في حركته مُبَطِّئاً لغيره لا عازماً متوتِّباً. وقد قال -تعالى- قَبْلَ هذه الآيةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾⁽²⁾.

وَبَطَّأً-مُضَعَّفًا- لازم، وهو يعني فَعَلَ التثاقلِ النفساني عن القيامِ بأمرٍ يلزمُ القيامُ به. وهذا التثاقلُ ناشئٌ عن أسبابِ الجبنِ والخَوَرِ الطبيعي أو النَّقصِ بالتَّكاسُلِ ونحوه؛ أو لدواعي النفاقِ وزواجِرِ الارتياحِ في تحصيلِ النصرِ الموعودِ بهِ المؤمنون.⁽³⁾ والخبرُ جارٍ مجرى الحقيقةِ بقريئةِ وُرودِ مُؤكِّداتٍ للفعل. وقصدُ التعريضِ لا يمنعُ من إجراءِ الكلامِ على هذا النحو؛ لأنَّ مُسْتَنْبَعاتِ التَّرَاكيبِ لَا تُوصَفُ بِالْمَجَازِ. والمقصودُ بِالْمُسْتَنْبَعاتِ - هنا- المُؤكِّداتِ.

22511 النموذج الثاني من سورة التوبة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾⁽⁴⁾

الفعل: (اثَّاقَلْتُمْ) يحكي صورة التثاقل، فقد وردَ بهذه الصيغة، ولم يرد: تثاقلتم الذي هو أخفُّ على اللسان. ووردَ (اثَّاقَلْتُمْ) قصداً إلى تصويرِ الفعلِ صوتياً حتى يتمَّ تخيُّلُ مدى الانجذابِ إلى الأرضِ، والإخلادِ إلى دعةِ القعودِ، والركونِ إلى الظلالِ والثمارِ. وأمرُ الجهادِ عظيمٌ في الإسلامِ لا تهاونَ فيه، فَمَعَمَّرُ النفاقِ وتهمتهُ كانا خطرهما يدهمُ الَّذِينَ يتساهلونَ في أمرِ الصلاةِ جماعةً في المسجدِ مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي أمرِ

(1) النساء، 73.

(2) السابق، 71.

(3) ن: السيرة النبوية لابن كثير، ت: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، 1976، 4/4.

(4) الآية: 38.

الجهاد، والإعداد له، والخروج إلى لقاء العدو، ونحو ذلك من الأمور التي يفتضح مع إهمالها أمر المنافقين، وتظهر خبايا نفوسهم، فكان الحرص وتوخي الحذر من أعراض النفاق، أو من بعض أعراضه لازماً من لوازم رعاية الجماعة المؤمنة.

"والتثاقُل: تكلف النّقل أي إظهار أنه ثقيل لا يستطيع النهوض. والثقل حالة في الجسم تقضي شدة تطلبه للنزول إلى أسفل وعسر انتقاله، وهو مستعمل هنا في البطء مجازاً مُرسلاً. وفيه تعريض بأن بطأهم ليس عن عجز؛ ولكنّه عن تعلّق بالإقامة في بلادهم وأموالهم. وعدي التثاقُل ب(إلى)؛ لأنّه ضمّن معنى الميل والإحلال، كأنّه تثاقُل يطلُب فاعله الوصول إلى الأرض للعود والسكون بها". (1)

القيمة الصوتية للفعل تجمع بين التضعيف وقوة الجرس للقاف اللهويّ الشديد مع اختيار الزمن الماضي تعبيراً عن الإذعان لدواعي التثبيط التي تخامر بعض المؤمنين المتخلفين أو المتباطئين في ساعة العسرة، وهو ما حدث في غزوة تبوك التي لم تنتدب إليها بعض القبائل، والرجال من القاعدين، والمنافقون. (2)

3511 من أحوال أهل الجحيم

13511 النّموذج الأول من سورة التوبة

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: (3)

تُحَقِّقُ الإِمَالَةَ فِي اللَّفْظِ: (هَار) محاكاة خاصة لعملية الهويّ والسقوط المدوي في نار جهنم للمنافق صاحب المسجد الضرار الذي ابتناه على إوهن القواعد، ولمن سار على نهجه في الكيد للمجتمع المؤمن بانتحال ألوان الكيد، وببّ الفتنة، وبالتفريق بين المؤمنين

(1) ت ت ت، 197/10.

(2) ن: الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام، 1418 هـ، ص: 424، وت ت ت، 196/10.

(3) الآية: 109.

في مجامعهم التي كانت على حياها مجالس لهم اعتزلوا باتخاذها المؤمنين أن يخالطوهم ويركئوا إليهم.

ومن الملاحظ نبرة الارتفاع في الكلمة: (جُرف)، ثم ترد الإمالة في القراءة باللفظة: (هار).⁽¹⁾ وهذا إدماج للصورة مع الصوت ونبرته المميزة في تحقيق تخيل السامع لهذا المشهد العظيم في يوم الحشر والجزاء. وتكرار الراء في السياق وهو مبني على تسارع التردد- يرسم صورة لسرعة الانهيار في نار جهنم، وكأن المال الوخيم يأتي متتابعاً من بدء الشقا أي حد الهوة المشرف الذي هو أول الشفير المفضي إلى العمق الذي ينهار إليه بطلان البنيان المتهاك المتصدع بحواص نضاد الرسوخ، وقوامها قابلية التداعي، والانهدام، والانسحاق في أعماق الجحيم. وهذا الانطماس الذي لم يقدرُوا أن يكون مآل بنيانهم يقابلُهُ رسوخ ما ابتناه المؤمنون تقوى لله وابتغاء رضوانه.

23511 النَّمُودُجُ الثاني من سورة الشعراء

تترأى القيمة الصوتية في النظم حتى يهياً للسامع أو القارئ أنه يسمع صلصلة، أو قرعة، أو نحو ذلك من أصوات. وهذا يعكس قوة الجرس الذي تخلق في النص، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾،⁽²⁾ فنكاد نسمع صوت ككببة الأوثان والأصنام في النار، وهي تقع فيها مع من اتخذوها أندادا من دون الله عز وجل. وتَقْوِي قَلْقَلَةُ الباء الإحساس بهذا الصوت، وتؤكد روعة الاختيار لهذه اللفظة وعمق تأثيرها.

ومعنى ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ كُوبُوا فِيهَا كَبًّا بَعْدَ كَبٍّ، فَإِنَّ (كُبْكِبُوا) مُضَاعَفٌ كُوبُوا بِالتَّكْرِيرِ، وَتَكْرِيرُ اللَّفْظِ مُفِيدٌ تَكْرِيرِ الْمَعْنَى، مِثْلُ: كَفَكَفَ الدَّمْعَ. وَنَظِيرُهُ فِي الْأَسْمَاءِ: جَيْشٌ لَمَلَمَ *

(1) ن: تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري، ت: أحمد القضا، دار الفرقان، 2000 م، ص: 394.

(2) الأيتان: 94-95.

أَيُّ كَثِيرٍ مُبَالِغَةً فِي اللَّمِّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ لَهُ فِعْلًا مُرَادِفًا لَهُ مُشْتَمِلًا عَلَى حُرُوفِهِ، وَلَا تَضْعِيفَ فِيهِ، فَكَانَ التَّضْعِيفُ فِي مُرَادِفِهِ لِأَجْلِ الدَّلَالَةِ عَلَى الزِّيَادَةِ فِي مَعْنَى الْفِعْلِ". (1)

ومن حيث المعنى البلاغي، فإنَّ هذا التركيب يفيد دلالة التحقير والازدراء لمن كُتِبُوا فِي النَّارِ، فَهَمَّ كَأَقْلَى الْمَتَاعِ أَوْ أَحَقَرَ الْمُحَقَّرَاتِ؛ وَلِهَذَا رُمُوا، وَقُدِفُوا، وَأُهِينُوا عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي رَسَمْتُهُ الْآيَةُ لِجَرَاءِ الْكَافِرِ عَلَى رَبِّهِ بِالشِّرْكِ وَالْإِلْحَادِ، فَهُوَ مُوَاقِعُ الْعَذَابِ مَعَ مَنْ زَعَمَهُمْ شَفَعَاءَ وَظَهْرَاءَ أَيِ الْأَوْثَانِ الَّتِي هِيَ فِي أَدْنَى مَرَاتِبِ خَلْقِهِ تَعَالَى. اتَّخَذَهَا أُنْدَادًا مَعَ مَا يَرَى مِنْ إِطْرَاقِهَا أَمَامَ تَطَرُّقِ الْآفَاتِ إِلَيْهَا دُونَ أَنْ تَدْفَعَ عَنْ أَنْفُسِهَا شَيْئًا مِنْهَا: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾. (2)

4511 حُزْنٌ وَأَسْفٌ:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾. (3)

جرى التعويض عن ياء التَّكْلُمِ بِالْأَلْفِ الْمَمْدُودَةِ. وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ (أَسْف) أَدَاةَ النَّدَاءِ، فَتَهَيَّأَ بِهَذِهِ الْمُدُودِ مَدُّ الصَّوْتِ بِالتَّحْسُرِ وَالْأَسْفِ عَلَى الْإِبْنِ الْمَجْنِيِّ عَلَيْهِ الْمُضَيِّعِ. وَالْأَسْفُ أَشَدُّ الْحُزَنِ، وَهُوَ مَا بَلَغَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يُظْهَرْ لِأَخَوَةِ يَوْسُفَ جَزَعًا؛ بَلْ تَوَلَّى عَنْهُمْ، وَكَانَتْ عَزَلَتْهُ أَصْدَقَ تَعْبِيرًا عَنْ حُزْنِهِ وَبَثَّهُ إِلَى رَبِّهِ. وَالنَّبْرُ، وَمَدُّ الصَّوْتِ، وَإِظْهَارُ التَّأَوُّهِ مِنَ الظَّوَاهِرِ النَّفْسَانِيَةِ الَّتِي تَصْحَبُ شَعُورَ الْمَرِّ بِالْحُزَنِ، وَتَهَيَّأَ لَهُ رَاحَةٌ وَقْتِيَّةً وَانْفِرَاجًا بَعْدَ تَعَقُّدِ دَوَافِعِ الْكَآبَةِ أَوْ الْحُزَنِ الشَّدِيدِ وَاخْتِلَاطِ ذَلِكَ بِالْأَفْكَارِ السُّودَاوِيَّةِ لَدَى عَمُومِ النَّاسِ أَوْ الْهَوَاجِسِ الْوَجْدَانِيَّةِ لَدَى بَعْضِهِمْ دُونَ اسْتِفْحَالِهَا إِلَى وَسَاوِسِ وَاضْطِرَابَاتِ.

(1) ت ت ت، 152/19، * ن: لسان العرب، مادة: (لمم)، 547/12.

(2) الأنبياء، 98.

(3) يوسف، 84.

"وتولَّى أي أعرَض عنهم كراهةً لما سمِع منهم. وقال: (يا أَسَفًا على يوسف).
الأسف: أشدُّ الحزنِ والحسرةِ أضافه إلى نفسه. والألفُ بَدَلٌ من الياء، فناداه أي يا أسفي
تعالى! فهذا أَوَانُكَ. وإِنَّمَا أَسِفَ على يوسفَ مع أَنَّ الحادثَ مصيبةٌ أخويه؛ * لأنَّ رُزَاهُ كان
قاعدةَ الأرزاءِ غَضًا عنده، وإن تقادَمَ عهدُه آخذًا بمجامعِ قلبِه لا ينساه؛ ولأنَّه كان واثقًا
بحياتِهما، عالمًا بمكانِهما، طامعًا في إياهما. وأمَّا يوسفُ، فلم يكن في شأنِه ما يُحرِّكُ
سلسلةَ رجائِه سوى رحمةِ الله -تعالى- وفضلِه". (1)

والذي استثار حُزنَ يعقوبَ -عليه السلام- مبتدأً مصابه وذكْرُه لأوَّلِ ابتلاءِ الله -
تعالى- له يومَ فَقَدَ قرَّةَ عينِه بعدَ تلك الرؤيا التي كان لها ما بعدها، ثمَّ ينتهي به أسفُه
وحزنُه إلى بئِّ شكواه إلى الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾. (2) والأسى يبعثُ الأسى عند مناسبتِه. وكان شَغَفُ يعقوبَ ببنيامينَ لكونِه
ويوسفَ من أمِّ واحدة، نَشَاءًا يتيمينِ مستضعفينِ بين إخوةٍ غلاظٍ وهم عصبَةٌ متكاثفة.
والمشابهةُ بينهما في الصورةِ والصفةِ أكملُ، فكان يتسلَّى برؤيته عن رؤيةِ يوسفَ عليه
السلام، فَتَسْتَرُوخُ نفسُه بذهابِ بعضِ أثرِ الشكايةِ والوجدِ عن قلبِه. وتوقِظُ حرارةُ الإيمانِ
الأملَ في فؤادِه، فيقولُ بعدما تقدَّم من شكواه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَسُّسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. (3)

"لَإِنَّ تَوَالِيَّ إِحْسَاسِ الْحُزَنِ عَلَى الدِّمَاغِ قَدْ أَفْضَى إِلَى تَعْطِيلِ عَمَلِ عَصَبِ الْإِبْصَارِ
عَلَى أَنَّ النُّكَاءَ مِنَ الْحُزَنِ أَمْرٌ جِبَلِيٌّ، فَلَا يُسْتَعْرَبُ صَدُورُهُ مِنْ نَبِيِّ، أَوْ أَنَّ التَّصَبُّرَ عِنْدَ
الْمَصَائِبِ لَمْ يَكُنْ مِنْ سُنَّةِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ؛ بَلْ كَانَ مِنْ سُنَنِهِمْ إِظْهَارُ الْحُزَنِ وَالْجَزَعِ
عِنْدَ الْمَصَائِبِ. وَقَدْ حَكَتِ التَّوْرَةُ بُكَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَرْبَعِينَ

(1) إرشاد العقل السليم، 301/4، * لعل الأخوين روبين وبنيامين. ن: ت ت ت، 40-39/13.

(2) يوسف، 86.

(3) يوسف، 87.

يَوْمًا، وَحَكَّتْ تَمْزِيْقَ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ ثِيَابَهُمْ مِنَ الْجَزَعِ. وَإِنَّمَا التَّصَبُّرُ فِي الْمُصِيبَةِ كَمَالٌ
بَلَغَتْ إِلَيْهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ". (1)

5511 من علامات الساعة

الأصل في الفعل: (يخصمون) أن يردّ بالتاء: (يختصمون): ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً
وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾، (2). وقد حُدِّقَتْ التاء، فجاء الفعل مُصَوَّرًا لمعنى الخصومة
وشدة اشتجارها بين الناس في أسواقهم، كما هي عادتُهُم، وفي أعمالهم، ومجالسهم، وهم
-في هذا المشهد في آخر الزمان، وقَبْلَ أوان صيحة الفزع- (3) أشدُّ التباسًا، وأعظم
حرصًا، وأسوأ حالًا في ضراوة الخلاف والشقاق. يحارُّ العقلاء في توصيف ما يرون من
سوء الأحوال وشدة الوبال، فالخصومة غير الخصومة المعتادة في سائر الأوقات؛ وذلك
لاحتدام الفتن وعظم الصّورِيفِ عن الحق والمروءة، فجاء الفعل بهذا التركيب المتميز
صوتيًا ليرتسم هذا المعنى الخاص بلجاجة النزاع، وتداخل الأصوات، واعتراك الأقوال
والأفعال.

"فَقَرَأَ وَرَشُّ عَن نَّافِعٍ، وَابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بِتَشْدِيدِ
الصَّادِ مَكْسُورَةً... وَقَرَأَهُ قَالُونَ عَن نَّافِعٍ وَأَبُو عَمْرٍو -فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ- بِسُكُونِ الْخَاءِ
سُكُونًا مُخْتَلَسًا بِالْفَتْحِ لِأَجْلِ التَّخْلُصِ مِنَ النِّقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَبِكَسْرِ الصَّادِ مُشَدَّدَةً. وَقَرَأَهُ
عَاصِمٌ، وَالْكَسَائِيُّ، وَابْنُ دَكْوَانَ عَنِ ابْنِ عَامِرٍ، وَيَعْقُوبُ، وَخَلْفٍ ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بِكَسْرِ الْخَاءِ
وَكَسْرِ الصَّادِ مُشَدَّدَةً. وَقَرَأَهُ حَمْرَةُ ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بِسُكُونِ الْخَاءِ وَكَسْرِ الصَّادِ مُخَفَّفَةً... وَقَرَأَ
أَبُو جَعْفَرٍ ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بِإِسْكَانِ الْخَاءِ، وَبِكَسْرِ الصَّادِ مُشَدَّدَةً عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ السَّاكِنِينَ". (4)

(1) السابق، 43/13. جاء في سفر اللاويين من العهد القديم أنّ بني إسرائيل بكوا موسى ثلاثين يوما. ن: موسوعة
الكتاب المقدس، إصحاح: 34-عدد: 8، 355/1.

(2) يس، 49.

(3) ن: تفسير القرآن العظيم، 581/6.

(4) ت ت ت، 35-34/23. ن: في ظلال القرآن، 2972/5.

وبعض هذه القراءات أو الروايات أوثق اتصالاً من بعض بالهيئة المعنوية التي أردت أن نتمثلها من خلال جرس الحروف المتباعد في صيغة الفعل، ومن خلال الإدغام المُنتَقَل إليه من حرف الحلق المتردد بين الإسكان، والفتح، والسكون المُختَلَس بالفتح، وهو ما أعطى الصيغة خصوصيةً وتعلقاً بتوظيف العنصر الصوتي حتى يتحول إلى قيمة صوتية دلالية.

6511 تَقْنُنُ فِي اسْتِيعَابِ الْمُقَدِّمَاتِ وَإِدْمَاجِهَا

في سورة يونس - وبعد تتابع أنواع الحوارِ وصنوفِ الجِدَالِ بينه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبين زعماء الكفر - يأتي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾: (1)

الحرف: (إي) حَرْفُ جَوَابٍ بِهِ يَتَحَقَّقُ مَا يَتَضَمَّنُهُ سُؤَالُ سَائِلٍ، وَهُوَ يُرَادِفُ (نَعَمْ)؛ وَلَكِنْ لَا يَقَعُ إِلَّا مُقْتَرَنًا بِالْقَسَمِ. (2)

تَقَدَّمَ فِي السُّورَةِ أَي سُوْرَةِ يُونُسَ مَوْضُوعَاتٌ تَتَّصِلُ بِأَنْظِمَةِ الْخَلْقِ بِنِعْمَةِ الْإِيجَادِ مُدْمَجًا فِيهَا الْعِبْرَةُ وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْخَالِقِيَّةِ، وَالتَّسْخِيرِ، وَالتَّمْكِينِ بِالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَأَيْضًا: مَوْضُوعَاتٌ تَتَّصِلُ بِالْبَعْثِ، وَنَمَازِجٌ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ، وَاسْتِدْلَالَاتٌ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَعَلَى صِدْقِ الدَّعْوَةِ وَإِعْجَازِ الرِّسَالَةِ، مَعَ بَيَانٍ لِعِنَادِهِمْ وَجِرَاتِهِمْ عَلَى الْحَقِّ مَعَ تَبْكِيَّتِهِمْ. وَمِنْ ذَلِكَ أَرْيْحِيَةُ الدَّاعِي وَصَبْرُهُ عَلَى لَأْوَانِهِمْ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾، ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا

(1) الآية: 53.

(2) والتَّرَادِفُ فِي اللُّغَةِ عَامٌّ نَسْبِيٌّ فِيمَا أَرَى. وَلِلسِّيَاقِ دَوْرٌ فِي ضَبْطِ تَمَيُّزِ الْعُنَاصِرِ الْمُتَقَارِبَةِ عَنْ بَعْضٍ. وَهُوَ بَيْنَ حَرْفِ الْجَوَابِ: (أَي) وَ(نَعَمْ) غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ لِكَوْنِ مَعْنَى الْجَزْمِ فِي الْأَوَّلِ مِثْلًا بِقَرِينَةِ الْإِقْتِرَانِ بِالْقَسَمِ، ن: ظَاهِرَةُ التَّرَادِفِ بَيْنَ الْقَدَمَاءِ وَالْمُحَدَّثِينَ، أَحْمَدُ مَخْتَارُ عَمْرٍ، الْمَجْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ لِلْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ، مَجْلَد: 2 - عَدَد: 6، رَيْبَع 1982، ص: 15-20، وَظَاهِرَةُ الْمُشْتَرَكِ اللَّفْظِيِّ وَمَشْكَلَةُ غَمُوضِ الدَّلَالَةِ، أَحْمَدُ الْجَنَابِيُّ، مَجْلَةُ الْمَجْمَعِ الْعِرَاقِيِّ، مَجْلَد: 35 - جُزْء: 4، تَشْرِينِ الْأَوَّلِ - 1984، ص: 400-401.

وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ، ﴿فَنذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿أَتَيْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا
أَوْ بَدَّلَهُ﴾، ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ
قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ﴿فَجَعَلْنَاهَا
حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ﴾، ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، ﴿قُلْ مَنْ
يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا
الصَّلَالُ﴾، ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾، ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ
مِثْلِهِ﴾، ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾،
﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. (1)

" هَذَا حِكَايَةٌ فِيٍّ مِنْ أَفَانِينَ تَكْذِيبِهِمْ، فَمَرَّةً يَتَّظَاهِرُونَ بِاسْتِنْبَاءِ الْوَعْدِ اسْتِخْفَافًا بِهِ،
وَمَرَّةً يُقْبَلُونَ عَلَى الرَّسُولِ [صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] فِي صُورَةِ الْمُسْتَفْهِمِ الطَّالِبِ، فَيَسْأَلُونَهُ:
أَهَذَا الْعَذَابُ الْخَالِدُ - أَيُّ عَذَابِ الْآخِرَةِ - حَقٌّ. فَالْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى
هَذَا الْوَعْدُ﴾ * (2).

وحقيقة حالهم ليست استرشادًا؛ فجرى تغليطهم على طريقة الأسلوب الحكيم. (3) ذلك
أنَّ حالهم التَّبَالُهُ والاستخفافُ بدعوى الحق. وقد أُجيبوا بمؤكِّداتٍ تُسَامِتُ حقيقة كلامهم
أي أولى الحالين وأولى الاعتبارين، وهو اعتبارهم مستخفين لا طالبين للحق. وأجيبوا -
أيضًا - بحَسَبِ شِدَّةِ إنكارِهِمْ. والتوكيد لفظيٌّ: من حرفِ الجواب: (إي)، والجملة الدالَّةُ
على ما دَلَّ عليه حرفُ الجواب، ولأَمِّ الابتداء. وأمَّا المُسْتَتِرُ في ضمائرِهِمْ، فجوَابُهُ جملةٌ

(1) الآيات: 3-4-5-7-11-15-16-22-24-27-31-32-35-38-41-49.

(2) ت ت ت، 195/11، يونس، 48.

(3) صرَّفَ الكلامُ أو السؤالُ عن المرادِ منه مع بيانِ الأولى، أو الإجابةُ عمَّا هو أولى بالسؤال، كما أجاز القرآنُ عن
مسألةِ الأهلَّةِ بأنَّها مَواقِيتُ، وهذا مدارُ منافعِها العظيمة، وكان سؤالُهُم عن سببِ تناقضِها: ذلك قوله في سورة البقرة
189: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجَّ﴾، ن: البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن
الميداني، (م)، ص: 392، وخصائص التراكيب، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، د.ت، ص: 236.

السَّلْب: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي أنكم لا مندوحة لكم من أنكم مُدْرَكُونَ بعذابِ الاستئصالِ في الدنيا والجحيم في الآخرة.

وتبعًا لتنوع الخطاب والمحاورة في السورة خاطبهم القرآن بأساليب متنوعة لردِّ أباطيلهم، كما في قصرِ صفةِ الخلقِ عليه قصرَ إفرادٍ بتصريفِ الكلام: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾،⁽¹⁾ وهو يُدْعَى -أيضًا- الإدماج في الحجاج أو الترقِّي في الاستدلال.⁽²⁾

ومن الاستفهاماتِ المُركَّبةِ التي ساقها القرآن من سورة يونس: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾:⁽³⁾

"وَكَلِمَةٌ (الآن) اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ عَنِ حُصُولِ إِيْمَانِهِمْ عِنْدَ حُلُولِ مَا تَوَعَّدَهُمْ، فَعَبَّرَ عَنِ وَقْتِ وَقُوعِهِ بِاسْمِ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ وَهُوَ (الآن) حِكَايَةٌ لِلِسَانِ حَالِ مُنْكَرٍ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. اسْتَحْضَرَ حَالِ حُلُولِ الْوَعْدِ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ فِي زَمَنِ التَّكَلُّمِ. وَهَذَا الْإِسْتِحْضَارُ مِنْ تَخْيِيلِ الْحَالَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَاقِعَةً".⁽⁴⁾

وتضمَّنتِ السورة حتى هذه الآية أقوالهم، وأحوالًا من أحوالهم، وما يفهم من أباطيلهم في الآيات التي تعرض الردود عليهم والزامهم بالحق. ومقولاتهم التي عرضتها السورة من أولها -وما نقوله طواغيثهم في عذاب النار: ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾⁽⁵⁾ إحصاؤها عشر مقولاتٍ إلى قولهم: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾، فكان التثني والتعقيب على كلِّ هذه المقدمات بأخصر كلام مفيد الاكتفاء من حوارهم بما قدروا أن يكون تطويلًا في تبكيثهم، كما في آياتٍ متقدمة، فكان حرفُ الجواب -باعتباره قيمةً صوتيةً مؤثرةً- مُشربًا بالقسم حسماً وتوكيدًا

(1) يونس، 34.

(2) ن: ت ت ت، 160/11.

(3) الآية: 51.

(4) ت ت ت، 194/11.

(5) يونس، 28.

بليغاً لا يتوقَّعه المُمعِنُ في الجدلِ والخصومة، وهو أعونٌ على دحضه وإقامة الحُجَّةِ بحسَمِ القول، وإثباتِ الداعي لقوةِ موقفه وثقته فيما يدعو إليه، وبصدمةِ المُنافِحِ عن الكفرِ المُكابِرِ في ردِّ الحق. وهذا يحاكيه القولُ المُوجِزُ المَسوقُ بعدَ مقدِّماتٍ استطلت على لسانِ أهلِ الكفرِ من سورةِ الإسراء: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾. (1)

مَثَلَتْ هذه القيمةُ الصوتيةُ ذاتُ النِّعَمِ الخاصِّ والمِدِّ أو النَّبْرِ المُعَبَّرِ (2) هُدَاةً لصوتِ الدعوةِ إلى الله وإحساساً بأنَّ المَقَامَ مقامُ طلبِ لاسترواحِ النَّفْسِ بعدَ لأواءِ النَّصِحِ الخالصِ لِمَنْ أظهروا تهكُّماً خفياً في قولهم: ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ باستعمالِ المُضَمِّرِ في الكنايةِ عن يومٍ عظيمٍ هو يومُ الحِشْرِ الَّذِي كان من أكبرِ همِّهم التَّكْذِيبُ به. كان هذا الموقفُ موقفَ استراحةٍ للنَّذِيرِ بعدَ تشريقِ القرآنِ بهم بالبراهينِ والحججِ الساطعة، وآيةُ ذلك قوله بعدَ هذه الآيةِ بصدِّ تَنَدُّمِهِم والإيذانِ بِوَقْتِ قضاءِ الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. (3)

7511 من هداة الليل إلى إشراقه الصُّبح

السينُ حرفٌ مهموس، له صفيِّرٌ (4) وجرسٌ خاصٌّ يمكنُ أن يؤديَ وظيفةً فنيةً، ويشكِّلُ قيمةً دلاليةً. ونماذجُه في الشعرِ متوافرةٌ منبثَّةٌ في قصائدِ العصورِ.

(1) الآية: 91.

(2) ن: معجم اللسانيات الحديثة، سامي حنا، مكتبة لبنان ناشرون، 1997، ص: 135، واللغة العربية معناها ومبناها، ص: 226-227.

(3) يونس، 51.

(4) ن: شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الإسترابادي، ت: محمد نور الحسن، دار الكتب العلمية، 1975، 231/3.

ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله -تعالى- من سورة التكوير: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ
وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾. (1)

مادة: (عسس) تتصل في اللغة بالليل وبعض أحواله. وعسس الليل: بمعنى أقبل،
أو أدبر. (2)

ذَكَرُ هذا الوقتِ من هداةِ الليلِ إلى إسفارِ الصبحِ يتعلَّقُ بزمنٍ يتهيأُ فيه تأمُّلُ الكونِ
وتلاوةٌ يسترُّها سكونُ الليلِ وبهجةُ الصبحِ حيث تتلقَّى النفوسُ الرِّكِيَّةُ من فيضِ النورِ ما
يستقرُّ في القلوبِ إيمانًا وتصديقًا تسمو به الرُّوحُ بقريضةِ قوله -سبحانهُ وتعالى- بعدَ هذه
الآيةِ من سورةِ التَّكْوِيرِ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ
أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾. (3)

وورودُ هذا الفعلِ في الآيةِ (عَسَسَ) يوجِزُ معنيي الإقبالِ والإدبارِ، ويستغرقُ حركةَ
الليلِ من زحفِ الظلامِ إلى انقشاعِهِ وذهابِهِ، فالصورةُ مُظلمةٌ تُشيعُ عَثمَةً في المشهدِ
وانتشارًا للظلمةِ والاستيحاشِ. ويأتي صوتُ السينِ راسمًا صورةً للهمسِ الَّذِي يُسمَعُ ليلاً
على نحوِ أعمقٍ، وللسكونِ في الليلِ إذا سجي: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (4) أي سكن، ودام.
وتُسَنَّتَارُ حاسَّةُ السمعِ ليلاً لتهدِّي في سوادِ الليلِ وسكونِهِ إلى ما يؤنسُ، ويُسَلِّي، فالسينُ
وتكريزُها في الكلمةِ يَربِطَانِ الذهنَ بهذه المعاني التي تبادرُ إليه عندَ غلبةِ الليلِ، أو عند
تلاوةِ الآيةِ ليلاً. والسينُ في آخرِ الفعلِ: (تَنَفَّسَ) من الآيةِ تُتَمِّمُ هذا المعنى، إذ تؤدي
دَوْرَهَا مُحَاكِيَةً إسفارِ الصبحِ وَتَسْلُلُهُ شمسًا مُخْتَلِسةً تسرقُ من الفجرِ أماكنَهُ شيئاً فشيئاً
حتى نهايةِ الإشراقِ.

(1) الآيتان: 17-18.

(2) ن: لسان العرب، 6/139.

(3) الآيات: 19-24.

(4) الضحى، 2.

ما بين طَرْفِ اللِّسَانِ وَفُوقِ الثَّنَائِيَا مَخْرَجُ الزَّايِ، وَالسِّينِ، وَالصَّادِ،⁽¹⁾ وَهِيَ أَسْلِيَّةٌ؛ لِأَنَّ مَبْدَأَهَا مِنْ أَسَلَةِ اللِّسَانِ، وَهِيَ مُسْتَدَقُّ طَرْفِ اللِّسَانِ. وَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ فِي حَيْزٍ وَاحِدٍ. وَالسِّينُ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَهْمُوسَةِ. وَمَخْرَجُ السِّينِ بَيْنَ مَخْرَجِي الصَّادِ وَالزَّايِ.⁽²⁾

تَلُوْحُ هَذِهِ الْأَحْرَفُ فِي آيَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾،⁽³⁾ لِتَعْطِي مَوَادَّ الْإِسْتَفْزَازِ، وَالصَّوْتِ، وَالْإِسْتَطَاعَةَ الْمَنْسُوبَةَ إِلَى إِبْلِيسَ فِي سَعَايَتِهِ، وَعِدَاوَتِهِ، وَشَنَائِهِ لِبْنِي الْبَشَرِ اتِّصَالًا بِأَعْظَمِ شَرِّهِ وَأَشَدِّ نِكَايَتِهِ فِي الْآدَمِيِّينَ. تِلْكَ هِيَ وَسُوسَتُهُ أَوْ وَسْوَاسُهُ مَعَ مَلَاظَمَةِ تَكَرَّرِ هَذَا الصَّوْتِ فِي هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَهُمَا تَعْبِرَانِ عَنْ مَعْنَى وَاحِدٍ يَقْرَأُهُ الْمُؤْمِنُ بِتِلَاوَةِ سُورَةِ النَّاسِ الْمَتَضَمِّنَةِ تَكَرَّرَ هَذَا الْعَنْصَرِ الصَّوْتِيِّ الدَّالِّ مَرَاتٍ عَدِيدَةً، فَيَقْهَرُ بِنُورِهِ كُلَّ وَسْوَاسٍ أَوْ وَسُوسَةٍ: ﴿مَنْ شَرَّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.⁽⁴⁾

(1) ن: الكتاب، 433/4.

(2) ن: تاج العروس، 394/15.

(3) الآية: 64.

(4) الآيات: 4-6.

21 الفصل الثاني: المصادر

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: (1)

اجتمعت في هذه السورة دلائل التوحيد وقواعده. والقرآن كله توحيد وتجريد لهذا
التوحيد. (2) وقد ابتدأت بالثناء على الله تعالى. وذلك بصيغة الحمد التي أُسْتُهَلَّتْ بها من
قبل سورة الفاتحة التي هي ديباجة القرآن وملاك التوحيد، والتي هي مُكْتَنَفَةٌ بمعاني
الرحمة، والنعمة، أو الإنعام. وتلك هي المعاني التي في هذه السورة بعامتها، وفي إحدى
آياتها على وجه التخصيص. (3)

(1) الأنعام، 12.

(2) ن: التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، دار الفكر، د.ت، ص: 258، والصواعق المرسلّة لابن القيم، ت: علي
الدخيل، دار العاصمة، 1998، 929/3. يتعلّق موضوع وحدة النسق وهو في القرآن مرتبط بقضايا العقيدة - بما
يُعرَفُ عند الألسنيين المُحدّثين بسياق النص، ن: علم الدلالة العربي، فايز الداية، دار الفكر، 1985، ص: 218.

(3) لا يخفى ما بين اسم هذه السورة، وما بين لفظ الإنعام أو النعمة من صلة. وقد ورد في فضل هذه السورة حديثٌ
رواه الطبراني بسنده: "نَزَلَتْ عَلَيَّ سُورَةُ الْأَنْعَامِ جُمْلَةً وَاحِدَةً يُسَبِّحُهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ. لَهُمْ رَجُلٌ بِالشَّيْبِجِ وَالتَّحْمِيدِ"،
المعجم الصغير، ت: محمد أمير، المكتب الإسلامي، 1985، 145/1.

ووصف الرحمة - لا غرو- أنه داخل في عداد المحامد التي يعيها الحمد مُفتتح
السورة المباركة، فهذا الثناء مُنحلّ إلى مجموع دواعيه ثناءً جامعاً لوصفه - عزّ وجلّ -
بجميع المحامد وتنزيهه عن جميع النقائص: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. (1)

وقد جرى طي مظاهر الرحمة والآلاء التي في السماوات والأرض في هذه الآية مما
سيجري تفصيله في تضاعيف السورة، وذلك كما في قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. (2) وَنَصَّت
الآية من تلك المظاهر على الظلمات والنور. وهما ماديتان ومعنويتان، فبالنور الحسي
يتحقّق شهود آثار الرحمة والنعم المنبثّة في الآفاق، وعلى الأرض. وبه يتأتّى للإنسان
تحصيل ما ينفعه ودفع ما يضره. وللظلمة الحسيّة آثارها التي بها يتمّ ادّخار القوة

(1) السابق، 1. الكون يَغشاه الظلام في غالبية أجزائه، والحزام النهاري في نصف الكرة الأرضية لا يتعدى سُمكُه
(200كم) فوق مستوى سطح البحر. وإذا ارتفع الإنسان فوق ذلك، فإنه يرى الشمس قرصاً أزرق في صفحة سوداء
حالكة لا يقطع خلوكتها إلا بعض البقع الضوئية الباهتة في مواقع للنجوم. وإذا كان الجزء الذي يتجلى فيه النهار على
الأرض محدوداً في طوله وعرضه مُقدّراً بنصف مساحة الأرض، وفي سُمكُه ب(200كم)، وكان في حركة دائمة
مرتبطة بدوران الأرض حول محورها، وكانت المسافة بين الأرض والشمس في حدود: (150000000كم)، وكان
نصف قطر الجزء المدرك من الكون يُقدّر ب(12) بليون سنة ضوئية: [عشرة آلاف مليون من السنين الضوئية * 9.5
مليون مليون كيلو متر]، اتضحت لنا ضالّة سُمك الطبقة التي يعمرها نور النهار وعدم استقرارها لانتقالها باستمرار من
نقطة إلى أخرى على سطح الأرض مع دورانها حول محورها، واتضح لنا أن تلك الطبقة الرقيقة تحجب ظلام الكون،
ونحن في وضّح النهار. فإذا جنّ الليل، انسلخ منه النهار، واتصلت ظلمة الليل بظلمة الكون، وتحركت تلك الطبقة
الرقيقة من النور لتفصل نصف الأرض المقابل عن تلك الظلمة الشاملة: ﴿وَأَيُّ لَيْلٍ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ
مُظْلِمُونَ﴾، (يس، 37). ومن الأمور التي تُؤكّد ظلمة الكون الشاملة أن باطن الشمس مظلم تماماً على الرغم من أن
درجات الحرارة فيه تصل إلى (15000000) درجة مئوية، أو تزيد؛ وذلك لأنه لا يُنتج فيه سوى الإشعاعات غير
المرئية من مثل أشعة جاما، والأشعة فوق البنفسجية، والسينية. أما ضوء الشمس، فلا يصدر إلا عن نطاقها الخارجي
فقط، وهو الذي يُعرف باسم النطاق المضيء، ولا يُرى بهذا النور إلا في الجزء السفلي من الغلاف الغازي للأرض،
وفي نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس. ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾،
(الشمس، 1-4). من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام: عدد: 41874 - 30 يوليو - 2001 م. وحول نصف
قطر الكون المُقدّر راجع الصحيفة: عدد: 9 يوليو - 2001 م. ن: ص: 362 من هذه الدراسة.

(2) الأنعام، 75

واستبقاؤها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. (1)

وإيثار الظُّلُمَاتِ والنُّورِ بالإيرادِ فيه نقلٌ لصورةِ الهيئة: هيئة الكونِ الذي تتعاضطُ فيه سيادةُ الظلامِ وانحصارُ الضوءِ في النُّجومِ، وفي بعضِ الأجرامِ والكواكبِ بشرطِ توافرِ خواصِّ طبيعيةٍ وقدرةٍ على استقبالِ المرئياتِ، كما هو مبذولٌ في علومِ الفلكِ. (2)

وفي هذا الإيرادِ إبداءٌ لامتنانِ الخالقِ على خلقِهِ بجعلِ هذينِ العَرَضَيْنِ، وما لهما من وُجوهِ النِّفَعِ. وفيه إيماءٌ وتعريضٌ بأهلِ الكفرِ والضلالِ الَّذِينَ استغنَوْا عن نُورِ الإيمانِ، وآثروا عليه الحَوَالِكِ والتَّرَدِّيَّ في مُبْهَمَاتِ السبيلِ، فكان ما هم فيه من ظلمةِ الحالِ باعثًا للمؤمنينِ على استعظامِ نعمةِ الهدايةِ وشكرِ اللهِ عليها:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾. (3)

ومن مَطَوِيَّاتِ الآيَةِ مَطَّلَعِ السُّورَةِ نِعْمَةٌ من أَجْلِ نِعَمِ التَّكْرِيمِ، وهي العَقْلُ أو القُوَّةُ الإدْرَاقِيَّةُ النَّوعِيَّةُ الَّتِي امتازَ بها كُلُّ مُكَلَّفٍ عن سواه من الموجوداتِ الدُّنْيَا. (4) وقد انطوت الإشارةُ إليه في إنحاءِ الآيَةِ على الَّذِينَ بَرَّبَهُم يَعْدِلُونَ الَّذِينَ صَلَّتْ عَقُولُهُمْ، وَجَدَّتْ قُلُوبُهُمْ، ولم تكتشفْ في روعةِ صنعِ العوالمِ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ، وَصَدَّقَ الوَعْدَ والوَعِيدَ، وَرَحْمَةَ الهِدَايَةِ، فَصَدَفَتْ عن آيَاتِ اللَّهِ فِي الْآفَاقِ، وَفِي أَنْفُسِ أَصْحَابِهَا: ﴿قُلْ إِنِّي

(1) القَصص، 71-72.

(2) ن: من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام: عدد: 41874.

(3) الأنعام، 39-122.

(4) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: العقل=Reason، والموسوعة الفلسفية، روزنتال، دار الطليعة، 1987، مادة: (الفكر)، والفلاسفة والفكر الإسلامي، محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، 1985، ص: 20 وما بعدها.

نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ. (1)

والرحمة ومشتقاتها تَرَدَّدَ وقوعها في السورة في عِدَّةِ آيَاتٍ (2) فضلًا عن مُسَمِّيَاتِهَا في الجمهرة من آياتها.

آيَةُ الْأَنْعَامِ ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ تَرَدُّ فِي مقام الاستدلالِ الَّذِي مِنْ دَابِ الْقُرْآنِ استئنافُهُ وتتويجُ المقالِ فِيهِ دَخْصًا لمذاهبِ المستكبرينَ فِي الاستعلاءِ عَلَى الْحَقِّ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ. وَمِنْ ذَلِكَ مَا شَرَعْتُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ إِشَاعَةِ الثَّنَاءِ عَلَى الْخَالِقِ الْعَظِيمِ وَالْمُدَبِّرِ الْحَكِيمِ، وَمِنْ ذِكْرِ إِجَادِ الْخَلِيقَةِ، وَأَصْلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَمَوْضُوعَةِ الْبَعْثِ، وَذِكْرِ بَعْضِ النِّعَمِ الَّتِي مَكَّنَ اللَّهُ الْأُمَّمَ الْغَابِرَةَ فِيهَا مِنْ إِرْسَالِ السَّمَاءِ بِالْأَمْطَارِ وَإِجْرَاءِ الْأَنْهَارِ مِمَّا هُوَ دَاخِلٌ فِي أَصُولِ التَّمَكِينِ إِشَارَةً إِلَى الْحَضَارَاتِ الْمَائِيَّةِ الَّتِي قَامَتْ فِي الْأَرْضِ الْخَصْبَةِ عَلَى ضِفَافِ الْأَنْهَارِ فِي بَابِلَ، وَمِصْرَ، وَغَيْرِهِمَا، (3) أَوْ إِلَى التَّجْمُعَاتِ وَالْهَجْرَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي شَهِدَتْ هَذِهِ الْحَضَارَاتُ نَسْلَانَهَا إِلَيْهَا، فَقَامَتْ عَلَى حَوَافِهَا، أَوْ دَاخِلَتَهَا فِي بَعْضِ مَعْمُورِيهَا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِدُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾. (4) وَكَانَ الْأَلِيقُ بِأَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَايَنُوا مِنْ دِيَارِ أَوْلَيْكَ الْأَقْوَامَ الْخَاوِيَةَ عَلَى عُرُوشِهَا مَا عَايَنُوا أَنْ يَتَوَطَّنَ فِي حُويَصَةِ نَفوسِهِمْ مِنْ مُفَادِ التَّمَلُّ مَا تَتَحَصَّلُ لَهُمْ بِهِ دَاعِيَةً إِلَى الْإِيمَانِ بِدَلِّ الرُّكُونِ إِلَى الْعَيِّ وَالْجُحُودِ.

(1) الأنعام، 56-57.

(2) الآيات: 12-16-54-145-147-154-157-165: والوصفُ بِالرَّحْمَةِ هُوَ آخِرُ كَلِمَاتِ السُّورَةِ.

(3) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الحضارة القديمة = Ancient civilization

(4) الأنعام، 6.

وَمِمَّا يُقَابِلُ هَذَا اللَّوْنَ مِنْ كُفْرَانِ النَّعْمَةِ وَجُودِ الْفَضْلِ شُكْرُ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ عَلَى مَا هِيَءَهُ مِنْ أَسْبَابِ التَّمْكِينِ وَظَوَاهِرِ الْعُمُرَانِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ خَلْقِهِ. ذَلِكَ هُوَ مَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْعِرْفَانِ الَّذِي وَرَدَ عَلَى لِسَانِ ذِي الْقَرْنَيْنِ بَعْدَ فِرَاعِهِ مِنْ بِنَاءِ السِّدِّ الَّذِي حَالَ بَيْنَ قَوْمٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَبَيْنَ أَحَدِ أَقْوَامِ الشَّرْقِ الَّذِينَ أَلْفَاهُمْ ذُو الْقَرْنَيْنِ دُونَ السِّدِّينِ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ، فَاسْتَعَانُوا بِهِ اتِّقَاءً شُرُورِ الْغَزَاةِ الْمَفْسِدِينَ: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾. (1) وَقَدْ رَبَطَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي كَلَامِهِ لِلْقَوْمِ بَيْنَ الرَّحْمَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَعْنَى التَّمْكِينِ فِي: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (2) اسْتِصْلَاحًا لِهَذَا الشَّعْبِ بَعْدَمَا آنَسَهُ فِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الْخِصْلَةِ الْفَدَّةِ، وَهِيَ انْتِصَارُهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا حَيْثُ لَمْ تُرْهِبْهُمْ زَوَاجِرُ هَيْبَةِ قُوَّةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمَتْرَبِّصِ.

وَذِكْرُ الرَّحْمَةِ فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ سَمِعَ شَطَطِ الْمَشْرِكِينَ فِي الْكُفْرِ وَالْإِعْرَاضِ - جَارٍ مَجْرَى تَرْفَعِ الْقُرْآنِ عَنْ لَدَدِهِمْ فِي الْخُصُومَةِ، وَمَا يُؤَدُونَهُ مِنْ سِفْسَافِ الْقَوْلِ وَرِدْيِ الْأَجُوبَةِ. وَاسْمُ السُّورَةِ الَّذِي تَكَرَّرَ وَقُوعُهُ فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ مِنْهَا (3) عُنْوَانٌ لِلرَّحْمَةِ وَالرَّفْقِ الَّذِينَ تَنَوَّعَتْ مَظَاهِرُهُمَا فِي وَفْرَةٍ مِنْ آيَاتِهَا. وَبَيَّنَّتْ هَذِهِ السُّورَةُ - سَمِعَ ذَلِكَ - حَقِيقَةَ مَنْ لَوَازِمَ كُفْرٍ مَشْرُوكِي مَكَّةَ وَمَكَابِرَتِهِمْ فِي آيَةٍ مِنْهَا: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. (4) وَهَذِهِ مِنْ نَوَادِرِ الْقُرْآنِ، وَنَصَّ عَلَيْهَا - أَيْضًا - قَوْلُهُ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. (5) وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ دَوَاعِي خُلُودِهِمْ فِي الْعَذَابِ.

وَفِي آيَاتٍ مِنْ أَوَائِلِهَا سِيقَ جَانِبٍ مِنْ غُلُوبِهِمْ فِي التَّمَحُّلِ وَالتَّلْبِيسِ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَقَالُوا

(1) الكهف، 98.

(2) السابق، 95.

(3) الآيات: 136-138-139-142. ن: تفسير سورة الأنعام، محمد البهي، دار الفكر، 1974، ص: 7.

(4) الأنعام، 33.

(5) النمل، 13.

لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ»⁽¹⁾، فليس في القرآن أهواء، ولا تردّد لطبعٍ أو نحيرة، كما هو الحال في تأليف البشر؛ بل هو كلام الله المعجز ووحية الحكيم: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ»⁽²⁾.

"فَلَمَّا كَانَ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ، وَكَانَ الْمَرْبُوبُونَ ضُعَفَاءَ، كَانَ احتياجهم للرحمة واضحًا، وَكَانَ تَرْقُبُهُمْ إِيَّاهَا مِنَ الْمُوصُوفِ بِهَا بِالذَّاتِ نَاجِحًا. فَإِنَّ قُلْتَ: إِنَّ الرُّبُوبِيَّةَ تَقْتَضِي الرِّحْمَةَ؛ لِأَنَّهَا إِبْلَاحُ الشَّيْءِ إِلَى كَمَالِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَذَلِكَ يَجْمَعُ النِّعَمَ كُلَّهَا، فَلِمَاذَا احتيج إِلَى ذِكْرِ كَوْنِهِ رَحْمَانًا؟ قُلْتَ: لِأَنَّ الرِّحْمَةَ تَتَّصِمُنُ أَنَّ ذَلِكَ الإِبْلَاحَ إِلَى الكَمَالِ لَمْ يَكُنْ عَلَى وَجْهِ الإِعْنَاتِ؛ بَلْ كَانَ بِرِعَايَةِ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ نَوْعٍ وَفَرْدٍ، وَيُلَاقِي طَوْقَهُ وَاسْتِعْدَادَهُ"⁽³⁾.
والرُّبُوبِيَّةُ أَصْلُ النِّعَمِ. وَقَدْ تَتَهَيَّأُ النِّعْمَةُ بِضَرْبٍ مِنَ المَشَقَّةِ.

وَنِعْمُهُ دَاخِلٌ فِيهَا يَسْرُ تحصيلها. وهذا معنى كونِ الله رَحْمَنًا. ⁽⁴⁾ ويصحُّ بعضُ النعمِ شدةً وبلاءً لحكمةٍ مُقدَّرةٍ وعبرةٍ ناجزة. فمُعْظَمُ تَدْبِيرِهِ هُوَ رَحْمَاتٌ ظَاهِرَةٌ كَالْتَمَكِينِ مِنَ الأَرْضِ وَتَبْسِيرِ مَنَافِعِهَا. وَمِنْهُ مَا رَحِمْتُهُ بِمُرَاعَاةِ النِّسْرِ مِثْلَ التَّكَالِيفِ الرَّاجِعَةِ إِلَى مَنَافِعِ المُكَلَّفِينَ كَالطَّهَارَةِ وَبَثِّ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ. وَمِنْهَا مَا مَنَّفَعْتُهُ لِلْجُمُهورِ، فَتَتَّبَعُهَا رَحْمَاتُ الجَمِيعِ؛ لِأَنَّ فِي رَحْمَةِ الجُمُهورِ رَحْمَةً بِالْبَقِيَّةِ فِي انْتِظَامِ الأَحْوَالِ كَالزَّكَاةِ وَصلاةِ الجماعة. ⁽⁵⁾

(1) الأنعام، 7-9.

(2) يونس، 37.

(3) ت ت ت، 173/1

(4) ن: السابق، 173/1.

(5) السابق بتصرف، 173/1. ن: فقه الزكاة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، 1985، 59/1 وما بعدها، وبيان إعجاز القرآن للخطابي، ت: محمد خلف الله، دار المعارف، 1976، ص: 44.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ يتَّصَمَّنُ كَوْنُ أَنَّ الموجوداتِ كُلَّهَا لله -جَلَّ شَأْنُهُ- أصالة، وأيلولة، خَلْقًا، ومُلْكًا، وتَصَرُّفًا، وهو ما برهنَ عليه القرآنُ مِمَّا لا يُنَارِعُ فيه سوادُ المشركين: ﴿قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى نُسْحَرُونَ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (1).

وقد تمَّ إلجائهم إلى الجوابِ بأن سيقَ لهم، وأحيلوا عليه في آيةِ الأنعام؛ لأن السورة تحكي من شأنِ جحودهم، ومن بعضِ ما كانوا عليه في جاهليتهم (2) ما يُناسِبُه أَلَّا يساقَ اعترافهم بربوبيةِ الله لخلقه. وقد نُقِلَ في غير هذه السورةِ اعترافهم، كما في الآياتِ المتقدِّمة من سورةِ المؤمنون، ثُمَّ لعلَّ فيهم مَنْ يُقِرُّ بالشَّرِكَةِ في الربوبيةِ مع الألوهية كذلك، فاستُغْنِيَ عن جوابه بما تقرر في الآيةِ المُقدَّرةِ فيها المحاورَةُ أي آيةِ الأنعامِ موضعِ البحث، وهي خُلُوٌّ من المحاورَةِ باليقين.

وَلِذَلِكَ لَمَّا كَانَ دَلِيلُ الْوَحْدَانِيَّةِ السَّالِفُ دَالًّا عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَحْوَالِهَا بِالصَّرَاحَةِ، وَعَلَى عُبُودِيَّةِ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي تَشْمَلُهَا بِالِاتِّزَامِ، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تِلْكَ الْعُبُودِيَّةَ بِالصَّرَاحَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ (3).

وإيرادُ ذِكْرِ كِتَابَتِهِ الرَّحْمَةَ عَلَى نَفْسِهِ -سُبْحَانَهُ- أَمْرٌ عَظِيمٌ الْأَثَرِ عَظِيمِ النَّفْعِ. (4) وهو امتدادٌ لما تقدَّمه في السورةِ من معاني الرحمةِ والإحسانِ في أسمائه، وصِفَاتِهِ، وفي

(1) المؤمنون، 84-92.

(2) أوردَ ابنُ كثيرٍ عن ابنِ عباسٍ أَنَّهُ قال: " إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ"، تفسير القرآن العظيم، 3/347.

(3) ت ت ت، 7/150.

(4) لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: [إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي]، فتح الباري لابن حجر، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، 1379 هـ، 6/291. ن: شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث، 1392 هـ، 17/68.

تسخيره ما على الأرض لعباده الذين تعهدهم برسالاته، وهو -أيضاً- تقديم لما انبث في السورة من صور رحمة وكلاءته. ونذكر الرحمة هنا سبقه -لعظم معنى عبارته- التنويه بسلطان الله المكاني: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وتلاه التنويه بسلطانه الزماني: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.⁽¹⁾ وإيثار إيراد السواكن على إيراد المتحركات جرى لكون السواكن أدخل في معنى المرحومية؛ لأنها مظنة الضعف والافتقار؛ وأيضاً تغليباً لمتعلقات الليل المقدم ذكره في الآية. والليل موئل القائمين ودفار الداعين. وفيه تنتزل الرحمات؛ إذ يشهد نزول الله -تعالى- إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله في الثلث الأخير من الليل.⁽²⁾

وقد تم استيعاب سلطانه المكاني والزماني في أول آيات السورة: فخلق السماوات والأرض استغراقاً للمكان الكوني وجعل الظلمات والنور استغراقاً للقيمة الزمانية، إذ إنه من المقرر أنه ينتج عن دوران الأفلاك عبر عوارض النور والظلمة حساب زمني لكل كوكب، أو نجم، أو مجرة.⁽³⁾

ولمعنى الرحمة وإشاراتها انتظام في أوائل آيات السورة حتى بلغ تقرير هذا الفحوى غايةً بليغةً في الآية موضوع البحث من سورة الأنعام، ثم توالى انتظام الدلالات في هذه الآيات: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، ﴿حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرَنَا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ

(1) الأنعام، 13

(2) "يُنزَلُ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي، فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي، فَأَغْفِرَ لَهُ؟"، فتح الباري، 30/3، ن: شرح النووي، 37/6.

(3) ن: تفسير المنار، 321/8، وجامع المسائل لابن تيمية، ت: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، 1422 هـ،

154/1، والفوائد لابن القيم، دار عالم الكتب، 1973، ص 125.

كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾، ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، (1) إلى آخر الآيات الْمُتَّصِمَةِ هذا المغزى.

واسمُ الرحمةِ شاملٌ لمعانٍ عظيمةٍ وإشاراتٍ دقيقةٍ توزعتُ في أعطافِ السورة. وكُلُّ المُوجَدَاتِ مشمولةٌ برحمته -تعالى- ظاهرةً وباطنةً، كلُّ بحسابه حتى الجماداتُ بسببِ تَعَطُّلِهَا من الحس انقطعت عنها تأثيراتُ قَوَارِعِ الطبيعةِ وأعراضِ المناخِ بآثارها المؤلمة. ورحمةُ الله -سبحانه- بالإنسانِ كامنَةٌ فيما سَخَّرَ له من طاقاتِ الطبيعة، وأشكالها الظاهرة، وعناصرها الخفية، وكامنةٌ في تكوينه، وخصائصِ وجوده الماديِّ الحسيِّ والمعنويِّ الروحي، وفي قابليتهِ ومَلَكَاتِهِ، وفي ما يُنْجِزُ من علومٍ وصناعات، وما يرتقي فيه من أسبابِ التَّمَدُّنِ والحضارة، وكامنٌ في رسالاتِهِ تعالى، وما أودع فيها من أسبابِ الهدايةِ والتوفيق، وما رضيه لعبادِهِ من أخلاقِ الإيمانِ وقيمِ الخير، والعدل، والمروءة، وفي الإمهالِ الَّذِي يمتنُّ اللهُ به على خَلْقِهِ، وهو بابٌ عظيمُ الاتِّساعِ رَحْبُ التفاصيلِ، وكامنٌ فيما أَعَدَّ لعبادهِ المُؤَجِّدِينَ من حُسْنِ الجزاءِ بعد حياةٍ كَرَّمَهُمْ فيها بالأملِ في رضاهُ، وفي الصيرورةِ إلى جوارِهِ، وبالتملي من النظرِ إلى سُبُحاتِ نُورِ وجهِهِ الكريمِ. (2)

والتناسُبُ باعتباره قيمةً تتصلُّ بالاجتهادِ في النظرِ (3) بينَ قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (4) وبين: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا

(1) الآيات: 13-14-16-19-34-38-41-44-46-48-51.

(2) "جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس خافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"، فتح الباري، 432/10. ن: شرح النووي، 68/17.

(3) ن: التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، 1976، 262/1.

(4) الأنعام، 12.

يُؤْمِنُونَ»⁽¹⁾ يَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْكُفَّارَ هُمْ الَّذِينَ قَوَّتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمِ التَّعَرُّضَ لِنَفْحَاتِ الرَّحْمَةِ، فَاسْتَوْجَبُوا الْخُسْرَانَ حَتَّى كَانَّ الْمَرُوقَ فِيهِمْ جِبَلِيًّا، فَلَوْ كُفَّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ، لَمَا عَادُوا إِلَّا إِلَى بَابِهِ، وَلَمَا عَوَّلُوا إِلَّا عَلَى أَسْبَابِهِ: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»، «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا». (2)

وقد جرى ترتيبُ عدم الإيمانِ في الآيةِ على خسارةِ النفسِ مع استحضارِ زمنِ المضارعةِ لحالةِ إِبَاءِ الإيمانِ واستحضارِ زمنِ المضيِّ لحالِ الخسارةِ للإفحامِ بأنَّهم آثروا الغوايةَ على الهدايةِ مندفعينَ غيرَ مدفوعينَ إِيثارَ العِنَادِ والمُكَابِرَةِ، وهو ما ترتب عليه تَجَدُّدُ أسبابِ النكوصِ، وتتابعُ أحوالِ التغافلِ والإعراضِ عن نداءِ الحقِّ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ، وتناسيِ انعقادِ معانيه على ما فيه الخيرُ والنفعُ لمُنْتَبِئِهِ: (3)

والفاءُ المقترنة بالضميرِ المثلِّو بالحرفِ النافي للفعلِ اقترنت به في آيةِ الأنعامِ: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»؛ لأنَّ الموصولَ أَشْرَبَ مَعْنَى الشَّرْطِ لِيُفِيدَ شُمُولَهُ كُلِّ الْمُتَصِفِينَ بِمَضْمُونِ الصِّلَةِ، وَيُفِيدَ تَعْلِيْقَ حُصُولِ مَضْمُونِ جُمْلَةِ الْخَبَرِ الْمُنَزَّلِ مَنْزِلَةً جَوَابِ الشَّرْطِ عَلَى حُصُولِ مَضْمُونِ الصِّلَةِ الْمُنَزَّلَةِ مَنْزِلَةً جُمْلَةِ الشَّرْطِ، فَيُفِيدُ اسْتِغْرَاقَ الْمُسْتَقْبَلِ.

(1) السابق والموضع

(2) السابق، 28-31.

(3) من إشاراتِ آيةِ الأنعامِ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ "قَدْ نَجَى أُمَّةٌ الدَّعْوَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ مِنْ عَذَابِ الإِسْتِثْصَالِ الَّذِي عَذَّبَ بِهِ الأُمَّةَ المُكذِّبَةَ رُسُلَهَا مِنْ قَبْلُ؛ وَذَلِكَ بِبِرْكَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إِذْ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ بِحُكْمِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»، (الأنبياء، 107)، وَإِذْ أَرَادَ تَكْثِيرَ تَابِعِيهِ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقْضِ عَلَى مُكذِّبِيهِ قَضَاءً عَاجِلًا، بَلْ أَمْهَلَهُمْ، وَأَمَلَى لَهُمْ لِيَخْرُجَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ... كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ لَمَّا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ [رِسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَنْهَكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ، ثُمَّ يُحْشَرُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ] * فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ ظُهُورِ الإِسْلَامِ، لَأَرْتَفَعَ بِذَلِكَ هَذَا الدِّينُ، فَلَمْ يَحْضَلِ الْمُقْصُودُ مِنْ جَعْلِهِ خَاتِمَةَ الأَدْيَانِ. وَقَدْ اسْتَعَادَ رِسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»، (الأنعام، 65)، فَقَالَ: [أَعُوذُ بِسُبْحَاتِ وَجْهِكَ الْكَرِيمِ] [عند أحمد: أعوذ بوجهك] *، ت ت ت،

152/7، * فتح الباري، 107/13، وشرح النووي على مسلم، 3/18، * مُسْنَدُ أَحْمَدَ، 218/22

وفي قوله -تعالى- من السورة: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽¹⁾ تَنْظِيرٌ لجملة الرحمة الواردة في مطالع السورة. والحال خطابٌ للمؤمنين؛ بل لِحَوَاصِّ منهم، وهم بعضُ فقراءِ المؤمنين من أهلِ الضَّعْفِ وِرْقَةٍ الحال الذين استتكَفَ رؤساءُ قُرَيْشٍ أن يجالسوهم، وهي شَنْشَنَةٌ منهم معهودَةٌ أن يُظهِرُوا التَّأْفُفَ، وينالوا من هؤلاء الضَّعْفَةِ أَقْوِيَاءِ الإيمان. (2) وقد أُضِيفَ في مخاطبتهم في هذه الآية -دون الآية مدارِ البحث- معنى الربوبية استرعاءً لخصوصية السياق الذي فحواه خطابٌ لأهلِ الإيمان. وقد أُمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -بأن يبادرهم بالسَّلامِ لِلإِلمَاعِ إلى شَرَفِ منزلتهم. وتوكيدُ وصفِ الرحمة -وفقَ التركيبِ الواردِ في الآية- أُجْرِيَ مجرى الإيناس؛ ولغرضِ تَطْمِينِ نفوسهم، وهم أحوج ما يكونون إلى مثلِ هذا التَّفَقُّدِ والتثبیت. وقوله في آخرِ خطابهم: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ﴾ الآية، تتميمٌ لِلوَاظِمِ تحقيقِ المعنى المراد، إذ إنَّ العبدَ أحوج ما يكون إلى المغفرة والرحمة عندما يكون منه الذَّنْبُ أو الجنایة. وتوبَةُ اللهِ عليه هي غاية ما يَنْشُدُهُ في حالِ كهذه أي في حالِ تَضَرُّعٍ وتَجَرُّدٍ المُنيبين. وقد حُصِّوا بهذا الخطابِ تمييزًا لهم. ودلالتهُ عامَةٌ لا محالة. وتَعَدُّدُ التوكيداتِ في سياقِ الجملةِ مَسوقٌ مساقَ التَّرْوِيجِ لهذه الخصوصية. والتتصيصُ على ما يُشْبِهُ الاشتراطَ في الآية، وهو المبادرَةُ بالتوبةِ عَقِبَ الذَّنْبِ بقريئةٍ مِنَ الابتدائيةِ وكونِ التوبةِ مقترنةً بالإصلاح- التتصيصُ على ذلك فيه حَتٌّ وشَحْدٌ لِلهمَمِ في المراقبةِ والتيقُّظِ لأعمالِ القلوبِ والجوارح.

ومن دواعي نِكْرِ التوبةِ هنا ما تَقَدَّمَ هذه الآيةُ في خطابِ اللهِ -تعالى- نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، فتوبَةُ

(1) الأنعام، 54.

(2) حَوْلَ سببِ نزولِ الآية، راجع: صحيح مسلم، 4/1878، وأسباب نزول الآيات للواحدي، ت: عصام الحميدان،

(م)، ص: 209.

الله على عباده وتجاوزه عن الذنوب - لا غرو- أنّهما أمران لا يختصّ بهما غيره. ومن دواعيه -أيضاً- ما في قلوب هؤلاء الأتقياء من خشية وخوف من لقائه سبحانه، فَهَجِيرَاهُمْ التضرُّعُ والإنابة: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. (1)

2121 الهدى

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. (2)

فعل الهدى إذا تعدى إلى المفعول الثاني دُونَ واسطة، فإنَّ ذلك يكون مبنياً على دلالة الإشعارِ بقربِ المأمولِ حتى كأنه متحققٌ ماثلٌ لمن يطلب الهداية لنفسه، أو لغيره، أو هو مبنيٌّ على ما يخبرُ به اللهُ -تبارك وتعالى- عن نفسه من تحقيقِ للهداية وتمكينِ للمؤمنين في سبيلِ الرشاد: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. (3)

(1) الأنعام، 51.

(2) محمد، 17. تَرِدُ كلمةُ الهدى ومشتقاتها في القرآن على أنحاء متعددة، فالفعل: (اهدوهم) وَرَدَ على طريقةِ التَّهَكُّمِ في قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾، (الصافات، 22-23). واسم الهدى يقع على الإيمان والشريعة: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾، (ال عمران، 73)، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾، (مريم، 76)، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، (الأنبياء، 73). وفي سورة الرعد: (7) هَادٍ بمعنى داخٍ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. والهدى بمعنى الرسل أو الكتب في سورة طه 123: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾. ويهتدون بمعنى يعرفون، أو يتبينون، كما في النحل 16: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وبمعنى التوحيد، كما في القصص 5: ﴿وَقَالُوا إِنَّا تَتَّبِعُ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَحِّطُ مِنْ أَرْضِنَا﴾. والهدى بمعنى السنة، كما في الأنعام 90: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَادِهِمْ افْتَدَى﴾، ولا يهدي أي لا يصلح: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾، (يوسف، 52). وَهَدَى بمعنى أَلْهَمَ: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، (طه، 50). وَهَدْنَا أي بُنينا: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ﴾، (الأعراف، 156)... ن: تفسير اللباب في علوم الكتاب لابن عادل، ت: عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1998، 275-273/1، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ت: عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 2001 م، 143/1، وكتاب الكليات، 1531-1527.

(3) العنكبوت، 69.

وهنا يُلوح سؤال: هل هذا مخصوصٌ به تعالى، كما يؤكدُ بعضُ أهلِ التصنيف،⁽¹⁾ أم أنه يمكنُ أن ينصرفَ إلى غيره من نبي، أو رسول، أو داعيةٍ إلى الحقِّ كمؤمنِ آلِ فرعونَ الَّذي قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسْتَدُكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾،⁽²⁾ فسياق الآياتِ يؤكدُ عمقَ تمكُّنِ هذا المؤمنِ في إيمانه برسالةِ موسى عليه السَّلام؛ وهو ما عمقَ رغبته في هدايةِ قومه في زمنٍ تعاظمت فيه طائفةُ الكُفر، وتفاقت دعوى الإلحاد مع الجرأة على الله -عزَّ وجلَّ- والافتراء على دينه. وهذا التصورُ يُمكنُ تطبيقه على قوله -تعالى- على لسانِ إبراهيم عليه السَّلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾،⁽³⁾ فهدايةُ النبيِّ أو أهلِ الإصلاحِ لأقوامهم هي دعوتهم إلى الحقِّ التي قد تسفرُ عن الاهتداء، كما قال مؤمنُ آلِ فرعونَ: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾، ﴿فَسْتَدُكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾.

"وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنَّةَ الْهَدَايَةِ إِلَى الْحَقِّ أَعْظَمُ الْمَنَنِ؛ لِأَنَّ بِهَا صَلَاحَ الْمُجْتَمَعِ وَسَلَامَةَ أَفْرَادِهِ مِنْ اعْتِدَاءِ قَوِيهِمْ عَلَى ضَعِيفِهِمْ. وَلَوْلَا الْهَدَايَةُ، لَكَانَتْ نِعْمَةٌ الْإِيجَادِ مُخْتَلَّةً فِي مُضْمَلَةٍ... وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي هُوَ أَكْمَلُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مُرَكَّبٌ مِنْ جَسَدٍ وَرُوحٍ،

(1) ن: كتاب الكليات، 1527.

(2) غافر، 38-44.

(3) مريم، 43.

فَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى وُجُودِ الْخَالِقِ وَكَمَالِهِ بِإِيْجَادِ الْأَجْسَادِ، وَمَا فِيهَا هُوَ الْخَلْقُ، وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ بِنِظَامِ أَحْوَالِ الْأَرْوَاحِ وَصَلَاحِهَا هُوَ الْهَدَايَةُ... وَهَذَا مِمَّا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَلَفَ فِيهِ أَهْلُ الْعُقُولِ". (1)

وغاية الهداية هدى العقل والروح إلى مقام السموّ الأتمّ الأكمل. وكان خلق الأجساد مقصوداً لصيانة الأرواح، فهي الإكسير الباقي في القارورة الفانية.

"فَلِذَلِكَ كَانَ الَّذِي يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقَّ أَنْ يُتَّبَعَ؛ لِأَنَّهُ مُصْلِحُ النُّفُوسِ وَمُصْلِحُ نِظَامِ الْعَالَمِ الْبَشَرِيِّ، فَاتِّبَاعُهُ وَاجِبٌ عَقْلاً وَاتِّبَاعُ غَيْرِهِ لَا مُصَحِّحَ لَهُ، إِذْ لَا غَايَةَ تُرْجَى مِنْ اتِّبَاعِهِ. وَأَفْعَالُ الْعُقَلَاءِ تُصَانُ عَنِ الْعَبَثِ". (2)

والقرآن هدى، وقد جرى وصف القرآن بهذا المصدر في أول البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وفي مستهل سورة لقمان: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ للمبالغة في الوصف:

"وَالْهُدَى الشَّرْعِيُّ هُوَ الْإِرْشَادُ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْعَاجِلِ الَّذِي لَا يَنْقُضُ صَلَاحَ الْأَجْلِ.... وَمَحَلُّ (هُدًى): ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إِنْ كَانَ هُوَ صَدْرَ جُمْلَةٍ أَنْ يَكُونَ حَبْرًا لِمُبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ هُوَ صَمِيرٌ (الْكِتَابِ)، فَيَكُونُ الْمَعْنَى الْإِخْبَارَ عَنِ الْكِتَابِ بِأَنَّهُ الْهُدَى. وَفِيهِ مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي حُصُولِ الْهَدَايَةِ بِهِ مَا يَفْتَضِيهِ الْإِخْبَارُ بِالْمُصَدَّرِ لِلِإِشَارَةِ إِلَى بُلُوغِهِ الْعَايَةَ فِي إِرْشَادِ النَّاسِ حَتَّى كَانَ هُوَ عَيْنَ الْهُدَى تَنْبِيْهَا عَلَى رُجْحَانِ هُدَاهُ عَلَى هُدَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ". (3)

وأما اعتبار هدى في آية البقرة حالاً من الكتاب، فهو حُكْمٌ بالتقييد؛ لأنَّ الحال مقيدة؛ إلا إذا كانت الحال لازمة. (4)

(1) ت ت ت، 162/11.

(2) السابق والصفحة نفسها.

(3) السابق، 225/1.

(4) ن: تفسير البحر المحيط، 161/1.

وكون (هدى) خبراً في جملة اسمية فرعية أكد للمعنى وأقوى للمقصود، حيث جرى الوصف بالمصدر الذي لا ارتباط له بزمانٍ مخصوصٍ؛ بل له مطلق الدلالة الزمنية على النقيض من اسم الفاعل؛ ولهذا توافر التعبير بالمصدر على جملة من المعاني لم يكن من الممكن تحقُّقها لو أنه ترك. (1)

وهدى هذا الكتاب هو الذي يستمدُّ منه أهل التقوى زادهم وعتادهم للقيام بأعباء هذا الدين وإقامة أركانه بعد تحقيق الإيمان بأصوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾، (2) فجرى وصف المؤمنين بالمتقين، وبأن هذا الكتاب هو هدى لهم؛ لأن سياق السورة أي سورة البقرة تضمن وصفاً لجملة من طوائف أهل الكفر والزيغ كالمنافقين، واليهود والنصارى: وهم أهل الكتاب، وكفار العرب. وكلُّ أولئك وقعوا في المكابرة والتقليد مع التأبي على أسباب الوقاية التي يصرف عنهم الأخذ بها سخط الله وعُقوبته، فالمتقون هم الذين يستجيبون لنداء الفطرة فيهم، فينزعون إلى ما فيه سلامة أبدانهم من الألم، وأرواحهم من الشقاء، وضمايرهم من التأنيب، والندم، والحسرة: (3) ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، (4) فهدى القرآن نوراً يعينهم على أعمال القلوب والجوارح، كما تبيّن أمرهم مُستهلّ البقرة، وفي أوائل لقمان: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، (5) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا مِنْ ثَمَرَةٍ مِثْلُ لَبَنٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَفِيهَا مِنْ ثَمَرَةٍ مِثْلِ نَضُوبٍ إِذَا أُفْحِمَتْ عَمِيَّتْ فِيهَا مِنْ ثَمَرَةٍ مِثْلِ نَخْلٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَفِيهَا مِنْ ثَمَرَةٍ مِثْلِ تَمَرٍ لَا يَتَغَيَّرُ وَكَثِيرٌ آخَرٌ لَا يُحْصَى فِي الْجَنَّةِ مُبَدَّلُونَ وَسَيَجْزِي رَبُّكَ الْعَمَلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، (6) فقد

(1) ن: ت ت ت، 227-226/1.

(2) البقرة، 197.

(3) صور القرآن مشاهد الحياة والبعث بوسائل من التصوير تعددت، وتعمقت بتعدد مجالات الصورة وموضوعاتها. ومن ذلك تصوير حال الحسرة والتندم الذي تبلغها طوائف العصاة المجرمين يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، (النساء، 42)، ن: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، 1993، ص: 192.

(4) الشورى، 52.

(5) البقرة، 3.

(6) لقمان، 8.

وُصِفَ الْمُتَّقُونَ الْمُحْسِنُونَ بِالْإِيمَانِ بِوَاسِطَةِ تَصْوِيرِهِ حَدَّثَنَا مُسْتَمِرًا مُتَكَرِّرًا عَلَى الدَّوَامِ مَحَاكَاةً لَمَا فِي صِفَةِ التَّقْوَى مِنْ عُنَاصِرِ الْأَدَاءِ وَالتَّجَرُّدِ اللَّازِمِينَ لِتَحْقِيقِهَا؛ وَلِمَا لَهَا مِنْ عَظِيمِ الشَّأْنِ وَنِبَاهَةِ الْقَدْرِ فِي الْإِسْلَامِ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. (1)

الْوَاوُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (2) اعْتِرَاضِيَّةً، فَالْآيَةُ تَوَجُّهًُ إِلَى فَرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ بِنَاءً عَلَى تَعَرُّضِ السُّورَةِ لِطَوَائِفِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَبِنَاءً عَلَى أَسْلُوبِ السُّورَةِ فِي تَمَثُّلِ حَالِيْنَ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ (3) وَفِي الْمَقَابِلَةِ بَيْنَ فَرِيقَيْنِ مِنَ النَّاسِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾. (4)

زِيَادَةُ الْهُدَى لُطْفٌ مِنْهُ -تَعَالَى- بِالْمُهْتَدِينَ الَّذِينَ وَفَّقُوا إِلَى الْعَمَلِ بِمَا عَلِمُوا، وَبِوَرِكَ لَهُمْ فِي عِلْمِهِمْ، فَأُورِثَهُمُ الْخَشْيَةَ وَالْمَجَاهِدَةَ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، (5) ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾. (6)

وَإِيْتَاءُ التَّقْوَى مُسْتَعَارٌ لِتَيْسِيرِ أَسْبَابِهَا أَيْ تَحَصَّلَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ وَالْوَقَايَةِ مَا اسْتَحَقُّوا بِهِ الثَّنَاءَ، فَكَانُوا أَحْرِيَاءً أَنْ تَخْتَصَّ التَّقْوَى بِهِمْ، وَأَنْ يُخْصَّوْا بِهَا بِقَرِينَةٍ إِضَافَتِهَا إِلَى الْمُضْمَرِّ: تَقْوَاهُمْ.

(1) البقرة، 194.

(2) محمد، 17.

(3) السابق، 3.

(4) السابق، 1-2.

(5) فاطر، 28.

(6) الأحزاب، 39.

وجرى إيجاز معاني التوفيق، والهداية، ومعرفة الحق، ومجاهدة الهوى في لفظٍ مُجْمَلٍ اخْتَرَلَ تلك القِيم، وهو البَيِّنَةُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُرِينًا لَهُ سُوءُ عَمَلٍ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. (1)

وفي حين كان جزاء المؤمنين المغفرة وإصلاح البال كان جزاء أضدادهم أن أحببوا أعمالهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (2) لكون المؤمن يتقي الله لا غير؛ وكون المنافق يتقي غير الله.

ومن إشارات زيادة الهدى المُمْتَنِّ بِهِ على أهله إعادة لفظ الإيمان بصيغة المضي المُحَقِّقَةِ للمعنى في قوله من السورة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾. (3)

والمصدر المُخْتَارُ في السياق الهدى، وليس الاهتداء لكون الهدى يُمَثِّلُ المعنى الأصليَّ المستوعِبَ للقيم والدلالات الكليَّةِ أي أن فيه أصول المعارف الإيمانية والتوجيهات الربانيَّة التي جرى الأمر باقتدائها وتمثلها في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهَادِهِمْ اقْتَدِهْ﴾، (4) ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾. (5)

وإذا كان أهل الهداية هم أهل الكمال النفسية من الإيمان، والتقوى، والخشية، كما تقدَّم، فهم أهل العلم الذين ينظرون إلى الشاهد، وفي الغائب والذين نصت عليهم الآية السابقة لآية مدار البحث بالمقابلة بينهم، وبين أهل الريبة والشبه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ

(1) محمد، 14.

(2) السابق، 8.

(3) السابق، 2.

(4) الأنعام، 90.

(5) آل عمران، 79.

إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴿١﴾، فهؤلاء الخارجون
إِمَّا مُسْتَخِفُّ مُسْتَهْزِئٍ، أو ضَارِبٌ فِي الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ، أو جاحِدٌ مُسْتَكْبِرٍ. وهذا مضمونُ
هذه الآيات:

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾، (2) ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
سَبِيلًا﴾ (3) ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، (4)

وفي الآية التالية للآية موضوع البحث بيانٌ لمعنى يُبينُ مآلَ عدمِ الحذرِ من الموقفِ
الذي تَدَلَّهِمْ فِيهِ قَوَارِعُ الْحَشْرِ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا
فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾. (5)

وتتكررُ (هُدَى) هنا، وفي آية البقرة: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (6) يفيدُ التعظيمَ
أَيُّ تعظيمٍ شأنِ هذه الهداية، كما يفيدُ العمومَ أَيُّ أَنَّ هدى القرآنِ شاملٌ عامٌّ يستوعبُ كُلَّ
المطالبِ الخيرية: دينيةً أو دنيويةً، فيشملُهم الهدى القرآني، ويَحْكُمُ تصرفاتهم، ويحوظهم
في حياتهم بقرينة تكرارِ هذا الوصفِ في هذه الآياتِ مِنَ البقرةِ مع بيانِ تمكّنهم فيه بسوقِ
حرفِ الاستعلاء: (على).

«وَأِنَّمَا نُكِّرُ: (هُدَى)، وَلَمْ يُعَرَّفْ بِاللَّامِ [عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ] لِمَسَاوَاةِ التَّعْرِيفِ
وَالتَّنْكِيرِ هُنَا، إِذْ لَوْ عُرِّفَ، لَكَانَ التَّعْرِيفُ تَعْرِيفَ الْجِنْسِ، فَرَجَحَ التَّنْكِيرُ تَمْهيدًا لَوْصْفِهِ
بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، فَهُوَ مُعَايِرٌ لِلْهُدَى السَّابِقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ مُعَايِرَةً
بِالِاعْتِبَارِ... فَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ تَنْوِيَةٌ بِهَذَا الْهُدَى يَقْتَضِي تَعْظِيمَهُ. وَكُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى
تَعْظِيمِ الْمُتَّصِفِينَ بِالتَّمَكُّنِ مِنْهُ. وَإِنَّمَا وَصَفَ الْهُدَى بِأَنَّهُ مِنْ رَبِّهِمْ لِلتَّنْوِيَةِ بِذَلِكَ الْهُدَى

(1) محمد، 16.

(2) البقرة، 14.

(3) الفرقان، 44.

(4) النمل، 13.

(5) محمد، 18. ن: مفاتيح الغيب، 51/32-52، وت ت ت، 102/26، والكشاف، 4/322.

(6) البقرة، 5.

وَتَشْرِيفِهِ مَعَ الْإِشَارَةِ بِأَنَّهُمْ بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ إِضَافَةُ الرَّبِّ إِلَيْهِمْ هِيَ إِضَافَةٌ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ بِالْقَرِينَةِ". (1)

وَحَدَّثَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ تَدْرُجٌ وَتَرَقُّ فِي وَصْفِ اسْتِعْرَاقِ الْمُتَّقِينَ فِي الْهُدَى، وَهُوَ مَا نَلْمُحُهُ فِي وَصْفِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ فِي آيَةٍ تَالِيَةٍ مِنَ الْبَقَرَةِ مَعَ قَرِينَةٍ يُرَادُ وَصْفِ آخَرَ وَصِفَ بِهِ الْقُرْآنُ، فَهُوَ هُدًى وَبَشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبَشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. (2) ثُمَّ يَسْفِرُ التَّدرُجُ فِي الْخُطَابِ عَنِ قِيَمَتِي التَّقْوَى وَالْإِيمَانِ مُجْتَمِعَتَيْنِ مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى مَبْدَأِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا ذُكِرَ مِنْ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ فِي مُسْتَهَلِّ السُّورَةِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، (3) فَالْإِشَارَةُ إِلَى الْبَعْثِ يُفِيدُهَا لَفْظُ: (مَلَاقُوهُ) وَلَفْظُ بَشَارَتِهِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشْرَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. (4) وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى مَفْهُومِ الْارْتِبَاطِ بَيْنَ الْإِيمَانِ، وَالْهُدَى، وَالتَّقْوَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. (5)

وَفِي خَوَاتِيمِ السُّورَةِ تَنْطَوِي خِصَائِصُ الْهُدَى، وَالْإِيمَانِ، وَالتَّقْوَى فِي تَضَاعِيفِ الْآيَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ خُتِمَتْ بِهِمَا مَعَ ذِكْرِ الَّذِي هُوَ أَتَمُّ الْخَلْقِ إِيمَانًا، وَهُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي الَّذِي يُفِيدُ تَحَقُّقَ حَدُوثِ الْفِعْلِ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا

(1) ت ت ت، 245/1.

(2) الآية: 97.

(3) البقرة، 3.

(4) السابق، 223.

(5) السابق، 177.

حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

(1) السابق، 285-286. ن: النبأ العظيم، محمد دراز، دار الثقافة، 1985، ص: 210، ومنهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة، محمود سعد، مطبعة الإخوة الأشقاء، د.ت، ص: 137-141.

﴿الم تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: (1)

"الكتاب معروف. والجمع: كُتِبَ وَكُتِبَ. كَتَبَ الشيء، يَكْتُبُهُ كِتَابًا، وكتابًا، وكتابة، وكتَبَهُ خَطَّهُ...والكتابُ أيضًا: الاسمُ عن اللحياني. الأزهري: الكتابُ اسم لما كُتِبَ مَجْمُوعًا، والكتابُ مَصْدَرٌ". (2)

وقد يجيء المصدرُ بمعنى المفعولِ كالخَلْقِ، فهو مصدرٌ بمعنى مخلوق. وقد اشتُقَّ من (كَتَبَ - يَكْتُبُ) بمعنى الجمعِ والضمِّ؛ لأنَّ الكتابَ تَجْمَعُ أوراقُه وحروفُه.

وتسميةُ القرآنِ كتابًا هي إيدانٌ بأهميةِ كتابته، والاشتغالِ بذلك، والعنايةِ به بِالْإِلْمَاعِ إلى ذلك انطلاقًا من مصدريةِ الكلمة، وفي المصدرِ استيعابٌ لدلالاتٍ ليست في غيره.

والعنايةُ بكتابةِ القرآنِ ناشئةٌ عن كونها من وسائلِ حفظه. وفي هذه التسميةِ تنويهٌ بذلك وحثٌّ عليه. وعليه اتَّخَذَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كُتَابًا يَكْتُبُونَ الوحي، وهو ما يُوَكِّدُ وجوبَ توجُّهِ هذا الأمر. وأيضًا، فقد شاع في تلك الأزمنةِ التعبيرُ عن محفوظاتِ الأديانِ وتعاليمها الأصليةِ بلفظةِ الكتبِ أو الأسفارِ، فجارى الإسلامُ هذه التسميةَ الشائعةَ بين عربِ الجاهلية، وبين أهلِ تلك الديانات. (3)

(1) لقمان، 1-5.

(2) لسان العرب، مادة: (كتب)، 698/1، وفي تاج العروس أن الكتابَ مَصْدَرٌ على خلافِ القياس، أو أنه اسمٌ كاللباس، أو أن أصله المصدرُ، ثم استعملَ في معانٍ متعددة. 100/4. ن: أساس البلاغة للزمخشري، دار الفكر، 1979، ص: 535.

(3) ن: ت ت ت، 221/1.

وكان للكتابة عند عرب الجاهلية أهمية خاصة، وللكتاب بينهم مكانة رفيعة.⁽¹⁾ وكانت الأمم من حولهم تشيع فيها كتب دياناتها. تطالعها، وتشمخ بها على غيرها. ولها محل من الحرص والضمانة مشهود مرهوب؛ وهذا ما جعل للكتاب عندهم أي عند عرب الجاهلية صيتاً لنفاسته بينهم، فدينهم غير مكتوب ومعارفهم متوارثة محفوظة. وعندما نزل القرآن، خطبوا به مشافهة. لم يقرؤوه في قرطاس. وقد ألقوا من يهود يثرب وغيرهم أن أديانهم كانت أسفاراً تملأ العين ضخامة وهيبة: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾،⁽²⁾ فهذه دعوى منهم ردّها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.⁽³⁾ وإنما خطبوا بالقرآن متلواً غير مكتوب؛ لأن جمهورهم أميون. والغاية من القرآن أن يصل إلى كل أحد، وأن يبلغهم جميعهم على اختلاف أطوارهم وأحوالهم. وقد يسمّى العالم عندهم كاتباً؛ ولهذا جاء في التنزيل: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾،⁽⁴⁾ فقد كان الكاتب عندهم عزيزاً، فهو لا يبلغ الإتقان في الكتابة حتى يكون قد حصل من المعارف والعلوم ما يهيب له أن يعدّ في علمائهم.⁽⁵⁾

وقد تضمّنت الآيات الأولى من سورة العلق -وهي أول ما نزل من القرآن- مادة القراءة في موضعين بصيغة الأمر. والقراءة في الأصل تكون لما هو مكتوب. ووردت مادة التعليم مرتين في سياق الإثبات، وبصيغة الماضي، وورد فيها -أيضاً- نكر الة الكتابة: (القلم). كل ذلك في خمس آيات: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ

(1) ن: تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، 1960، ص: 32، وأصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، خليل نامي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 3 - عدد: 1.

(2) الإسراء، 93.

(3) الأنعام، 7.

(4) الطور، 41.

(5) ن: لسان العرب، مادة: (كتب)، 698/1، ومصادر الشعر الجاهلي، ناصر الدين الأسد، دار المعارف، 1988، ص: 45-53.

عَلَيْ أَقْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»⁽¹⁾. وهذا احتفاءً بالوسائل التي إتقناها تُبَلِّغُ الغايات، وتُسْتَشْرِفُ الكمالات المُودَعَةَ في كتابِ الله تعالى.

وأسامي الحروفِ المفتَحِ بسردها سورة لقمان وغيرها من السُّورِ هي أسماءٌ لأصواتِ اللغةِ أي لوحداتها الكتابية التي يُبْتَدَأُ بتعليمها للصبيان وغيرهم من مُتَعَلِّمي العربية قراءةً وكتابةً. والكتابُ هو الناظِمُ لهذه المكوّناتِ المرقومةِ وحيًا معجزًا بَلَغَ الكمالَ في استغراقِ نهاياتِ البيان. وتلك المُقَطَّعاتُ إنما دُبِّجَتْ بها هذه السُّورُ إشارةً إلى معنى التحدي وإثباتا لعلوِّ الكعب، وبلوغِ الغاية، وسطوةِ البيان، وشرفِ المعنى مع عَدَمِ المُعارضِ وعجزِ الناقض. ولا يستسهلُ الجاهلُ إيرادها،⁽²⁾ فإنَّ موارِدَها بأرفعِ مكانٍ لكونها تَرُدُّ في مقامِ التحدي والإفحام. وهُم أي العربُ لم يُصِرَّفوا عن المعارضةِ ابتداءً.⁽³⁾ وإنَّما انتابهم الذهولُ لما في نظمِ القرآنِ ممَّا لا يصلحُ معه إلا التسليمُ والإذعانُ لبيانه الأرفعِ وشرفِ معناه وبراهينه، فلم يكن جُزأً أن يُذكَرَ القرآنُ في مفتَحِ هذه السورةِ وغيرها من السُّورِ بلفظِ الكتابِ الَّذِي يَنصَافُ بإيراده على هذا النحو إلى ما تقدّمه من أسماءِ المعجم، وهو ما يؤلّفُ معنىً مُتساوياً يرمي إلى حقيقةٍ دقةٍ إحكامِ هذا الكتابِ المجيد.

ونلاحظُ في السُّورِ التي لها فواتحُ من المعجم أنها تُصَدَّرُ بإيرادِ كلمةٍ (الكتاب)، أو ما يتصلُّ بها، ويشيرُ إلى كنهها، أو إلى بعضِ معناها مع استدعاءٍ لنعوتِ تسمُّ هذا الكتابِ بما يتضمَّنُ من دلالاتِ الإتيانِ والإحكام: «الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»⁽⁴⁾، «الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ»⁽⁵⁾ «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

(1) الآيات: 1-5.

(2) ن: بلاغة الكُتَّاب في العصر العباسي، محمد حجاب، المطبعة الفنية الحديثة، 1965، ص: 135.

(3) ن: الملل والنحل للشهرستاني، ت: عبد العزيز الوكيل، البابي الحلبي، 1387 هـ، 56/1-57، والبرهان في علوم القرآن، 94/2 وما بعدها.

(4) البقرة، 1-2.

(5) آل عمران، 1-4.

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ»⁽¹⁾ ﴿كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾⁽²⁾.

وهنا إيماةٌ من هذه الكلمة: (الكتاب) إلى سياقٍ معنويٍّ يتوسطُ السُّورَةَ التي هي مُقَدِّمَةُ الْقُرْآنِ أَي سُوْرَةُ الْفَاتِحَةِ، ويمتدُّ إلى منتهَاها، ويَتَّصِلُ فحوى هذا السياقِ بمضامينِ السُّورِ الْمُسْتَهَلَّةِ بِأحرفٍ من الهجاءِ مع إيرادِ الْكِتَابِ أو مُرَادِفَاتِهِ اتِّصَالًا معنويًّا يتأسَّسُ على ارتباطِ خصائصِ التعبيرِ: ⁽³⁾ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾⁽⁴⁾.

من بَعْدِ الْفَرَاغِ من تلك المناجاةِ الْبَدِيعَةِ مُسْتَهَلَّ الْفَاتِحَةِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ حَمْدَ اللَّهِ تَعَالَى، والثناءَ عَلَيْهِ، وتمجيدَهُ، والإقرارَ له بِالْعِبُودِيَّةِ، واستعانتهِ مع قِصْرِ ذلك عَلَيْهِ بِإِخْلَاصِ التَّوْحِيدِ- من بعدِ ذلك يَشْرَعُ أَصْحَابُ هَذِهِ الْمَنَاجَاةِ فِي طَلْبِ حَظْوِظِهِمُ الشَّرِيفَةِ من الْهَدَايَةِ، فيطلبون منه -سبحانه- أَنْ يَهْدِيَهُمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَلَا شَكَّ أَنْ أَحْصَى وَأَلْزَمَ معاني هذا الصِّرَاطِ هو الْكِتَابُ الْعَزِيزُ،⁽⁵⁾ فهو أَصْلُ الْهَدَايَةِ وموئِلُ الْإِيمَانِ، وهو عُدَّةُ السَّالِكِينَ وَجِزُّ النَّاجِينَ، فبه تتبينُ أَصُولُ الْإِيمَانِ، ووسائلُ التَّزْكِيَةِ، وَأَسْسُ الْجَمَاعَةِ الْمُسْلِمَةِ، وبه يتمُّ نَصْبُ الْأَدَلَّةِ الْفَارِقَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، ومنه تُسْتَمَدُّ ابتداءً.

"وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَعَارِفُ الصَّالِحَاتُ كُلُّهَا مِنْ اعْتِقَادٍ وَعَمَلٍ بِأَنْ يُوَفَّقَهُمْ إِلَى الْحَقِّ... عَلَى مَقَادِيرِ اسْتِعْدَادِ النَّفُوسِ وَسَعَةِ مَجَالِ الْعُقُولِ النَّيِّرَةِ وَالْأَفْعَالِ الصَّالِحَةِ... وَإِنَّ الْمَرْءَ بِحَاجَةٍ إِلَى هَذِهِ الْهَدَايَةِ فِي جَمِيعِ شُؤُونِهِ كُلِّهَا حَتَّى فِي

(1) يونس، 2-3.

(2) مريم، 1-2. ن: تناسق الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ السُّورِ لِلْسُّيُوطِيِّ، ت: عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1986، ص: 65، ولتناسب القرآني عند الإمام البقاعي، مشهور مشاهرة، ر، ص: 107-129.

(3) ن: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة بنت الشاطي، دار المعارف، د.ت، ص: 167، وإعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، 1964، 269/2.

(4) الأيتان: 6-7.

(5) ن: دقائق التفسير لابن تيمية، ت: محمد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، 1984، 480/2، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن المحمود، مكتبة الرشد، 1996، 266/3.

الدَّوَامِ عَلَى مَا هُوَ مُتَلَسِّسٌ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ لِلْوَقَايَةِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِيهِ أَوْ الزَّيْغِ عَنْهُ. وَالْهِدَايَةُ إِلَى الْإِسْلَامِ لَا تُقْصَرُ عَلَى ابْتِدَاءِ اتِّبَاعِهِ وَتَقْلِيدِهِ؛ بَلْ هِيَ مُسْتَمِرَّةٌ بِاسْتِمْرَارِ تَشْرِيعَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ بِالنَّصِّ أَوْ الْإِسْتِنْبَاطِ. وَبِهِ يَظْهَرُ مَوْقِعُ قَوْلِهِ: ﴿عَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾* مُضَادِّقًا الْمِحْزَّ". (1)

وحيث جرى توكيدُ المعنى في الفاتحة بتكرارِ لفظةِ الصراطِ مع تفصيلِ بيانيِّ يتعلَّقُ بأهلِ هذا الصراطِ من النبيين والصدِّيقين، جرى القطعُ بصدقِ هذا الكتابِ ونفيِ الريبِ عنه أو تحقيقِ كونه من عندِ الله في أوائلِ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

ومعنى الهداية، أو الهدى، أو الحق، أو البيان، أو الإحسان، أو التقوى، أو ذمِّ الغفلةِ والإعراض... متوافرٌ في مجموعِ السُّورِ التي تبتدئُ هذا الابتداء، كما في قوله - عَزَّ وَجَلَّ - في آيةِ لقمانِ موضوعِ البحثِ، وفي قوله: ﴿الْمَرْتَلِكُ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (2)

وَيَتَمَحَّضُ عَنْ ذَلِكَ وَصَفُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مَسْلِكُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: وَهُمْ الْيَهُودُ، وَالضَّالِّينَ: وَهُمْ النَّصَارَى؛ (3) لِأَنَّهُمْ -أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ- أَهْلُ النَّعْمِ وَأَوْجُهُ التَّكْرِيمِ الَّتِي نَصَّتْ عَلَيْهَا تِلْكَ الْمُفْتَتَحَاتُ؛ وَذَلِكَ لِانْتِفَاعِهِمْ بِهَدَايَةِ اللَّهِ لَهُمْ، فَكَانُوا بِذَلِكَ أَحْرِيَاءَ بِوَصْفِ التَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ. وَعَلَى الْأَخْصِ عُلَمَاءِهِمُ الَّذِينَ -لِعَظِيمِ إِيمَانِهِمْ- اجْتَنَبُوا مَسْلِكَ عُلَمَاءِ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ، فَنفَوْا عَنِ الدِّينِ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتَحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ. (4)

(1) ت ت ت، 191/1. *الفاتحة، 7، ن: إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني، محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، 1412 هـ، ص: 153.

(2) الرد، 1.

(3) ن: مُسْنَدُ أَحْمَدَ، 124/32-125، والسلسلة الصحيحة (مختصرة) للألباني، (م)، 43/9، وصحيح ابن حبان، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1993، 139/14، وزهرة التفاسير، 1257/3.

(4) ن: السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ، ت: عبد القادر عطا، مكتبة الباز، 1994، 209/10، ومشكاة المصابيح لولي الدين التبريزي، ت: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، 1985، 53/1.

يأتي مطلع سورة لقمانَ مقابلًا لمطلع سورة البقرة في التحديّ بالإعجاز، وفي الثناء على القرآن، وعلى الذين هو لهم هدى، ورحمة، ونورٌ ليلزموا ترميحَ الوجوه على الأعتاب خشية الإعجاب، كما يقول صاحبُ تفسير السراج المنير،⁽¹⁾ وهو الذي يعقد موازنةً موفقةً بين مطلعي السورتين، وكأنهما استهلّان وخاتمة، فإنه لم يرد بعد آية لقمان: ﴿الم﴾ هذه الأحرف حتى نهاية القرآن. والإشارة الرفيعة إلى آيات الكتاب تفصيلًا واستدعاءً لتأمل أجزاء القرآن وكلماته، فالإشارة إيقاظٌ للإحساس بكلّ ذلك ردًا على خبر النضر بن الحارث وما في حكمه من الآراء الصارفة عن الحق في كلِّ عصر. وقد كان يسافر إلى فارس، فيقتني من كُتب قصص إسفنديار، ورستم، وبهرام، ويقرأها على أهل مكة، ويقول: "يُخبركم محمدٌ عن عادٍ وثمود، وأحدثكم أنا عن رستم، وإسفنديار، وبهرام"،⁽²⁾ فهذا كتابٌ تتضمن آياته حكمة القول، كما في قصة لقمان وابنه، وما احتوت من نفائس الحكمة، ويحوي -أي هذا الكتاب- روائع البيان ومواعظ الخير والأخلاق،⁽³⁾ ولا يُعنى بالتواريخ وأخبار الجبابرة إلا لمحلّ العبرة منها؛ وللتوقّي من سوء المصير. قال تعالى: ﴿لَخَنَّ نَقُصٌّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.⁽⁴⁾

وحيث إنّ هذه السورة قد استهلّت بما يُعدُّ مقابلًا لمُفتتح البقرة، كما تقدّم، فقد جرى فيها التنويهُ بعظمة كلمات الله -سبحانه- وسعة علمه:

(1) الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية، د.ت، 237/3. حول نظرية الوحدة الموضوعية لسور القرآن، ن: الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، 1989، 6770/11-6771، وطبقات المفسرين للسيوطي، ت: علي عمر، مكتبة وهبة، 1976، ص: 180-181، ودلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، 1388 هـ، ص: 75، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور - دراسة وتحقيق للمؤدّمة وسورتي الفاتحة والبقرة، إسماعيل نواهضة، ر، ص: 863.

(2) ن: ت ت ت، 138/21، ووفيات الأعيان لابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر، 1994، 437/3، والطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، د.ت، 18-15/2-228-201-165/1.

(3) ن: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي، ط: 3، 1982، ص: 56.

(4) يوسف، 3.

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ
كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾⁽¹⁾

2221 لا ريب فيه

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾

الرَّيْبُ: من قبيلِ صروفِ الدَّهرِ، وهو -أيضاً- حوادثُ الزمانِ وَقَوَارِعُ القَدَرِ. وأشدُّها
مصيبةُ الموتِ. وفي التنزيلِ: ﴿نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾⁽³⁾ وربُّهُ: أوصَلْتُ إليه الرِّيبةَ،
ورابني: متى عَلِمْتُ منه الرِّيبةَ، وأرابني: أوهمني الرِّيبةَ. وفي حديثِ فاطمةَ رضيَ اللهُ
عنها:

"رَيْبُنِي مَا يُرَيْبُهَا"⁽⁴⁾ أَي يَسُوءُنِي، وَيُرْعَجُنِي.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾⁽⁵⁾ فهو يدلُّ على ما في
معنى الرَّيبِ من زيادةٍ عن الشَّكِّ؛ وذلك أنه يَعْظُمُ به اضطرابُ النَّفسِ وتأزُّمُها بحيث يبلغ
حدًّا غيرَ معتادٍ من الانزعاجِ والتبرُّمِ، فباجتماعِ الكلمتين: (شكِّ مُريبٍ) يتمُّ استقصاءُ ما
لهما من دلالاتٍ مُوجِيةٍ ومعانٍ متآزرةٍ.⁽⁶⁾

(1) لقمان، 27.

(2) يونس، 37.

(3) الطُّور، 30. ن: تاج العروس، مادة: (ريب)، 547/2، وتفسير ابن كثير، 436/7، وتفسير الطبري، 495/13.

(4) فتح الباري، 79/7-327/9. ن: شرح النووي على مسلم، 2/16. وعن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَكْسَبَةٌ فِيهَا بَعْضُ
الرَّيْبَةِ خَيْرٌ مِنَ الْمَسْأَلَةِ"، التمهيد لِمَا فِي الموطأِ مِنَ المعاني والأسانيد لابن عبد البر، ت: مصطفى العلوي، وزارة
الأوقاف المغربية، 1387 هـ، 329/18. ومنه قول أبي بكر لعُمَرَ: "عليك بالزَّائِبِ مِنَ الأُمُورِ، وإياكَ والرَّائِبِ مِنْهَا"،
النهاية في غريب الأثر والحديث لابن الأثير، ت: الطاهر الزاوي، المكتبة العلمية، 1979، 684/2، الرائبُ في
اللسان: اللبُّ الممخوض، أو هو الأمرُ الداعي إلى الرِّيبةِ، مادة: (ريب)، 441/1.

(5) هود، 62

(6) ن: تفسير ابن كثير، 332/4، وت ت ت، 111/12.

"وَلَمَّا كَانَ الشَّكُّ يَلْزِمُهُ اضْطِرَابُ النَّفْسِ وَقَلْقُهَا، غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّيْبُ، فَصَارَ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً. يُقَالُ: رَبَهُ الشَّيْءُ إِذَا شَكَّكَهُ أَيَّ بَجَعٍ مَا أُوجِبَ الشَّكُّ فِي حَالِهِ". (1)

ونفي الرِّيبِ عن الكِتَابِ العَزِيزِ مُفَادُهُ قَطْعٌ لِمَا قَدْ يَعْتَلِجُ فِي نَفُوسِ المَرْتَابِينِ مِنْ أَنوَاعِ الشَّكِّ، وَالتُّهْمَةِ، وَالارْتِيَابِ. وَفِيهِ تَأَكِيدٌ عَلَى أَلَّا تَعْلُقَ لِذَلِكَ الَّذِي يَسَاوِرُ تِلْكَ النُّفُوسَ وَالضَّمَائِرَ المَدْخُولَةَ بِأَنوَاعِ الِارْتِيَابِ بِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُوَ كَلَامُهُ الَّذِي حُتِمَتْ بِهِ الرِّسَالَاتُ، وَانْقَطَعَتْ بِوفاةِ مَنْ أُنزِلَ عَلَيْهِ النُّبُوءَاتُ. وَفِيهِ كَمَالُ التَّوْحِيدِ، وَحَقِيقَةُ الإِيمَانِ، وَأَصُولُ العِيقَادِ، وَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ. وَهُوَ المَنْهَجُ القَوِيمُ. يَنْظُمُ حَرَكَةَ الحَيَاةِ. وَفِيهِ دَسْتُورُ أَخْلَاقِهِمْ وَمَعَامِلَاتِهِمْ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾. (2)

وقد وَقَعَ هَذَا السَّلْبُ المُنْتَضَمُ نَفِي الرِّيبِ بَيْنَ إِيجَابِيَيْنِ بَعْدَ نَفِي:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (3) اسْتِثْصَاءً لِمَسَاحَاتِ التِّي يَسْتَعْرِفُهَا الذَّهْنُ فِي دَوْرَانِهِ وَتَعْقُبَاتِهِ بَيْنَ وَصْفٍ وَتَجْرِيدٍ، أَوْ نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ، فَيَسْتَدْرِكُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ هَذَا النُّسْقَ مِنْ التَّفْكِيرِ، وَيَقْطَعُهُ عَلَيْهِمْ بِإِيجَازٍ مُتَضَمِّنٍ لِمَعْنَى كُلِّيٍّ، وَهُوَ أُسَاسٌ لِمَا بَعْدَهُ مِنَ المَفَاهِيمِ وَالمُضَامِينِ. وَمِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ خَلُوهُ عَنِ التَّعْقِيدِ، وَالتَّلْبِيسِ، وَأَوْجُهُ التَّنَاقُضِ، وَعَنِ الدَّعَاوِي العَارِيَةِ عَنِ البَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ وَالحِجِّ الدَامِغَةِ. (4)

وسِيَاقُ الآيَةِ يَشِيرُ -أَصَالَةً- إِلَى نَفْيِ الرِّيبِ فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ مُعْجِزًا، فَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ مُعْجِزٌ فِي نَظْمِهِ، (5) خَارِجٌ عَنِ طَوْقِ القَوْمِ، أَصِيلٌ فِي بَيَانِهِ، قَاطِعٌ فِي بُرْهَانِهِ. لَا يُرَامُ

(1) السابق، 222/1.

(2) المائدة، 3.

(3) يونس، 37.

(4) ن: روح المعاني، 107/1.

(5) ن: تفسير الرازي، 18/2.

مِنَ أَهْلِ الرِّكَائَةِ مِنْ أَعْدَائِهِ بِطَائِلٍ، وَيَقْصُرُ عَنْ أَقْصَرِ آيَةٍ فِيهِ مَنْ هُوَ أْبْلَغُ مِنْ سَحْبَانٍ
وَائِلٍ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. (1)
"فَارْتَبَاتُهُمْ وَقَعَ مُشْتَهَرٌ.... لِأَنَّ فِي دَلَائِلِ الْأَحْوَالِ مَا لَوْ تَأَمَّلُوهُ، لَزَالَ ارْتَبَاتُهُمْ، فَنَزَلَ
ذَلِكَ الْإِرْتِبَابُ -مَعَ دَلَائِلِ بَطْلَانِهِ- مَنزِلَةً الْعَدَمِ". (2)

ابْتَدَأَتْ سُورَةُ يُونُسَ بِإِنْكَارٍ تَعْجِبُ مِنْكَرِي صُدُورِ الْقُرْآنِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمْ
الْمُكَابِرُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَي سَادَتُهَا الَّذِينَ اسْتَكْفَوْا أَنْ يَكُونَ شَرَفُ النُّبُوَّةِ حَاصِلًا لِأَحَدِهِمْ،
وَمَنْ تَمَّ لِلْبَطْنِ الَّتِي هِيَ مِنْهَا مِنْ قَرِيشٍ، وَأَنْ يَحْظَى بِهَذَا بَنُو هَاشِمٍ، ثُمَّ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَهُوَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِيَاقٍ تَوْكِيدِ نَفْيِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مُفْتَرَى
عَلَيْهِ تَعَالَى، فَلَا يَنْسَوُغُ لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا تَبْدِيلَهُ لِيَتَوَاعَمَ مَعَ بَاطِلِهِمْ؛ لِأَنَّ الْيَقِينَ الَّذِي فِيهِ
يَنْقُضُ أَبَاطِيلَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالُوا مِنَ السُّورَةِ نَفْسِهَا:

﴿إِنِّي بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ﴾، ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّي﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ﴾. (3)

وَتَضَمَّنَتْ آيَةً: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ إِضْمَارًا لِلِأَمِّ الْجُودِ وَإِظْهَارًا لِأَنَّ
الْمُصَدْرِيَّةَ؛ وَذَلِكَ لِنَفْيِ ثَبُوتِ صِفَةِ الْإِفْتِرَاءِ عَنِ الْقُرْآنِ لِكُونَ اسْمِيَّةِ السِّيَاقِ الْمُتَأَسِّسَةِ عَلَى
الْمُصَدْرِ الْمُنْسَبِكِ مِنْ أَنْ وَمَدْخُولِهَا تَدَلُّ عَلَى الثُّبُوتِ؛ وَلِذَا جَرَى نَفْيُهُ، وَأَضْمُرَتْ لِأَمِّ
الْجُودِ لِلْعَلْمِ بِهَا، وَهِيَ لَا تَجْتَمِعُ مَعَ أَنْ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ. أَي لَوْ تَأَمَّلَ الْقَطْنُ تَأَمُّلاً
صَادِقًا فِي سُورِ الْقُرْآنِ، لَعَلِمَ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ وَضْعِ الْبَشَرِ،
فَتَرَكِبُ (مَا كَانَ أَنْ يُفْتَرَى) بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: (مَا كَانَ لِيُفْتَرَى) بِأَمِّ الْجُودِ، فَحَدَفَ لِأَمِّ
الْجُودِ عَلَى طَرِيقَةِ حَذْفِ الْجَارِ إِطْرَادًا مَعَ (أَنْ). وَلَمَّا ظَهَرَتْ (أَنْ) هُنَا، حُذِفَتْ لِأَمِّ
الْجُودِ، وَإِنْ كَانَ الْعَالِبُ أَنْ تُذَكَّرَ هَذِهِ اللَّامُ، وَتَقَدَّرَ (أَنْ)، وَلَا تُذَكَّرُ، فَلَمَّا ذُكِرَ فِعْلُ

(1) النساء، 82.

(2) ت ت ت، 223/1.

(3) يونس، 15-20-38-39.

(كَانَ) الَّذِي شَأْنُهُ أَنْ يُذَكَّرَ مَعَ اللَّامِ، اسْتُعْنِيَ بِذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِهَا قَصْدًا إِلَى الْإِيْجَازِ. وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنِ الْإِثْتِيَانِ بِاللَّامِ بِأَنْ يُقَالَ: (مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ لِيُفْتَرَى)؛ لِأَنَّ الْعَالِبَ أَنَّهَا تَقَعُ فِي نَفْيِ كَوْنٍ عَنِ فَاعِلٍ لَا عَنِ مَفْعُولٍ بِمَا تُدُلُّ عَلَيْهِ اللَّامُ مِنْ مَعْنَى الْمَلِكِ. (1) وَالْإِخْبَارُ بِ(أَنْ) وَالْفِعْلُ يُسَاوِي الْإِخْبَارَ بِالْمَصْدَرِ، وَهُوَ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ: "لِأَنَّ صِلَةَ أَنْ هُنَا فِعْلٌ مَبْنِيٌّ لِلنَّائِبِ. وَالتَّقْدِيرُ: مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَفْتِرَاءً مُفْتَرًا، قَالَ إِلَى أَنَّ الْمَصْدَرَ الْمُنْسَبَكَ مِنْ (أَنْ) مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ كَالْخَلْقِ بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ، وَهُوَ أَيْضًا أَقْوَى مُبَالَعَةً مِنْ أَنْ يُقَالَ: مَا كَانَ مُفْتَرَى، فَحَصَلَتِ الْمُبَالَعَةُ فِي جِهَتَيْنِ: جِهَةَ فِعْلِ (كَانَ) وَجِهَةَ (أَنْ) الْمَصْدَرِيَّةِ. وَ(مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لِلْإِبْتِدَاءِ الْمَجَازِيِّ مُتَعَلِّقَةً بِ(يُفْتَرَى) أَيَّ أَنْ يُفْتَرِيَهُ عَلَى اللَّهِ مُفْتَرًا، فَقَوْلُهُ: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ يُفْتَرَى، وَهِيَ فِي قُوَّةِ الْوَصْفِ الْكَاشِفِ". (2)

وتحصيلًا لشتات الارتياح والتثمة الذي في صدورهم؛ وليعلموا خلق القرآن عن المداهنات ومدارة الباطل وافاهم بخطابه عليه السلام: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. (3) وحيث كان الامتراء أخص من الشك في بابه وأوقع دلالة (4) تم به استيفاء لجلجة القوم في قبول القرآن بالهمهمة في تنقصه والغفلة عن وعيده. وسؤال أهل الكتاب استشهاد لهم للإقرار بموقفة القرآن لبعض ما عندهم من الحق. وهم لم ينقطعوا عنهم في كثير من أسفارهم وزياراتهم. وقد قال القرآن في بعضهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، (5) فالقرآن تصديق لما بين يديه وتفصيل للكتاب، كما تقدم في الآية موضوع البحث. وهو أيضًا: ﴿مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي

(1) ت ت ت بتصرف، 168/11.

(2) السابق، 168/11.

(3) يونس، 94.

(4) ن: اللسان، مادة: (مري)، 275/15.

(5) المائدة، 82.

الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿١﴾.

وهذا وغيره في السورة تتميم لأوصافه الكاشفة ونعوته القيّمة.

وقد تضمّن جوابه صلى الله عليه وسلم - في آيتين إقراراً لله تعالى، وتفويضاً له في أمر الوحي، واستدلالاً على صدقه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾، ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾، (2) فلبّثه فيهم بأوصافه عمراً من قبل الرسالة دليل على كونه أوحى إليه.

ونظيرة آية سورة يونس مطلع سورة البقرة التي نزلت بمجتمع المدينة الذي أخذت تتأسس فيه مقومات الدولة في بواكير الحياة النورانية الجديدة التي أشرقت شمسها بين تلك الربوع الطيبة. وقد تضمّنت الآية جملاً وصفية وقطعية تستند إلى واقع راسخ يشهد لأسباب النصرة وسنن التمكين؛ ولذلك تجرّدت الآية من أنواع المؤكّدات المعهودة مع اسمية الجمل التي تحاكي بما تُقيده من خصائص الثبات والتمكّن صفة ذلك المجتمع الراسخ في أسسه ومكوّناته في هذه المرحلة من مراحل الرسالة التي أعقبَتْ نجاح ملحمة الهجرة المباركة من مكة إلى المدينة.

ولم تكن للعرب المناوئين المعاندين للقرآن في ذلك العهد مقولات تفصيلية تتعرّض لنص القرآن، وما فيه من أخبار وأصول. وإنما قصاراهم في ذلك عمومات نقلها القرآن عنهم تتعلّق باتهامه ووصفه بالسحر، أو أنّه من أساطير الأولين. وأمّا سائر دخائل أنفسهم من أنواع الشكّ ممّا لم يصرّحوا به، فهو مُنزّل منزلة المعدوم. وإن بقي منه شيء، أو تناقله غيرهم من أهل العناد والاستكبار، فإنّه مردودٌ مُفندٌ بقوله في غُصون هذه السورة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾. (3)

(1) يونس، 58.

(2) يونس، 15-16.

(3) البقرة، 23.

والحصْرُ المستفادُ من نفي الرِّيبِ عن القرآنِ لم يكن المقصودُ منه التعريضَ بعرب ذلك الزَّمان، إذ لم تكن لهم كُتُبٌ مطبَّعةٌ للارتياحِ ومحلٌّ للتحريفِ والتبديل. وإنما التعريضُ بالنظرِ إلى سياقِ الحالِ⁽¹⁾ منساقٌ إلى أهلِ الكتابِ الَّذِينَ أزاح القرآنُ عن دياناتهم وأسفارهم سدولَ القداسةِ وحُجُبَ الكهنوتِ، فبيَّنَ جنسَ ما اعترى تلكَ الصحفَ والأسفارَ المهيبةَ من تحريفٍ وتبديلٍ؛ وهو ما أدَّى إلى اضطرابها وكثرةِ أسبابِ الارتياحِ فيها ودواعيه: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾،⁽²⁾ ﴿يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾.⁽³⁾

يُسْتَفَادُ مِنْهُ [أي الحصر] تَعْرِيضٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ آزَرُوا الْمُشْرِكِينَ، وَشَجَعُوهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ بِهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ لِعُلُوِّ شَأْنِهِ بَيْنَ نَظَرَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدْعُو إِلَى الْإِزْتِيَابِ فِي كَوْنِهِ مُنَزَّلًا مِنَ اللَّهِ إِثَارَةً لِلتَّدْبِيرِ فِيهِ. هَلْ يَجِدُونَ مَا يُوجِبُ الْإِزْتِيَابَ فِيهِ؟ وَذَلِكَ يَسْتَطِيرُ جَائِمٌ إِعْجَابِهِمْ بِكِتَابِهِمْ الْمُبَدَّلِ الْمُحَرَّفِ، فَإِنَّ الشَّكَّ فِي الْحَقَائِقِ رَائِدٌ ظُهُورَهَا وَالْفَجْرُ بِالْمُسْتَطِيرِ بَيْنَ يَدَيْ طُلُوعِ الشَّمْسِ بِشَيْرٍ بِسُفُورِهَا".⁽⁴⁾

وأخيراً: فَإِنَّ آيَةَ الْبَقْرَةِ الَّتِي تَمَّ فِيهَا التَّصْرِيحُ بِالتَّحْدِي قَدْ وَرَدَتْ فِيهَا (مِنْ) الَّتِي لِلْإِبْتِدَاءِ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾،⁽⁵⁾ ولم تَرِدْ فِي آيَةِ يُونُسَ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾؛⁽⁶⁾ وذلك لكونِ سورةِ البقرةِ مدنيَّةً أي أنَّها من السُّورِ المدنيَّةِ الَّتِي تَمَّ بِهَا اسْتِيفَاءُ نَمَطِي الْقُرْآنِ وَقَسْمِيهِ. وَلِكُلِّ قِسْمٍ مِنْهُمَا خِصَائِصٌ وَسِمَاتٌ فَارِقَةٌ وَأُخْرَى مَتَمَاثِلَةٌ أَوْ

(1) ن: سياق الحال في الدرس الدلالي، فريد حيدر، مكتبة النهضة المصرية، د.ت، ص: 30-40-52.

(2) البقرة، 79.

(3) المائدة، 41.

(4) ت ت ت، 224/1.

(5) البقرة، 23.

(6) يونس، 38.

مقاربة، ولهذا فالتحدي في آية البقرة يتضمّنُ الابتداءَ بِأَخْصَرِ سُورِهِ وَأَوَّلِ قِاسِمِيهِ - وهو القسمُ المكي - إلى منتهى ذلك وغايته، وهذا تمامُ التحدي بالإعجاز.

31 الفصل الثالث

المشتقات

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: (1)

المتقون هم المقتبسون من أنوار القرآن المنتفعون بآثاره تزودًا للأخرة من أسباب الصيانة التي تمنع الخلل والآفات، (2) فهم يتخذون من أسباب التوقي ذريعة إلى النجاة وحصنًا من عاديات الردى، فينحازون إلى النور الأسمى، ويتواصون بالثبات على النهج القويم، حتى يبلغوا غاية الأمل وأعظم المثوبة.

"والمتقي اسم فاعل من باب الافتعال من الوقاية: وهي فرط الصيانة. والنقوى في عُرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة". (3)

في ميزان الشريعة هي: امتثال الأوامر واجتناب ما نهى الله عنه من كبائر الذنوب مع عدم الإصرار على الصغائر ظاهرًا وباطنًا؛ فإن اقتحام ما فيه سخط الله هو علة إنفاذ وعيده والتعرض لعذابه وانتقامه. (4)

"وَأَمَّا عِقَابُ الدُّنْيَا، فَيَجِبُ أَنْ يُسْتَعَانَ عَلَى اتِّقَائِهِ بِالْعِلْمِ بِسُنَنِ اللَّهِ -تَعَالَى- فِي هَذَا الْعَالَمِ، وَلَا سِيَّمَا سُنَنَ اعْتِدَالِ الْمِرَاجِ وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ -وَأَمْتِنَتُهَا ظَاهِرَةً- وَسُنَنَ الْاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ". (5)

(1) الأنفال، 33-34.

(2) ن: تفسير أبي السعود، 27/1، ومُعْجَمُ مَقَائِيسِ اللُّغَةِ لِابْنِ فَارِسٍ، ت: عبد السلام هارون، دار الجيل، 1999، 131/6.

(3) تفسير أبي السعود، 27/1-28.

(4) ن: كُتُبُ وَرِسَالَتَيْ وَفَتَاوَى شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ فِي الْفِقْهِ، ت: عبد الرحمن العاصمي، مكتبة شيخ الإسلام، د.ت، 27/39-131/20، وبدائع الفوائد لابن القيم، ت: هشام عطا، مكتبة نزار الباز، 1996، 779/3، وت ت ت، 226/1. "والمتقي في الشريعة: هو الذي بقي نفسه أن يتعاطى ما تُوعَدُ عليه بعقوبةٍ من فعلٍ أو تركٍ"، تفسير البحر المحيط، 161/1.

(5) تفسير المنار، 106/1.

ودلالة اسم الفاعل على زمن الحال مقطوعٌ بها في هذا السياق، وفي أكثر السياقات التي ترد فيها صيغة اسم الفاعل. (1) والحال المقصود هو حال النطق، فأين تقوى هؤلاء المتقين في الزمن الماضي؟ يشير إلى ذلك قرائن ترد في بعض المواضع، كما في أول البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ حيث ترد قرينةُ الثناء على الكتاب الذي تواتر نزوله مُنْجَمًا قبل نزول السورة، ويتتابع هذا النزول في مستقبل أيام الرسالة، وهو يؤكد على أن المقام يستوعب ارتباط حقيقة تقوى هؤلاء المُتَّقِينَ عليهم بمستويات الزمن الثلاثة. وهذا داخل في مضمون فنِّ من فنون البلاغة، وهو فنُّ التكتيت. (2)

جاء في إعراب القرآن وبيانه عن فنِّ التكتيت:

"وَحَدُّهُ أَنْ يَقْصِدَ الْمُتَكَلِّمُ إِلَى شَيْءٍ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهُ لِأَجْلِ نَكْتَةٍ تُرَجِّحُ مَجِيئَهُ عَلَى سِوَاهُ". (3)

ومجيء اسم الفاعل في سياق النفي يتضمن الإشارة إلى الماضي والحاضر، ثم أتى بنفي الفعل ليستغرق المستقبل لاقتران اسم الفاعل: (معذب) بجملة الحال: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. والتكتيت من فنون البلاغة التي وردت في القرآن بأحسن هيئة وأبلغ الوجوه. وقد يتم تقييد الزمن المتعلق بالمشتق، ثم إطلاقه دون تقييد اعتمادًا على دلالاته الحرة، وهو تقنن من القائل، كما في بيتي الأخطل:

نَفْسِي فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا	أَبْدَى النَّوَاجِدَ يَوْمَ بَاسِلِ ذَكَرُ
الْحَائِضُ الْعَمْرُ وَالْمَيْمُونُ طَائِرُهُ	حَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ (4)

(1) ن: دلالة السياق، عبد الوهاب الحارثي، عمّان، 1986، ص: 55-86.
(2) من أمثلة التكتيت قول الله في النجم 49: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾. الشَّعْرَى: نجم يقال له الشَّعْرَى العُبور، وهو نجم نيز يطلع عند شدة الحر. ولها أخت يقال لها: الشَّعْرَى العُمَيْصَاء، وهما أختان نجم سهيل. والعُبور عبدها رجل يُعرف بابن أبي كنبشة، ودعا إلى عبادتها، فخصَّ الله الشَّعْرَى بالذكر دون غيرها من النجوم، ن: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 826.

(3) 55/2، محيي الدين الدرويش، دار الإرشاد، د.ت.
(4) ديوان الأخطل، ت: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، 1992، ص: 167. العَمْرُ: مُعْظَمُ البحرِ وشدة الحرب، والباسل: الأسد. ن: لسان العرب، مادة: (عمر - بسل)، 5/29-53/11.

"فأتى -سبحانه- بصيغة اسم الفاعل المضاف ليدل على الماضي، فاقضى حُسْنُ الترتيب أن يُقدّم صيغة الفعل لدلالاتها على الحال الذي هو مدّة مقامه فيهم؛ لأنّ نفي العذاب فيما هو الأهم". (1)

وإثارة صفة التقوى وتخصيئها بالذكر دُونَ نعوتٍ أو أوصافٍ أخرى تُعدُّ أكثرَ عموماً في الدلالة أو أكثرَ إحاطةً بسمات الجماعة المؤمنة - هذا الاختيار يؤصل لمحاكاة ما هو متلبس بالأنفس أو راسخ في الوعي من دَرءِ المَخُوفَاتِ أو المؤذيات، وإن صحب ذلك ما هو نافع أو جاذب للميول والرغبات، فإن توقّي الضرر مُقدّم من كلّ وجهٍ راجحٍ في التصوّر، وفي الاعتبار، وبخاصّةٍ مع نصّ الآية على عذاب الله لأهل الشّرك أي العذاب الذي هو أعظم ما يتحرّز عنه المتقون لعلمهم بشدّة تنكيل الله -عزّ وجلّ- بمن ينالهم سخطه. ولم يزل الإنسان متحصناً من المضارّ والمُفزعَاتِ، متحفزاً لكلّ خطرٍ أو عدو، مؤثراً للسلامة بحكم الجبلة والطبع، نائياً بنفسه -ما وسعته الحيلة- عما يُعكّر عيشه، ويُقلق ويورق حياته، حتى وإن كانت حياةً رتيبةً فاترة، كما أنّ أرغد العيش وأعظم الترف ينغصه حلمٌ عابر، أو ريبةٌ مستحكمة، أو اضطرابٌ عارضٌ للمزاج، أو انحرافٌ في التفكير. وعلى هذا النحو نفهم أمر الله لنا بالوقاية والتوقّي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. (2)

"وجملة: ﴿وما كانوا أولياءه﴾ في موضع الحال من ضمير يصدون. والمقصود من هذه الحال إظهار اعتدائهم في صدهم عن المسجد الحرام، فإن من صدّ عمّا هو له من الخير كان ظالماً، ومن صدّ عمّا ليس من حقه كان أشدّ ظلماً؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ومن ظالم﴾

(1) إعراب القرآن وبيانه، 572/3.

(2) التحريم، 6.

أَظْلَمَ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ* أَي لَا أَظْلَمَ مِنْهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ مَنَعَ شَيْئًا عَنْ مُسْتَحِقِّهِ". (1)

جُمْلَةٌ: ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ تَعْيِينَ لِأَوْلِيَائِهِ الْجَدِيرِينَ بِهَذَا النِّعَةِ وَتَقْرِيرَ لِفُحْوَى ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ بِزِيَادَةِ مَا أَضَافَهُ الْقَصْرُ مِنْ تَعْيِينِ أَوْلِيَائِهِ، فَهِيَ كَالدَّلِيلِ عَلَى نَفْيِ وِلَايَةِ أَهْلِ الشَّرْكِ؛ وَلِذَلِكَ فُصِّلَتْ. وَلَمْ يُكْتَفَ بِجُمْلَةِ الْقَصْرِ الْمُقْتَضِي أَنْ غَيْرَ الْمُتَّقِينَ لَيْسُوا أَوْلِيَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لِغَرَضِ إِعْلَامِ ظُلْمِ الْمُشْرِكِينَ فِي صَدِّهِمُ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ وِلَايَةٌ عَلَيْهِ.

"فَكَانَتْ جُمْلَةٌ: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أَشَدَّ تَعَلُّقًا بِجُمْلَةٍ: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ مِنْ جُمْلَةٍ: ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾، وَكَانَتْ جُمْلَةٌ: ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ كَالدَّلِيلِ، فَانْتِظَمَ الْإِسْتِدْلَالُ أَبَدَعَ انْتِظَامٍ؛ وَلَمَّا فِي إِنْطَاطِ وِلَايَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِالْمُتَّقِينَ مِنْ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ سَلِبَتْ عَنْهُمْ وِلَايَتُهُ لَيْسُوا مِنَ الْمُتَّقِينَ، فَهُوَ مَدْمَةٌ لَهُمْ وَتَحْقِيقٌ لِلنَّفْيِ بِحُجَّةٍ". (2)

وأهل التقوى الذين دأبهم التَّقْوَى من عذابِ اللَّهِ استحقوا الوِلايَةَ والوقايةَ لِتَخْلِيهِمْ عن مَفاسِدِ الْمُشْرِكِينَ حتى في العبادَةِ من طوافِهِم بِالْبَيْتِ عِراءَ بِالصَّغِيرِ ونحوِهِ من حِمَاقَاتِهِمْ، وَبَيْتُ اللَّهِ أَوْلَى بِالْتَنْزِيهِ وَالتَّكْرِيمِ بِدَفْعِ كُلِّ خَلَلٍ أَوْ إِخْلَالٍ، فَكَيْفَ بِالتَّعَدِّيِّ وَالجِراءِ عَلَى قُدْسِيَّتِهِ، وَهُمْ فِي غَوَايَةِ الْكِبْرِ مَزْهُوُونَ بِدَعْوَى سَدَانَةِ الْبَيْتِ وَقَدْ أَلْحَدُوا فِيهِ بِظُلْمٍ: ﴿وَمَنْ يُرِدْ

(1) ت ت ت، 337/9 * البقرة، 114

(2) السابق، 337/9. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَقَدْ أَشْكَلَ عَلَى الْمُفَسِّرِينَ نَظْمُهَا، وَحَمَلَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ عَلَى تَفْكِكِ الصَّمَائِرِ، فَجَعَلَ صَمَائِرَ الْغَيْبَةِ مِنْ لِيُعَذِّبَهُمْ، وَفِيهِمْ، وَمُعَذِّبَهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَ صَمِيرَ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُسْلِمِينَ... فَإِنَّهُ لَا يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا الْمُسْلِمُونَ. وَعَلَى تَأْوِيلِ الْإِسْنَادِ فَإِنَّهُ إِسْنَادُ الْإِسْتِغْفَارِ لِمَنْ حَلَّ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَا يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ مِنَ الشَّرْكِ. فَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهَا جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ انْتَهَزَتْ بِهَا فُرْصَةً التَّهْدِيدِ بِتَعْذِيبِهِ بِتَرْغِيبٍ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي تَعْذِيبِ الْوَعِيدِ بِالْوَعْدِ... إِذْ مِنَ الْبَيِّنِ أَنَّ لَيْسَ الْمُرَادُ بِ(يَسْتَغْفِرُونَ) أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: غُفْرَانِكَ اللَّهُمَّ وَنَحْوَهُ، إِذْ لَا عِبْرَةَ بِالْإِسْتِغْفَارِ بِالْقَوْلِ، وَالْعَمَلُ يُخَالِفُهُ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ تَحْرِيبًا. وَذَلِكَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ وَتَلْقِينًا لِلتَّوْبَةِ زِيَادَةً فِي الْإِعْذَارِ لَهُمْ عَلَى مَعْنَى قَوْلِهِ:.... ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾، (الأنفال: 38)، السابق، 334/9.

فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ⁽¹⁾. ومن أعمالهم التي استحقوا بها الوعيد صدُّهم المؤمنين عن الطواف، وإيذاؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم - في صلاته بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم حصاره في الشَّعب، وإجاءه إلى الهجرة: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾⁽²⁾ وإحصاره يومَ الحديبية، وحرْبُهُ، وتأليبُ العرب عليه بإنفاقِ الأموالِ الطائلة، وتجييشِ الجيوش، واستتجارِ الصنائع: (مُزْتَرِّقَةَ الْقَبَائِلِ): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾⁽³⁾. إلى آخر ما اقترفوه من العداواتِ وأساليبِ الكيدِ والمناوأة. (4)

ويشتدُّ النكيرُ على كلِّ مَنْ يتهاونُ في أمرِ الأنفالِ والغنائمِ، ويتجرأُ على حقِّ الله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين في قوله - عَزَّ وَجَلَّ - الْمُتَضَمِّنِ التَّعْرِيفِ بِأَصْحَابِ أَحْوَالٍ مُسْتَقْبَلَةٍ سِوَى مَنَاسِبَةِ نَزُولِ الْآيَةِ، وَهِيَ مُفَادَاةُ أُسْرَى بَدْرِ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُوْخِجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁵⁾.

"لَا جَرَمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ [أَي آيَةَ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ﴾ بَعْدَ قَضِيَّةِ فِدَاءِ أُسْرَى بَدْرِ مُشِيرَةً إِلَيْهَا. وَعِنْدِي أَنَّ هَذَا تَشْرِيحٌ مُسْتَقْبَلٌ أَخْرَهُ اللَّهُ - تَعَالَى - رِفْقًا بِالْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ انْتَصَرُوا بِبَدْرِ؛ وَإِكْرَامًا لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ النَّصْرِ الْمُبِينِ؛ وَسَدًّا لِحُلَّتِهِمُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، فَنَزَلَتْ لِبَيَانِ الْأَمْرِ الْأَجْدَرِ فِيمَا جَرَى فِي شَأْنِ الْأُسْرَى فِي وَقْعَةِ بَدْرِ... وَالْمَعْنَى أَنَّ النَّبِيَّ [صلى الله

(1) الحج، 25.

(2) الأنفال، 5.

(3) السابق، 36.

(4) ن: تفسير المنار، 548/9.

(5) الأنفال، 67-68.

عليه وسلم] إِذَا قَاتَلَ، فَقَاتَلُهُ مُتَمَحِّضٌ لِعَايَةِ وَاحِدَةٍ: هِيَ نَصْرُ الدِّينِ وَدَفْعُ أَعْدَائِهِ، وَلَيْسَ قَاتَلُهُ لِلْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ". (1)

وتتصل التقوى باعتبارها قيمةً معنويةً - بمفاصلِ السورة، وترتبطُ بسياقها العامَّ ابتداءً من اسمِ السورةِ الذي يدورُ حولَ أسلابِ الحرب، وغنائمِ القتال، وما يتعلَّقُ بذلك من تمسُّكِ المؤمنين بالتزامِ أمرِ الشرعِ ونهيه إزاءَ قضيةٍ تقومُ على شروطٍ وقواعدٍ على الجماعةِ المؤمنةِ تحرّيتها والننزهَ عمَّا يكون للاخلالِ بها من تبعاتٍ تُفسدُ ذاتَ البين، وتوقعُ الناسَ في حرجٍ من أمرهم وتنافسٍ على متاعٍ زائلٍ يضرُّ بأهدافِ الرسالةِ ونبلِ غاياتها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (2) ومن ثمَّ تتردّدُ منطوقاتُ هذه القيمةِ في هذه الآياتِ من السورة:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. (3)

ومع اتصالِ سورتي الأنفالِ وبراءةٍ بقضايا الحربِ والجهادِ أي اتصالهما ببعضهما مع عدمِ الفصلِ بينهما بالبسملة، وهذه خصوصيةٌ في الارتباطِ المعنويّ تزيدُ على ما بين سورِ القرآنِ من عناصرِ الارتباطِ - (4) مع هذا الوجهِ من الاتصالِ يتدعّمُ هذا الالتئامُ بما يَتِمُّ ويُعَضِّدُ دلالاتِ التقوى بالإيذانِ بمحبةِ الله - تعالى - للمتقين في قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. (5) ولقد استحقَّ هؤلاءِ المنقون ونالوا محبةَ الله -

(1) تفسير المنار، 72/10-74.

(2) الأنفال، 1.

(3) السابق، 25-29-56-69.

(4) ن: البيان والتحصيل لابن رشد الأندلسي، ت: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1988، 35/17، وت ت ت،

101/10، وكتاب المصاحف لأبي بكر السجستاني، ت: محمد بن عبده، دار الفاروق الحديثة، 2002 م، ص: 114.

(5) التوبة، 4.

تعالى - على ما ورد في أول التوبة لأوصافٍ قلبيةٍ دَبَّجَتْهَا آيَةٌ أَوَّلُ الْأَنْفَالِ استفتاحًا بالثناءِ عليهم واستقبالًا لأحوالٍ تخصُّهُمْ، وتخصُّ امتنانَ الله عليهم بجملةٍ من آلائه وتفضُّله. وهذه الأوصافُ جمعتُ بين الخضوع، ووجَلِ القلوب، والخشوع، وزيادة الإيمان بحُسن الاستجابة لله، والتوكُّلِ عليه، وإقامة الشعائر، واستحقاقِ المغفرة، وعلو المرتبة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. (1)

(1) الأنفال، 2-4. ن: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، 262/3.

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: (1)

1231 المشتق: الحكيم

جَرَى وَصَفُ الْكِتَابِ بِالْحَكِيمِ فِي قَوْلِهِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾. (2) وَالْحَكِيمُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ. وَأَوَّلُ مَوْضِعٍ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. (3)

الْحَكِيمُ: عَلَى وَزْنِ: (فَعِيل) مِنَ الْإِحْكَامِ وَالِإِتْقَانِ. وَأَصْلُ الْمَادَةِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ يَنْطَرِقُ إِلَى مَنَعِ الْفَسَادِ وَالِإِخْلَالِ. مِنْ ذَلِكَ: حَكْمَةُ الدَّابَّةِ، وَهِيَ قِطْعَةُ حَدِيدٍ فِي فَمِ الْفَرَسِ تُوَضَعُ لِإِحْكَامِ السَّيْرِ.

(1) يونس، 1-5.

(2) الآية: 58.

(3) الآية: 32.

أَبْنِي حَنِيْفَةً أَحْكِمُوا سَفَهَاءَكُمْ إِيَّيْ أَحَافُ عَلَيْنُكُمْ أَنْ أَعْضَبَا (1)

وَالْحِكْمَةُ صَبْطُ الْعِلْمِ، وَكَمَالُهُ، وَإِتْقَانُ مَادَّتِهِ. وَالْحَكِيمُ مَنْ مِنْ صِفَاتِهِ إِتْقَانُ الْأُمُورِ جَمِيعِهَا، أَوْ الْمَوْصُوفُ بِهَا أَي ذُو الْحِكْمَةِ.

"وَالْحِكْمَةُ: عِبَارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ بِأَفْضَلِ الْعُلُومِ. وَيُقَالُ لِمَنْ يُحْسِنُ دَقَائِقَ الصِّنَاعَاتِ وَيُتْقِنُهَا حَكِيمًا. وَالْحَكِيمُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ مِثْلَ قَدِيرٍ بِمَعْنَى قَادِرٍ، وَعَلِيمٍ بِمَعْنَى عَالِمٍ... وَقَدْ حَكَّمَ أَي صَارَ حَكِيمًا. قَالَ النَّمِرُ بْنُ تَوَلِّبٍ:

وَأَبْغَضُ بَغِيضِكَ بَعْضًا رُوَيْدًا إِذَا أَنْتَ حَاوَلْتَ أَنْ تَحْكُمَا *

أَي إِذَا حَاوَلْتَ أَنْ تَكُونَ حَكِيمًا". (2)

وَالْقِرَانُ الْحَكِيمُ قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ أَي الْحَاكِمِ عَلَى الْكُتُبِ بِمَا لَهُ مِنْ نَعَوَاتِ الْجَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَلِمَا اسْتَوْفَاهُ مِنْ أَصُولِ الْإِعْجَازِ وَسِمَاتِ الْكَمَالِ، وَهُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي يُوزَنُ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الْأَسْفَارِ الَّتِي طَالَتْهَا عَوَادِي الزَّمَانِ أَوْ يَدُ الْإِنْسَانِ. وَبِهِ يَتَمَيَّزُ الصَّحِيحُ مِنَ الْمَحْرَفِ فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، (3) ﴿وَمُهَيِّمِنَا عَلَيْهِ﴾. (4) أَوْ هُوَ بِمَعْنَى (مُفْعَلٍ) أَي مُحْكَمٍ. وَكَوْنُهُ مُحْكَمًا يَدْخُلُ فِيهِ الْمَعْنَى الْمَتَقَدِّمُ لَا مَحَالَةَ. وَكَوْنُهُ حَكِيمًا يَسْتَوْجِبُ أَنَّهُ مُتَوَافِرٌ عَلَى الْحِكْمَةِ، فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْحَقِّ، وَالْحَقَائِقِ السَّامِيَةِ، وَالْمَعَارِفِ الْحَقَّةِ، وَنُظْمِ السَّلُوكِ، وَالْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ.

وَالعَرَبُ تُجْرِي بَعْضَ الْأَوْزَانِ عَلَى بَعْضٍ. وَذَلِكَ يَحْقُقُ مَغْزَى التَّوَسُّعِ الْمَعْنَوِيِّ، فَيُؤَثِّرُ تَوْظِيفُ هَذَا الْوِزْنِ لِحَشْدِ الدَّلَالَاتِ. وَعَلَى هَذِهِ الرِّزَّةِ كَانَ اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى: (الْحَكِيمِ)، وَهُوَ

(1) ديوان جرير، ت: إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، دنت، ص: 72، ن: ت ت ت، 415/1.

(2) لسان العرب، مادة: (حك)، 140/12. * ن: الأغاني للأصفهاني، ت: سمير جابر، دار الكتب العلمية، دنت، 283/22.

(3) البقرة، 213.

(4) المائدة: 48.

الاسم الذي احتشدت فيه - باعتباره قيمةً تعبيريةً - المعاني الرفيعة التي تليق بأن تُلحَق بوصفِ الله عزَّ وجلَّ.

والحكمة مفهومٌ واصفٌ لدرجةٍ عاليةٍ من التعقُّلِ إذا إلحقتُ بالإنسان، وهي - عمومًا - وُضِعَ للأمورِ في نصابها بإصابةِ الحقِّ ومعرفةٍ ما بهِ الصلاخُ والإصلاح.

وقد عُرِفَ عشقُ الجاهليينَ للحِكْمَةِ المرسلَةِ في منشآتِهِم وأشعارِهِم كَقَوْلِ الأَعْشى:

وَعَرِيبَةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً
قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا (1)

وابتداءً هذه السورة المكية بالأحرفِ المقطَّعةِ فيه نَظَرٌ إلى التراكيب، وسبائكِ النظم، وإعجازِ المباني والأساليب. والوصفُ بالحكمة تتميمٌ للفائدة لما تقدَّم من الدلالات والقيم المعنوية. واختيارُ هذا الوصفِ دون سائرِ أوصافِ الكمالِ لتعلُّقهِ بالأسلوبِ المعجزِ والصياغةِ البليغةِ إضافةً إلى براهين التوحيدِ التي تسلكها السورة: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، (2) فأُمِّي نشأته في بيئةٍ أميةٍ يأتي برسالةٍ قيِّمةٍ لا محالةٍ أنَّها وحيٌّ تضمَّنَ الحكمةَ والهداياتِ التي ينطق بها - لا غرورٌ أنَّه صادقٌ في دعواه أمينٌ على وحيِ الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾، (3) "فهو الحكيمُ الحقُّ؛ لأنَّه يعلمُ أجلَّ الأشياءِ بأجلِّ العلوم، إذ أجلُّ العلومِ هو العلمُ الأزليُّ القديمُ الذي لا يتصوَّرُ زواله المُطابقُ للمعلومِ مُطابِقةً لا يتطرَّقُ إليها خفاءً، ولا شُبْهَةً، ولا يتصوَّرُ ذلكُ إلا في علمِ الله سبحانه وتعالى". (4)

وكونُ القرآنِ العظيمِ حكيماً يعني اشتماله على جُماعِ المعلومِ الذي هو ضروريٌّ نافِعٌ للإنسان، ففيه العلومُ العقديَّةُ، والأخلاقيةُ، والتنظيميةُ، وهي التي يحتاجُ المؤمنُ إلى تبينِ

(1) ديوان الأَعْشى، إشراف: كامل سليمان، دار الكتاب العربي، د.ت، ص: 155.

(2) يونس، 16.

(3) العنكبوت، 48.

(4) المقصد الأسنى للغزالي، ت: بسام الجابي، مؤسسة الجفاني والجابي، 1987 م، ص: 120.

تفاصيلها ومعرفة أصولها وفروعها. وفي القرآن من ذلك ما تنسُد به الحاجة، وتنقطع به الحجة بعد استيفاء السنة الصحيحة في البيان والإضافة. وحكمة القرآن تكمن في كونه يعبر عن نفسه منهاجاً للحياة ونظاماً للاجتماع، ينتظم به العمران، وتتأسس على وفقه مدنية المجتمع، أو الدولة، أو الأمة. والحكمة في القرآن تنشأ من معانيه ومقاصده المتآزرة على تنوير العقول والقلوب؛ وذلك لموافقته لأحسن العقول؛ ولأن أحسن العقول تأنس فيه من أصول الحكمة وأمهات المعارف ما لا تُلْفَاهُ فيما سواه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾⁽¹⁾

ومن سواطع البيان وشواهد الحكمة ما حكاه القرآن على لسان لقمان الحكيم في السورة التي اسمها اسمه: (2) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي غَامِرٍ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ اقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا

(1) هود، 1. ومن حديث الإمام الطاهر عن موضوع الحكمة في تفسير سورة البقرة: "والْحِكْمَةُ إِنْقَانُ الْعِلْمِ وَإِجْرَاءُ الْفِعْلِ عَلَى وَفْقِ ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ فَلِذَلِكَ قِيلَ: نَزَلَتْ الْحِكْمَةُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ، وَعُقُولِ الْيُونَانِ، وَأَيْدِي الصِّينِيِّينَ... وَمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ -تَعَالَى- إِيْتَاءَهُ الْحِكْمَةَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُهُ مُسْتَعِدًّا إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَلَامَةِ عَقْلِهِ وَاعْتِدَالِ قُوَاهُ حَتَّى يَكُونَ قَابِلًا لِفَهْمِ الْحَقَائِقِ مُتَقَادًا إِلَى الْحَقِّ، إِذَا لَاحَ لَهُ لَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ هَوَى، وَلَا عَصَبِيَّةٌ، وَلَا مُكَابَرَةٌ، وَلَا أَنْفَةٌ، ثُمَّ يُبَيِّنُ لَهُ أَسْبَابَ ذَلِكَ مِنْ حُضُورِ الدَّعَاةِ وَسَلَامَةِ الْبُقْعَةِ مِنَ الْعُتَاةِ، فَإِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ تَوَجُّهُهُ إِلَى اللَّهِ بِأَنْ يَزِيدَ أَسْبَابَهُ تَيْسِيرًا، وَيَمْنَعُ عَنْهُ مَا يَحْجُبُ الْفَهْمَ، فَقَدْ كَمُلَ لَهُ التَّيْسِيرُ"، ت ت ت، 61/3. ن: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، دت، 930/6.

(2) ن: التناصب في سورة البقرة، طارق مصطفى، ر، ص: 63.

تَمْشِي فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١﴾.

وحكمة القرآن تسعدُ بها القلوبُ، وتزترأضُ بها العقولُ، وتستقيمُ بها الحياة، فهي الحكمةُ التي تتوافق مع الفطرِ السليمة، والعلومِ القويمية، والأعرافِ الفاضلة ما تتحولُ به قوامًا لحياةٍ إنسانيةٍ إيمانيةٍ رفيعةٍ بعيدا عن غرائبِ الفلسفة، وتهاويمِ الشعراء، وهرطقاتِ الكلاميين المتمدلين. وهي الحكمةُ التي تبعث على الدهشة من توافق الصياغة مع صحيح المعاني، ومن ارتباطِ البلاغة والبيانِ بعمقِ الدلالة مع البراهين التي تحمِلُ على تأثرٍ من يسمع كلامَ الله وحيًا يترددُ على القلوبِ المؤمنة التي تتصلُ بالنداءِ الرباني الباقي على مرِّ العصور.

ولقد كان عَجَبُ القومِ من نزولِ قرآنٍ على رجلٍ منهم من أواسطهم، عرفوا صدقَهُ وأمانتَهُ، ثم لم يقفوا عند عجائبِ نَظْمِ ما جاء بهِ وفَرَائِدِ حِكْمِهِ - كان ذلك صارفاً للمنصرفين منهم عن التنبُّتِ من فحواه ودعواه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾. (2)

وهذا الداعي الصارفُ جرى الإنكارُ على المنقادِ له بأداة الاستفهامِ وفعلِ الكونِ في صيغة المضِيِّ المُثَبِّتِ لتمكُّنِ العَجَبِ العُرفيِّ منهم، فهو -وفقَ هذا الإنكارِ- تَعَجُّبٌ إحالةٍ سادجٍ يبيئُ عن ضحالةٍ في الفكرِ وقصورٍ في التصورِ.

"وَاللَّاسِ مُتَعَلِّقٌ ب(كَانَ) لَزِيَادَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِقْرَارِ هَذَا التَّعَجُّبِ فِيهِمْ؛ لِأَنَّ أَصْلَ اللَّامِ أَنْ تُفِيدَ الْمَلِكَ، وَيُسْتَعَارُ ذَلِكَ لِلتَّمَكُّنِ أَيْ لِلتَّمَكُّنِ الْكُونِ عَجَبًا مِنْ نَفْسِهِمْ. وَعَجَبًا: خَبْرٌ كَانَ مُقَدَّمٌ عَلَى اسْمِهَا لِإِلَهْتِمَامِ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الْإِنْكَارِ. وَأَنْ وَأَوْحَيْنَا: اسْمٌ كَانَ. وَجِيءَ فِيهِ ب(أَنَّ) وَالْفِعْلِ دُونَ الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ -وَهُوَ وَحِينَا- لِيُتَوَسَّلَ إِلَى مَا يُفِيدُهُ الْفِعْلُ مِنْ

(1) لقمان، 12-19.

(2) يونس، 2.

التَّجَدُّدِ وَصِيعَةً الْمُضِيِّ مِنَ الْإِسْتِقْرَارِ تَحْقِيقًا لَوْفِعِ الْوَحْيِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ وَتَجَدُّدِهِ. وَذَلِكَ مَا يَزِيدُهُمْ كَمَدًا". (1)

والعَجَبُ: مصدر، وهو من الشيء غير المألوف أو نادر الحصول. والتعجبُ مدعاةٌ للتكذيب؛ لذا جاء إنكارُ تعجبهم ليقطع تكذيبهم الذي آلوا إليه من عروقه. ولا يبعدُ أن العجبَ كنايةً عن استحالة أن يقع الأمرُ المتعجبُ منه بزعمهم، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَتِ الْأَيْدُ وَالْأَفْئِدَةُ وَالنُّجُومُ بِمَا وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾. (3) وكان قولهم بإحالة نزول القرآن على رجلٍ منهم حجةً عليهم أدمج فيها دعواهم بالاستحالة، إذ إنَّ الرسالاتِ السالفةَ أنزلت على رجالٍ مُصْطَفَيْنَ للدعوة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾. (4)

والعجبُ اختيرَ لقوةِ المصدرِ في ترسيخِ دلالةِ الوصفِ لكونِ الموصوفِ مُضْمَرًا أي أمرًا عَجَبًا. وَعُدِلَ عن المشتق، وهو الصفةُ المُشَبَّهةُ: (عجيب)، كما في سورة (ق): ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، (5) وفي سورة (ص) قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ (6) لاجتماعِ ذِكْرِ الوحيِ وَذِكْرِ الموحى إليه في سياقِ آيةِ يونس مع الإشارةِ إلى البعث، فَتَسَوَّغَ الإتيانُ بالمصدرِ نيابةً عن المشتقِ لتلاقي الأمورِ المُتَعَجَّبِ منها في سياقٍ واحد. (7)

(1) ت ت ت، 83/11.

(2) هود، 72-73.

(3) الأعراف، 63.

(4) النحل، 43. ن: ت ت ت، 84/11.

(5) الآية: 2.

(6) سورة ص، 5.

(7) ن: سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، عودة الله القيسي، دار البشير، 1996، ص: 11-33-82-216.

وادعأؤهُم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ساحر، أو أَنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ⁽¹⁾ - وهي قراءة الجمهور -⁽²⁾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْ صَدْرِ الْآيَةِ، تَوْسَعُ فِي التَّهْمَةِ احْتِرَازًا مِنْ أَنْ يُزَاحَمَ تَعَجُّبُهُم الَّذِي صَدَرَ عَنْ كِبَرَاءٍ مِنْ سَادَاتِهِمْ بِالْحَقِّ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ. وَتَسْفِيهُ الْقُرْآنِ لِدَعْوَى التَّعَجُّبِ وَتَقْبِيحُهُ لِمَذْهَبِهِمْ فِي وَصْفِهِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُفْهَمُ مِنْ مَقَابِلَةِ تَقْوَلَاتِهِمْ بِمَا فِيهِ مِنَ التَّنَادَرَةِ وَالْبَشَارَةِ. وَظَهُورُ بُطْلَانِ رَعْمِهِمْ تَحَقُّقٌ مِنَ التَّجَانُّهِمْ إِلَى مَا لَا احْتِجَاجَ بِهِ، وَإِلَى مَا لَا حِجَّةَ فِيهِ، وَهُوَ الْقَوْلُ بِالسَّحْرِ لِنِقْطَعُوا بِهِ كُلَّ جِدَالٍ، وَيَتَجَنَّبُوا كُلَّ سَوَالٍ مِنْ عَوَامِّ مَكَّةَ وَخَوَاصِّ الْعَرَبِ مِنْ سَادَاتِهَا الَّذِينَ يَصِلُونَهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَرِحَالِ التَّجَارَةِ. هَذَا نِزَاعُهُمْ بِخُصُوصِ دَعْوَى السَّحْرِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةِ

(1) في اللسان: "سحر: الأزهرى: السحر: عملٌ تُقَرَّبُ فِيهِ إِلَى الشَّيْطَانِ، وَبِمَعُونَةٍ مِنْهُ كُلُّ ذَلِكَ الْأَمْرِ كَيُونَةُ السَّحْرِ. وَمِنْ السَّحْرِ الْأَخْذَةُ الَّتِي تَأْخُذُ الْعَيْنَ حَتَّى يُظَنَّ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا يَرَى، وَلَيْسَ الْأَصْلُ عَلَى مَا يَرَى. وَالسَّحْرُ: الْأَخْذَةُ، وَكُلُّ مَا لَطَفَ مَأْخُذُهُ، وَدَقَّ فَهُوَ سِحْرٌ"، مادة: (سحر)، 348/4. جَاءَ فِي تَفْسِيرِ التَّحْرِيرِ أَنَّ السَّحْرَ الشَّعْوَذَةَ. وَيَعْنِي تَمْوِيَةَ الْحَيْلِ بِحَرَكَاتٍ وَأُخْوَالٍ يُظَنَّ أَنَّهَا هِيَ الْمُؤَثِّرَةُ مَعَ خَفَاءِ الْمُؤَثِّرِ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ. قَالَ لَيْبِدٌ: فَإِنْ تَسَأَلْنَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا * عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنْبَامِ الْمُسَحَّرِ. دِيوَانُ لَيْبِدٍ، ت: حمدو طماس، دار الكتب العلمية، 2005 م، ص: 47. وَفِي اللِّسَانِ أَنَّ الْمُسَحَّرَ الْمَخْدُوعَ الْمَجْوَّفَ، 348/4. ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى مَعْلُومِ الظَّاهِرِ خَفِيِّ السَّبَبِ، وَهُوَ التَّمْوِيَةُ، وَالتَّلْبِيسُ، وَتَخْيِيلُ غَيْرِ الْوَاقِعِ وَإِقَاعًا، وَتَرْوِيحُ الْمُحَالِ. تَقُولُ الْعَرَبُ: عَنَزَ مَسْحُورَةٌ، إِذَا عَظُمَ ضَرْعُهَا، وَقَالَ لِبْنُهَا. وَأَرْضٌ مَسْحُورَةٌ لَا تُثَبِّتُ. وَالْعَرَبُ تَرْعُمُ أَنَّ الْعِيْلَانَ سَحْرَهُ الْجِنِّ لِمَا تَتَشَكَّلُ بِهِ مِنَ الْأَشْكَالِ، ت ت ت بتصرف، 630/1. "وَالسَّحْرُ مِنَ الْمَعَارِفِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي مَنَبَعِ الْمَدِينَةِ الْأُولَى أَعْنِي: بِبِلَادِ الْمَشْرِقِ، فَإِنَّهُ ظَهَرَ فِي بِلَادِ الْكَلْدَانِ، وَالْبَابِلِيِّينَ، وَفِي مِصْرَ فِي عَصْرِ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ فِي الْقَرْنِ الْأَرْبَعِينَ قَبْلَ الْمَسِيحِ؛ مِمَّا [وَهُوَ مَا] يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ فِي تَيْبِكَ الْأَمْنِيِّينَ مِنْ تَعَالِيمِ قَوْمٍ نَشَؤُوا قَبْلَهُمَا، فَقَدْ وَجِدَتْ آثَارَ مِصْرِيَّةٍ سَحْرِيَّةٍ فِي عَصْرِ الْعَائِلَةِ الْخَامِسَةِ مِنَ الْفَرَاعِنَةِ، وَالْعَائِلَةِ السَّادِسَةِ: (3951-3703) ق.م. وَلِلْعَرَبِ فِي السَّحْرِ خَيَالٌ وَاسِعٌ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّحْرَ يَقْلِبُ الْأَعْيَانَ، وَيَقْلِبُ الْقُلُوبَ، وَيُطَوِّعُ الْمَسْحُورَ لِلسَّاحِرِ"، ت ت ت، 630/1-631، ن: الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور، جورج لونتينو، دار الشؤون الثقافية، 1979، ص: 402-وفي مواضع أخرى. وجاء في الموسوعة العربية العالمية: "السحر: الاستخدام المُفْتَرَضُ لِلْقُدْرَةِ فَوْقَ الْبَشَرِيَّةِ أَوْ غَيْرِ الطَّبِيعِيَّةِ... وَيُحَقِّقُ السَّحْرُ بَعْضَ النَّتَائِجِ أَحْيَانًا؛ وَلَكِنْ لِنَتِكَ النَّتَائِجِ أَسْبَابٌ أُخْرَى"، تحت عنوان: السحر = Magic ن: الموسوعة الفقهية الكويتية، 259/24. ومنه تسخير السحرة للجن لأغراضٍ يتحقق بعضها بسبب أعمال كُفْرِيَّةٍ أَوْ شِرْكَِيَّةٍ. ن: إعلام المُوقِّعِينَ لابن القيم، ت: طه سعد، دار الجيل، 1973، 331/3، وإغاثة اللهفان لابن القيم، ت: محمد الفقي، دار المعرفة، 1975، 252/1.

(2) ن: النشر في القراءات العشر، 282/2.

نزاعهم في قضية إنزال ملكٍ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي قضايا يفتعلونها تشغيبًا على الدعوة المباركة، وهي قضايا بعضها أوهى من بعض.

"وأما عامة البشر، فهم بمعزلٍ من استحقاقِ المُفَاوَضَةِ الملكية. كيف لا؟ وهي منوطةٌ بالتناسبِ والتجانسِ، فبعثُ الملكِ إليهم مزاحمٌ للحكمة التي عليها يدور فلكُ التكوينِ والتشريعِ. وإنما الذي تقتضيه الحكمة أن يُبعثَ الملكُ من بينهم إلى الخواصِّ المُختصِّين بالنفوسِ الزكيةِ المؤيدين بالقوةِ القدسيةِ المتعلقةين بكلا العالمين الروحانيِّ والجسمانيِّ لِيَتَلَقَّوْا من جانب، ويُلْقُوا إلى جانب... فَلَمَّا أَنَّ مناطَ الاصطفاءِ للنبوةِ والرسالةِ هو التقدم في الاتصافِ بما دُكِرَ من النعوتِ الجميلةِ، والصفاتِ الجليلةِ، والسبقِ في إحرازِ الفضائلِ العليةِ وحياسةِ الملكاتِ السنيَّةِ جبلةً واكتسابًا، ولا ريبَ لأحدٍ منهم في أنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في ذلك الشأنِ في غايةِ الغاياتِ القاصيةِ ونهايةِ النهاياتِ النائيةِ. وأما التقدمُ في الرياساتِ الدنيويةِ والسبقُ في نيلِ الحظوظِ الدنيَّةِ، فلا دَخَلَ له في ذلك قَطْعًا؛ بل له إخلالٌ به غالبًا". (1)

وتعجبهم إنما هو لإبائهم الإنصاتِ إلى الحق؛ ولرغبتهم أن يشغلوا الناسَ بقضيةٍ فرعيةٍ مُتعلِّقة، إذ إنَّ الاستماعَ مُجَرَّدًا لا مندوحةَ عنه بحال، وهو ما لا يخلو من إعجابٍ وانجذابٍ إلى هذا النَّسَقِ البديعِ الذي لم يألَفوه من قبلُ في شيءٍ من إنشئاتِ بلغائهم - هذا التعجبُ خلصوا منه إلى تُهْمَةِ السحرِ، فمن عادةِ الناسِ في ذلك الزمانِ أن يفسروا بالسحرِ والاتصالِ بالجنِّ كُلَّ أمرٍ فيه غرابةٌ أو خروجٌ عن مألوفاتهم. ونقرأ ذلك في قوله -تعالى- مِنْ سورتَي هُودٍ وَالْحَجْرِ: ﴿وَلَيْنِ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، (2) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ

(1) إرشاد العقل السليم، 117/4. الأنسبُ من قوله: (إخلالٌ به) أن يُقالَ: ترفعُ عنه أو ازدرأه له. هذا إذا كان عودُ

الضميرِ إليه صلى اللهُ عليه وسلم. وأما إذا كان عائدًا إلى قوله: مناطِ الاصطفاءِ، فلا إشكال.

(2) الآية: 7.

مَسْحُورُونَ»،⁽¹⁾ فهذه القضية دعوى غير خاسرة في تصوّرهم، ويمكن أن يكسبوا بها الرأي العام، وتكفيهم عناء تفسير سرّ إسلام من يدعونهم الصّباة.⁽²⁾

واسمُ الفاعل: (الكافرون) جيء به في هذا السياق بيانًا لطائفة من الناس، ولفظُ الناس تقدّم ذكره في الآية. وورودُ هذا الوصفِ المُشتقِّ لإيضاح أنّهم قد بلغوا هذه الفرية الباطلة بكفرهم الذي ابتدأ بالتعجب، ثمّ بالتكذيب، ثمّ لجؤوا إلى وصفه بأنه ساحر، وأنّ القرآن وسيلته في سحر الناس، فبعد أن لم يستطيعوا وصفه بأنه هذيان وأباطيل مُتمخّصة عن لوثة أو زهاب، عمدوا إلى ما استسهلوا إطلاقه من قولهم: ساحر. وتلك ذروة الكفر، وشرةً التكذيب، وغاية التاليب. وقد تضمّن الوصف في سياق قولهم الذي دعموه بالمؤكّدات - صورة الساحر الذي كان من طرّقه الخارقة غير المقهورة في أوهامهم أن يردّد طلسم، وتعوذات، وشعوذات يتأثّر بها الجمهور المرصود بالاستهواء واستنزال العقول. وهذا هو مطعّنتهم الذي ظنوا فيه غنيّة وكفاية تدوم: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.⁽³⁾ وهذا الوصف روعي فيه الأصل في الكلام، فهم لم يقولوا: (سحّار) الذي هو صيغة مبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُورُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾؛⁽⁴⁾ لأنّهم أرادوا التأسيس لقضية بتوظيف ما هو أصل في بابهِ ونعت لأصحابه، ثمّ هم لم يهتدوا إلى ذلك إلا بعد عنّت وطول مجاهدة في استصدار هذه الفرية من هذيان كبير رؤسائهم.

وأما في مصر الفرعونية، فكان للسحرة طبقات ومقدّمون؛ ولهذا فهم مراتب. وللحذاق منهم حظوة ومكانة. ولكثرة السحرة وانتشارهم في مدائن الصعيد بعث فرعون الحاشرين -

(1) الآية: 15.

(2) وأمر بترويج دعوى السحر الوليد بن المغيرة كما حكاه عنه القرآن من سورة المدّثر: الآية (24). ن: تاريخ الإسلام للذهبي، ت: عمّر التدمري، الكتاب العربي، 1987، 156/1-157، والمستدرک، 550/2.

(3) القمر، 2.

(4) الشعراء، 36-37.

وَهُمْ أَعْوَانُ وَزَرَائِهِ الَّذِينَ يَخْتَصُّونَ بِجَمْعِ النَّاسِ وَتَحْشِيدِهِمْ - لِيَأْتَوْهُ بِالسَّحَرَةِ وَالرَّعِيَةِ لِشُهُودِ
الموقفِ في يومِ الزينة. (1)

وصيغةُ التَّنْكِيرِ تَفِيدُ التَّهْوِينَ مِنْ شَأْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّذِي أَرَادَهُ فِي حَقِّهِ
لِيَعْتَدُوا بِهِ عَلَى نَصْحِهِ وَصِدْقِهِ.

والمبين: اسمُ فاعلٍ مِنْ (أَبَانَ) الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى بَانَ أَي ظَهَرَ أَي سَحَرَ وَاضِحُ
الظهور. وَهَذَا الوَصْفُ تَلْفِيْقٌ مِنْهُمْ، وَبُهْتَانٌ، وَافْتِرَاءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِوَاضِحٍ فِي ذَلِكَ؛ بَلْ هُوَ
الحَقُّ الْمُبِينُ مِنْ نَبِيِّ مُرْسَلٍ.

وإِسْمُ الفاعِلِ: (مَبِينٌ) يَجْمَعُ بَيْنَ مَعْنَى الظُّهُورِ اعْتِمَادًا عَلَى التَّجْرِيدِ مِنَ الزِّيَادَةِ
الصَّرْفِيَّةِ، وَبَيْنَ الإِظْهَارِ أَوْ الإِبَانَةِ بِاعْتِبَارِ اشْتِقَاقِهِ مِنَ الرَّبَاعِيِّ. وَهَذَا يَخْدُمُ المَعْنَى الَّذِي
أَرَادَهُ فِي كَلَامِهِمْ، وَهُوَ مَعْنَى فَاسِدٌ بَاطِلٌ لَا مَحَالَةَ.

3231 المُشْتَقُّ: شَفِيعٌ

الشَّفِيعُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ﴾ بِمَعْنَى الشَّافِعِ. وَالشَّفَاعَةُ مَنْزِلَةٌ يَطْلُبُهَا الشَّفَاعَةُ
الَّذِينَ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّهِمْ - عَادَةً - أَنْ يُجَابُوا إِلَى مَا يَطْلُبُونَهُ لِأَجْلِ المُسْتَشْفِعِينَ. وَالشَّفِيعُ
شَافِعٌ مِنْ حَيْثُ الأَصْلُ، وَمُشَفَّعٌ مِنْ حَيْثُ المَالُ، إِذْ هُوَ صَائِرٌ إِلَى ذَلِكَ - بِالْعَلْبَةِ - بِقَبُولِ
مَسْعَاهُ وَتَحْقِيقِ مُبْتَغَاهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَمَا أَصَلَّنَا إِلَّا المُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا
صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. (2)

وَأَوَّلُ وَرُودٍ لِلشَّفَاعَةِ فِي القُرْآنِ فِي البَقْرَةِ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا
وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. (3)

(1) ن: ت ت ت، 44/9.

(2) الشعراء، 99-101. ن: لسان العرب، مادة: (شفع)، 183/8.

(3) البقرة، 48.

يُنَبِّسُ الْقُرْآنَ مُشْرِكِي مَكَّةَ مِنْ شَفَاعَةِ النَّظْرَاءِ، وَيُبْطِلُ هَذَا الْمَعْتَقَدَ الْفَاسِدَ الَّذِي يَبْنُونَ عَلَيْهِ تَخْرُصَاتِهِمْ، وَيَنْقُلُ الْقُرْآنَ عَنْهُمْ هَذَا الْإِفْكَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾⁽¹⁾ وَهَذَا التَّأْيِيسُ يَسْتَتِيعُ تَحْقِيرَ مَنْ تَوَهَّمَهُمُ الْكُفْرَةَ شُفَعَاءَ أَعْدَاؤِ لَهُمْ قَرَابِينَ قَرَّبُوهَا: ﴿هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾⁽²⁾

وَقَدْ حَصَرَتْ آيَةُ الْبَقْرَةِ الْمَعَانِي الَّتِي اعْتَادَهَا رُؤَسَاءُ النَّاسِ فِي مَفَاوِضَاتِهِمْ، فَإِنَّ الْمُرْتَهِنَ بِالشَّدَائِدِ لَا يَتَخَلَّصُ إِلَّا بِالشَّفَاعَةِ، أَوْ بِفِدَاءٍ، أَوْ بِنَصْرَةِ نَاصِرِينَ. وَقَدْ جُمِعَ كَلَامُ شَيْوِخِ بَنِي أَسَدٍ مَعَ امْرِئِ الْقَيْسِ حِينَ كَلَّمُوهُ فِي دَمِ أَبِيهِ حُجْرٍ، فَقَالُوا: "فَأَحْمَدُ الْحَالَاتِ فِي ذَلِكَ أَنْ تَعْرِفَ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ فِي إِحْدَى خِلَالِ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ اخْتَرْتَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا، فَقُدَّنَاهُ إِلَيْكَ بِنِسْعَةٍ [بِزِمَامِ الْبَعِيرِ] تَذْهَبُ مَعَ شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِبَاقِي قَصْرَتِهِ [بِقَيْتِهِ أَوْ أَصْلِهِ]، أَوْ فِدَاءً بِمَا يَرُوحُ عَلَى بَنِي أَسَدٍ مِنْ نَعْمَتِهَا، فَهِيَ الْوَفَى، وَإِمَّا وَادَعْنَا إِلَى أَنْ تَضَعَ الْحَوَامِلُ، فَتُسَدَّلَ الْأُرُرُ، وَتُعَقَّدَ الْحُمُرُ فَوْقَ الرَّيَّاتِ".⁽³⁾

وَفِي ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ﴾ جَرَى تَوْكِيدُ النَّفْيِ بِمِنْ الْجَارَةِ، وَانْتَفَى بِذَلِكَ الْوَصْفُ عَنْ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ الَّتِي تَمَّ اشْتِمَالُهَا بِ(مِنْ) الْإِبْتِدَائِيَّةِ حَيْثُ تَلَاشَتْ كُلُّ خُصُوصِيَّةٍ زُعِمَتْ لِإِلَهِيَّتِهِمْ. وَإِلَّا الْإِسْتِثْنَائِيَّةُ وَمَا بَعْدَهَا احْتِرَازٌ حَصَلَ بِهِ إِثْبَاتُ الشَّفَاعَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾⁽⁴⁾ وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ نَفْيُ الشَّفَاعَةِ لِإِلَهِيَّتِهِمْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ -بِرُزْمِهِمْ- فِي الْإِلَهِيَّةِ. وَجَمَلَةٌ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ

(1) الزُّمَرُ، 3.

(2) يُونُسُ، 18.

(3) ت ت ت، 486/1. ن: الأغاني، 123/9، وتفسير ابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية،

1993، 121/1، ولسان العرب، مادة: (قصر - نسع)، 352/8-95/5.

(4) الأنبياء، 28.

رَبُّكُمْ» ابْتِدَائِيَّةٌ فَذَلِكَ لِلجَمَلِ الَّتِي قَبْلَهَا وَنَتِجَةٌ لَهَا. وَتَفَرَّعَ قَوْلُهُ: «فَاعْبُدُوهُ» عَنِ الجَمَلَةِ قَبْلَهَا. وَجَمَلَةُ الفَذَلِكَةِ هَذِهِ تَقْوِيَّةٌ لِلجَمَلَةِ الأَصْلِيَّةِ: «إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ». وَاسْمُ الإِشَارَةِ وَرَدَ لَتَمْيِيزِ مَعْنَى الإِلَهِيَّةِ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ المُشْرِكُونَ، فَنَسَبُوا إِلَى مَعْبُودَاتِهِمْ وَصَفَ الأَلُوهُيَّةِ شَرِكَةً مَعَ اللهُ تَعَالَى عَمَا يَقُولُونَ، فَكَانُوا أَحْرِيَاءَ بِالإِيقَاطِ بِطَرِيقِ اسْمِ الإِشَارَةِ.

وَكَوْنُ اللهُ -سَبْحَانَهُ- خَالِقَ العَوَالِمِ، وَمُدَبِّرَ شُؤْنِهَا، وَمُصْرِفَ أُمُورِهَا يُعَلِّمُ مِنْهُ اسْتِحْقَاقَهُ لِتَوْحِيدِ الرَّبُوبِيَّةِ أَيْ الوَصْفِ الجَامِعِ لصفاتِ الأفعالِ الَّذِي لَمْ يَمَارُوا فِيهِ، وَلِتَوْحِيدِ الأَلُوهُيَّةِ أَيْ الوَصْفِ الجَامِعِ لصفاتِ الكَمَالِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ عِدَاوَتِهِمْ لِمَا جَاءَ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ، فَأَيْنَ عِتْبَارُهُمْ بِحَقُوقِ العِبَادَةِ الخَالِصَةِ، وَاعْتِبَارُهُمْ بِشَوَاهِدِ الخَلْقِ، وَتَأْمُلُهُمُ لِلعَالَمِ وَالحَيَاةِ الَّتِي تَشْهَدُ كُلُّهَا بِالوَحْدَانِيَّةِ المُحْضَةِ:

"وَجُمْلَةٌ: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» ابْتِدَائِيَّةٌ لِلتَّفَرِيعِ، وَهُوَ عَرَضٌ جَدِيدٌ؛ فَذَلِكَ لَمْ تُعْطَفْ، فَالِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارٌ لِانْتِفَاءِ تَذَكُّرِهِمْ، إِذْ أَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَلَمْ يَتَذَكَّرُوا فِي أَنَّهُ المُنْفَرِدُ بِخَلْقِ العَوَالِمِ، وَبِمُلْكِهَا، وَبِتَدْبِيرِ أَحْوَالِهَا. وَالتَّذَكُّرُ: التَّأْمُلُ، وَهُوَ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ لَا يُطْلَقُ إِلاَّ عَلَى ذِكْرِ العَقْلِ لِمَعْقُولَاتِهِ أَيْ حَرَكَتِهِ فِي مَعْلُومَاتِهِ، فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ التَّفَكُّرِ؛ إِلاَّ أَنَّ التَّذَكُّرَ لَمَّا كَانَ مُشْتَقًّا مِنْ مَادَّةِ الذِّكْرِ الَّتِي هِيَ فِي الأَصْلِ جَرِيَانُ اللَّفْظِ عَلَى اللِّسَانِ، وَالَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا أَيْضًا عَنِ خُطُورِ المَعْلُومِ فِي الذَّهْنِ بَعْدَ سَهْوِهِ وَغَيْبَتِهِ عَنْهُ، كَانَ مُشْعِرًا بِأَنَّهُ حَرَكَةُ الذَّهْنِ فِي مَعْلُومَاتٍ مُتَقَرَّرَةٍ فِيهِ مِنْ قَبْلٍ". (1)

(1) ت ت ت، 89/11. "فَلِذَلِكَ أُوتِرَ هُنَا [أَي التَّذَكُّرَ] دُونَ «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ»، (البقرة، 219) لِالإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ الإِسْتِدْلَالَ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهُ -تَعَالَى- قَدْ تَقَرَّرَ فِي النُّفُوسِ بِالفِطْرَةِ، وَبِمَا تَقَدَّمَ لَهُمْ مِنَ الدَّعْوَةِ وَنُصَبِ الأَدْلَةِ، فَيَكْفِي فِي الإِسْتِدْلَالَ مُجَرَّدَ إِخْطَارِ هَذِهِ الأَدْلَةِ فِي البَالِ"، السَّابِقِ وَالصَّفْحَةِ نَفْسِهَا.

ونفي الآية الشفاعة إلا أن يكون مأذوناً فيها- نفي للآزم أي للآزم شركهم بعبادة شركاء زعموا أنهم وسطاء شفعاء مع إيماء الآية إلى شفاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي المقيدة بإذنه تعالى. (1) ومن ذلك شفاعة الشهيد في أهله. (2)

وهي كرامة ومنزلة لا تستوجب شيئاً من شركهم، فهذه الجملة من الآية لم تشر إلى إشراك القوم صراحةً لغرض أداء معانٍ متنوعة عن طريق الترقى في الدلالة.

واندفاع البعض إلى إنكار الشفاعة واعتبارها ممّا لا يثبت له تصوّر عقلي، ولا ينعقد في تأصيلها دليل من النقل صريح في الدلالة (3) هو اندفاع يشبهه انجرار غيرهم إلى التساؤل عن جدوى أمر كالدعاء. وانعقاد الأدلة عليه -لا محالة- أمر مقطوع به. والتشكك في نفع الدعاء ناشئ عن القول بأن الأمور المستقبلية مقدور وقوعها محتوم تحقّقها، فما الطائل وراء الدعاء ليكون ديدن المتعبدين وذريعة المضطرين؟ والأصل في هذه الأشباه ما تردد في فرق الكلاميين من بحث حقيقة العمل وارتباطه بمسائل القضاء والقدّر. (4) وإلا فما جدوى العمل إذا كان سبيل الاحتجاج هو هذا؟ وهو ما يؤدي إلى المصادرة على الدين والشرعية، وهو نظير للعدمية أو الجبرية. وهو ينافي حقيقة الاختيار لدى الإنسان، وأنّ جوهر الاختيار لديه غير مدخول؛ بل هو أصيل مركوز في الطبع والفطرة.

(1) حديث "وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ" في فتح الباري، 436/1، والمنهاج، 3/5.

(2) الحديث الذي فيه: "وَيُشْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقْرَبِهِ" في مسند أحمد. 419/28. ن: السلسلة الصحيحة (مختصرة)، 220/8، وتحفة الأخوذى لمحمد المباركفوري، دار الكتب العلمية، 1410 هـ، 248/5.

(3) ن: الرد القويم البالغ، محمد الفقيهي، دار المآثر، د.ت، ص: 355.

(4) ن: التبيان في أقسام القرآن، ص 36، وغاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الأمدي، ت: حسن عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1391 هـ، ص: 303، وعيون الرسائل والأجوبة على المسائل لعبد اللطيف آل الشيخ، ت: حسين محمد، مكتبة الرشد، د.ت، 488/1-489، وأصول الإيمان لابن تيمية، (م)، ص: 95.

الصالحات: جَمَع. مفرده وصف نُقِلَ إلى الاسمِية من الوصفية لشيوع تداوله في الكلام. وأوثر الجمع بالألف والتاء إشارة إلى تنوع الأعمال والأفعال المحمودة. والصالحَةُ الفِعْلَةُ الحسنة، والصالحَةُ كالحسنة في الجريان مجرى الاسم. وقد جرى الحذف في الاستعمال استحضاراً لقيمة الوصف وأهمية الدلالة عليه. ومثل ذلك السيئات، ففي التنزيل: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾⁽¹⁾. ومن شواهد الأول قول الحطيئة:

كَيْفَ الْهَجَاءِ وَمَا تَنَفَّكَ صَالِحَةً مِنْ آلِ لَامٍ بَظَهْرِ الْعَيْبِ تَأْتِينَا⁽²⁾

وقد أفاد اسمُ الفاعلِ في مثلِ هذه الاستعمالاتِ بالاختصارِ عليه دُونَ موصوفِهِ -وهو هنا الأعمال- التنبؤَ بقيمةِ الصلاحِ والخيريةِ في العملِ المأمورِ بهِ أو المندوبِ إليه شرعاً. ومؤدى ذلك التنبؤُ على أنَّ هذه الأعمالَ قد صلحت بموافقتها لما تُقَرُّ بهِ الفطرةُ القويمَةُ؛ وهي لذلك من مأموراتِ الشرعِ ومندوباتِهِ الَّتِي جاءت بها النصوص لغرضِ استكمالِ الإيمانِ لوازِمِهِ والتوحيدِ حَقَّهُ الَّذِي يقوم بهِ.

واسمُ الفاعلِ -إِذَنْ- في هذا السياقِ قد وَرَدَ بمعناه لا بمعنى مُشْتَقِّ آخِرٍ، إذ لا طائل وراءَ التقديرِ ما دام استغني عنه. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾⁽³⁾.

5231 المشتقان: حميم - أليم

التعليقُ في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾⁽⁴⁾ مُنْتَهَى إِلَيْهِ لِقَصْدِ بَيَانِ

(1) النساء، 18.

(2) ديوان الحطيئة، اعتنى به: حمدو طماس، دار المعرفة، 2003 م، ص: 146.

(3) البقرة، 62.

(4) يونس، 4.

الحكمة من البعث وحشر الناس إلى معادهم لنيل ما يستحقون بحسب ما قَدَّموا من أعمالٍ أفضت بهم إلى دارِ الجزاء. ولولا ذلك، لَتَقَرَّرَ الحكمُ باستواءِ المحسنِ والمسيءِ، وَلَسَاوَى أهلُ الشرورِ الخيِّرين فيما أَنَّ الشَّأوَ بين الفريقينِ قاصٍ بَعِيد. وليس هذا العالمُ مُتَمَخِّصًا لهذا العدلِ المُطلق، فهو موضوعٌ على قاعدةِ القابليةِ للإعمار، وللفسادِ بحسبِ التَّسَبُّبَاتِ الصادرةِ عن الأفرادِ والجماعات، فقوى الشرِّ من عالمِ الشياطينِ وعالمِ النفوسِ لها أثرها في مخالفةِ الهداياِ الرَبَّانِيَّةِ، وفي إحداثِ الخللِ والآفاتِ الَّتِي ينتج عنها اضطهادُ الصالحينِ وعلُوُّ الأشقياءِ المسيئين؛ فلذلك كان من الحكمةِ بناءُ عالمٍ آخرٍ مُتَمَخِّصٍ للبقاء، وعدمِ القابليةِ إلا لما هو حق، وعدل، وصلاح، فغايتا النعيمِ والعذابِ الأليمِ نتيجتانِ لمقَدِّماتٍ منها ما هو موافقٌ للمقصود، وذلك هو عملُ العاملينِ لصلاحِ نظامِ العالمِ، ومنها ما هو عملٌ على إحداثِ العيبِ بهذا النظامِ.

وَالْحَمِيمِ: الماءُ الحارُّ حرارةً شديدة. وَالْحَمَّةُ نَبْعُ الماءِ الجاري الحارِّ الَّذِي يَسْتَشْفِي بِهِ الْأَعْلَاءُ وَالمرضى مِمَّا يَصِيبُ الْبَدَنَ وَالْجُلْدَ. (1)

ومضمونُ هذه العبارةِ وصفُ الشرابِ الَّذِي يُسَقَوْنَهُ بأنه من حميم، وهو وصفٌ جارٍ مَجْرَى تشنيعِ حالٍ مِنْ أحوالِهِمْ. وواقعٌ في مألوفاتِ النفوسِ شدةُ الكراهةِ والمقتِ لهذا اللونِ من العذابِ؛ لأنَّهُ مَبْنِيٌّ على معنى العذابِ الداخليِّ البدنيِّ والنفساني. والنفسانيُّ منه مُتَحَقِّقٌ من جهةِ نُشْدَانِ الرِّيِّ لشدةِ العطشِ، ثُمَّ التَّقَاوُجُ بكونِهِ صِنْفًا جَدِيدًا من صنوفِ التثكيلِ. وأمَّا البدنيُّ، فراجعٌ إلى طُرُوءِ النكالِ على دخيلةِ الجسدِ. والأظهرُ في العذابِ اختصاصُهُ بظاهره، وهو المألوفُ بين البشرِ؛ إلا أَنَّ قدرةَ اللهِ -تعالى- لها اختصاصٌ بهذا التنويعِ وإيغالِ الإيلامِ في باطنِ الجسدِ ودخائلِ أعضائه. قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا

(1) ن: لسان العرب، مادة: (حمم)، 150/12.

يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا،⁽¹⁾ وقال جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.⁽²⁾

والأليم: أُريدَ به اسمُ المفعول. والأصل: مُؤَلِّمٌ أي مَنْ هو مُعَدِّبٌ به، أو الأصلُ مُؤَلِّمٌ، كما في قولِ عمرو بن معدٍ يكرب:

وَحَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِحَيْلٍ تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ⁽³⁾

أي مُوجِع. ويجوزُ القياسُ عليه بتخريجِ الكلامِ الفصيحِ عليه في أصحِّ الأقوال، إذا أُمنَ جهالةُ المولدين أو نحوها في صوغه.⁽⁴⁾

وقد رسمت الصفة المشبهة صورةً للعذابِ المؤلمِ باعتبارِ حالِ الثباتِ التي تستفادُ منها، وفي هذا استيعابٌ للزمنِ يتأكدُ به المعنى. والتنوعُ في تقديرِ المعنى الأصليِّ لهذا الوزنِ يشيرُ إلى تضمُّنيه للدلالاتِ ولو احتمالاً، وهي خاصيةٌ معنويةٌ تُثري النصَّ وتعمِّقُ الأداءَ البليغ.

6231 المشتق: منازل

هذا المشتقُّ المجموعُ جمعُ تكسيرِ اسمِ مكان. وقد وَرَدَ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.⁽⁵⁾ ووردت هذه الصيغةُ في قوله تعالى - من سورة يس: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.⁽⁶⁾ والسياقُ فيه اعتناءً

(1) الكهف، 29.

(2) محمد، 15.

(3) ن: ديوان عمرو بن معدٍ يكرب، جمعه: مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1985، ص: 149.

دلف - يدلّف: مشى، وقارب الخطى، ن: لسان العرب، مادة: (دلف)، 106/9.

(4) ن: ت ت ت، 282/1.

(5) يونس، 5.

(6) الآية: 39.

بالاستدلال على انفراد الخالق بالتصرف في المخلوقات، وبث الآلاء، والتعهد بإسباغ المنن بتهيئة الدنيا بلوازم الحياة التي تركبت منافعها فيها، وتنوعت بحيث شملت ما يحتاجه البشر. وزيادةً فوق ذلك ما يترَفَهُونَ به في حياتهم، ويتنعمون به فيها.

"وَالْمَنَازِلُ: جَمْعُ مَنْزِلٍ، وَهُوَ مَكَانُ النُّزُولِ. وَالْمَرَادُ بِهَا -هُنَا- الْمَوَاقِعُ الَّتِي يَظْهَرُ الْقَمَرُ فِي جِهَتِهَا كُلِّ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ، وَهِيَ ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ مَنْزِلَةً عَلَى عَدَدِ لَيَالِي الشَّهْرِ الْقَمَرِيِّ. وَإِطْلَاقُ اسْمِ الْمَنَازِلِ عَلَيْهَا مَجَازٌ بِالْمُشَابَهَةِ. وَإِنَّمَا هِيَ سُمِّيَتْ يَلُوحُ لِلنَّاسِ الْقَمَرُ كُلُّ لَيْلَةٍ فِي سَمْتٍ مِنْهَا، كَأَنَّهُ يَنْزِلُ بِهَا. وَقَدْ رَصَدَهَا النَّبِيُّ، فَوَجَدُوهَا لَا تَخْتَلِفُ. وَعَلِمَ الْمُهْتَدُونَ مِنْهُمْ أَنَّهَا مَا وَجِدَتْ عَلَى ذَلِكَ النِّظَامِ إِلَّا بِصُنْعِ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ. وَهَذِهِ الْمَنَازِلُ أَمَارَاتُهَا أَنْجَمٌ مُجْتَمِعَةٌ عَلَى شَكْلِ لَا يَخْتَلِفُ، فَوَضَعَ الْعُلَمَاءُ السَّابِقُونَ لَهَا أَسْمَاءً". (1)

وَالْعَرَبُ يَبْتَدِئُونَ ذِكْرَهَا بِالشَّرْطَانِ. وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ خُلُوقِ الْقَمَرِ كُلِّ لَيْلَةٍ فِي سَمْتٍ مَنْزِلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ، وَهِيَ تُرَى عِنْدَ الْفَجْرِ، فَأَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الْهِلَالِ لِالشَّرْطَانِ. وَتَرْتِيبُهَا عَلَى حَسَبِ تَقْسِيمِهَا عَلَى فُصُولِ السَّنَةِ الشَّمْسِيَّةِ:

"الْعَوَاءُ، السِّمَّاكُ الْأَعَزْلُ، الْعَفْرُ، الزُّبَانِي، الْأَكْلِيلُ، الْقَلْبُ، الشَّوْلَةُ، النَّعَائِمُ، الْبُلْدَةُ، سَعْدُ الدَّابِحِ، سَعْدُ بُلْعِ، سَعْدُ الشُّعُودِ، سَعْدُ الْأَخْبِيَّةِ، الْفَرْغُ الْأَعْلَى، الْفَرْغُ الْأَسْفَلُ، الْحُوْتُ، الشَّرْطَانُ، الْبُطَيْنُ، الثُّرَيَّا، الدَّبْرَانُ، الْهَقْعَةُ، الْهَنْعَةُ، ذِرَاعُ الْأَسَدِ، النَّشْرَةُ، الطَّرْفُ، الْجَبْهَةُ، الزُّبْرَةُ، الصَّرْفَةُ. وَهَذِهِ الْمَنَازِلُ مَنْقَسِمَةٌ عَلَى الْبُرُوجِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ... فَلِكُلِّ بُرْجٍ مِنَ الْإِثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا مَنْزِلَتَانِ وَثَلَاثٌ. وَهَذَا صَاطِبٌ لِمَعْرِفَةِ نُجُومِهَا، وَلَا عِلَاقَةَ لَهُ بِاعْتِبَارِهَا مَنْزِلًا لِلْقَمَرِ. وَقَدْ أَنْبَأَنَا اللَّهُ بِعِلَّةِ تَقْدِيرِهِ الْقَمَرَ مَنْزِلًا بِأَنَّهَا مَعْرِفَةُ النَّاسِ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ". (2)

إبداء هذه الآلاء الظاهرة في هذه الآية سياق استدلال على الخالقية وامتنان على المحجوجين بالخطاب القرآني، فدوران الشمس والقمر على هيتيها يستوفي دائرة الزمان النهاري والليلي لقوات فوائد ومنافع لا حصر لها بانقطاع توالي تنقلات هذين الجرمين

(1) ت ت ت، 95/11، ن: تفسير المراغي، البابي الحلبي، د.ت، 68/11.

(2) السابق، 55/11.

المنضبطين انضباطا متناهي الدقة أريد به انتفاع الناس بنظام حساب وتقدير للأوقات استفادوه في تقسيم الزمن إلى أيام، وليال، وأشهر، وسنين، وغيرها من وحدات الزمن صغرى وكبرى من أجزاء الثانية إلى السنة الضوئية. وهي وحدات عرفها الإنسان، وضبطها بتراكم تجارب الحضارات الإنسانية منذ أقدم العصور إلى اليوم.

وكون النهار حيزاً لسطوع الشمس وهيمنة الضياء لازم عن اتساع نطاق التهيؤ للحركة والتنقل في وقت الاشتغال بمتطلبات الحياة، ولوازم التنقل، وأسباب العمران، فسطوع النهار سبب لإتقان العمل وضبط الحركة. وقد يتواصل الاحتياج إلى الاشتغال ليلاً؛ لكنه يتضاءل لطلب الركون ونشدان السكون لغرض فتور القوى العصبية، فلا يمتنع سعي الساعين ليلاً لحاجاتهم، ولا يتعذر طلب الراحة وفتور الحركة بسبب صورة القمر وعدم انطباق الظلمة على الأرض.

ومن معاني المنزل والمنزلة في العربية الدار، والمنهل، والمرتبئة، والدرجة. (1) والتقدير وضع الأشياء في نظام محكم، فهو يُطلق على جعل الأشياء بقدر ونظام دقيق موصوفٍ بالإحكام، وعلى تحديد المقدار مما تُطلب معرفة مقداره مثل: تقدير الأوقات والكميات من المؤزونات والمعذوبات. وكلا الإطلاقين مرادف هنا.

"عرف الناس منذ القدم دورة القمر من المحاق إلى المحاق، أو من الهلال إلى الهلال، واستخدموها في تحديد الزمن والتأريخ للأحداث، ولاحظوا أن القمر في دورته تلك يقع في كل ليلة من ليالي الشهر القمري بين ثوابت من النجوم، أو من تجمعاتها الظاهرية، وسموا كلاً منها منزلاً من منازل القمر، وعرفوا أن عدد تلك المنازل ثمانية وعشرون بعدد الليالي التي يرى فيها القمر...ولما كان القمر يقطع في كل يوم من أيام الشهر القمري حوالي 12 درجة من درجات دائرة البروج: (360 درجة على 29,5

(1) ن: لسان العرب، مادة: (نزل)، 656/11.

يوما=12، 2 درجة)، فإنه يقع في كل ليلة في منزلٍ من المنازل التي تحددها ثوابتٌ من النجوم". (1)

وهذه المنازل ثمانية وعشرون منزلاً بعدد الليالي التي يرى فيها القمر، وهي منازل القمر. ولَمَّا كان القمرُ في جريهِ السنويِّ مع الأرضِ حول الشمسِ يمرُّ عبر البروج التي تمر بها الأرضُ في كل سنة، فإنَّ كُلَّ منزلٍ من منازل القمرِ اليوميةِ يحتلُّ مساحةً في برجٍ منها. (2)

وللقمرِ مكانٌ نفسانيٌّ ووجدانيٌّ لدى البشر. وخاصةً عند الذين يقطنون المناطق الحارَّةَ والمعتدلةَ، لا سيما في السُّهوب، والسهول، والقرى، وفي البادية، وأطرافها، فهو يثير من الشجنِ والمَواجيدِ ما ترقُّ به القلوب، وتَسْتَأْنَسُ به النفوس. ومن هنا يترقبُ الناسُ طلوعه، فكأنَّ بُدُوهُ في سُمُوتِهِ نزولٌ في منازلٍ تحاكي ما على الأرضِ من منازلِ الناسِ الذين يتطلَّعون إليه بحنين، واشتياق، ودَفْقِ مشاعرٍ سجَّلتها آدابُ العالمِ ودواوينُ الشعراءِ الحالمين بليالي القمر.

(1) من أسرار القرآن، صحيفة الأهرام، عدد: 42273-2 سبتمبر - 2002 م. ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: التقويم الهجري = hijrah calender.
(2) من أسرار القرآن. عدد: 42273.

41 الفصل الرابع: الاسم المبني

أقومُ في هذا المبحثِ باختيارِ أنواعٍ من الاسمِ المبنيِّ ونماذجٍ قرآنيَّةٍ للتحليل، وهي الأمثلةُ التي يتبيَّنُ من خلالِ دراستِها خِصْبُ وِثْرَاءِ القِيمِ والدلالاتِ المتركَزةِ في المضمونِ الفنيِّ للاسمِ المبنيِّ. وكان من الممكنِ أن أُخَصِّصَ مجالاً في هذا الفصلِ لدراسةِ الأسماءِ الجامدة؛ إلا أنني رأيتُ الاقتصارَ على دراسةِ بعضِ أنواعٍ من الأسماءِ المبنيةِ لسببَيْنِ: أولاً: لكونِ الاسمِ المبنيِّ يوصَفُ بالجمودِ عند علماءِ العربية. وذلك من حيثِ ثبوتِ ضبطه، فهو لا يتأثَّرُ بعواملِ الإعرابِ أي بتغيُّرِ موضِعِه في الجملةِ أو السياقِ، ومن حيثِ تركُّزِ دلالتِه وتكثُّفِ فحواه الفنيِّ.

ثانياً: قيامي خلالَ البابِ الثاني من هذه الدراسةِ ببحثِ الدلالةِ الرمزيةِ في نماذجٍ قرآنيَّةٍ عبر فصلٍ خاص. حيث سأعرضُ لبحثِ الاسمِ الجامدِ باعتباره طاقةً رمزيةً إيحائيةً في السياقِ الفنيِّ الجمالي، ولا يتعارضُ هذا مع قوةِ الرمزِ واتساعِ دلالاتِه لكونِ المقصودِ من الجمودِ مسألةً تتعلقُ باشتقاقِ الكلمة، إذ إنَّ الجوامدَ -سواءً كانتْ لِدَوَاتٍ أو لمعانٍ- غيرُ مُشتَقَّةٍ من غيرها؛ بل تُعدُّ من مصادرِ الاشتقاقِ.

141 المبحث الأول: الضمير

الضمير أو الاسم المضمَر: اسمٌ مبنيٌّ أي أنّ له خاصية الجُمود من حيث الدلالة، وعدم الاشتقاق، وعدم كونه مُعرباً. (1)

"الضمير: الاسم الذي يدلُّ على متكلّم، أو مخاطب، أو غائب، مثل: أنا، أنت، هو. وهو نوعٌ من أنواع المعرفة. يقول عنه النحاة: أعرّف المعارف". (2)

والمضمّرات أو الضمائر: موضوعَةٌ للتعبير عن الذوات أو المسميات تعبيراً استغراقياً من حيث انطباق الدلالة: دلالة الضمير على الذات المقصودة ضمناً مُشبهَةً بذلك ما في الأعلام من خاصية التعريف وانطباق الدلالة؛ إلا أنّ الأعلام أدخل في هذا الباب من الضمائر لكون العلم يُعَيّن المُسمّى بلا قيد أي قيد التكلّم أو الخطاب في حين أنّ الضمائر مقيّدة، وهي أعرّف من الأعلام بالمطلق، وبعضها أعرّف من بعض. (3)

دَوْران الضمائر في الحوارات القصصية أمرٌ تفرضه الطبيعة الخاصة للحوار، ويأتي دور التوظيف الفني للضمائر مُسهماً في حركة توزيعها وتنوع استخدامها بين شخصيات القصة أو أبطالها المتحاورين بحيث يؤدي التكرار، والتقديم، والتأخير، وغيرها إلى حشد الدلالات المعنوية ودعم السياق الخاص للضمائر في العمل الإبداعي الروائي. (4)

(1) ن: النحو الوافي، 217/1. يقول د. عباس حسن عن سبب نعت الضمائر بالجمود: "قلعدم وجود أصل له، ولا مُشتقات. وبعض الألفاظ المشتقة قد تدلّ بنفسها، وبصيغتها مباشرة على ما يدلُّ عليه الضمير مع أنّها لا تُسمّى ضميراً لعدم جمودها ككلمة: (متكلّم)، فإنّها تدلُّ على التكلّم"، السابق، 218/1. ويذكر أنّ من العلماء من يسمي الضمير بالكناية أو المُكْنِي. ن: السابق والصفحة.

(2) الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الضمير = Pronoun.

(3) ن: شرح ابن عقيل، 219/1، والنحو الوافي، 268/1.

(4) ن: «فورد مادوكس فورد والحداثة، لطيفة الزيات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996، ص: 188، وخطاب الحكاية، جيرار جينيت، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ص: 109.

أمَّا الحوارُ في القصةِ القرآنيةِ، فله خصوصياتٌ تفرقُ به -على مستوى الوصفِ التحليلي- عن العملِ الروائيِّ الأدبيِّ، وهو ما يَضْبُطُ مستوياتِ التحليلِ بمراعاةِ التناظرِ والتباينِ على المستويين: مستوى النصِّ القرآنيِّ، ومستوى الإبداعِ الروائيِّ.

1411 من نارِ الصحراءِ إلى نُورِ الرسالة

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى لِإِنِّي لِنُورِكَ مِنَ الْآيَاتِنَا الْكُبْرَى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالََا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا

رَسُولًا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ
اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ
رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى: (1)

كان مُسْتَهْلٌ سورة (طه) نصًّا في تسليّة قلبِ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِإِدْمَاجِ
نَفِي الْحَرْجِ وَإِرَادَةِ الشَّقَاءِ لَهُ فِي مَعْرِضِ التَّنْوِيهِ بِمَنَّةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مَعَ كَوْنِ الْقُرْآنِ هَادِيًا
بِتَذْكِيرِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ، وَهُوَ مَا يَتَفَرَّغُ عَنْهُ فَهَمُّ مَعْنَى التَّفَضُّلِ مِنَ لَدُنِ اللهِ -تَعَالَى- عَلَى
عِبَادِهِ بِذَلِكَ. وَسَلَكْتُ السُّورَةَ هَذَا الْمَسْلَكَ مِنْ تَمَّ بِذِكْرِ نِعَمِ الْخَلْقِ، وَالرَّحْمَةِ، وَإِحَاطَةِ الْعِلْمِ
الْإِلَهِيِّ تَرْفُّقًا وَعِنَايَةً. وَهَذَا بِمِثَابَةِ التَّوَطُّئِ لَخَبْرِ قِصَّةِ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مُفَضَّلَةً فِي
السُّورَةِ بِحَيْثُ غَلَبَتْ عَلَى أَكْثَرِ آيَاتِهَا، فَهَذَا الرَّسُولُ مِنْ أَوْلِي الْعِزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ صَبَرُوا
لَأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، فَكَانَ ذَلِكَ لِنَبِيِّ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُورَدَ تَهْيِئَةٍ لِأَسْبَابِ تَأْسِيهِ
وَتَحْمُلِهِ بِأَمَانَةِ الرِّسَالَةِ صَابِرًا، مُحْتَسِبًا، مُسْتَرْوِحًا بِتِلَاوَةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ.

وكان ابتداءً ذلك بسوقِ (هل) الاستفهامية في مُبْتَدَأِ الْقِصَّةِ، وَهُوَ مَا يُشْعُرُ
بِالْمَلَاظِفَةِ فِي خُطَابِ اللهِ -تَعَالَى- إِيَّاهُ مَعَ إِثَارِ لَفْظَةِ: (حَدِيث) لِلْجَمْعِ بَيْنَ مَعْنَى
الْإِخْبَارِ وَمَعْنَى التَّرْسُلِ الْأَنْيَقِ فِي مُبْتَدَأِ سَوْقِ الْقِصَّةِ.

يلوح في هذا المشهد من الآياتِ موسى -عليه السلام- سائرًا ليلًا بأهله بأرض
سِينَاءَ حَيْثُ يَبْلُغُ شَاطِئَ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبَقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ بِسَفْحِ جَبَلِ الطُّورِ
فِي جِهَةِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ مِنْهُ فِي لَيْلَةٍ شَاتِيَّةٍ ذَاتِ جَلِيدٍ، وَقَدْ ضَلَّتْ مَاشِيَّتُهُ فِي الصَّحْرَاءِ
يَبْحَثُ عَنْ نَارٍ يَكْتَنِفُهَا مَعَ زَوْجِهِ وَوَلَدِهِ طَلَبًا لِلدِّفءِ، وَكَانَ يُحِبُّ السَّيْرَ لَيْلًا، وَهُوَ مَا يُفْهَمُ
مِنْ آيَةِ الْقَصَصِ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. (2) وَهَذَا السَّيْرُ كَانَ بَعْدَ قُفُولِهِ مِنْ أَرْضِ
مَدْيَنَ حَيْثُ تَرَكَ بِهَا صَهْرَهُ نَبِيَّ اللهِ شُعَيْبًا. وَقَدْ أَتَمَّ مُوسَى سِنِي الْعَهْدِ أَوْ حِجَجِ الْحَقْبَةِ
الَّتِي عَاهَدَ عَلَيْهَا نَبِيُّ اللهِ شُعَيْبًا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ

(1) طه، 9-50.

(2) الآية: 21.

هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَيَبْنِكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١﴾.

وقد اختاره شعيبٌ للعملِ في الرعي ونحوه مهراً لإحدى ابنتيه التي بنى على توسمها في موسى الورع والأمانة اختياره له بعد سؤوقها - في سياق التعليل إثباتاً للحكم بالدليل - لكلمة جامعة مرسله مثلاً ينطبق على واقع الناس، ولا تتخلف مطابقتها للحقيقة مع ما فيه من العموم المفيد لصلاحية انطباقه على الأفراد المتناظرين.

"فَكَانَتْ الْجُمْلَةُ: "إِنَّ حَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ" * مُشْتَمَلَةً عَلَى خُصُوصِيَّةِ تَقْدِيمِ الْأَهَمِّ، وَعَلَى إِجْازِ الْحَذْفِ، وَعَلَى الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ. * وَبِذَلِكَ اسْتَوْفَتْ غَايَةَ مُفْتَضَى الْحَالِ، فَكَانَتْ بِالْغَايَةِ حَدَّ الْإِعْجَازِ. وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: [أَشْكُو إِلَى اللَّهِ ضَعْفَ الْأَمِينِ وَخِيَانَةَ الْقَوِيَّ] * (2) يُرِيدُ: أَسْأَلُهُ أَنْ يُؤَيِّدَنِي بِقَوِيٍّ أَمِينٍ أَسْتَعِينُ بِهِ". (3)

والإيناس ما تذهب به وحشة القلب بوقوع البصر على مرئي من المرئيات، أو بسماع صوت تسكن به الخواطر، كما قال الحارث بن حلزة:

أَنْسَتْ نَبَأَهُ وَأَفْرَعَهَا الْقَدَّ اصْ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ (4)

"والإيناس: خلاف الإيحاش، وكذلك التأنيس، والأنس، والأنس، والإانس:

(1) القَصص، 27-28.

(2) ن: تفسير الكشاف، 403/3.

(3) ت ت ت، 106/20. * القَصص، 26. * والمذهب الكلامي: احتجاج المتكلم لإثبات قوله بحجة ثقل سلاح الخصم في المحاوره، وتقطع بينته على طريقة علماء الكلام؛ لأن علم الكلام إثبات أصول الدين بحجج عقلية وبراهين قاطعة، كما في الأعراف 40: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، وفي الأنبياء 22: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. ن: إعراب القرآن وبيانه، 350/3، والإيضاح في علوم البلاغة، ص: 341.

(3) ن: تفسير الكشاف، 403/3.

(4) ديوان الحارث بن حلزة، ت: مروان عطية، دار النووي، 1994، ص: 67. "والنَّبَأُ: النَّشْرُ، وَالنَّبِيُّ: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وَالنَّبَأَةُ: صَوْتُ الْكِلَابِ. وَقِيلَ: هِيَ الْجَرْسُ أَيًّا كَانَ"، لسان العرب، مادة: (نبا)، 162/1.

الطمأنينة...والعرب تقول: آئس من حُمى، يريدون أنها لا تكاد تفارق العليل...وفي بعض الكلام: إذا جاء الليل، استأنس كلٌ وحشي، واستوحش كلٌ إنسي. قال العجاج:

وَبَلَدَةٍ لَيْسَ بِهَا طُورِيٌّ وَلَا خَلاَ الْجِنِّ بِهَا إِنْسِيٌّ
تَلْقَى وَبُنُسَ الْأَنْسِ الْجِنِّيِّ

دَوِّيَّةٌ لِهَوْلِهَا دَوِيٌّ لِلرَّيْحِ فِي أَقْرَابِهَا هُوِيٌّ * (1)

وَالْقَبَسُ: الشعلة من النار، وكالجمرة من مجموع الجمر، والفتيلة، ونحو ذلك. والقابس طالب النار. وهذا يقتضي أنه -عليه السلام- كان في ظلمة، ولم يجد ما يقتدح به. قيل: اقتدح زنده، فصلد (2) أي لم يقدح. ومعنى «أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى»: أو أستدل على الطريق بأن أجد علامة، أو أهل بيت، أو سالكا يسلك ما أسلك، فأهتدي بهداه. وجريان لفظة الهدى على لسان موسى -عليه السلام- مشعر بما هو مقبل عليه من أمر الرسالة والوحي. والنار في ظلمة الليل رمز لطيف وإشارة خفية إلى النور الذي يبتدئ بكلام الله لموسى، ويسترسل بالوحي وتلقي الألواح. وظلمة تلك الصحراء إشارة إلى الضلال الذي يكتنف مملكة فرعون في تلك الآونة من تاريخ مصر.

يرد مشهد رحلة موسى -عليه السلام- في الليلة التي ابتداء فيها أمر تبليغه برسالته إلى المصريين في سورة (طه) التي تفصل فيها قصته ابتداءً من آيات المناجاة من (12) إلى (48) في حين يقتصر مشهد المناجاة في نظيرتها في عرض قصة جبل الطور أي سورة القصص على الآيات (302) إلى (34).

(1) السابق، مادة: (أنس)، 10/6 * ديوان العجاج، رواية وشرح الأصمعي، ت: سعدي ضناوي، دار صادر، 1997، ص: 253، ن: خزائن الأدب، 294/3. الطوري: الوحشي. والدوية: بعيدة الأطراف أو المفازة. ن: لسان العرب، مادة: (طور - دوي)، 276/14-504/4، والدوي: -هنا- الصوت كعزيف الجن أو نحوه، ن: السابق في الموضعين، والأقرب: طلب الماء ليلاً، أو هو السير ليلاً، ن: تاج العروس، مادة: (قرب)، 11/4. وجمعه الراجر تحصيلاً للمعاني.

(2) ن: ثباب التأويل لعلاء الدين الخازن، دار الفكر، 1979، 264/4.

وتستأثر قصته بالنصيب الأوفى من آيات (طه): من (9) إلى (98). وتقع المناجاة بين الله -تعالى- وبين نبيه في مبتدأ القصة، وهي زاخرة بسلسلة من الضمائر العائدة على الذات الإلهية توسعاً في تعميق معنى الاصطفاء وتهيئة المخاطب المنادى بالرسالة مع إظهار الرعاية له وتذكيره بمن الله عليه.

جرت تهيئة الخطاب بتوظيف الضمير المتصل: أَلِفِ الاثْنَيْنِ - في الآيات المتقدمة مع التوسع في ذلك بالمقارنة مع خبر هذه القصة في الشعراء والقصاص بناءً على مناجاة موسى ربه، وطلبه، وتضرعه في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾. واستجابة الله له تعضيداً له، ورحمةً به، وامتناناً عليه بعد عظيم منة تكليمه وموانسة وحشته في ليل سيناء الذي رأى في ظلمته نارا اهتدى إليها بها، فكانت رمزا ربانيا للنور الذي أفاضه الله -تعالى- عليه بالاصطفاء والرسالة. وقد تلائم مع ذلك تذكيره بعناية الله به من حين كان رضيعاً، إذ ألهمت أمه اللقاء في اليم مخافة أن يستدل عليه جنود فرعون، فما زالت رعاية الله تحذوه حتى التقطه آل طاغية مصر، فربته امرأة فرعون في قصره -وهو عدوه- كأحسن ما تكون التربية مع رده إلى أمه لترضعه في كنف من اتخذته قرّة عين لها وولداً تحنو عليه: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

وخص أخاه هارون -فهو ثاني اثنين- لفرط ثقته به؛ ولفصاحته؛ وحصافته؛ فالمصلحة تقتضي نصح هارون لأخيه، ولا ريب أنه معروف لديه بأصالة الرأي، ورجاحة العقل، وسلامة المنطق

والأزر: أصله الظُّهر. ولَمَّا كَانَ الظُّهُرُ مَجْمَعُ حَرَكَةِ الجِسْمِ، وَقُوَّتِهِ، وَالأَصْلُ فِي اسْتِقَامَتِهِ، أُطْلِقَ عَلَى القُوَّةِ إِطْلَاقًا مألُوفًا يَعَادِلُ الحَقِيقَةَ. وَقَدْ اشْتَدَّ عَلَى موسى -عَلَيْهِ السَّلَام- أَنْ يَقْصِدَ إِلَى مَلِكِ جَبَّارٍ فِي الأَرْضِ تَدْرَعُ إِلَى اسْتِنصَالِ شَعْبٍ لِرُؤْيَا رَأَاهَا. وَهَذَا الشَّعْبُ هُوَ أَهْلُ هَذَا النُّبِيِّ المُرْسَلِ المَطْلُوبِ لِهَذَا الطَّاعِيَةِ لِقَتْلِهِ رَجُلًا مِنْ رَعَايَاهُ القِبْطِ. وَعَلَى ذَلِكَ فَهُوَ أعْظَمُ مُلُوكِ الأَرْضِ قُوَّةً وَقِتْهَا قَدْ أعْظَمَ الفَرِيَّةَ عَلَى اللّهِ، وَاجْتَرَأَ عَلَيْهِ فِي حِينِ اكْتِسَابِ موسى كَمَا لَمْ فِي النَفْسِ مِنْ أَحْوَالِ ابْتِلَايَ بِهَا مِنْهَا الغَرْبَةُ عَنْ وَطَنِه، فَأُكْرِمَ بِمَجَاوِرَةِ نَبِيِّ فِي مَدِينٍ أَصْهَرَ إِلَيْهِ، وَارْتَاضَ فِي حَضْرَتِهِ بِتَهْذِيبِ وَرُومٍ لِلتَّأْسِيِ وَالتَّادِبِ، وَلَبِثَ فِي جَوَارِهِ عَشْرَ سَنِينَ أُعِدَّ فِيهَا لِاسْتِقْبَالِ الرِّسَالَةِ وَحَمْلِ الأَمَانَةِ، فَلَمَّا طَالَ بُعْدُهُ وَاغْتِرَابُهُ، رَأَى أَنْ يُقْفَلَ بِأَهْلِهِ إِلَى مَسْقَطِ رَأْسِهِ، وَاحْتَاجَ إِلَى مَنْ يُؤَاوِرُهُ بَعْدَ مَا حُمِلَهُ مِنْ الأَمَانَةِ، وَوَقَرَ فِي صَدْرِهِ وَجَاشَتْ فِي نَفْسِهِ خَوَاطِرُ مُتَلَجِّجَةٍ، وَخَشِيَ مِنْ انْعِقَادِ لِسَانِهِ فِي مَخَاطِبَةِ مَنْ كَانَ رَبِيئَهُ، فَصَارَ مَطْلُوبُهُ وَعَدُوُّ نَفْسِهِ. وَكَانَ اللِّقَاءُ بَعْدَ خُرُوجِ هَارُونَ مِنْ جَاسَانَ حَيْثُ مَنَازِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ قُزْبِ طَيْبَةَ، فَالْتَقِيَ فِي البَرِيَّةِ فِي جَبَلِ اللّهِ: حُورَيْبٍ، كَمَا وَرَدَ فِي العَهْدِ القَدِيمِ مِنَ الإِضْحَاحِ الرَّابِعِ مِنْ سِفْرِ الخُرُوجِ. (1)

وَتَنَوَّعَ الخَطَابُ لِلأَخْوِينِ الرِّسُولِيْنَ بَيْنَ أَمْرٍ وَنَهْيٍ، وَمَوْعِظَةٍ وَشِدِّ لِلأَزْرِ، وَتَلَطَّفَ وَوَعَدَ بِالمَعِيَةِ. وَالحِكْمَةُ مِنْ اخْتِيَارِ رَسُولِيْنَ فِي هَذِهِ المَهْمَةِ -وهي المَثُولُ بَيْنَ يَدَيْ فِرْعَوْنَ وَدَعْوَتُهُ إِلَى الإِيمَانِ وَالكُفِّ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ- تَنَصَّلُ بِهَوْلِ المَوْقِفِ لِعِظَمِ طَغْيَانِ هَذَا المَتَجَبِّرِ المَتَأَلِّهِ؛ وَلِعِدَاوَتِهِ لِلعِبْرَانِيِّينَ، وَلِبَيْتِ بَنِي عِمْرَانَ مِنْهُمْ عَلَى الخُصُوصِ. وَلشِدَّةِ مِرَاسِ شَعْبِهِمَا. وَلِلأَيَّامِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي سَتُظْهِرُ مَعَانَاةَ سِيَاسَةِ أُمَّةٍ تَوَالَتْ عَلَيْهَا عَهُودُ السَّخْرَةِ، وَتَفَاقَمَتْ فِي أَكْثَرِ أَفْرَادِهَا أَسْوَأَ الطَّبَاعِ، وَأَوْهَنُ الأَخْلَاقِ، وَسَلُوكِيَّاتٍ تَوَارَثُوهَا عِبْرَ أَجْيَالِ الاسْتِعْبَادِ وَالاسْتِبْدَادِ- كَانَ أَعُونَ لَهُ أَنْ يُشَدَّ أَرْزُهُ بِمَنْ يَخْتَارُهُ مُشِيرًا وَوَزِيرًا، إِذْ قَدْ يَتَزَامَنُ إِرسَالُ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ. وَمَنْ سُنَّه -تَعَالَى- فِي ذَلِكَ أَنْ يُرْسَلَ مَعَ الرِّسُولِ رَسُولًا يُؤَيِّدُهُ،

(1) ن: موسوعة الكتاب المقدس، عدد: 27، 126/1.

ويُعيّنه على بعض أمره، كما هنا، وكما أرسل لوطٌ وهو ابن أخي الخليل إبراهيم عليهما السلام - إلى سدوم وعمورى،⁽¹⁾ فكفاهُ بذلك ناحيةً عظيمةً فيها الشرك والجرأة على

المعاصي، وهي من أرض فلسطين. وقد أنبأ الملائكة الخليل بنياً من أمرهم:

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾.⁽²⁾ أو

يكون ذلك بمؤازرة حوارٍ أو صاحبٍ يتقدّم غيره، ويُفضّل سواه من الرهط والأصحاب،

كما في قوله عزّ وجل: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ

هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.⁽³⁾

وكان في موسى -عليه السلام- شدةٌ وحزمٌ قابلهما لينٌ ورفقةٌ في هارون، وهو ما

تكتل به الدعوة والرسالات من تأزير الأساليب في سياسة الأمم المقصودة بالدعوة.

يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾،⁽⁴⁾ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى

قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ

بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾،⁽⁵⁾ فقد استضعفوه، وكادوا يقتلونه

لما غاب عنهم مع موسى في رحلته إلى الطور من شدته التي يهابونها. ومن قبل لم

يقدروا أن يتجرؤوا على مخالفته حين قالوا له: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ

إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.⁽⁶⁾

(1) ن: ص: 269 من هذه الدراسة.

(2) الحجر، 51-58.

(3) التوبة، 40.

(4) طه، 86.

(5) الأعراف، 150.

(6) السابق، 138.

وفي الحوارِ بينهما يُفهمُ استشْفَاعُ هَارُونَ لِأَخِيهِ وَاسْتِرْقَافُهُ لَهُ فِي نِدَائِهِ بِأَمِّهِمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾. (1) وترخيم (2) (أم) داخلٌ في هذا. وهو قيمةٌ معنويةٌ تفيدُ العمومَ ليشملَ ذلكَ الأمّهاتِ كأمِّ الأمِّ، وأمِّ الأبِّ، وغيرهما.

ولكِّلَ مَنْزَعٌ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّنَشِئَةِ مَضَى بِهِ إِلَى الْغَايَةِ. (3)

ويظهرُ ضميرُ التَّكْلَمِ بصيغةِ الإفرادِ في آياتٍ من (طه) من: (12) إلى (48) في العباراتِ التالية: (إِنِّي - أَنَا اللَّهُ - وَأَنَا اخْتَرْتُكَ - إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ - إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي - لِيُذَكِّرِي - أَكَادُ أَخْفِيهَا) مع ملاحظةِ استتارِ ضميرِ المتكلمِ في الفعلين: أكادُ - أخفيها.

ويزدُ الضميرُ بصيغةِ الجمعِ المقصودِ بهِ التَّعْظِيمُ فِي: (سَنُعِيدُهَا - لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا - مَنًّا - أَوْحَيْنَا). وتعودُ صيغةُ الإفرادِ فِي: (لِي - وَالْقَيْثُ - عَيْنِي)، ثُمَّ صيغةُ التَّعْظِيمِ فِي: (فَرَجَعْنَاكَ - فَتَجَبَّنَاكَ - جئتُ: والتقديرُ: جئنا، أو جئتُ إينا)، (4) ثُمَّ الإفرادُ فِي: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي - بِآيَاتِي - ذِكْرِي - إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَارَى).

ومجموعُ المواضعِ واحدٌ وثلاثون موضعًا، وهي التي وردت فيها ضمائرُ التَّكْلَمِ. وَيُلْحَظُ أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي يَتعمَّقُ فِيهَا مَعْنَى الْإِيْناسِ، وَالقربِ، وَالْحُنُوِّ عَلَى مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - هِيَ الَّتِي تَشتمَلُ عَلَى ضَميرِ المتكلمِ المفردِ، وَأَنَّ مَعْنَى القُدرةِ، والقُوَّةِ، والمنعَةِ، والامْتِنانِ يَظْهَرُ فِي آيَاتِ صيغةِ التَّعْظِيمِ. وذلك جليُّ الدلالةِ بالاستقراءِ.

(1) طه، 94.

(2) الترخيمُ التسهيلُ والتلين. وصوتُ رَخِيمٍ أَي سَهْلٌ لَيِّنٌ. وَحَدُّهُ: حَذْفُ بَعْضِ الْكَلِمَةِ عَلَى وَجْهِ مَخْصُوصٍ، وَهُوَ تَرْخِيمُ النِّداءِ، وَتَرْخِيمُ الضَّرُورَةِ، وَتَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ. ن: إعراب القرآن وبيانه، 108/9.

(3) تقدَّم ذِكْرُ هَارُونَ عَلَى ذِكْرِ مُوسَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - عَلَى لِسَانِ السَّحْرَةِ: ﴿قَالَ فَي السَّحْرَةَ سَجَدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، (طه، 70)، لِيَتَّبِعَنَّ لِفِرْعَوْنَ عِظْمَ إِيمَانِهِمْ، فَإِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ لِإِيمَانِهِمْ بِمُوسَى، فَإِنَّ تَقْدِيمَهُمْ لِهَارُونَ الَّذِي هُوَ أَهْوَنُ شَأْنًا لَدَى فِرْعَوْنَ هُوَ أَعْظَمُ اسْتَفْزَازًا لِلْمَلَأِ وَمُثَبِّتٌ لِكَمَالِ إِيمَانِ السَّحْرَةِ. حَوْلَ بِلَاغَةِ الْفَاصِلَةِ فِي الْقُرْآنِ، ن: التُّكَّتُ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ لِلرِّمَانِيِّ، ت: مُحَمَّدٌ خَلْفَ اللَّهِ - مُحَمَّدٌ زَغُولُ سَلَامٍ، دَارُ الْمَعَارِفِ، 1976، ص: 97، وَالتَّنَاسُبُ الْبَيَانِيُّ فِي الْقُرْآنِ، أَحْمَدُ أَبُو زَيْدٍ، ر، ص: 351.

(4) حَوْلَ مِثْلِ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ، ن: التَّأْوِيلُ النَّحْوِيُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، عَبْدِ الْفَتَّاحِ الْحَمُوزِ، مَكْتَبَةُ الرِّشْدِ، 1984، 1177/2.

تسهم الضمائر المنفصلة، والمتصلة، والمستتره في المواضع العشرة من (12) إلى (15) من السورة في تقوية معنى التجلي الإلهي من خلال كلامه -تعالى- لموسى عليه السلام. وكان لازماً أن تتعدّد الضمائر -وعلى الأخصّ الضمير المنفصل: (أنا)- تحقيقاً لمعنى عظمة المتكلم المتجلي بكلامه لنبيه الكريم أو إظهاراً للقرب والحنو المقصودين في هذا المقام. وفي هذا تهيئة لقلب موسى كي يتلقى من وحي ربه وكلامه.

وقد وردَ مشهدٌ آخرٌ للتجلي وردت فيه ضمائر ظاهرة مُتَّصِلَةٌ ومُنْفَصِلَةٌ، ومستتره في ستة وعشرين موضعاً في آية واحدة: هي آية التّجلي، وتتوّعت في عودها إليه تعالى، وإلى موسى عليه السلام، وإلى جبل الطور لصياغة مشهدٍ يُعبّر عن عظمة الذات المتجلية مع كثافة في الدلالات، والخواطر، وتسارع تفاصيل الحدث العظيم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَاكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. (1)

تُحقّق ضمائر التّكلم في الآيات حضوراً واتصالاً، وتُحقّق دلالات خاصة تدعّم طبيعة المعنى العام وتأثيرات الخطاب المعتمد عليها إجمالاً من حيث توزع الضمائر وتنوعها. ومن جهة تركّزها في مطلع القصة مثلاً، وعدم ذلك في أنحاء أخرى من القصة. ولا شك أنّ الغاية الأساسية من تكوين شبكة الضمائر في هذا المشهد هو إحداث تكثيف للدلالات النفسانية التي تبني ثقة موسى -عليه السلام- فيما يسمع، وتشرع في إحداث لحظة الشعور الإيماني الذي يزداد قوة وتمكناً بتصاعد نبرة الاستدناء والمصافاة الإلهية: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

وملاحظة المعاني التي ترتبط بها ضمائر التّكلم الإلهي -وهي النداء، والتقدیس، والاختيار، والتوحيد، والإخبار عن أمر الساعة، وتبعية موسى لربه بالبراءة من عدوهما:

(1) الأعراف، 143.

﴿عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾، واصطناعه لنفسه، والمحبة، وصنعه على عينه، والمتابعة، والكلالة: ﴿أَسْمِعْ وَأَرَى﴾ - أمور تُسْفِرُ عن خيطٍ يمتدُّ ليربط عناصر الأحداث المُصاحبة لزمان الرسالة حتى خروج موسى من مصر، فالرَبُّطُ جارٍ بين دخول حاضرة القبط والخروج منها للمرة الثانية.

وقد تخلَّلَ هذه المناجاة من الترويح على موسى، وتأنيسه، وإشعاره بأمان نفسه في مواضع منها قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَاي﴾، وقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَا مُوسَى﴾. وفي هذا الموضع الأخير تذكير لموسى بفترة ابتلاءٍ وغربةٍ كان ابتداؤها الأشدَّ عليه، فنجَّاه اللهُ من ذلك، إذ هيأَ له سبيلَ الخروجِ إلى أرضِ مَدْيَنَ.

"وَذَكَرُ الْفُتُونِ بَيْنَ تَعْدَادِ الْمَنِّ إِذْ مَآحُ لِلْإِعْلَامِ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُهْمَلْ دَمَ الْقَبْطِيِّ الَّذِي قَتَلَهُ مُوسَى، فَإِنَّهُ نَفْسٌ مَعْصُومَةٌ الدَّمِ، إِذْ لَمْ يَحْصُلْ مَا يُوجِبُ قَتْلَهُ؛ لِأَنََّّهُمْ لَمْ تَرِدْ إِلَيْهِمْ دَعْوَةُ إِلَهِيَّةٍ حِينِيذٍ. فَحِينَ أَنْجَى اللَّهُ مُوسَى مِنَ الْمُوَاخَذَةِ بِدَمِهِ فِي شَرْعِ فِرْعَوْنَ ابْتَلَى مُوسَى بِالْخَوْفِ وَالْغُرْبَةِ عِتَابًا لَهُ عَلَى إِفْدَامِهِ عَلَى قَتْلِ النَّفْسِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنَّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾.* وَعِبَادُ اللَّهِ الَّذِينَ أَرَادَ بِهِمْ خَيْرًا، وَرَعَاهُمْ بِعِنَايَتِهِ يَجْعَلُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ حَالَةٍ كَمَا لَا يَكْسِبُونَهُ". (1)

(1) ت ت ت، 221/16 * القَصَص، 15-16.

1241 سُمُو وَحِي السَّمَاءِ

11241 ذَلِكَ الْكِتَابِ

يرد اسم الإشارة: (ذلك) في صدر الآية: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾،⁽¹⁾ في مُفْتَتِحِ السُّورَةِ فِي إِثْرِ الْأَحْرَفِ الْمُقْطَعَةِ بِالإِشَارَةِ إِلَى الْكِتَابِ الْعَزِيزِ - بِجَمَلَتِهِ - فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَوْ إِشَارَةً إِلَى مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ نَزُولُهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ الْمُبَارَكَةِ، فَالإِشَارَةُ إِجْمَالِيَّةٌ أَي إِلَى مُجْمَلِ الْقُرْآنِ الَّذِي نَزَلَ فِي تِلْكَ الْآوَنَةِ، فَعَرَفَهُ أَهْلُ الشَّرْكَ وَاللَّجَاجَةِ جِنْسًا مِنَ الْكَلَامِ لَمْ يَعْهَدُوهُ حَتَّى تَحَيَّرُوا فِي وَصْفِهِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهِ. وَالإِشَارَةُ تَفْصِيلِيَّةٌ إِلَى مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَا لَمْ يَنْزَلْ. وَذَلِكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّ الْمَخَاطَبَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ اسْتِقْصَاءً دُونَ رَيْبٍ، وَلَا مَوَارِبَةً.⁽²⁾

"وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الإِشَارَةُ إِلَى جَمِيعِ الْقُرْآنِ مَا نَزَلَ مِنْهُ، وَمَا سَيُنزَلُ؛ لِأَنَّ نَزُولَهُ مُتَرَقِّبٌ، فَهُوَ حَاضِرٌ فِي الْأَذْهَانِ، فَشِبْهُ بِالْحَاضِرِ فِي الْعِيَانِ، فَالتَّعْرِيفُ فِيهِ لِلْعَهْدِ التَّقْدِيرِيِّ، وَالإِشَارَةُ إِلَيْهِ لِلْحُضُورِ التَّقْدِيرِيِّ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: (الْكِتَابِ) حِينَئِذٍ بَدَلًا أَوْ بَيَانًا مِنْ ذَلِكَ... وَيَجُوزُ الإِثْبَاتُ فِي مِثْلِ هَذَا بِاسْمِ الإِشَارَةِ الْمَوْضُوعِ لِلْقَرِيبِ وَالْمَوْضُوعِ لِلْبَعِيدِ.⁽³⁾

قال الرضوي: "وُضِعَ اسْمُ الإِشَارَةِ لِلْحُضُورِ وَالْقَرِيبِ؛ لِأَنَّهُ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ حِسًّا، ثُمَّ يَصِحُّ أَنْ يُشَارَ بِهِ إِلَى الْعَائِبِ، فَيَصِحُّ الإِثْبَاتُ بِلَفْظِ الْبُعْدِ؛ لِأَنَّ الْمَحْكِيَّ عَنْهُ غَائِبٌ. وَيَقُولُ أَنْ يُذَكَّرَ بِلَفْظِ الْحَاضِرِ الْقَرِيبِ، فَتَقُولُ: جَاءَنِي رَجُلٌ، فَقُلْتُ لِدَلِكِ الرَّجُلِ، وَقُلْتُ لِهَذَا الرَّجُلِ. وَكَذَا يَجُوزُ لَكَ فِي الْكَلَامِ الْمَسْمُوعِ عَنْ قَرِيبٍ أَنْ تُشِيرَ إِلَيْهِ بِلَفْظِ الْعَيْبَةِ وَالْبُعْدِ، كَمَا تَقُولُ:

(1) البقرة، 2.

(2) ن: ت ت ت، 219/1.

(3) السابق، 219/1.

وَاللَّهِ، وَذَلِكَ قَسَمٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ زَالَ سَمَاعُهُ، فَصَارَ كَالْغَائِبِ؛ وَلَكِنَّ الْأَغْلَبَ فِي هَذَا
الْإِشَارَةَ بِلَفْظِ الْحُضُورِ، فَتَقُولُ: وَهَذَا قَسَمٌ عَظِيمٌ". (1)

ودعوى الرضيّ في حصر استعمالِ اسمِ الإشارةِ دعوى عريضة، كما يذكُرُ
صاحبُ التحريرِ والتنويرِ الَّذِي يُعَقِّبُ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْأَمْرَ فِي اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ: (هذا-
ذلك) غيرُ منضبط، أو هو غيرُ محصور. اه. (2)

والمزويّ عن ابنِ عباسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ (ذلك) بمعنى: (هذا) في الآية. (3)
وقد روي ذلك -أيضاً- عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ... (4)
ومسوغاتُ العدولِ وإيثارُ استعمالِ على استعمالٍ راجعٍ إلى ما يُسْفِرُ عنه البحثُ
البلاغيّ من نتائجٍ وتصوّرات. وقد يُصَرَّفُ لَفْظُ الْإِشَارَةِ عَنْ مَعْنَاهِ الَّذِي هُوَ لَهُ لِعَارِضٍ مِنْ
عَوَارِضِ النَّظْمِ وَمَسَوِّغٍ مِنْ مَسَوِّغَاتِ الْبَيَانِ الَّتِي بِهَا تَتَحَرَّفُ شَفْرَةُ اللُّغَةِ عَنْ مَسَارِهَا
الدقيق، فتتحوّلُ إلى جهةٍ من القَوْلِ فِيهَا مِنَ الْإِفْصَاحِ وَالْإِشْرَاقِ مَا تُسْفِرُ بِهِ عَنْ مَكْنُونَاتٍ
أعمقٍ ودلالاتٍ أوسع.

ومن أمثلةٍ مجيء اسمِ الإشارةِ: (ذلك) بمعناه المُتَّصِلِ فِي الْبُعْدِ مَعَ دَلَالَةِ الْمَوْقِفِ
على معنى البُعد، أو دَلَالَةِ جَوِّ النِّصِّ، أو جَوْهَرِ الْحَدِيثِ قَوْلُ عَنْتَرَةَ:

شَكَا نَحْرَهَا مِنْ عِقْدِهَا مُنْتَظِمًا فَوَاحِرًا مِنْ ذَلِكَ النَّحْرِ وَالْعِقْدِ (5)

و(ذا) فِي مُسْتَهَلِّ الْبَقْرَةِ اسْمُ إِشَارَةٍ، وَاللَّامُ: كِنَايَةٌ عَنْ مَعْنَى مَخْصُوصٍ جِيءَ بِهِ
لِلدَّلَالَةِ عَلَى بُعْدِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ أَيَّ عَلَى نِبَاهَةِ شَأْنِ الْمُسَمَّى، وَالْكَافُ لِلخَطَابِ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ
هُوَ الْمُسَمَّى، فَقَدْ نُزِّلَ مِنْزَلَةَ الْمَشَاهِدِ بِالْحَسِّ الْبَصْرِيِّ. وَفَحْوَى الْبُعْدِ -مَعَ أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ

(1) ن: شرح كافية ابن الحاجب، 477/2-478.

(2) ن: ت ت ت، 219/1-220.

(3) ن: تنوير المقياس من تفسير ابن عباس، (م)، 3/1.

(4) ن: تفسير القرآن العظيم، 162/1.

(5) ديوان عنتره، ت: حمدو طماس، دار المعرفة، 2004 م، 111/1. الحَرْبُ فِي اللِّسَانِ: بِمَعْنَى الْفَقْدِ وَالْحَرَمَانِ، ن:
لسان العرب، مادة: (حرب)، 302/1. ن: الكلمة والمجهر، أحمد درويش، دار الشروق، 1996، ص: 187.

قريب متوافر، فهو أي الكتاب مثلث متعبّد بتلاوته - إنَّما هو للإيدان بعلو شأنه وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف. (1) فاسم الإشارة في مُسْتَهَلِّ السورة مسوقٌ للدلالة على رفعة هذا الكتاب وعلو مكانته؛ وذلك يُفهم من كون هذا الاسم مَصُوغًا للإيماء إلى البعيد.

ورفعة الشيء وسمو قدره مَظِنَّةٌ للاحتراز من تطاول المجازفين الذين يسعون للنيل منه؛ ولذلك يُحرص على أن يكون عزيز المنال غير مُسْتَسْهَلٍ من أهل الابتدال. ومن سائر القول ومألوف البلاغة تمثيل الأشياء النفيسة بكُلِّ مُرتَفِعٍ مَصُونٍ أو مُستودِعٍ مَكْنُونٍ، وأيضًا الإشارة إليه بنعوته، وبأوصافه، أو بأسمائه المعبّرة عن كُنْهه وحقيقته. (2) وقد تضافرت ألوان من المؤكّدات في هذه الآية مُسْتَهَلِّ السورة لِتَدْعَمَ هذا المعنى الكليّ المُتعلِّق بصدق هذا التنزيل الذي تُعدُّ هذه السورة منه واسطة العُدِّ، (3) إذ أوْشكت أن تتوسّط عُمر الرسالة المباركة التي هي نداء للعالمين: لسائر الأمم وأصحاب الديانات على اختلافهم في ذلك العصر، وفي كلِّ عصر.

وسمو الوحي ناشئ عن كونه كلام العزيز الحكيم، وبكونه حُجَّةً على سائر الخلق، إذ هو برهان التوحيد وموئل اتّعاظ المتّعظين بأوامره ونواهيه، وهو جُماع المنافع وملاك سعادة الدارين، فلا غرّو أن يصاب عن المعارضة بإحكام النظم وإبداعه وعمّا تطاول به أهل القحّة بقولهم وافترائهم الذي عبّر عنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ

(1) ن: تفسير أبي السعود بتصريف، 23/1، وتفسير الكشاف، 74/1-75.

(2) ن: مفاتيح الغيب، 13/2 وما بعدها. وعود الضمير المُنفصل في أول البقرة: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ على الكتاب مُحَمَّلًا بمعنى نفي الرّيب داخل في تمام توكيد المعنى المراد، وهو إثبات ما لهذا الكتاب العظيم من مزيّة التبرؤ عن مغمز الرّيبة أو تُهمّة الاتصاف بأنواع الشكوك والتخرصات المريبة.

(3) ن: البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني، ت: غانم حمد، مركز المخطوطات بالكويت، 1994، ص:

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (1) «فَتَرَاهُ» (2) وبسوى ذلك من مهجور القول
الَّذِي عَبَّرَتْ عَنْهُ غَيْرُ آيَةٍ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ...

وإنما التعويل في أسرار النظم على أن تَحَيَّرَ اللفظ وتَوَحَّى العبارة ينشأن عن إرادة
تمييز الكلام، وإدماج الصنعة، والإبداع فيها، فيتحقق بذلك مستوى من البلاغة، ونسق من
البيان، وقدّر من التفنن تظهر فيه كلُّ لفظة بحسبان، فلا يقوم مقامها غيرها، ولا يسدُّ
مسدّها سواها؛ وإلا كان التفاضل عن نعت البلاغة أحق بالصياغة المنتخاة أو القول
المجتبى.

14212 ذلك من أنباء الغيب:

تعرّض في هذا السياق آيات قد يُشكّل فيها ورود اسم الإشارة، حتى يُظنّ أنّ ذلك لم
يَرِدْ لِمَزِيَّةٍ مِنَ النَّظْمِ مُوجِبَةٍ لِمَسَلِكٍ مِنَ الصِّيَاغَةِ دُونَ غَيْرِهِ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ
مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (3) حيث وردت هذه الآية في مُسْتَهَلِّ قِصَّةِ نَبِيِّ اللَّهِ عِيسَى أَيَّ بَعْدَ
الآيات التي تضمّنت جانباً من قصة زكريا. ولا يخفى ما بين القصتين من صلة، إذ
تقدّمتهما الآيات التي تتحدّث عن آل عمران: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ
عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (4).

وبالنظر إلى هذا الارتباط يظهر لنا أنها تُشبهه أن تكون قصة واحدة لم تسبقها قصة
صريحة لنبيّ آخر في سياق السورة.

(1) الأنعام، 25.

(2) يونس، 38.

(3) آل عمران، 44.

(4) السابق، 33-35.

لقد بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالحنيفية السمحة. وما كان له قَبْلَ ذلك من خبر السماء من نصيب، ولا اطلَع على شيءٍ من أسفارِ الإسرائيليين والنصارى؛ إلا ما توارثته قُرَيْشٌ والعربُ بالمشافهة عن مَلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فقد كان بينه وبين خبر السماء وأنبائها مَدَى قَرَبٍ شَأْوُهُ اللهُ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾،⁽¹⁾ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾،⁽²⁾ فهذه مِنْهُ اللهُ عليه، إذ اصطفاه، وأوحى إليه، وَخَصَّهُ بِرِسَالَةٍ نَاسِخَةٍ غَيْرِ مَنْسُوخَةٍ، فَنَاسَبَ أَنْ يُذَكَّرَ بهذه النعمة، وَأَنْ يُلَمَّحَ إِلَيْهَا فِي بَعْضِ الْآيَاتِ. وهنا نلاحظُ وَرُودَ لَفْظِ الْإِشَارَةِ (ذلك) في آيةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَوْضُوعِ الْبَحْثِ، وفي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾⁽³⁾

وَرَدَتْ هَاتَانِ الْآيَاتَانِ فِي سِيَاقِ سَرْدِ قِصَةِ زَكَرِيَّا وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَأَوْلَاهُمَا أَتَتْ بَعْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْ إِخْبَارِهِ -تَعَالَى- عَنْ أَمْرِ زَكَرِيَّا. وفي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنْ قِصَةِ مَرْيَمَ وَتَبْتُلُهَا، وَالْأُخْرَى فِي خَاتِمَةِ قِصَةِ الْمَسِيحِ، فَنَاسَبَ أَنْ تَبْتَدِئَ الْآيَاتَانِ بِلَفْظِ الْإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى الْبُعْدِ فِي أَصْلِ مَعْنَاهُ. وَمِنْ ثَمَّ يَتِمُّ الْإِنْتِقَالُ إِلَى مَقَامِ الْقُرْبِ بَعْدَ اجْتِمَاعِ بَعْضِ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ حَيْثُ صُدِّرَتْ إِحْدَى الْآيَاتِ التَّالِيَةِ لِهَذِهِ الْقِصَةِ بِلَفْظِ الْقُرْبِ: (هذا)، وذلك في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.⁽⁴⁾

(1) العنكبوت.

(2) القصص، 44-46.

(3) آل عمران، 58.

(4) السابق، 62.

ومما يؤكِّدُ هذا المعنى مجيءُ هذا اللفظِ في قوله من السورة: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾،⁽¹⁾ فهذه إشارةٌ إلى قُرْبِهِ بمقامِ التبليغِ عنه تعالى، وهي لمحةٌ إلى قُرْبِهِ من مواضع أولئك الَّذِينَ نَاوَوْهُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ، وَهُمْ الَّذِينَ جَرَى خَطَابُهُمْ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَاتِ إِزْمَامًا لَهُمْ بِالْحَقِّ وَتَبْكِيًّا لَهُمْ بِكَشْفِ سِرَائِرِهِمْ: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾،⁽²⁾ فهذا تدرُّجٌ في الخطابِ وَتَنْقُلُ بِالسِّيَاقِ الْبَلِيغِ حَتَّى يَبْلُغَ شَرَفَ الْغَايَةِ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.⁽³⁾

ولم يوازنْ أَهْلُ الشَّرِكِ بِمَكَّةَ بَيْنَ هَذَا الْكِتَابِ الْبَلِيغِ الْمُعْجَزِ الَّذِي قِوَامُهُ حُرُوفُ لُغَتِهِمْ وَأَبْنِيَّةُ كَلَامِهِمْ، وَهُوَ السَّنَامُ مِنْ عَلِيَا الْفَصَاحَةِ وَبِهَاءِ الْأَسَالِيْبِ، وَبَيْنَ رَطَانَاتِ أَسْفَارِ مُحَرَّفَةٍ بِالْعَمْدِ مِنْ مُحَرَّفِيهَا أَوْ مُشَوَّهَةٍ بِسُوءِ التَّرْجُمَةِ، لَوْ تَلَاهَا عَلَيْهِمْ، أَوْ تَلَا بَعْضُ الْبَاطِلِ الْوَارِدِ بِهَا، أَوْ أَلْقَى إِلَيْهِمْ بَعْضُ الْمَدَّعِينَ الدَّاعِينَ إِلَى نِحْلَةِ بَعْضِ الْأَقْوَالِ وَالْعَقَائِدِ، لِازْدِرَاوِ مِنْ تِلْكَ الْأَسْفَارِ الْقَدْرَ الْأَعْظَمِ، أَوْ لَمْ يَعْزَنْ لَهُمْ أَنْ يُطِيلُوا فِي الْإِصْغَاءِ إِلَيْهَا فَضْلًا عَنْ مُتَابَعَةِ الدَّعَاةِ الْمُتَمَحِّلِينَ. وَنَحْوُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ مِنْ حَالٍ مَنْصُوبَةٍ لِلْإِعْتِبَارِ بِمُعْجَزَةِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.⁽⁴⁾

(1) السابق، 68.

(2) السابق، 69.

(3) السابق، 74.

(4) فُصِّلَتْ، 44.

ويُقَابِلُ هذا ما وَرَدَ في الأَنْعَامِ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى الكِتَابِ بلفظِ القُرْبِ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾،⁽¹⁾ فهذا لا يَرِدُ على مُفْتَتِحِ البقرة، فالإِشَارَةُ في الأَنْعَامِ إِلَى كِتَابٍ يَنْزِلُ نَجْوَمًا لا في أَسْفَارٍ مَحْجُوبَةٍ كَكُتُبِ الإِسْرَائِيلِيِّينَ الَّتِي يُضَنُّ بِهَا عَلَى الأَغْيَارِ؛ وَلِذَلِكَ بَكَّتْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾،⁽²⁾ فَتلك الكُتُبُ والأَسْفَارُ تَطَاوَلَتْ عَلَيْهَا القُرُونُ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مَضْنُونٌ بِهَا عَلَى النَّاسِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مَحْجُوبٌ لا يُبَدَّلُ.⁽³⁾ وهذا كِتَابٌ قَرِيبٌ نَزُولُهُ، مَرَعَّبٌ فِي سَمَاعِهِ لِلتَّامُّلِ فِيهِ؛ وَلِلتَّعَاظِ بِأوامِرِهِ وَزَوَاجِرِهِ، فَلَاءَمَ أَنْ يشارَ إِلَيْهِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ الَّذِي للقرب.⁽⁴⁾

"أَيُّ وَقُلْ لَهُم: اللَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُوسَى، وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ. وَالإِشَارَةُ إِلَى الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْمُحَاوَلَةَ فِي شَأْنِهِ مِنَ الدِّعَائِهِمْ نَفِي نَزُولِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمِنْ تَبْكِيَّتِهِمْ بِإِنزَالِ النُّورِ يَجْعَلُ الْقُرْآنَ كَالْحَاضِرِ الْمُشَاهَدِ، فَأَتَى بِاسْمِ الإِشَارَةِ لِزِيَادَةِ تَمْيِيزِهِ تَقْوِيَةً لِحُضُورِهِ فِي الأُذْهَانِ. وَافْتِتَاحُ الكَلَامِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ المُفِيدِ تَمْيِيزَ الكِتَابِ أَكْمَلَ تَمْيِيزَ، وَبِنَاءِ فِعْلِ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى حَبْرِ اسْمِ الإِشَارَةِ - وَهُوَ كِتَابٌ الَّذِي هُوَ عَيْنُهُ فِي المَعْنَى - لِإِفَادَةِ التَّقْوِيَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَهَذَا أَنْزَلْنَاهُ."⁽⁵⁾

(1) الأَنْعَامِ، 92.

(2) السَّابِقِ، 91.

(3) ن: معجم الفرائد القرآنية، باسم البسومي، مركز نون، 2001، ص: 133.

(4) ن: مفتاح العلوم للسكاكي، (م)، 80/1.

(5) ت ت ت، 369/7.

وَمِنْ مُلَاتِمَاتِ قُرْبِ الْإِشَارَةِ تَصْوِيرُ الْآيَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْأَنْعَامِ لِقِرطاسٍ فِيهِ كِتَابٌ لَا يَطْلُبُونَ نَظَرَهُمْ إِلَيْهِ نَاجِزًا عِنْدَهُمْ فَحَسَبَ؛ بَلْ أَرَادُوا أَنْ يَتَهَيَّأَ لَهُمْ أَنْ يَلْمِسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لِارْتِيَابِهِمْ وَرَغْبَتِهِمْ فِي التَّحَقُّقِ مِنْهُ بِلَمْسِهِ وَتَقْلِيْبِهِ.

2241 الْعِصْمَةُ وَالْإِخْلَاصُ

العدولُ باسم الإشارة: (ذلك) عن معناه الأصلي - وهو الإشارة إلى البعيد مع أن المشار إليه قريب - يقع لتفصيلٍ سياقيٍّ بلاغي. ومن نماذج آية يوسف: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. (1)

قُرْبُ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَشُهُودُهُ لِهَذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي هَيَّأَتْ لَهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ فِيْمَا تَقَدَّمَ هَذِهِ الْآيَةِ. وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ إِشَارَةِ النِّسْوَةِ إِلَيْهِ بِلَفْظِ الْقُرْبِ: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْنَهُنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. (2) وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالمَوْصُولِيَةِ: ﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ وَرَدَ لِعَدَمِ عِلْمِ النِّسْوَةِ بِشَيْءٍ مِنْ مَعْرِفَاتِهِ غَيْرِ تِلْكَ الصِّلَةِ. (3)

وَيَدُلُّ لَشُهُودِهِ الْمَوْقِفَ كُلَّهُ تَعْقِيْبُهُ عَلَى وَعِيدِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ إِيَّاهِ بِالسِّجْنِ، أَوْ بِالذُّلِّ وَالصَّغَارِ: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. (4)

وَأَمَّا إِشَارَةُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ إِلَيْهِ بِالْبُعْدِ؛ فَهُوَ لِشُعُورِهَا وَإِدْرَاكِهَا لِتَأْتِيَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَقَدْرٍ إِخْلَاصِهِ، وَلَطْهَرِهِ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ﴾، وَإِدْرَاكِهَا - أَيْضًا - نِقَاءَ سَرِيرَتِهِ، وَبُعْدَهُ عَمَّا

(1) الآية: 32.

(2) يوسف، 31.

(3) ن: ت ت ت، 264/12.

(4) يوسف، 33.

تَوَمَّلْ مع حديثها لنفسها، وَلِخَلَائِلِهَا بِإِمْكَانِ ذَلِكَ تَوَهُّمًا مِنْهَا: ﴿فَاسْتَعَصَمَ﴾: الألف، والسين، والتاء للمبالغة في الفعل مِثْلُ: (استمسك، واستجاب) أَي أَنَّهَا رَأَتْ مِنْ عَفْتِهِ واستقامته ما حملها على أَنْ تَسُوقَ هَذَا التَّعْبِيرَ الَّذِي يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ، أَوْ مَنْ هُمْ مُهَيَّؤُونَ لِتَلْقَى أَنْوَارَ السَّمَاءِ فِي مُسْتَقْبَلِ أَيَّامِهِمْ يُوَوَّبُونَ إِلَى الْمَرْوَةِ أَوْ الْعِصْمَةِ الَّتِي يُودِعُهَا اللَّهُ -تَعَالَى- فِيهِمْ، فَيَنْجُونَ بِإِخْلَاصِهِمْ وَخُلُوصِ نِيَّاتِهِمْ مِنَ الزَّلِيلِ وَالْمَعَاصِي مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ عَلَى دَرَايَةٍ -فِيمَا يَبْدُو- بِشَيْءٍ مِنْ حَقِيقَةِ أَمْرِهِ وَعِرَاقَتِهِ فِي بَيْتٍ مِنْ بِيوتِ الْإِيمَانِ وَالْعِصْمَةِ: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (1) وَالَّذِي حَمَلَهَا عَلَى تَعْظِيمِ قَدْرِهِ فِي الْفَضِيلَةِ، وَرَسُوخِهِ فِي الْمَرْوَةِ، وَاتِّصَافِهِ بِالْبُئْلِ تَوَافُرُ عَوَامِلِ الْمَرَاوِدِ وَتَهْيِئَةِ حَالِ الْغَوَايَةِ. وَيُقَابِلُهُ مَا أَبْدَاهُ مِنْ احْتِسَابٍ وَصَبْرٍ عَلَى الْبَاطِلِ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَوَصَّفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. (2) هَذَا كُلُّهُ حَمَلُهَا عَلَى الْيَأْسِ الْخَفِيِّ مِنَ غَوَايَتِهِ مَعَ إِحْسَاسِهَا بِبُعْدِهِ عَنِ مَطْلُوبِ نَفْسِهَا، فَعَبَّرَتْ عَنِ ذَلِكَ بِالْبُعْدِ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قُرْبِهِ الْمَكَانِيِّ مِنْهَا. وَصَدَّرَ لَفْظَ الْإِشَارَةِ بِغَاءِ الْفَصِيحَةِ، (3) فَكَأَنَّهَا تَقُولُ لِخَلَائِلِهَا مُسْتَوْدَعَاتِ سِرِّهَا: (إِنَّ كُنْتُمْ تَزْعُمْنَ أَنَّ هَذَا مَلَكٌ، فَهُوَ الَّذِي أَتَاكَنَ حَبْرَهُ، فَلَمْتُنَّنِي فِيهِ)، فَتَوَعَّدُهَا إِيَّاهُ هُوَ تَوَعَّدُ الْيَأْسِ. تَقُولُ ذَلِكَ بِمَسْمَعٍ مِنْهُ إِرْهَابًا لَهُ؛ وَلِتَظْهَرَ أَمَامَ نِسْوَةِ الْمَدِينَةِ بِصُورَةِ الْوَائِقَةِ الْمُصِرَّةِ عَلَى الْكَيْدِ، وَالْغَوَايَةِ، وَتَحْقِيقِ الْغَايَةِ الْمُنْشُودَةِ. (4)

(1) السابق، 5.

(2) السابق، 23-24.

(3) ن: هامش: 3- ص: 41 من هذه الدراسة.

(4) للاستزادة ن: تفسير الصنعاني، ت: مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، 1410 هـ، 321/2، وإغاثة اللّهفان، 58/1، وت ت ت، 264/12، والقصاص القرآني - عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دار القلم، 1998، 127/2.

تَصَدَّرَ الموصول⁽¹⁾ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾،⁽²⁾ وَتَعَيَّنَ كَوْنُ السِّيَاقِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ أَيْ بِالموصوف، وهو المتقون: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾،⁽³⁾ فَأُرِدَفَ الإجمالُ بوصفٍ مُفَصَّلٍ يَنْفَسِحُ مَعَهُ المَجَالُ لِمَبْدَأِ الاسْتِطْرَادِ فِي ذِكْرِ أَصْنَافِ النَّاسِ الَّذِينَ تَشَعَّبُوا إِلَى مُؤْمِنِينَ، وَمَشْرِكِينَ، وَأَهْلِ كِتَابٍ، وَمَنَافِقِينَ.⁽⁴⁾

وتعاطفت هذه الصلوات بصفات المتقين الذين شأنهم ومدار صلاح أحوالهم أنهم نظروا في العاقبة، فأثروا النجاة، وصار من نعتهم هذه الخصال التي هي فيهم متجددة مستمرة بقريضة صيغ المضارعة في ثلاث الصلوات المسرودة في الآية.

"وَجَوَزَ صَاحِبُ الكَشَافِ كَوْنَهُ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا مُبْتَدَأً، وَكَوْنَ ﴿أَوْلِيكَ عَلَى هُدًى﴾، * خَبَرَهُ. وَعِنْدِي أَنَّهُ تَجْوِيزٌ لِمَا لَا يَلِيْقُ، إِذِ الإِسْتِئْنَافُ يَفْتَضِي الإِنْتِقَالَ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ، وَهُوَ المُسَمَّى بِالإِقْتِصَابِ. وَإِنَّمَا يَحْسُنُ فِي البَلَاغَةِ إِذَا أَشِيعَ العَرَضُ الأَوَّلُ، وَأُفِيضَ فِيهِ...حَتَّى خِيَفَتْ سَامَةٌ السَّامِعِ. وَذَلِكَ مَوْقِعُ (أَمَّا بَعْدُ)...وَالْأَلَا كَانَ تَقْصِيرًا مِنَ الخَطِيبِ

(1) الموصولات أسماء مُبْهَمَةٌ، جامدة إلا ما وَرَدَ مِنْهَا مُعْرَبًا، عامَّةٌ فِي وَقوعِهَا عَلَى المسمياتِ أَوْ الأَشْيَاءِ، وَيَعْتَرِبُهَا الغموضُ لافْتِقَارِهَا لِمَا بَعْدَهَا: سِوَاءَ أَكَانَ جَمَلَةً، أَوْ شِبْهَهَا، فَهِيَ مَعَارِفٌ بِصِلَاتِهَا. وَحَقُّ الإِعْرَابِ أَنْ يَدُورَ عَلَى الموصولِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ المَقْصُودُ بِالكلامِ. وَإِنَّمَا الصَّلَةُ لِلإيضاحِ. وَدَلِيلُهُ قَوْلُكَ: (جاءني أيُّهُمُ أَكْرَمُهُ، وَرَأَيْتُ أَيُّهُمُ رَجُوتُهُ). ن: شرح الرضي على الكافية، 16/3، والمفصل في صنعة الإعراب، ص: 183، والنحو الوافي، 340/1، وشرح التصريح على التوضيح، 162/1.

(2) البقرة، 3-4.

(3) السابق، 2-3.

(4) ن: ت ت ت، 228/1.

وَالْمُتَكَلِّمِ لَا سِيَّمَا وَأُسْلُوبِ الْكِتَابِ أَوْسَعُ مِنْ أُسْلُوبِ الْخَطَابَةِ؛ لِأَنَّ الْإِطَالََةَ فِي أَغْرَاضِهِ
أَمَكَّنَ". (1)

وقد انطوت الآية على أظهر أمهات الأعمال الروحانية والعبادات البدنية والمالية،
فما اشتملت عليه هذه الجمل الثلاث هو نشر لما انطوى في الموصوف المتقدم:
(المتقين). (2)

وإيراد الموصول في صدر الآية انعقدت به مزية التعريف. والتعريف أفخم في الأداء
وأحرى بسياق الثناء وقيمة الوصف الذي به توالى النعوت الحميدة والخصال القويمة.
والقيمة المعنوية التي هي تصدُر الصلات بأفعال مضارعة تشير إلى استئناف معانيها
حالاً بعد حالٍ وحيناً بعد حين. وهذا التجدد مؤذن بالمداومة مع لزوم الزيادة في الارتقاء؛
لأن ذلك مظنة الحرص على الخير وعلامة التوفيق.

والتصرف في هذا النسق بسوى هذا الانتظام -على سبيل التصور- يؤدي إلى
انفكاك شيء من هذه السمات وتخلُّفها عن معاضدة هذا التركيب البديع، كأن نقول:
(القرآن هدى للمتقين المؤمنين بالغيب المقيمين الصلاة)....

وَرَدَ الفعل: (يؤمنون) في صدر الصلة في معرض الثناء على المتقين المهتدين
بهدي الكتاب العزيز.

جاء في اللسان:

"الأمان والأمانة: بمعنى. وقد أمنتُ، فأنا آمن.... والأمانة ضدُّ الخيانة، والإيمانُ
ضدُّ الكفر، والإيمان بمعنى التصديق... ﴿وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾* (3).

وقد ضَمِنَ الفعلُ (أَمَّنَ) معنى (أَقْرَ): ﴿أَفْتَتَمُّعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾. (4)

(1) السابق، 1/228. * البقرة، 5، * الذي أراه أنه توجد فروق بين الاستئناف، والاقتضاب، وحسن التخلُّص: ن: ص:
44 من هذه الدراسة.

(2) ن: تفسير أبي السعود، 1/29.

(3) مادة: (أمن)، 13/21 * قریش، 4.

(4) البقرة، 75.

وجرى التخصيص بذكر الإيمان بالغيب: لأن الإيمان بما غاب عن الحس هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تُخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي، فإذا آمن به المرء، تصدى لسماع الدعوة والنظر فيما يبلغه عن الله تعالى، فسهل عليه إدراك الأدلة المنصوبة والأمثال المضروبة. وأما من يعتقد أن ليس وراء عالم الماديات شيء، وهو ما وراء الطبيعة، فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وعالم الآخرة، كما كان حال الماديين، وهم المسمون بالدهريين الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. (1) وقريب من اعتقادهم اعتقاد المشركين؛ ولذلك عبدوا الأصنام المجسمة. ومعظم العرب كانوا يثبتون من الغيب وجود الخالق، وبعضهم يثبت الملائكة، ولا يؤمنون بسوى ذلك. (2)

ومن دواعي مجيء هذا الفعل مضارعا دالا على الزمن الراهن والمستقبل أن حقيقة هدى الكتاب - وهو المعنى المتقدم في الآية السابقة - تتأكد بمعاودة نشدان الاهتداء بهدي القرآن، ويتطلب ذلك على سبيل الملازمة بريضة النفس على إحياء وتجديد الاستقاء من معين الإيمان وإغاثة القلب بنسائم الفيض الرباني الذي يجدد للقلوب حياتها وموآهبها، ويناسب ذلك - أيضا - ما في الفعلين: (يقيمون-ينفقون) من قيمة تكرار الفعل في واقع الحياة، إذ إن حياة المؤمن هي تراوح وانتقال بين هذه الأحوال، وما شابهها من أحوال مما لا يستقيم إلا بمداومة هذه الأعمال والحفاظ عليها ليتحقق تجديد الإيمان بإقامة الشعائر والمسابقة في الخيرات. وبتتابع هذه الأفعال في سياق الآية في ترتيب يقضي بالتحول والانتقال من حال إلى أخرى تبتدئ تلك الأحوال بمقام التصديق، والعبودية، والإخلاص، ثم يترسخ هذا المعنى في مشهد الصلاة بتعميق الصلة بين المؤمنين وربهم، ثم تتسع الصورة لتشمل حييا من التعامل والمؤازرة الإيمانية التي يُختم بها السياق المصور لهذه الأحوال المخصوصة المتوالية.

(1) الجاثية، 24.

(2) ت ت ت بتصرف، 230/1.

يردُّ قوله -تبارك وتعالى- في سورة النحل: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَصَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾⁽¹⁾ في سبيل الإنحاء على الَّذِينَ يَنْفُسُونَ الْإِيمَانَ وَالْمَوَاقِيقَ بَعْدَ توكِيدِهَا، وَيَجْتَرِئُونَ عَلَى نَكْثِ الْعَهْدِ -وهي هنا البيعة على الإسلام والنصرة- عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾،⁽²⁾ فَتَتَضَمَّنُ صَلَاةَ الْمَوْصُولِ التَّمَثِيلَ بِحَالِ امْرَأَةٍ اشْتَهَرَ أَمْرُ كَوْنِهَا خَرْقَاءَ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْمَثَلِ: "أَحْرَقُ مِنْ نَاكِثَةِ غَزْلِهَا".⁽³⁾

كانت هذه المرأة تنقض غزلها بعد إمراره وشدِّ قتلها، إذ تأمر جواريتها -وقد أعدت لهنَّ مغزلاً قدرَ ذراعٍ وصنارةً مثلَ أصبعٍ، وفلكةً عظيمةً على قدرِ ذلك- أن يشرعنَّ في الغزل بالغداة، فإذا مرَّ شطرُ النهار، أمرتهنَّ بنقض ما غزلنَّ لاختلالِ عقلها، فهذا نهْيٌ مُرْسَلٌ بموردٍ مثلِ سائرٍ، فَشَبَّهَ رُدَّ الْمُحْكَمِ إِلَى مَنْقُوضٍ وَإِفْسَادُ مَا بِهِ صَلَاحُ بحَالِ الْعَوْدِ إِلَى عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بَعْدَ النِّجَاةِ مِنْ ذَلِكَ بِالْإِيمَانِ وَالْبَيْعَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَوَجَّهَ الشَّبَّهَ الْأَيْلُولَةَ إِلَى الشَّرِّ بَعْدَ انْتِشَارِ الْخَيْرِ وَاسْتِنْبَابِ مَا بِهِ النِّفْعُ وَالصَّلَاحُ. وَالغَزْلُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَي الْمَغْزُولِ: "لِأَنَّهُ الَّذِي يَقْبَلُ النِّقْضَ. وَالغَزْلُ: فَتَلُّ تُنْتَفٍ مِنَ الصُّوفِ أَوْ الشَّعْرِ لِتُجْعَلَ خَيْوطًا مُحْكَمَةً اتِّصَالَ الْأَجْزَاءِ بِوَسِطَةِ إِدَارَةِ آلَةِ الْغَزْلِ بِحَيْثُ تَلْتَفُّ النَّتْفُ الْمُفْتُولَةُ بِالْيَدِ، فَتَصِيرُ خَيْطًا غَلِيظًا طَوِيلًا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ لِيَكُونَ سُدَى أَوْ لِحْمَةً لِلنَّسْجِ.

(1) الآية: 92.

(2) النحل، 91.

(3) وهذه المرأة هي أم ربيعة بنت كعب بن سعد بن تميم بن مرة من قريش: ن: مجمع الأمثال للميداني، ت: محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، د.ت، 255/1.

وَالْقُوَّةُ: إِحْكَامُ الْعَزْلِ أَيْ نَقْضُهُ مَعَ كَوْنِهِ مُحْكَمَ الْقَلْبِ لَا مُوجِبَ لِنَقْضِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ فَتْلُهُ غَيْرَ مُحْكَمٍ، لَكَانَ عُذْرٌ لِنَقْضِهِ". (1)

وَالْأَنْكَاتُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ جَمْعُ نَكَتٍ -بِكْسْرِ النُّونِ وَسُكُونِ الْكَافِ- أَيْ مَنْكُوثٌ أَيْ مَنْقُوضٌ. وَنَظِيرُهُ: نَقْضٌ وَأَنْقَاضٌ. وَالْمُرَادُ بِالْجَمْعِ أَنَّ مَا كَانَ عَزْلًا جَعَلْتَهُ مَنْقُوضًا أَيْ خُيُوطًا عَدِيدَةً. وَذَلِكَ بِأَنَّ صَيْرْتَهُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ الْعَزْلِ، وَهِيَ كَوْنُهُ خُيُوطًا ذَاتَ عَدَدٍ. وَانْتَصَبَ أَنْكَاتًا عَلَى الْحَالِ مِنْ (عَزَلَهَا) أَيْ نَقَضْتَهُ، فَإِذَا هُوَ أَنْكَاتٌ. وَجُمْلَةٌ «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ» حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ». وَالذَّخْلُ -بِفَتْحَتَيْنِ- الْفَسَادُ أَيْ تَجْعَلُونَ أَيْمَانَكُمْ الَّتِي حَلَفْتُمُوهَا مَدْخُولَةً، وَالذَّخْلُ أَيْضًا: الشَّيْءُ الْفَاسِدُ. (2)

إلى جانب القيمة المعنوية للتعريف في الاسم الموصول تهيأ من خلال الصلة رسم هيئة فعل نقض العزل الذي قوي بانفتاله، ثم صار أنكاثا بنقضه، فهذه الهيئة التصويرية التي تتردد فيها ومضات الصورة مع ترددات الزمن بين انتهاء الفعل وابتدائه كان للموصول فضل تحقيق مضمونها من خلال جملة الصلة.

وَأَرَبَى أَرِيدُ وَأَنْمَى مِنَ الزِّيَادَةِ وَالْإِنْمَاءِ، (3) فَعِلَّةٌ اغْتَرَارٍ بَعْضِ النَفُوسِ بِالْأُمَّةِ الْغَالِبَةِ أَوْ الَّتِي يُظَنُّ بِهَا الْمَنْعَةُ وَشِدَّةُ الْبَأْسِ هِيَ مَا يُرَى مِنْ أَسْبَابِ الْغِنَى وَالْقُوَّةِ لَدَى ذَلِكَ الشَّعْبِ، فَيَكُونُ هُنَاكَ اعْتِقَادٌ بِأَنَّ الرِّخَاءَ وَالثَّرْوَةَ دَاعِيَانِ إِلَى تَفْضِيلِ أُمَّةٍ عَلَى سِوَاهَا. وَقَدْ تَكُونُ الْأُمَّةُ صَاحِبَةُ الرِّسَالَةِ أَوْ أَوْجَعُ فِي أَسْبَابِ الْمَكِينَةِ وَمَقَدَّرَاتِ التَّرَفِّ وَالرَّفْعَةِ. وَهَذَا مَشَاهِدٌ غَيْرُ مَمْتَنِعٍ، وَقَدْ لَا تَخْلُو مِنْهُ حَقْبَةٌ مِنْ حَقَبِ التَّارِيخِ، فَاقْتِنَاسُ سَوْدِدِ الْأُمَمِ بِثَرَوَاتِهَا، وَمَا يَتَغَشَّى حَيَاةَ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ فِيهَا مِنْ زَخَارِفِ الدُّنْيَا يُعَمِّي عَنْ حَقَائِقِ أَهْمِهَا أَنَّ رِسَالَةَ الْأُمَّةِ وَقِيمَتَهَا الْحَضَارِيَّةَ هِيَ الْأَسَاسُ فِي الْحُكْمِ بِأَفْضَلِيَّتِهَا. وَإِعْظَمُ مَا يَشْعَلُ الَّذِينَ غَلَبَ عَلَيْهِمُ التَّلَبُّسُ بِالْمَادَةِ هُوَ بَهْرَجَةُ أَلْوَانِ الْأُمَّةِ الْغَالِبَةِ وَزَخَارِفُ مَدْنِيَّتِهَا، فَهَذَا النَّظَرُ الْمَذْمُومُ

(1) ت ت ت، 265/14.

(2) ت ت بتصرف، 235/14. ن: لسان العرب، مادة: (نكت- دخل)، 196/1-239/11.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (ربو)، 304/14.

مقصورٌ على نواحي المادةِ دُونَ اعتبارِ قِيمِ الحضارةِ الروحيةِ والاجتماعيةِ. وأزبى - بهذا الخصبِ - كلمةٌ متمكنةٌ في موضعها هذا، ولا يَسُدُّ مَسَدَهَا سواها، وهو من مقتضيات الإعجاز

3341 مَرِيَمُ الْبَتُولُ عَلَيْهَا السَّلَام

يأتي الموصولُ في قوله من سورةِ التَّحْرِيمِ: ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِحْسَانُ ذَلِكَ لِمَنْ أَحْبَبَتْ﴾ (1) ليمنح الجملة سمةَ التعريف. وجملةُ الصلةِ تَضَمَّتْ إيجازَ ذِكْرِ خبرِ مريمَ الطاهرةِ البتولِ القانتةِ لربِّها التي هي من خيرِ نساءِ العالمينِ وأمِّ نبيِّ من أنبياءِ الله، (2) حتى صارت مثلاً يُساقُ لمعاني العفة، والإخبات، والتجرُّدِ في العبادةِ والتَّحَنُّثِ لكونها منذورةً لسدانةِ البيتِ والتَّمَحُّضِ لذلك.

وهي مريمُ بنتُ عمرانَ بنِ ماثانَ مِنْ سِبْطِ يهوذا. وقد كان آلُ ماثانَ رؤوسَ بني إسرائيل، وأخبارهم، وملوكهم في هذه الحقبة، وكان عمرانُ عظيمًا من زمرةِ علمائهم، وأمُّها حنَّاء بنتُ فاختوذاء التي نذرت ما في بطنها مُحَرَّرًا لخدمةِ المعبد: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، (3) فهو سميعٌ لقولها المحكيِّ عليهم بسريرتها. والتَّقبُّلُ أخذُ الشيءِ على وجهِ الرضى. والتَّعَرُّضُ لوصفِ الربوبيةِ المُنبئةِ عن إفاضةٍ ما فيه صلاحُ المَرْبُوبِ مع الإضافةِ إلى ضميرها لتحريكِ سلسلةِ الإجابة. وقيلَ أنَّها دعت، وعَلَّقَتْ في دعائها، فبإحساسها بالحملِ كان عليها إخراجُ نذرها عن صورةِ التعليقِ إلى هيئةِ التنجيز. وتقديمِ الجارِّ والمجرورِ لكمالِ الاعتناءِ بهِ وتأكيدِ الجملةِ لعرضِ قوةِ يقينها بمضمونها. ولم يكن في حُسابها أن تُنْجِبَ أنثى، إذ لم يكن من إلفِ

(1) الآية: 12.

(2) ن: مدخل إلى القرآن الكريم، محمد دراز، دار القلم، 1971، 1/364-365.

(3) آل عمران، 35.

أهل ذلك الزمان في فلسطين أن تخدم البنات بيوت العبادة. وقد وُلدت مريم لثلاث عشرة سنة قبل ميلاد المسيح عليهما السلام، فتقبَّل ربُّها تحريرها وانقطاعها للعبادة وخدمة المسجد المقدَّس بقبولِ حسن، وأنبتتها نباتًا حسنًا. وقد تنازع كفالتها جماعة من أحرار اليهود، فطارت القرعة إلى زكريا زوج خالتها اليصابات، وهي من سبط هارون. وزكريا - عليه السلام - هو ابنُ برخيا. وكانَ عالمًا بالتوراة نبيًّا من أنبياء الله، فكانَ من لوازمِ اصطفائها إسنادُ كفالتها وتدبيرِ مصالحها إلى نبيِّ كريم. وكانت وفاة أبيها قبل ولادتها، فنشأت يتيمة الأب. وقد وُلدت المسيح بقرية بيت لحم، أو بأدنى الديار المصرية في مدة سلطنة أغسطس إمبراطور الرومان، وفي مدة حكم هيرودس على القدس من جهة سلطان الرومان. ولما بلغ -أي المسيح- ثلاثين سنة، بعث رسولًا إلى بني إسرائيل ناسخًا لكثير من أحكام التوراة، وبقي في الدنيا إلى أن بلغ سنه ثلاثًا وثلاثين سنة. وأمَّا مريم أمه، فقد توفيت بعد أن شاخت، ولا تُعرف سنه وفاتها. (1) ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (2) ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (3).

والهيئة التعبيرية من الموصول وصلته في آية التحريم استحضرت الأفعال: أحصنت - نفخنا - صدقت - وكانت من القانتين مع إبراز سمة التعريف أو الاشتهار بواسطة الموصول، وإتاحة توالي المعاطيف الوصفة لسيرة مريم عليها السلام، ولمعجزتها، ورسوخها في كونها متصلة في التقوى والعبادة. وتوسعت هذه الآية في ذلك بخلاف آية المؤمنون المتقدمة التي أوجزت نعتها وابنها بكونهما آية للعالمين. وكان آخر

(1) ت ت ت بتصرف، 1/595-232/3. ن: تفسير أبي السعود، 27/2.

(2) آل عمران، 42-44.

(3) المؤمنون، 50.

ذِكْرٍ لِمَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - فِي الْقُرْآنِ هُوَ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ. وَلَكُونِهَا أُفْرِدَتْ بِالذِّكْرِ فِي آيَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ أَتَى التَّنْوِيهُ بِصِفَتِهَا وَكِرَامَتِهَا ثَنَاءً عَلَيْهَا، وَعَلَى صِدِّيقِيَّتِهَا فِي عِبَارَةٍ بَلِيغَةٍ بَيْنَ الْإِيحَازِ وَالْإِعْجَازِ. وَتَرْتَّبَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى تَبَرُّئُهَا مِنْ أَرَاخِيفِ الْيَهُودِ وَإِثْبَاتُ لِقْدَرَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - الَّذِي أَوْجَدَ آدَمَ بِلَا أَبَوَيْنِ وَعَيْسَى مِنْ أُمَّ دُونَ أَبِي. وَهَذَا تَجْسِيدٌ لِمَعْنَى طَلَاقَةِ الْقُدْرَةِ وَالْهِيَةِ الْمَشِيئَةِ.

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ
سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

2 الباب الثاني: القيم الأسلوبية

12 الفصل الأول: من وظائف الكلمة وصيغها الأسلوبية

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾: (2)

الأمَد: الغاية كالمدى، وهو مأخوذ من البعد المكاني، ثم استعير للزمان. (3) وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَابَقَ بَيْنَ الْحَيْلِ الَّتِي لَمْ تُضْمَرْ، وَجَعَلَ أَمَدَهَا تَنْبِيَةَ الْوَدَاعِ أَيَّ غَايَةِ الْمُسَابَقَةِ. (4)

وقد استعير للجزء من الزمان المعين، (5) كما وَرَدَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾، (6) وَهُوَ كَذَلِكَ هُنَا. وَمَقَابَلَتُهُ بِ(قَرِيبٍ) مَعْنَاهُ: أَمْ يَجْعَلُ لَهُ أَمَدًا بَعِيدًا.

الغيب في اللغة: الشك. والغيب: كل ما غاب عن المشاهدة، أو خفي أي استتر مما لا يُرى، أو يُحسُّ بحاسة. وتعريفه تعريفُ الجنس. (7)

وإيمانُ المؤمنين بالغيب المُتَّسِعِ فِي اسْتِعَابِهِ لِلدَّلَالَاتِ وَالْقِيمِ الْمَعْنَوِيَّةِ يَعْنِي تَصْدِيقَهُمْ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْمُعَيَّبَاتِ أَيَّ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ خَارِجًا عَنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ مَا هَيَّيَاتِ، وَحَقَائِقِ، وَأَفْرَادًا، وَدَوَاتًا، وَأَوْصَافًا، وَوَقَائِعِ، وَمِمَّا

(1) اتساع الكلمة لمعانٍ لا حصر لها يتمُّ استدعاء بعضها أو أكثرها أسلوبياً.

(2) الجن، 25.

(3) ن: تاج العروس، مادة: (أمد)، 392/7.

(4) فتح الباري، 72/6، ن: شرح النووي على مسلم، 14/13، والسنن الكبرى، 19/10. وتضمير الخيل: إعدادها للحرب والسباق على وجه مخصوص. ن: لسان العرب، مادة: (ضمر)، 491/4.

(5) ن: ت ت ت، 247/29. وفيه إشارة إلى أن أصل استعمال الأمد هو في الأمكنة.

(6) الآية: 16.

(7) ن: لسان العرب، مادة: (غيب)، 684/1، وفتح القدير للشوكاني، دار الفكر، دت، 34/1.

تعلّق بذاته تعالى، وبصفاته، وبأشراط الساعة، وعذاب القبر، والقدر، والنشر، والحشر، والصراط، والميزان، والجنة، والنار، والملائكة، والجن، والشياطين.

أمّا ما لم تشهدّه الحواس؛ لكن توارثته أجيال الناس، وحصل به تواتر أو ما يُشبهه كقصص الأولين وأخبار بعض النبوات والرسالات، فيمكن العلم به مع الاختلاف فيه والتخبط في تفاصيله؛ إلا ما جاء به نقل صحيح بمنّ صريح. وأصول وجزئيات العقيدة إنما يُخبر بها ويثبتها رسول أو نبي. ومن بينها أخبار من أمر الأولين لم يُفدّها نقل أو تاريخ؛ بل أثبتّها وحي السماء.

تردّ هذه الكلمة بقوتها الاستيعابية ذات الشمول بمعنى الغيبة، كما في قوله -عزّ وجلّ- على لسان امرأة العزيز: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾. (1) وربما قالوا: بظهر الغيب، كما في قول مجنون ليلي:

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِيكَ حَتَّى كَأَنَّمَا عَلَيَّ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مِنْكَ رَقِيبٌ (2)

وإيثار المصدر هنا لاستغراقه كلّ الحقائق المُعيّبة ممّا تقدّم وسوى ذلك. (3)

وتعريف المُسنّدين الظاهر والمُقدّر: (هو عالم الغيب) يفيد القصر. والقصر جار مجرى التّناء من بعد التّبرّي والتّجرّد المنحصر في قول الدّاعي: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي﴾ بصيغة الاستفهام المفصل والنفي المتأكّد بأداة النفي: (إِنْ) المُشْرَبَة دلالة التوكيد. والفاء: ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ لتفريع حكم على حكم. والحكم المُفرّع مُستوفي المضمون لاشتماله على بيان الأصل، وعلى الاستثناء، وحال المُسنّتى، وبعض شأنه، والتعليل، والشمول المُتفرّع عن التعليل، وذلك من قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ إلى: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. (4)

(1) يوسف، 52.

(2) ديوان قيس بن الملوّح، ت: حسين نصار، دار مصر للطباعة، 1960، ص: 38.

(3) ن: ت ت، 247/29.

(4) ن: البحر المديد لابن عجيبة الحسني، دار الكتب العلمية، 2002، 159/8.

وَاسْتُنْتِنِي مِنْ هَذَا النَّفْيِ الَّذِينَ ارْتَضَاهُمْ لِيُطْلِعَهُمْ عَلَى بَعْضِ الْغَيْبِ أَيْ عَلَى غَيْبِ
 أَرَادَ اللَّهُ إِظْهَارَهُ مِنَ الْوَحْيِ. وَكَذَلِكَ مَا أَرَادَ أَنْ يُؤَيِّدَ بِهِ رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ
 إِنْبَاءٍ بِالْمُسْتَقْبَلِ أَوْ إِطْلَاعٍ عَلَى صَمَائِرِ بَعْضِ النَّاسِ. فَقَوْلُهُ: (ارْتَضَى) مُسْتَنْتَنِي مِنْ عُمومِ
 (أَحَدًا). وَالنَّقْدِيرُ: إِلَّا أَحَدًا ارْتَضَاهُ أَيْ اخْتَارَهُ لِإِطْلَاعِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِ لِحِكْمَةِ مُعْيِبَةِ
 أَوْ مُتَبَيِّنَةِ. (1)

"وَالْإِتْيَانُ بِالْمَوْصُولِ وَالصِّلَةِ فِي قَوْلِهِ: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ» لِقَصْدِ مَا تُؤَدِّنُ بِهِ
 الصِّلَةُ مِنَ الْإِيْمَاءِ إِلَى تَعْلِيلِ الْخَبَرِ أَيْ يُطْلِعُ اللَّهُ بَعْضَ رُسُلِهِ... وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْإِطْلَاعُ
 الْمُحَقَّقُ الْمَفِيدُ عِلْمًا كَعِلْمِ الْمَشَاهِدَةِ، فَلَا تَشْمَلُ الْآيَةُ مَا قَدْ يَحْصُلُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ مِنْ
 شَرْحِ صَدْرِ بِالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ، فِي الْحَدِيثِ: [الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ
 سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ] * أَوْ بِالْإِلْهَامِ».... [قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأَمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ،
 فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ]... قَالَ مُسْلِمٌ... تَفْسِيرُ
 (مُحَدَّثُونَ): مُلْهُمُونَ * ". (2)

من الدلالات المستوعبة باعتبارها قيمة معنوية في هذه السورة المتصلة بمعاني
 الغيب المختزلة اسمها الذي هو اسم جنس لمخلوقات من عالم الغيب، وهي مما يمتحن
 به العقول في الإيمان والتسليم أو الإنكار والتكذيب. وفي السورة إشارات إلى متعلقات
 بمسائل الغيب تتأسبأ مع موضوعها كقوله -تعالى- على لسان بعض الجن: «وَأَنَا كُنَّا
 نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا». (3)

(1) ت ت ت بتصرف، 248/29. *فتح الباري، 362/12-446-50/7 * شرح النووي، 15/20-15/166. ن:

تحفة الأشراف للمزي، ت: عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي، 1983، 459/10

(2) ت ت ت، 248/29

(3) الجن، 9.

وأول ورودٍ للغيبِ في القرآنِ أوائلَ البقرةِ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: (1) والغيب - هنا أي في آية البقرة - قد يُفسرُ بالمصدر أي بالغيبية، وتكون الباء على هذا للملابسة ظرفًا مُستقرًّا، ويكون الوصف تعريضًا بالمنافقين. وإن فُسِّر الغيب بالاسم: (العوالم العلوية والأخروية...)، كانت الباء متعلقة بالفعل (يؤمنون)، وكان الكلام جاريًا على سبيل التعريضِ بالمشركين. وقد جمعت الآية صريحَ الثناء على أهل الإيمان والتعريضِ بالمنافقين والمشركين، ثم جرى التصريحُ بذكر هاتين الطائفتين في الآيتين: (6-8).

وقد امتُحنت العقولُ بالغيوبِ لا على سبيلِ الاعتسافِ أو الرهق؛ بل لأن أقدارها لا يبلغُ أن تعاین شيئًا مما قد حُجِب عنها من المغيِّبات، فهي مُعدَّة لمشاهدة الآثارِ ومعاينةِ الشواهدِ لتحصيل المقدمات وتعرُّف أسرار التكوينِ تَوَصُّلاً بالترقي إلى الإيمانِ والتصديق. ولو عاين الإنسان ما طوي عنه مُباشرته بالحس، لانفتحت حكمة خلقه على صفة التحمل والاختيار، فقد حُصَّ بالمسؤولية، وبالتكريم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾: (2) وعنصرُ الاختيار في التكوينِ البشريِّ نفيس، وجوهري، وعميقٌ في أصلته:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾: (3) فإن احتجَّ بإغراء قوى الشرِّ الظاهرة والمُغَيَّبَةِ وأسبابِ الضلالِ مع تعاقبِ الصَّوارِفِ، دُوَفِعَ بدواعي الهداية، وآثارِ القدرةِ الخفيَّةِ، وبوحي السماء: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ

(1) البقرة، 3.

(2) الحجر، 29-31.

(3) الشمس، 7-8.

بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (1) ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (2)

ولا عُذْرَ لِلإِنْسَانِ فِيمَا لِلشَّرِّ مِنْ سَطْوَةٍ، وَفِي النَفْسِ مِنْ ضَعْفٍ، فَإِنَّ تَحْمُلَ الأَمَانَةِ فِيهِ مِنْ مَشَقَّةِ الإِخْتِيَارِ وَمَدَافِعَةِ العَوَارِضِ مَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ ثَمَرَةُ الجَزَاءِ الَّتِي يَتَقَاصِرُ عَنْهَا كُلُّ كَذْحٍ وَمَكَابِدَةٍ. وَإِنْ تَعَاظَمَا، فَالإِنْسَانُ يَتَرَقَى بِعَقْلِهِ وَرُوحِهِ بِالنَّظَرِ فِي آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَنَفْسِهِ قَدْ تَتَقَاصِرُ عَنِ أَنْوَارِ الحَقِّ، وَإِنْ عَايَنْتُ مِنْ شَوَاهِدِهِ: (3) ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (4)

2112 من أصول سياسة المجتمعات: الأمانة - العدل

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (5)

في سياق ما تبنته هذه السورة من نُظْمِ الاجْتِمَاعِ، وَتُرْسِيهِ مِنْ قَوَاعِدِ الحَيَاةِ الأَسْرِيَةِ وَالعَائِلِيَةِ وَحَيَاةِ المَجْتَمَعِ بِعَامَةٍ بِالإِفَاضَةِ فِي صَوْغِ النُّظْمِ التَّشْرِيعِيَةِ بِتَفْصِيلِهَا بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ أَحْوَالِ الفَرْدِ وَالجَمَاعَةِ، وَبِإِعْلَاءِ قِيَمِ العَدْلِ، وَأَصُولِ فِي الحُكْمِ وَالسِّيَاسَةِ، وَأَسْسِ الطَّاعَةِ وَالإِلتِزَامِ الأَخْلَاقِي، وَمَنْظُومَةِ الحَقُوقِ، وَسُلْطَةِ الضَّمِيرِ - مِنْ خِلَالِ المَوْضُوعَاتِ وَالأَمْثَلَةِ الَّتِي عَرَضَتْهَا هَذِهِ السُّورَةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ تَأْتِي هَذِهِ الآيَةُ فِي هَيْئَةِ اسْتِنَافٍ ابْتِدَائِيٍّ يَتَضَمَّنُ فِي طَيَّاتِهِ الكَثِيرَ مِنْ عُنَاصِرِ الرِّبْطِ المَعْنَوِيِّ الَّتِي تَتَّصِلُ بِمَفَاصِلِ المَعَانِي الكُبْرَى فِي السُّورَةِ.

(1) فَصَلَتْ، 53.

(2) الزُّمَرُ، 23.

(3) ن: مدارج السالكين لابن القيم، ت: محمد الفقي، دار الكتاب العربي، 1973، 150/2.

(4) الأنعام، 14-15.

(5) النساء، 58.

تحتفي هذه الآية في استيعابٍ وشمولٍ للدلالاتِ بالعدلِ الذي هو نداءُ الإسلام، وروحُ التشريع، وشعارُ المجتمعِ المسلم، وهو الذي تقوم عليه الأمم، وتبنى الحضارات، فإذا أذنَ بالزوالِ منها، آذنتُ بالانهيار والاندثار. وقد تأدَّى سياقُ الآياتِ الأخيرة قبل هذه الآية إلى إرساءِ قيمةِ العدلِ التي تضمَّنَّها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.⁽¹⁾ وفي قوله قبلها من السورة: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾،⁽²⁾ فالشِّركُ ظلمٌ عظيمٌ: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.⁽³⁾ والظلمُ أولُ ناقضٍ من نواقضِ العُمران، والعدلُ الأساسُ الأعظمُ الذي تقومُ على الإغضاءِ مِنْهُ كُلُّ المظالمِ في حياةِ المجتمعات. والتوحيدُ هو حقُّ الله على العباد: ⁽⁴⁾ (توحيدُ الألوهية، وتوحيدُ وتوحيدُ الأسماءِ والصفاتِ)، ⁽⁵⁾ فإذا أُهدِرَ هذا الحق، فما دُونُهُ مِنَ الحقوقِ أهونُ أن يتسلطَ عليه أهلُ الشرورِ والفسادِ بالانتهاكِ والتضييع. وهذا هو مدخلُ الشيطانِ وَمَنْزَعُ خرابِ الأممِ والمجتمعات.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾⁽⁶⁾ نَفِي أَنْ يَقَعَ عليهم ظلمٌ، فالله لا يظلمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، ووصيتهُ إلى عبادهِ العدل، فأبى شيءٌ يَحْمِلُهُمْ على

(1) النساء، 48. وَرَدَ فِي السُّورَةِ نَفْسَهَا قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ 116: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

(2) السابق، 36.

(3) لقمان، 13. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: "أَلَيْسَ كَمَا تَطُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"، فتح الباري، 1/87-12/305، ن: شرح النووي على مسلم، 143/2.

(4) ن: فتح الباري، 6/59، وشرح النووي، 1/230.

(5) ن: الفتاوى الكبرى لابن تيمية، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1987، 421/2، واقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية، ت: ناصر العقل، دار عالم الكتب، 1999، 225/2 وما بعدها، ومدارج السالكين، 1/26 وما بعدها.

(6) النساء، 49-50. النَّقِيُّرُ (سيأتي في ص: 201): النَّقْرَةُ الَّتِي تَكُونُ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ، وَالْفَتِيلُ: مَا يَكُونُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ، ن: تاج اللغة وصحاح العربية، مادة: (نقر - فتل)، 2/835-5/1788، ولسان العرب، 5/227-11/514.

هذا الصنيع الَّذِي بَلَغَ الغَايَةَ فِي العُدْوَانِ وَالنَّوَاءِ بِإِفْتِرَاءِ الكَذِبِ عَلَى الله. وَفِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾⁽¹⁾ تَعْجِيبٌ مِنْ جَرَاءِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ عَلَى الْحَقِّ وَمَدَاهِنَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ، فَيَصِلُ الْأَمْرُ بِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَحَيِّ بْنِ الْأَخْطَبِ، وَأَضْرَابِهِمَا إِلَى تَفْضِيلِ دِينِ عُبَادِ الْأوثَانِ مِنْ كَفَارِ قَرِيشٍ عَلَى دِينِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ مَعَ سَجُودِهِمْ لَطَوَاعِيَّتِهِمْ تَطْمِينًا لَهُمْ. (2)

وَفَعَلَهُمْ هَذَا هُوَ الغَايَةُ فِي القَبْحِ وَالنَّهَائَةِ فِي الْإِفْتِتَاتِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ. حَكْمُوا فَظَلَمُوا، وَعَمُوا وَصَمُوا. كَمَا قَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ لِفُحْوَى الْآيَةِ مَوْضُوعِ الْبَحْثِ، إِذْ يَنْفَرَعُ عَنْهَا أَيُّ عَنِ آيَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ مَعْنَى مُتِمِّمٌ لِلْفَائِدَةِ وَمُحَقِّقٌ لِلصَّلَةِ وَالْإِرْتِبَاطِ الْمَعْنَوِيِّ بَيْنَ الْآيَاتِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. (3)

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾⁽⁴⁾ بَيَانٌ لِشُحِّ الْيَهُودِ الْمَعْرُوفِ، وَإِنْ غَدَا بَعْضُهُمْ مَلُوكًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسَيَكُونُونَ صَرَحَاءَ فِي مَنَعِ النَّاسِ، وَتَضْيِيعِ أَمَانَةِ الْحَكْمِ، وَظَلْمِ الرِّعِيَّةِ، كَمَا كَانُوا مِنْ قَبْلِ. وَهَذِهِ كُلُّهَا آفَاتٌ لِّوَارِثِ

(1) النِّسَاءُ، 51. الْجِبْتِ: مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ. وَتَقَعُ الْكَلِمَةُ عَلَى النَّسْرِ، وَالشَّيْطَانِ، وَالكَاهِنِ، إِذْ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ بِأَنْ تُطَاعَ وَتُقْتَصَدَ. وَالطَّاغُوتِ: مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَكُلُّ رَأْسٍ فِي الضَّلَالِ كَالْأَصْنَامِ وَالشَّيَاطِينِ، وَمَزْدَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ: كُلُّ ذَلِكَ طَاغُوتٌ أَوْ طَوَاعِيَّتٌ. ن: لِسَانِ الْعَرَبِ، مَوَادِّ: (جِبْت-طَغُو)، 444/8-21/2، وَالْجَمْهَرَةُ فِي اللُّغَةِ لِابْنِ دَرِيدٍ، ت: رَمَزِي بَعْلَبَكِي، دَارُ الْعِلْمِ لِلْمَلَائِينِ، 1987، (جِبْتِ)، 252/1.

(2) ن: الرُّوْضُ الْأَنْفُ، 421-420/2، وَت ت ت، 86/5، وَبِغِيَةِ الْمَرْتَادِ فِي الرَّدِّ عَلَى الْمُتَفَلِّسَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ لِابْنِ تَيْمِيَّةٍ، ت: مُوسَى الدُّوَيْشِ، مَكْتَبَةُ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ، 1988، ص: 369-368.

(3) النِّسَاءُ، 60.

(4) السَّابِقُ، 53.

بَعْضِهَا: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. (1)

يَتَّخِذُ مَسَارُ الْآيَةِ بِالنَّصِّ عَلَى الْأَمْرِ بِإِدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَبِالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ. وَهُمَا قُطْبَانِ فِي التَّعَامَلَاتِ الَّتِي تَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ، وَفِي عِلَاقَةِ الرَّعِيَّةِ بِمَنْ يَسُوْسُهَا. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. (2)

من دواعي النَّظَرِ أَنَّ السُّورَةَ تَبْتَدِئُ بِالْحَثِّ عَلَى تَبَجُّيلِ الرَّحِمِ، فَالْمُؤْمِنُ مُؤْتَمَنٌ عَلَى ذَوِي رَحِمِهِ، وَقَرَابَاتِهِ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ الْحَقُوقِ، وَهُوَ مَأْمُورٌ بِالْعَدْلِ فِي مَعَامِلَتِهِمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾. (3)

هذا ابتداءُ التعاليمِ الرِّبَانِيَّةِ الَّتِي سَاقَتْهَا هَذِهِ السُّورَةُ، وَهِيَ التَّعَالِيمُ، وَالْأَوْامِرُ، وَالنَّوَاهِي الَّتِي تَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْأَمَانَةِ الْعِظْمَى الْوَارِدِ نِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. (4)

ومن شواهدِ ما تَقَدَّمَ وَرُودُ لَفْظَتِي الْقِسْطِ وَالْعَدْلِ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ

(1) السابق، 37.

(2) السابق، 1.

(3) السابق، 36.

(4) الآية: 72.

أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا⁽¹⁾. وهذا في أمر اليتامى وما لهم من حقوق. ثم تسترسل السورة في قضايا تخص المرأة وما لها من حقوق وأحكام نصت عليها تمييزاً لها عن غيرها من الحقوق والأحكام. وأيضاً أمور تخص أحكام الحجر، ومال اليتيم، وتفصيلاً يتعلق بالمواريث: بالإنصباة والفروض ما يَصَوِّرُ حِرْصَ الشرع الحنيف على إيصال الحقوق دُونَ تَعَدٍّ، أو تَعَسُّفٍ، أو ظُلْمٍ، أو بَخْسٍ لِمُسْتَحَقِّ إِلَى آخِرِ مَا تَطَرَّقَتْ لَهُ الْآيَاتُ مِنْ أَحْكَامِ الْأُسْرَةِ، وَالْحُدُودِ، وَالْمَحْرَمَاتِ مِنَ النِّسَاءِ.

ويلوح في نسيج السورة خيوط تتعلّق بمعنى الظلم وما يتصل به من معانٍ ثوائف بين موضوعاتها وقضاياها الأساسية. يتّضح ذلك في الآيات: 10-20-30-40-49-75-76-77-97-112-124-156-160-168.

والأمانة ضدّ الخيانة.⁽²⁾ وقد جمعت في الآية تغليباً للظاهر الذي هو ما يختصّ بإيصال الودائع المتعلقة بالذمة إلى أصحابها، وهو من جملة الوفاءات المعهود حثّ الشارع عليها وتذبُّه إليها. وهذا من قبيل شحذ الفكر فيما وراء هذا الأمر، فإذا كان حفظ الأمانات المحسوسة التي هي الودائع قد اكتنفته هذه المؤكّدات كحرف التوكيد وصيغة الفعل المضارع، فإنّ حفظ أمانة الدّين، والعلم، والنصيحة، والدعوة... أعظم توافقاً مع اتساع دلالة الأمانة وشمولها.

والأمانة من صيغ العموم؛ ولهذا فإنّ التأمّل يقضي بأنّها تستوعب في السورة مَشْمُولَاتِهَا مِنَ الْأَوْامِرِ وَالنَّوَاهِي؛ فَهِيَ ذَاتُ طَبِيعَةٍ اخْتِرَالِيَةٍ مُسْتَوْعِبَةٍ.

وقد ناسب سرد بعض شأن أهل الكتاب بعامة وبني إسرائيل بخاصة في الآيات المتقدّمات من تحريفهم أسفارهم، وليهم ألسنتهم بما فيه تعدٍ من السب، وأفترائهم على الله الكذب، وحسدِهِمْ بِإِنْكَارِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى المؤمنين - ناسب ذلك بيان ما للأمانة من ثقلٍ وعِظَمِ شَأْنٍ فِي مِيزَانِ الْإِسْلَامِ، فَالْإِسْلَامُ كُلُّهُ أَمَانَةٌ، وَالتَّفْرِيطُ

(1) النساء، 3.

(2) ن: المحيط في اللغة للصاحب ابن عباد، (م)، مادة: (أمن)، 476/2، والمعجم الوسيط، 28/1.

فيها خيانة لله ورسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾،⁽¹⁾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.⁽²⁾

وقد جرى بناء جملة الأمر بأداء الأمانات في شكل استئنافٍ تضمن التوكيد بالحرف، والتصدير بلفظ الجلالة، واستغراق الزمن بمضارعين: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، ﴿تُؤَدُّوا﴾، وإيثار ضمير الخطاب، وفيه إيصالٌ للأمر بأخصر طريق. وهذا وجهه الإلزام المتأكد. والتوسُّع في تفصيل معنى الآية. -ومنه قوله: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ - مرده أن السورة تنبني على آياتٍ من بينها هذه الآية، فالتقديم، والتفصيل، وحشد لوازم النص: كل ذلك داعيه الحث على الأخذ بهذه الأمور.

أمَّا العدل بوصفه كلمة ذات قدرة على الاستيعاب والاختزال، فهو ميراث الأنبياء والرسل، وهو نهج الصالحين، ومنهاج المصلحين، واختيار التائبين من الحكام، والساسة، والمقدمين، وهو غاية القضاء، وضمير الأمة، وعقدتها الذي تتعاقد عليه، وملاك اجتماعها واستوائها على الجادة. وقد أراد الله -تعالى- دعامة العالم وركنه الركين: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾؛⁽³⁾ ولهذا ذكر ابن منظور أن العدل ما قام في النفوس أنه الحكم المستقيم، وهو ضد الجور.⁽⁴⁾

والعدل في اللغة التسوية. وعدلتُ هذا بهذا أي سَوَّيْتُهُ به، ووازنْتُهُ به: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾،⁽⁵⁾ ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾.⁽⁶⁾

(1) الأنفال، 27.

(2) المؤمنون، 8.

(3) الحديد، 25.

(4) ن: لسان العرب، مادة: (عدل)، 430/11، والموسوعة الفقهية الكويتية، 5/30، وجامع رسائل ابن تيمية: رسالة

في معنى كون الرب عادلاً، ت: محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، 1985، 121/1.

(5) الأنعام، 1.

(6) المائدة، 95.

تَمَّ شَاعٍ إِطْلَاقُهُ عَلَى إِيْصَالِ الْحَقِّ إِلَى أَهْلِهِ، وَدَفْعِ الْمُعْتَدِي عَلَى الْحَقِّ عَن مُسْتَحِقِّهِ إِطْلَاقًا نَاشِئًا عَمَّا اعْتَادَهُ النَّاسُ أَنَّ الْجَوْرَ يَصْدُرُ مِنَ الطُّغَاةِ الَّذِينَ لَا يَعُورُونَ أَنْفُسَهُمْ سِوَاءَ مَعَ عُمُومِ النَّاسِ، فَهَمَّ إِنْ شَاءُوا، عَدَلُوا وَأَنْصَفُوا، وَإِنْ شَاءُوا، جَارُوا وَظَلَمُوا. قَالَ لَبِيدٌ:

وَمُعْتَدِمٍ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا * (1)

والعدل قيمة متسعة الدلالات، فهي أداء الحقوق بالاستحقاق. ويدخل في ذلك رد المظالم وكف يد الظالم. وأساسه حكم الرعية بالشرع الحنيف الذي هو ميزان الحقوق وأصل المساواة والحيدة عن الباطل، ثم حكمها بالأعراف القويمة، وبما تقتضيه العقول النيرة، وتهدى إليه الفطر السليمة؛ ولهذا قالوا: العدل أساس الملك.

وَقَدْ أَقِيمَ الْقِسْطُ فِي تَكْوِينِ الْعَوَالِمِ عَلَى أَنْظِمَتِهَا، وَفِي تَقْدِيرِ بَقَاءِ الْأَنْوَاعِ، وَإِيْدَاعِ أَسْبَابِ الْمُدَافَعَةِ فِي الْأَحْيَاءِ ذَوَاتِ الْحَرَكَةِ، مَعَ ضَنْبِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فِي حَرَكَتِهَا بِالْشَرَائِعِ، وَبِالْقَوَانِينِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ رُوحِ الرِّسَالَةِ، وَبِالْشُورَى الَّتِي هِيَ قُطْبُ رَحَى السَّلَامِ وَالْوَتَامِ وَوَصِيَّةِ الْإِسْلَامِ. وَاللَّهُ هُوَ الْقَائِمُ بِالْعَدْلِ، وَعَدْلُ النَّاسِ مُقْتَبَسٌ مِنْ مُحَاكَاةِ عَدْلِهِ: (2) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، (3) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾. (4)

(1) ت ت ت، 94/5. ديوان لبيد، ت: حمدو طماس، دار الكتب العلمية، ص 116. والمُعْدِم: مَنْ يَنْهَضُ الْحَقُّوقَ، وَيُحَكِّمُ هَوَاهُ فِي مَنْعِهِ وَعَطَائِهِ، وَهُوَ ذُو الصَّوْتِ الْجَافِي الَّذِي يُفْجِمُ الْكَلَامَ بَعْضُهُ فِي إِثْرِ بَعْضٍ. ن: الْمُخَصَّصُ لِابْنِ سَيِّدِهِ، بَاب: الْفَصَاحَةِ، ت: خَلِيلُ الْجَفَالِ، دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ، 1996، 219/1، وَلِسَانُ الْعَرَبِ، مَادَّة: (غَظْمَرُ)، 11/5، وَتَقْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ، 193/2.

(2) ت ت ت بتصرف، 187/3، وجاء في: 94/5: "فَالْعَدْلُ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، هُمَا: الْإِفْرَاطُ فِي تَحْوِيلِ ذِي الْحَقِّ حَقَّهُ أَيْ بِإِعْطَائِهِ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ، وَالتَّقْرِيطُ فِي ذَلِكَ أَيْ بِالْإِجْحَافِ لَهُ مِنْ حَقِّهِ، وَكِلَا الطَّرَفَيْنِ يُسَمَّى جَوْزًا. وَكَذَلِكَ الْإِفْرَاطُ وَالتَّقْرِيطُ فِي تَنْفِيذِ الْإِعْطَاءِ بِتَقْدِيمِهِ عَلَى وَقْتِهِ، كإِعْطَاءِ الْمَالِ بِيَدِ السَّفِيهِ أَوْ تَأْخِيرِهِ كإِتْقَاءِ الْمَالِ بِيَدِ الْوَصِيِّ بَعْدَ الرُّشْدِ".

(3) آل عمران، 18.

(4) النساء، 135.

وَالْقِسْطُ ذَكَرَ فِيهِ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ أَنَّهُ الْعَدْلُ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ، إِذْ مِنْ الْعَدْلِ مَا هُوَ خَفِيٌّ غَيْرُ ظَاهِرٍ. (1) وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ مَعْنَى الْقِيَامِ فِي الْآيَتَيْنِ، إِذْ مِنْ لَوَازِمِهِ الْإِفْصَاحُ عَمَّا لِأَجْلِهِ كَانَ الْقِيَامُ.

وقد أراد الله - سبحانه - للعدلِ بمفهوميهِ العامِّ ودلالاتِهِ المتسعةِ ذاتِ الشمولِ والاستيعابِ أن يَنتَظِمَ العالَمَ، وأن تثوَّبَ البشريَّةَ إلى الرشدِ، والصلاَحِ، وإقامةِ العدلِ؛ ولكنَّ الظُّلمَ سادَ بينَ الأفرادِ، والشعوبِ، والأممِ، والطبقاتِ، فلا نجدُ في الأممِ السالفةِ قوانينَ وأعرافاً تقومُ أساساً على مراعاةِ الحقوقِ ورعايةِ المسحوقينِ، والأقلياتِ، والضعفاءِ اجتماعياً أو اقتصادياً، وحتى القوانينُ والأحكامُ التي يُصدِرُها بعضُ صنَّاعِ النَّوَرَاتِ الَّذِينَ ثَارُوا عَلَى الْأَوْضَاعِ الظَّالِمَةِ والقوانينِ الْمُجْحَفَةِ وقعوا هم - أيضاً - من جَزَاءِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ فِي الْخَطِإِ نَفْسِهِ، وَفَعَلُوا مَا نَهَوْا عَنْهُ مِنْ قَبْلِ. وَيَعْتَدِلُ الْأَمْرُ مَعَ الْحُكَمَاءِ الْمُنْصَفِينَ إِذَا اخْتَبَرُوا لِلْحُكْمِ، أَوْ إِذَا وُسِّدَ إِلَيْهِمْ كِتَابَةُ التَّشْرِيعَاتِ، كَمَا حَدَثَ فِي أَثِينَا وَإِسْبَرْطَةَ. (2) وَفِي دَوْلِ الْغَرْبِ الْيَوْمِ نَزُوعٌ نَحْوَ تَطْبِيقَاتِ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ مَشْهُودٌ، وَذَلِكَ عَلَى الْمَسْتَوَى الْدَاخِلِيِّ فَقَطْ. وَكَانَ لِلتَّشْرِيعَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَعْظَمُ الْأَثْرِ فِي الْمَجْتِمَعَاتِ الَّتِي احْتَكَمَتْ إِلَيْهَا لِحِرْصِ الْإِسْلَامِ عَلَى مِرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ الْخَالِصَةِ أَوْ الرَّاجِحَةِ، فَهُوَ لَا يَعْأُ بِالْأَهْوَاءِ وَالنَّزَوَعَاتِ الضَّالَّةِ الْمُفْسَدَةِ. وَقَدْ تَخَلَّصَتِ الْمَجْتِمَعَاتُ الَّتِي احْتَكَمَتْ إِلَيْهِ مِنْ تَحْكَمَاتِ الْعَوَائِدِ الَّتِي تَرَاعِي أَنْانِيَّةَ الْفَرْدِ أَوْ الْقَبِيلِ الْخَاصِ، (3) وَلَا تَكْتَرُثُ بِمَصْلَحَةِ النَّوْعِ وَمَنْفَعَةِ الْعَمُومِ أَوْ الْمَجْمُوعِ الْأَعْمِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. (4)

وفحوى هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وَمُؤَدَّى مَا تَقَدَّمَ قَسِيمٌ لِلوَارِدِ فِي تَالِيَتِهَا الَّتِي

يُعَدُّ مَقْتَضَاهَا أَسَاساً فِي إِقَامَةِ وَقِيَامِ الْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ بِحَقِّ:

(1) ن: الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الإسلامي، 1412 هـ، ص 428.

(2) ت ت ت بتصرف، 95/5، ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: إسبرطة=Sparta-أثينا=Athens.

(3) للاستزادة ن: إعلام الموقعين عن رب العالمين، 373/4، ذكر ابن القيم أنه لا شيء أعدل من التوحيد، ولا شيء أظلم من الشرك. ن: مدارج السالكين، 455/3 وما بعدها.

(4) النساء، 28.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾،⁽¹⁾ فَبَعْدَ خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ، وَأَحَقُّ وَأَوْلَى مَنْ يِنَادِي بِهَذَا هُمْ وَلَاؤُهُ الْأُمُورِ الَّذِينَ إِذَا مَا تَنَكَّبُوا الطَّرِيقَ، وَلَمْ يَحَازِرُوا الْمَعْبَةَ، فَلَا مَنُودِحَةَ فِي أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ أَوْحِدَاءَ النَّاسِ فِيمَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِعِظَمِ أَمَانَاتِهِمْ وَجَسِيمِ مَسْئُولِيَاتِهِمْ - بَعْدَ الْخِطَابِ الْأَوَّلِ حُوطِبَتِ الرَّعِيَةُ مِنْ ضِمْنِ مَا حُوطِبَتْ بِهِ بِمَا لَا انْعِقَادَ لِأَصْرَةِ الْاجْتِمَاعِ وَرَابِطَةَ الْمَجْمُوعِ إِلَّا بِهِ.

العدلُ نِظَامٌ متكامل، وبناءٌ للإنسان، واستجابةٌ لصوتِ الضميرِ الإنساني، وهو منظومةُ الحقوق، والمبادئ، والقيم التي لا يقومُ المجتمعُ المتحضرُ إلا عليها. وقيمُ الإسلام هي القيمُ المُثَلَى لِإِرْسَاءِ هذه الكينونة الحضارية المدنية الفريدة. والعدلُ ثقافة، ودستورُ مجتمع، وأسلوبُ حياة: به تسكنُ الخواطرُ، وتطمئنُ القلوبُ والسرائرُ، ويشعرُ المرءُ في ظلِّه بالأمانِ الذي يحمله على العطاءِ والتضحية في سبيلِ ربه وخدمةً لمجتمع العدلِ والإيمان.

يُلْحِظُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْجُمْلَةِ صَدَرَ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾. وَقَدْ أَفَاضَ الظَّرْفُ فِي اسْتِيعَابِ الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ. وَفِي ذَلِكَ اجْتِزَاءٌ لَوْقَتِ الْمِرَافَعَةِ وَالْحُكُومَةِ بَيْنَ الْخُصُومِ؛ لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الَّذِي تَصُدُرُ فِيهِ الْأَحْكَامُ، وَتُتَرَقَّبُ فِيهِ النَّصَفَةُ بَيْنَ النَّاسِ، وَعَدَمُ الْحِيَدَةِ فِي الْحُكْمِ أَوْ تَحْكِيمِ الْهَوَى فِيهِ إِهْدَارٌ لِلْحَقِّ وَالْمَصْلَحَةِ؛ وَلِذَا اسْتُدْعِيَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ الزَّمْنِيَّةُ لِإِشَاعَةِ الشُّعُورِ بِحَسَاسِيَّةِ هَذَا الْمَوْقِفِ، وَبِمَا لَهُ مِنْ اعْتِبَارٍ فِي نَظَرِ الشَّارِعِ، وَهُوَ الْمَوْقِفُ الَّذِي امْتَدَحَ فِيهِ اللَّهُ -عَزَّ

(1) النساء، 59. عن عليِّ رضي الله عنه - موقوفًا: "حقُّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يؤدِّي الأمانة. وإذا فعل ذلك، فحقُّ على الناس أن يسمعوا، وأن يُطيعوا، وأن يجيبوا إذا دُعوا"، تفسير الطبري، 490/8.

وَجَلَّ - حُكُومَةَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. (1)

والتوكيد بالحرف في الجملتين الأخيرتين من الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يجري مجرى ما سلف بخصوص التحقيق والتوكيد في الجملة صدر الآية من أنه تتصل بهما التعاليم والمواضع المبتوثة في آيات السورة. وإيراد الاسم الأجل الأعظم أريد به -أيضاً- تربية المهابة في النفوس وإظهار الأمر بمظهر الاعتناء البليغ المفضي إلى استرواح القلوب بالمعنى المركوز والفحوى المكنوز. وهذا مما يُرْسَخُ مفهوم العمل بمقتضى ما في السورة من الأوامر والنواهي، وبمقتضى ما فيها مما ينبغي الوقوف عليه من العظات والتوجيهات الربانية الخالصة. وكثير من هذه المعاني والدلالات المتنوعة يتصل بمفهوم العدل باعتباره قيمةً معنويةً ذات استيعابٍ وشمول.

ومن بين أمثلة القيم المعنوية في الأسلوب دمج الفعل الجامد: (نعم) في الموصول الفاعل إصاقاً للثناء بالمتنى عليه للإشعار بما عليه الوعظ الإلهي من بهاء، وبما فيه من كمال النفع، وتمام الحُسن، والإحاطة بالمقصود: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (2)

(1) الأنبياء، 78.

(2) النحل، 90.

في نماذج من سورة الكهف

2121 مع أصحاب الكهف (1)

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبَنَا عَلَى أذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا هُوَ لَاءِ قَوْمَنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ

(1) ن: ص: 100 من هذه الدراسة، والموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: أهل الكهف = Seven Sleepers of Ephesus.

مِنْهُ وَلَيْتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴿١﴾.

الكهف يتكوّن من حجرة ضخمة مليئة بتشكيلاتٍ صخرية ذات أشكالٍ وألوان. وهو تجويفٌ طبيعيٌّ كبيرٌ في الأرض يكفي لدخول الشّخص فيه. وتتكوّن بعض الكهوف من حجرةٍ بعمقٍ عدة أمتار. في حين توجد كهوفٌ هي شبكةٌ واسعةٌ من الممرات والحجرات قد تصل إلى مئات الكيلومترات. (2) وعلى هذا فهو شقٌّ في الجبلٍ متّسع الوسط، فإن لم يكن متّسعًا، فهو غارٌ أو مغارة. (3)

الكهف من عناصر الطبيعة الموحية بالسكون لكون الكهوف عادةً ما تكوّن بمعزلٍ عن الناس. كان يلجأ إليها المضطهدون الفارّون بدينهم كمتعقبي المسيحية الأوائل في القرون الميلادية الأولى كأصحاب الكهف وغيرهم ممّن طاردتهم الممالك الوثنية قبل تنصّر قسطنطين الكبير الذي ترأس أوّل مجلسٍ عالميٍّ للكنيسة النصرانية (325 م) على طريقة الروم الشرقيين في اعتناق ديانة المسيح. (4)

اعتنق هؤلاء الفتية التوحيد، ففروا بدينهم ووقيل أنّهم كانوا من خواصّ الملك، ومن مستشاريه- (5) تاركين بيوتهم وأهليهم إلى حيث يأمنون على دينهم وصحفٍ كانت معهم فيها ما يتدارسونه من عبارات الإيمان، والأخلاق، والمواعظ. وتلك الألواح هي المسمّاة الرّقيم من الرّقم (6) أي الكتابة والإعجام: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾. (7) كانت أنفُسَ لديهم من حياتهم

(1) الكهف، 9-20.

(2) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الكهف=Cave.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (كهف)، 310/9.

(4) ن: هامش: 2-ص: 243 من هذه الدراسة.

(5) ن: تفسير أبي السعود، 209/5. خبر هؤلاء الفتية -أي الفتية الذين ذهبوا في الدهر الأول- أخذ أمور ثلاثة أوعزَ أعبارٌ يثرب إلى وفدٍ مشركي مكة أن يمتحنوا النبيّ صلى الله عليه وسلم - بشأنها طمعًا في إظهار عجزه عن جوابهم. ن: تاريخ الإسلام، 213-212/1.

(6) ن: لسان العرب، مادة: (رقم)، 248/12.

(7) المطففين، 20.

خافوا عليها من عيون السلطة ورجالاتها الذين أمعنوا في اضطهاد المؤمنين، وتعذيبهم، وإهانتهم إذلالاً لهم وتعوياً على طمس نور الإيمان ومعتقيه. لقد آثروا الانحياز إلى الحق رغم إقبال الدنيا عليهم في فتوة الشباب وحماسته. وقد وُصفوا بالفتية لتمييز صفة الفتوة فيهم، فهم شباب متحمسون لدينهم، وللتضحية في سبيل عقيدتهم.

اجتماع اللفظتين: الكهف - الرقيم في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ بعلاقة العطف إرساءً لقيمتين قامت عليهما قصة هؤلاء الفتية ورحلتهم الإيمانية، فالكهف كان المأوى الذي طمحو إليه ليعكفوا فيه على العبادة وتدبر تلك الصحف تقرباً إلى الله تعالى، وأوراقهم فيها عبر دينهم. وكل منهما كان منحةً مصحوبةً بمنحة. ومنحة الكهف انقطاعهم عن أهليهم وراحة العيش في بيوتهم منزوين في كهفهم حيث سكون الحركة وهدأة العبادة والقيام منقطعين عن صخب الحياة وجلبتها، ومنحة تلك الصحف خوفهم من الطلب وانتقام رؤساء المدينة الذين إنما يطاردونهم لأجل هذا الدين والمعتقد.

ويستمر ظل هذا السكون أو ضعف الحركة في الآية التالية: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَعَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، فالفعل: (أوى) يحكي نهاية حركة المضى التي قام بها الفتية في منتهى حركتهم عبر ضواحي المدينة وقرأها حتى بلغوا الكهف، فأوئهم إلى الكهف يصاحبه سكون خواطرهم وتهيؤ أبدانهم للراحة والسكينة: السكينة التي لاءم هذا المقام مقامها في آية الغار من سورة التوبة: ﴿إِذْ هُمْ فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾. (1) ودعاؤهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ مبنيةً استقرار جاشهم. وسؤالهم الله تهينة أمرهم أي أن يرتب لهم الطريق وهم في سلك غاية رضاه دليل ابتداء الطمأنينة والسكينة التي فصارها رقادهم في رعاية عين الله وحفظه لهم. وقد أرادوا الانتساب إلى أصل

(1) الآية: 40.

الرحمة، فقالوا: (مِنْ لَدُنْكَ) أي ابتداءً مِنْ عندك، فهيَّ اللهُ لهم أن يقطعَ عن أسماعهم كُلَّ مُزعجٍ أو مُفزعٍ، فالصوتُ أَوَّلُ ما يوقظُ -عادةً- قَبْلَ الحسِّ، أو الحلم، والرؤيا. وانطباقُ العينينِ في النومِ تَقطَعُهُ اليقظة، فنبصرانِ بعد الانتباه؛ ولهذا أُوتِرَ الصَّرْبُ على الآذانِ، وهو يحكي غايةَ السُّكُونِ وانقطاعِ الحواسِّ عن مباشرةِ المحسوسات، فيكونُ نومُهم مسترسلاً لا يقطعُهُ انتباه، ولا استيقاظ: ﴿فَصَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾. هنا قِمَّةُ ما أرادَ اللهُ أن يبلغوه من الآيةِ العجيبةِ التي تنادي على صورةٍ من صورِ البعثِ يتقوى بها إيمانُ المؤمنين به، ويزولُ عن أهلِ الشِّركِ أو الشَّكِّ كُلِّ ذلك أو شيءٌ منه، فيتفكروا في قدرته -تعالى- إذ رَمَزَ بالإفاقة بعد الإنامةِ إلى البعثِ بعد الموت. وإِنَّمَتُهُمْ هذا النَّومُ الثقيلُ المُطْبِقُ مع بقاءِ حياتهم أعجبُ منها إحياءُ الموتى لانعدامِ الحياةِ فيهم. وبعثُهُم، ثُمَّ قيامُهُم صورتانِ لحركةٍ متواليةٍ صَدَرَتْ بعد الرِّبْطِ على قلوبِهِم أي تثبيتها مِنْ لَدُنْهُ بتهدئةِ خوالجها ليستقبلوا معرفةَ أحوالِهِم العجيبة، ويتمثلوا كرامةَ اللهِ لهم لكونِهِم مِنْ خاصتهِ المُغايِرةِ لأهلِ العادات، فهُم الجماعةُ المُتَنَّى عليها بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَاهُمْ هُدًى﴾. وذلك لِمَا هُم عليه من المثابرةِ والمهاجرةِ. واختيارِ لفظَةِ البعثِ في سياقِ الآيةِ حُسْنُ موقعٍ للصلةِ المعنويةِ بين إيقاظِهِم وبعثِ مَنْ في القبور. ووردَ الرِّبْطُ مُتَعَلِّقًا بفرغِ الفؤادِ في: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾. (1)

يعودُ المشهدُ إلى زمنٍ سابقٍ يجسِّدُهُ حديثُهُم عن قومِهِم الذين ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾. هذا الاتِّخَاذُ الذي يستغرقُ عصورًا مِنَ السَّيرِ في طريقِ الشِّركِ، وجلبِ الأصنامِ، أو صنعِها، وتخصيصِ السَّدنةِ في معابدٍ يتمُّ تقديسُها وحشدُ الثرواتِ لبنائها أعظمَ البناءِ مع ملءِ خزائنها بالذهبِ والنفائس. فالحركةُ -هنا- تستوعبُ من التفاصيلِ والملابساتِ الكثيرَ الذي تمَّ اختزالُهُ في هذه العبارة، ثُمَّ تسكُنُ الحركةُ تمامًا مع عجزِ مشركي كُلِّ عصرٍ عن أن يأتوا بحجة. والحرف: (لولا) جسَّدَ انقطاعَ حجبتهم

(1) القَصص، 40.

وعجزَ ألسنتِهِم عن الانتصارِ لدينِهِم. وإشارتُهُم إلى قومِهِم: ﴿هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ ارتقاءً في الشعورِ لإحساسِ الحسرةِ الذي ساورَهُم لإصرارِ قومِهِم على العنادِ في استمساكِهِم بالأوثانِ.

واعتناقُ الفتيةَ للتوحيدِ واعتزالُهُم لِشِرْكِ قومِهِم صدعٌ بالحق، ونأيٌ عن مضايقِ الضلالِ، وهجرٌ لتلكِ الطُّقوسِ، والشعائرِ، والأعيادِ، والاحتفالاتِ الدِّينيةِ بتجمُّعاتِها ومواكبِها الحاشدةِ التي يزدحمُ الناسُ لشهودِها. ومنَ حيثياتِ ثباتِهِم الذي توافقوا عليه قولُهُم: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي قولاً شططاً أو قولاً ذا شططٍ أي تجاوزَ عن الحدِّ أو قولاً هو عينُ الشططِ، على أَنَّهُ وُصِفَ بالمصدرِ مبالغةً، ثم اقتصرَ على الوصفِ مبالغةً على مبالغة. وحركةُ الاعتزالِ تميلُ إلى جَوِّ من الانزواءِ والخلوةِ لِلتَّخَنُّثِ والدعاء: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾. ونشرُ الرحمةِ وتهيئةُ الأمرِ خاصانِ بتسكينِ الخواطرِ وتثبيتِ القلوبِ بالهدايةِ إلى سبيلِ النجاةِ من طلبِ العدو، وبالترقِّي إلى كمالاتِ نُورِ الهدى والإيمانِ، حيث قصدوا الأمانَ على إيمانِهِم. وأهونُ من ذلك أن يجدوا في هذا الكهفِ رياضةً نفوسِهِم وما يكفيهِم من الزادِ والمستقرِّ. والمزْفَقُ المنافعُ اللازمةُ التي تجعلُ الحياةَ رقيقةً ميسورةً، فهذا الكهفُ -بالنسبةِ إليهِم- مسكنٌ ومأوى، يجدون في أكتافِهِ راحةَ الضميرِ، ويأمنون في ظلامِهِ بنورِ الإيمانِ، وبنجوى اللهِ مبتهلينَ إليه في ليالي الذِّكرِ والقيامِ، فقد هداهم إلى سعادةِ الدنيا والآخرة.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾. هذا استحضارٌ للمخاطبِ بضميرِهِ ليعاينَ مرأى من مرأى رفقهِ بهم وكرامتِهِ لهم برؤيةِ الشمسِ وهي تميلُ عن فوهةِ الكهفِ، وعنهم مُشْرِقةً مُتزاورةً لا زائرةً، فهي لا تقنحُ عليهم رَفْدَتَهُم، فيكونَ من ذلك إزعاجٌ لهم أو أدى للعينِ التي تضيقُ بالنُّورِ يتسلَّلُ إلى ظلمةِ المكانِ. وفي تزاوِرِ الشَّمسِ وتمايلِها -أي أَنَّهُ ميلٌ مُتدرِّجٌ مترنِّحٌ تتبادلُهُ مع الأرضِ التي كأنَّها تميلُ عنها بدورها - مجاوزةٌ وتنايٍ أفادهما الجارِّ: (عن كهفِهِم). فهي تميلُ عنهم، ولا تحومُ حولَهُم. وذاتِ اليمينِ يعني الجهةَ، فيبدو

أَنَّ مَنَفَذَ الكَهْفِ كانَ إلى الشَّمالِ الشَّرقيِّ أي بِنَوائِ عن أهْويَةِ الغَربِ التي لا ثَلاثُمُهم لبرودِتها في الخَريفِ والشِّتاءِ. في حينِ أَنَّ نِساءَ الشَّرقيِّ هي الأَنسَبُ لِظاهِرِ الكَهْفِ وباطنِه، وَلَمَنْ هُمْ بِدَخالِه. وفي هذا تَعطيلٌ لِبعضِ أسبابِ الطَّبِيعَةِ أو قِصرٌ لها لِيوائِمَ ذلكَ ما أودَعَهُ -تعالى- فيهم من عِناصرِ البَقاءِ التي يَحْتَاجُها الجِسمُ في غِذائِه ونِماءِه هذه المِدةَ مع صِلاحِ بيئَةِ الكَهْفِ الذي هُذوا إليه لَهم وطِيبِ هوائِه. وقَرَضَ الشَّمسِ لَهم⁽¹⁾ انصِرافُها عنَهم وقِطْعُها المِساَفَةَ مُجاوِزَةً لِلكَهْفِ فيما يُشَبِّهُ القَرَضَ أي القِطْعَ السَريعَ لِتَدوَمِ عليهِم ظِلْمَةُ الكَهْفِ تلكَ القِرونِ. وهي في غِروبِها أُسْرَعُ مُضِيًّا مِناها وقتَ طَولِها. وحِركَةُ الشَّمسِ في الآيَةِ يَقابِلُها سَكونُهم في فَجوةٍ من الكَهْفِ بِإيرادِ الجِملَةِ اسْمِيَّةً مُصَدَّرَةً بِالضَميرِ: «وَهُمْ فِي فَجوةٍ مِنْهُ» دِلالَةً على الاستِقرارِ والمِلازِمَةِ.

والناظِرُ إليهِم يَحسِبُهم في حالِ اليَقِظةِ: «وَتَحسَبُهم أَيَقاظًا وَهُمْ رُقودًا» لكونِ أعينِهِم تَبدو مُنْفِتحَةً كَأَنَّهُم يَبصِرونَ، وهي في حالِ غيرِ الإِغماضِ لئَلَّا يَتَطَرَّقَ إليها البلى؛⁽²⁾ ولكونِ نومِهِم خارقًا لِلعِادةِ مِغايرًا لِلنومِ الطَّبِيعيِّ. وتَقْلِيبُهُم ذاتِ اليَمينِ وذاتِ الشِّمالِ حِركَةً مُتباَعِدَةً لِحاجَةِ البَدَنِ إلى ذلكَ. ويَقابِلُ هذه الحِركَةَ صِورةً ساكِنةً ثابتَةً هي صِورةُ الكَلبِ وهو باسِطٌ ذِراعِيهِ بِالوَصيدِ أي بِغِنايَةِ الكَهْفِ، أو بِمَدخَلِه، فَقد اتخَذوه لِحِراسَتِهِم من السِّباعِ وَغَيرِها. وتَكيِزُ اسمِ الفاعِلِ وإِعمالُهُ في نِصبِ المِفعولِ في جِملَةٍ حاليَّةٍ يَشيرُ إلى اسْتِقرارِهِ على هذه الحِالةِ باسْتِغراقِ الزَمَنِ المُستَقْبَلِ: «وَكَلَبُهُم باسِطٌ ذِراعِيهِ بِالوَصيدِ». وَالإِطْلاعُ إليهِم، ثُمَّ الفِراقُ مِنْهُم حِركَةً مُتنقِلَةً من مِستوى هِدوِ الحِركَةِ إلى شِدتها. والفِراقُ مِنْ هِيتِهِم ناشِئٌ مِمَّا ألقى اللهُ عليهِم من الوِقالِ والمِهابَةِ؛ أو لِتَغْيِيرِ هِيتِهِم لِبقاءِ طَبِيعَةِ نُموِّ ما يَنمو من البَدَنِ بِطَبِيعَتِه، وهو مِمَّا يُدَلِّلُ على حِقيقةٍ ما مرَّ بِهِم من طَوِيلِ المِدةِ، مع الظِلْمَةِ المُفزِعَةِ لِلكَهْفِ وَكونِهِم في أوضاعٍ مُتقارِبَةٍ مع انْفِتاحِ الأَعينِ والنَّعْجُوِّ بِكلِّ ذلكَ. وامْتِلاءُ

(1) ن: تاج العروس، مادة: (قرض)، 18/19.

(2) ن: التفسير المنير، 224/15.

القلوب رُعبًا حركةً داخليةً مُفعمَةً تُتَرَجِّمُ سرعةَ تدفُّقِ الدمِ في الشرايينِ وسرعةَ النبضِ مُتَوَائِمَةً مع خِفَّةِ الخُطَى في حالِ التَّوَلَّى بِالْفِرَارِ .

وَمِنْ بَعْدِ قِيَامِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ عَنِ الزَّمَنِ الَّذِي لَبِثُوهُ فِي رَقَدَتِهِمْ -إِذْ حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَشَاعِرُ اخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمْ نَاشِئَةٌ مِنْ طَوْلِ نَوْمِهِمْ هَذِهِ السَّنِينَ الطَّوِيلَةَ- أَحْسُوا بِشِدَّةِ الْجُوعِ، فَانْبَرُوا إِلَى بَعَثِ أَحَدِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَأْتِيَهُمْ بِطَعَامٍ، وَقِيلَ أَنْ اسْمَهُ يَمْلِيخَا: (1) ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، فَتَلَطَّفُهُ فِي حَرَكَتِهِ وَتَنَقَّلَهُ -هُوَ يَتَخَيَّرُ مِنَ الْأَطْعَمَةِ الطَّيِّبَةِ مَا تَقِي بِهِ النَّقُودُ - أَمْرٌ يَلْزِمُهُ الْحَرَصُ عَلَيْهِ. وَالتَّلَطَّفُ مُصَدَّرٌ مَزِيدٌ مِنَ اللَّطْفِ الَّذِي هُوَ الرَّفْقُ وَحُسْنُ تَقْدِيرِ الْمَصْلُحَةِ. أَيِ أَرَادُوا أَنْ يَعْتَصِمَ بِالرَّفْقِ فِي تَجَوُّلِهِ وَسُؤَالِهِ عَمَّا يَلْزِمُهُ مُسْتَبْصِرًا عَالِمًا بِمَوَاطِنِ الْخَلَلِ لئَلَّا يُشْعِرَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الطَّلَبِ بِهِمْ، وَبِمَوْضِعِهِمْ. وَقَدْ التَّقَى فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ الْأَمْرُ، وَالنَّهْيُ، وَالتَّوَكُّيدُ جِرْصًا مِنْهُمْ عَلَى تَوْجِيهِ الْحَيْطَةِ وَحُسْنِ الصِّيَانَةِ، حَتَّى أَنَّهُمْ قَدَّمُوا ضَمِيرَهُمْ عَلَى أَحَادِ أَعْدَائِهِمْ: (بِكُمْ أَحَدًا).

وَبَعْدَ مَعْرِفَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ خَبَرَهُمْ جَاءَ إِلَى الْكَهْفِ جَمْعٌ مِنْهُمْ يَتَقَدَّمُهُمْ رِئِيسُهُمُ الَّذِي تَنَصَّرَ عَلَى مَذْهَبِ قَسْطَنْطِينٍ (2) فِي النَّصْرَانِيَّةِ. وَيَبْدُو أَنَّهُمْ هَدُّوا إِلَى الْكَهْفِ بِهَدَايَةِ اللَّهِ لَهُمْ لِمَعْرِفَةِ الْحِكْمَةِ مِنْ بَعْثِهِمْ: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، وَذَلِكَ بِشُهُودِ قِيَامِهِمْ بَعْدَ هَذِهِ الْقُرُونِ، فَالَّذِي أَنَامَهُمْ، ثُمَّ أَقَامَهُمْ هُوَ مَنْ يَبْعَثُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ، فَتَنْقَطِعُ بِذَلِكَ تَخْرُصَاتُ الْمُتَشَكِّكِينَ وَنَقُولَاتُ الْمُبْطِلِينَ الَّذِينَ خَاضَ بَعْضُهُمْ فِي مَدَّةِ مُكْتَبِهِمْ فِي الْكَهْفِ اسْتِنزَالًا لِطَائِرِ اللَّدِّ وَالْخَوْضِ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِ النَّشْرِ وَالْحَشْرِ، فَفِي مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ

(1) ن: تاريخ الرسل والملوك للطبري، دار الكتب العلمية، 1987، 372/1.

(2) ن: هامش: 2-ص: 243 من هذه الدراسة.

الجدل، وهو تنازعٌ يَسُدُّ طريقَ الاعتبار، وينأى بالعقولِ عن النظرِ في العِبرة الذي هو مُؤدَّى قولِهِ في هذه الآيات: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي أعظمَ معرفةً بِمَحَلِّ العِبرةِ ومغزى الآية. وهو تعريضٌ بأهلِ زمانِ الرسالةِ الذين سيخوضون في أعدادهم على عادةِ الناسِ في الزيادةِ في الأخبارِ مع القصِّ والتخيُّلِ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾⁽¹⁾ وأَعْتَرْنَا عليهم هو بإضمارِ المفعولِ أي أَعْتَرْنَاهُمْ، ويعني أَنَّ حركتهم في بحثهم عن موضعِ الفتيةِ انقطعتْ لِمَا عَرَضَ لهم من أمرٍ استوقفهم استدُّوا به على الموضعِ الذي هُم فيه. والتنازُعُ جَلْبَةٌ أصواتٍ مع ازدحامِ أقوالِ الخائضين في أمرِ الفتيةِ وأمرِ بناءِ مسجدٍ على كهفِهِم.

وإقامةُ البُنيانِ على موضعِ أصحابِ هذه الآيةِ العظيمةِ حركةٌ مُقدَّرةٌ في الزمنِ المستقبَلِ تتراوحُ بين رغبةٍ بعضِهِم -فيما يبدو- إقامةَ بناءٍ للعِبرةِ والموعِظةِ؛ ولحفظِهِم من طُروءِ الزائرينِ عليهم واقتحامِ المارةِ بما لا يليقُ بهم؛ ولهذا صدرَ عنهم مقالٌ فيه قُضِدَ رَدُّ أمرِهِم إلى علمِهِ -تعالى- تَنْهِيَةً للتنازعِ: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَهُم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبين إرادةِ أصحابِ السلطةِ: (الذين غلبوا على أمرِهِم) في أن يَتَّخِذُوا عليهم مكانًا للعبادة. وقد يكونُ اتِّخَاذُ المساجدِ على القبورِ مِمَّا تجيزُهُ عقائدُهُم في ذلك العصرِ، والأقربُ أَنَّهُ من ابتداءاتِ بَدَعِ النصرانيةِ التي لم يرعوا عنها بقريئةِ صدورِها من أصحابِ السلطةِ الذين نُسبَ إليهِم في الآيةِ معنى الغلبةِ والسطوةِ أي قهرِ الرعايا على اعتناقِ مذهبِ السلطةِ. وهو ما يشيرُ إلى عَدَمِ انطباقِ أقوالِ الناسِ في تلكِ الآونةِ على هذا المذهبِ. فإذا كان خروجُ الفتيةِ من الكهفِ خِلالَ القرنِ الرابعِ الميلاديِّ أي في أيامِ استفحالِ الجدلِ حَوْلَ قضايا النصرانيةِ -ومنها قضيةُ الثالوث- إِبَّانِ انعقادِ المِجامعِ المسكونيةِ كمجمعِ نيقيةِ والقسطنطينيةِ، فإن دعاوى التوحيدِ كانت قد ضعفت، وخشي المؤمنون على أنفسهم،

(1) الكهف، 22.

وعلى أبنائهم من الاضطهاد لأجل مخالفة آراء رؤساء الكنائس المختلفة، وسيطرت -
تدريجياً- المقولات اللاهوتية والعقائد الكنسية. (1)

مَثَلٌ هذا النَّمُودُجُ القرآنيُّ جانباً من أداءِ الوظيفةِ الفنيةِ لعنصرِ السُّكونِ -مع التركيزِ عليه- وعنصرِ الحركةِ في بعضِ تجلياتها. أسفرت عن هذا الأداءِ عناصرُ السَّكينةِ والإيواءِ إلى مسكنٍ من خلالِ البُعْدِ التصويريِّ الذي هو الكهفُ باعتباره عنصراً طبيعياً وطاقَةً إِبْحَائِيَّةً استوعبتْ مَكُونَاتِ القِصَّةِ وأبعادها النفسيَّةَ والإيمانيَّةَ من وقتِ دخولِ الفتيَّةِ الكهفَ إلى عثورِ وفدِ الأعيانِ والبطارقةِ عليهم داخله. ومن أحوالِ المؤمنين المُمْتَحَنِينَ المُبْتَلِينَ في كُلِّ العصورِ هجرَتُهُم بِدينِهِم والتجاؤُهُم إلى حيثُ يأمنونَ على عقيدَتِهِم، وشعائِرِهِم، وتفرُّغِهِم للعبادةِ والقُربِ منه تعالى، فكان هذا المشهدُ مثلاً للتجربةِ الإنسانيَّةِ الإيمانيَّةِ الفريدةِ التي خاضها أصحابها في سبيلِ العقيدةِ بَعْدَ تعرُّضِهِم لمحنةِ الاضطهادِ من قِبَلِ الجبابرةِ الذين شأَنُهُم طمسُ النورِ الإلهيِّ في العالمِ، ويأبى اللهُ إِلَّا أن يُنمِّ نوره، ويُطفئَ نارَ أعداءِ النورِ والإيمانِ.

والميعادُ الذي وَعَدَ اللهُ عبادهِ يتحقَّقُ بَفَناءِ العالمِ وبعثِ الخلائقِ لحسابِهِم لئلاَّ يلبسَ الصالحُ بضده. وأمرُ البعثِ هو من مقاصدِ السورةِ الأساسيَّةِ، وهو الغايةُ التي لأجلِ الإيمانِ بها أحدثَ اللهُ لهؤلاءِ الفتيَّةِ الكرامةِ الناجزةِ والحالِ العجيبةِ. ومن هنا كان خبرُهُم قرآناً يُتلى وَعَلَمًا على سورةِ هي واسطةُ العِقْدِ من الكتابِ العزيزِ. وَذِكْرُ فَناءِ العالمِ وحشرِ الناسِ مَعْنَيَانِ تَضَمَّنْتُهُمَا آيَاتانِ في أولِ السورةِ وآخِرِها: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (2) أي قاحلة، جرداء، مُمَحَلَّة، صِلْدَة، (3) ويحاكي صِلْدَة صعيدها بجرسها وصداها

(1) ن: هامش: 2-ص: 243 من هذه الدراسة.

(2) الكهف، 8.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (جرز) 316/5.

جرس الكلمة: جُز، ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾. (1)

2212 موسى والخضر عليهما السلام

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ

(1) الكهف، 99.

يَتِيمِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿١﴾.

في هذا المشهد من السورة يزداد عنصر الحركة حيويةً وتفاعلاً قياساً إلى المشهد السابق، ويتقلص عنصر السكون الذي غلب على مشهد قصة أصحاب الكهف. وهذا يعني أن خواص الحركة والفعل هي في تطورٍ وتنامٍ لتبلغ ذروتها في القصة التالية: قصة ذي القرنين.

هذه القصة -أي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام- هي من فرائد القرآن في الدلالة على خلق التواضع لله تعالى، ودرء الكبر، وإخلاص النية في طلب العلم وتطلب الارتقاء في كمالات المعرفة باكتساب العلوم من مظانها التي يعلمها الله عز وجل، ويُقدّر مراتبها، ويعلم أقدارها من شخوص خصّهم بمكانة النبوة، أو برتبة العلم والهدى اللذين ألهما ورثة الأنبياء. وقد تقدّم في السورة سرد لقصة إبليس الذي هو مثل الكبر وحامل لواء العجرفة والحسد الذي حملهُ على أول المعاصي من إباء الامتثال لأمره -تعالى- في السجود لنبي الله آدم -عليه السلام- وإزمار العداوة والشنآن الأعظمين لذريته. وذلك في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾. (2) فهذه معطوفة عليها عطف القصة على القصة.

"وَلِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ مَا سَأَلَ الْمُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ أَمَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ قِصَّتَيْنِ: قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ وَقِصَّةِ ذِي الْقُرْنَيْنِ. وَقَدْ تَقَضَى الْجَوَابُ عَنِ الْقِصَّةِ الْأُولَى وَمَا ذُيِّلَتْ بِهِ، وَأَنَّ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى الْجَوَابِ عَنِ الْقِصَّةِ الثَّانِيَةِ... قُدِّمَتْ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ الثَّانِيَةِ قِصَّةٌ لَهَا شَبَهٌ بِهَا فِي أَنَّهَا تَطَوَّفُ فِي الْأَرْضِ... وَهِيَ قِصَّةُ سَفَرِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِطَلَبِ لِقَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى عِلْمٍ لَا يَعْلَمُهُ مُوسَى. وَفِي سَوَاقِ هَذِهِ الْقِصَّةِ تَعْرِيفُ

(1) الكهف، 60-82.

(2) الكهف، 50.

بِأَهْلِ الْكِتَابِ بَأَنَّ الْأُولَى لَهُمْ أَنْ يَدُلُّوا النَّاسَ عَلَى أَخْبَارِ أَنْبِيَاءِ إِسْرَائِيلَ، وَعَلَى سَفَرٍ لِأَجْلِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ". (1)

وخبّر موسى مع الخضر -عليهما السلام- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ (2) من حديث أبي بن كعب أَنَّ موسى -عليه السلام- سُئِلَ فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنِ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَأَشَارَ إِلَى نَفْسِهِ، فَأُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّ الْعَبْدَ الصَّالِحَ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ (3) أَعْلَمُ مِنْهُ، وَهُدِيَ إِلَى عِلْمِهِ يَتَعَرَّفُ بِهَا إِلَيْهِ..

قول موسى -عليه السلام- لفتاه: (4) ﴿لَا أَبْرُحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ قولُ الْمُتَيَقِّنِ مِنْ لِقَاءِ مَطْلُوبِهِ، إِذْ عَقَدَ النِّيَّةَ عَلَى ذَلِكَ بِذِكْرِ الْغَايَةِ وَاسْتِعْرَاقِ الزَّمَنِ: (حُقْبًا).

وقوله: (لا أبرح حتى أبلغ) نصٌّ في المداومة على الحركة حتى تبلغ غايتها. ولا أبرح أي لا أزل، ولا أنقطع عن الفعل، وهو مشتقٌّ من البرح الذي هو الشَّرُّ والعذاب الشديد (5) أي أنه ينفي عن نفسه الشدَّة والمشقة بمكافحتيهما ودفعيهما، حتى ينال ما يؤمل من هذه السياحة والتطواف في الأرض. وقد وردَ هذا الفعلُ في قوله من سورة يوسف: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لِي﴾ (6) والبلوغُ والمضيُّ حركتانِ مستقبلتان: الأولى منهما قاصرةٌ تنتهي بالإشرافِ على المكانِ المنشود، والأخرى: غيرُ محدودةِ الإطارِ لاستِعْرَاقِهَا حَيَّرًا مِنَ الزَّمَانِ غَيْرَ مُنْضَبِطٍ بِمَدَّة.

(1) ت ت ت، 359/15.

(2) ن: الصحيحين، 1246/3، 1847/4.

(3) لعلهُ مَصَّبُ نَهْرِ الْأُرْدُنِّ فِي بُحَيْرَةِ طَبْرِيَّةٍ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ، وَبِحِذَاءِ ذَلِكَ الْأَرْضِ الْمُسَمَّاهُ بَحْرَ الْجَلِيلِ عِنْدَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ، وَيُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْ نَصِّ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ أَنَّ مَسِيرَةَ سِيرِهِمَا يَوْمَ وَلِيْلَةٍ. ن: ت ت ت، 362/15.

(4) هو يوشع بن نون من سبط أفرام، وهو أحدُ الرجلين المذكورين في سورة المائدة في الآية: 23. وقد أوحى إليه بعد موسى عليهما السلام. ن: الصحيحين، 1751/4-56/1، 1847/4، وت ت ت، 360-359/15.

(5) ن: لسان العرب، مادة: (برح)، 408/2.

(6) الآية: 80.

والعلامة التي جعلها الله -تعالى- لنبيِّه موسى -عليه السلام- هي اختفاء الحوت الذي أمر باستصحابه، كما ورد في صحيح البخاري: "احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَهُ، فَهُوَ تَمَّ".⁽¹⁾ أي أن العبد الصالح يكون بموضع فُقدان الحوت. والحوت علامة تنسجم مع عناصر في هذه الرحلة كالبحر ونحوه.

وفي طريق سيرهما أدركهما النعاس، فأوياً إلى الصخرة ليناما، حيث الموضع المقصود، وهناك عادت الحياة إلى الحوت، فمضى إلى البحر في غفلة منهما: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾. وجرى بيان ذلك في حديث البخاري: "حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا، وَنَامَا، فَأَنْسَلَّ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا".⁽²⁾ وقد رأى يوشع انسلال الحوت إلى البحر، كما يتبين في الآية التالية؛ ولكنه نسي ذكر ذلك لموسى -عليه السلام- لشدّة وطأة النوم الثقيل الذي ساورته وسوسة الشيطان التي أحالت الفكر والتذكّر بعد انقطاع النوم برهة. ونسيان موسى يعني عدم تعهده تابعه بتذكيره بما أوعز به إليه. ومجمّع بينهما يشير إلى دقة الموضع الذي جاوزه حيث حدوث العلامة الإلهية، فهو رسمٌ للخطّ الفاصل بين النهر والبحيرة، فلا غرور أن يتحدّد المكان بهذه الدقة التي عبّرت عنها الصياغة الفريدة للظرف.

واتخذ سبيله في البحر سرّباً أي سلك فيه مسلكاً عجيباً يتضمّن معنى الانسلال والخفاء أي مضيّاً تحقّق بعد سريان الحياة في الحوت. وقد يكون السرّب مصدرًا⁽³⁾ مقويّاً ومعمّقا لفجأة الانطلاق وخفّة التوجّه مع تواريه، أو بمعنى اتخاذه نفقاً في الماء الذي تقوّس عليه، كما ورد في الحديث،⁽⁴⁾ وهي علامة متّمة لاضطراب الحوت ودخوله في البحر. وانفتاح الكلمة: (السرّب) في أصولها الثلاثة محاكاة صوتية لانفتاح الطريق أمام

(1) 56/1. والمكّتل: ما يُحمّل فيه التمر ونحوه كالفُقّة أو الرّزّيل، ن: لسان العرب، مادة: (كتل)، 582/11.

(2) 56/1.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (سرب)، 462/1.

(4) "فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جِزِيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ مِثْلَ الطَّاقِ"، صحيح البخاري، 1246/3. والطّاق في لسان العرب ما

عُطِفَ من البناء ونحوه، مادة: (طوق)، 231/10.

الحوثِ وخلوها من العوائق. ومن أمثلة السَّرْبِ في القرآن آية الرعد: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

وبعدُ مجاوزتهما المكان: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ تستقرُّ الحركة، ويهدأُ السيرُ طلبًا للراحةِ والطعامِ بعدَ شدةِ المسيرِ ونصبِ الرحلة. يتضمَّنُ حديثُ تابعِ موسى -عليهما السلام- استرجاعًا لبعضِ عناصرِ حركتهما وحركةِ الحوثِ فيما تقدَّم من الرحلة، فهي صورةٌ للحركةِ متقدِّمةٌ زمنيًّا:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. وإنساءُ الشيطانِ له -مع أنَّ المنسيَّ أمرٌ من العجائب- داخلٌ في كونه لا يفنُّ عن ترصُّدِ الخيرين بالشواغل، وبما يلهيهم حتى يمنعَ علمًا نافعاً وصالحًا مزججًا، ولو بتأخيرِ وقوعه بنصبِ العوائقِ المُخِلَّةِ والوساوسِ المُضِلَّةِ. وجملته المصدر: (عَجَبًا) تتضمَّنُ وصفًا جامعًا لما تقدَّم من متعلِّقاتِ لفظة: (سَرِبًا) وإيحاءاتها المُتنوِّعة.

ثمَّ عادا إلى حيثُ فُقدَ الحوث: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾، إذ أدركَ موسى -عليه السلام- حدوثَ العلامة. والارتدادُ يلزمُ منه حُسْنُ توجُّيِ كيفيةِ إيايهما، حتى كأنَّهما يقفوان آثارَ سيرهما مُتحرِّين في حركتهما ألاَّ تتشعبَ بهما الطريق؛ بل يقتصران على أقصرِ السبلِ حفاظًا على الوقتِ ورجاءِ قُرْبِ لُقيا العبدِ الصالحِ قبلَ أن يفوتَهُما. وأكَّد ذلك بالمصدر: (قَصَصًا) من قَصَّ الأثرِ أي دقَّةِ اقتفائه ومتابعته.

ويتمُّ اللقاءُ بالحَضِرِ عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. وهذه لحظةٌ للسكونِ والتأملِ، فهذا هو العبدُ الصالحُ المخصوصُ بالعلمِ الذي لم يكنْ لغيره، وبرحمةِ الوحيِ والنبوةِ، فكان مقصدَ وغايةِ كليمِ الله في هذه السياحة. (1)

(1) ن: التفسير المنير، 297/15.

والأرجح أنه نبي في أمة غير الأمة الإسرائيلية⁽¹⁾ التي أرسل إليها موسى -عليه السلام- في تلك الآونة. ووجه ذلك أن الأفعال التي قام بها إنما تصدر عن وحي، فالإلهامات لا تتضمن هذه التصرفات لعمومها، وإنما تشمل أقوالاً، ومواعظ، ونحو ذلك؛ ولأن بعضها قد يكون وساوس إذا كانت لغير نبي. وقد قال الخضر في نهاية القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي فعلته عن أمر الله ووحيه. وليست الولاية فوق النبوة، فيسند إلى وليّ تعليم نبي في رحلة طلب لسمو المعرفة وبعض أسرارها. وقد قال الخضر لموسى -عليه السلام- كما صح في الحديث: "إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكُهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ".⁽²⁾ وقد قال -تعالى- عن الخضر: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. والرحمة النبوة، كما في قوله في الآيتين: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾،⁽³⁾ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾.⁽⁴⁾ ومقام العبودية تشریف للخضر -عليه السلام- لكونه من المُصطَفين الذين هم بمكان القرب التشریف من الله الذي خصه بعلم عزيز، كما خص النبي صلى الله عليه وسلم -بقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾.⁽⁵⁾ وعدم ذكر نبوته في الآية والأحاديث متساوق مع إرساء قيمة التواضع، والتواضع في الأدب مع الله، ورد العلم الأتم إليه تعالى، فإخفاء نبوته ترسيخ لأدب أرادَه اللهُ أن يتعمق في نفس موسى عليه السلام.

تتضمن المحاوره بينهما حركتهما في مستقبل الرحلة من الاتباع بما يحويه من أحداث، ومن التعلم بشرطه، ووعد موسى الخضر -عليهما السلام- بالصبر مع تعليق

(1) ن: ت ت ت، 15/363-364-16/16.

(2) صحيح البخاري، 3/1246.

(3) القصص، 86.

(4) الزخرف، 32.

(5) الجن، 19.

ذلك على المشيئة، وذلك من قول موسى: ﴿هَلْ أَتَبِعُكَ﴾ إلى قول الخضر: ﴿حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

"وَأَكَّدَ جُمْلَةً ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ بِحَرْفِ (إِنَّ)، وَبِحَرْفِ (لَنْ) تَحْقِيقًا لِمَضْمُونِهَا مِنْ تَوَقُّعِ ضَيْقِ ذَرَعِ مُوسَى عَنْ قَبُولِ مَا يُبَدِيهِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ تَصَدَّرُ مِنْهُ أَفْعَالٌ ظَاهِرُهَا الْمُنْكَرُ وَبَاطِنُهَا الْمَعْرُوفُ. وَلَمَّا كَانَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَقَامَهُمُ اللَّهُ لِإِجْرَاءِ الْأَحْكَامِ عَلَى الظَّاهِرِ، عَلِمَ أَنَّهُ سَيُنْكَرُ مَا يُشَاهِدُهُ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ لِإِخْتِلَافِ الْمُشْرَبِينَ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُقَرُّونَ الْمُنْكَرَ.

وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْهُ لِمُوسَى وَتَنْبِيهُ عَلَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنْهُ حَتَّى يُقَدِّمَ عَلَى مُتَابَعَتِهِ إِنْ شَاءَ عَلَى بَصِيرَةٍ، وَعَلَى غَيْرِ اغْتِرَارٍ". (1)

والانطلاق في ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ حركة مُضِيٍّ أَي مَضِيًّا نَشِطِينَ لِتَشْوُقِ الْمُتَعَلِّمِ إِلَى عِلْمٍ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ؛ وَلِحَرَصِ الْعَالِمِ عَلَى إِسْدَاءِ مَا أُمِرَ بِتَعْلِيمِهِ إِلَى طَالِبِهِ مَعَ تَوَجُّهِ كِلَيْهِمَا حُسْنَ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أُمِرَ بِهِ، وَنَدْبَهُمَا إِلَيْهِ. وَتَتَوَالَى عُنَاصِرُ الْحَرَكَةِ مِنَ الرُّكُوبِ فِي السَّفِينَةِ، وَخَرَقَهَا، وَالْإِغْرَاقِ الْمُتَوَقَّعِ لِأَهْلِهَا مَعَ تَسَارُعِ النَّسِقِ بِقَرِينَةٍ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ: (إِذَا) غَيْرِ الْمُتَضَمِّنِ مَعْنَى الشَّرْطِ لِلْإِهْتِمَامِ بِهِ، فَوْقَ الرُّكُوبِ مَقْصُودٌ لِإِيقَاعِ الْفِعْلِ فِيهِ. وَالرُّكُوبُ مُضَمَّنٌ مَعْنَى الدُّخُولِ لِكُونِهِ رُكُوبًا مُجَازِيًّا؛ وَلِأَجْلِ ذَلِكَ ضَمِّنَ مَعْنَى (فِي) الظَّرْفِيَّةِ، كَمَا فِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾، (2) وَالْأَصْلُ فِي الْفِعْلِ مَا وَرَدَ فِي النُّحْلِ: ﴿لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾. (3)

وتلا ذلك قتل الغلام وإقامة جدار القرية الذي أوشك على التداعي: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَضَمُّهُ فَقَالَتْ إِنَّهُ قَتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. ولم يزل موسى - عليه السلام - يلقي المعاذير.

(1) ت ت ت، 371/15.

(2) الآية: 40.

(3) الآية: 8. ن: السابق، 375/15.

والخضر يُمهله حتى فارقه في الثالثة بعد تأويله لما رأى موسى، وعجب منه. وكان قتل الغلام الأشد عليه؛ ولهذا قال: «لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا»، فهو قتلٌ لنفسٍ معصومةٍ حسب الظاهر الذي أسند موسى -عليه السلام- حكمه إليه، والمقتول غير مُكَلَّفٍ بقرينة وصفه بالطهر والزكاة. وصورة الجدار صورةٌ لتداعيه، فهي حركةٌ داخليةٌ غيرٌ ظاهرة، وهو يكاد ينقض. فهذا تشخيصٌ أو تجسيدٌ⁽¹⁾ للجماذ بنسبة الإرادة إليه. وإقامة الجدار حركةٌ إصلاحٍ وتعهُدٍ اعترض عليها موسى عليه السلام، كما عارض قبل ذلك ما يُضادها لكونها حركةٌ إفسادٍ وهدمٍ أي تصرف الخضر في خرق السفينة وقتل الغلام.

وقد مثل تأويل العبد الصالح للحوادث السالفة سباقًا متحرِّكًا من الصور من السفينة -أولاً- التي هي لمساكين يعملون في البحر مع صورة الملك الذي كان يأخذ السفن غصبًا. وحركة عملهم في البحر تتسع لطلب الرزق والتعرض للأخطار، إذ يكدحون دهرهم. وغضب السفن يتضمَّن اضطهاد الناس وظلمهم بالتعدي عليهم وإرهابهم. وقد أراد أن يعيها لتنجو من سطوة الظالم المتجبر، وثانيًا: من الغلام الذي خشي منه على إيمان أبيه، وطغيانه وكفره حركةٌ في الحياة تتسع لشرور عظيمة ومخاطر وخيمة، وثالثًا: من الكنز الذي دُفِنَ تحت جدار اليتيمين اللذين هما ابنًا رجلٍ صالح. والقيام باستخراج الكنز من أسفل الجدار مضافٌ إلى الزمن المستقبل أي يوم يستطيع اليتيمان أن ينتفعا بمال أبيهما.

كان موسى -عليه السلام- يُرتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة باجتهاده، فهو رسولٌ جاء بشريعةٍ تستندُ أحكامها إلى الظواهر والوقائع ككلِّ الشرائع والقوانين. وبخلاف ذلك ما كان من وحيٍ فيه أمرٌ خفيٌّ أسابيه، أو غمضت حوادثه كالذي أوحى إلى الخضر -مثلًا- في أمر الغلام، فقد أمر بقتله لسابق علم الله بما يؤول إليه أمره من

(1) ن: النقد الأدبي، سيد قطب، دار الشروق، د.ت، ص: 61، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، 1983، ص: 168-170، وفلسفة المكان في الشعر العربي، حبيب منسي، اتحاد الكتاب العرب، 2001 م، ص: 53، والصورة الفنية في شعر الطائيين، وحيد صبحي، اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص: 150.

الطغيان والعقوق؛ بل قد يُفسدُ على أباويه إيمانَهُما بأنَّ يُضِلَّهُما بفسادِ العقيدةِ الذي يختارُهُ وفقَ حريتهِ الخالصةِ في الاختيارِ، فموتُهُ خيرٌ له لكونِهِ غيرَ مُكَلَّفٍ في ذلكِ الوقتِ؛ وخيرٌ للأبوينَ لحفظِ دينيهما: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾. والعلمُ الذي أوتِيَهُ الخَضِرُ كانَ مآلَ نفعِهِ بتحقيقِ مصلحةٍ أو دَفْعِ مفسدةٍ عن مُعَيَّنِينَ، ولم يكنَ تشريعًا ينصرفُ إلى غيرِهِم من الناسِ.

ومنَ حِكمِ هذهِ القصةِ ما يتعلَّقُ بالقَدَرِ، وبخفاءِ أسبابِهِ وحقائقِهِ التي تُحجَّبُ عن الفُهومِ والعقولِ على الدَّوامِ، أو إلى حينٍ يعلمُهُ اللهُ، ويُقدِّرُ موعدَهُ.

لعلَّ موسى -عليه السلام- في هذهِ القصةِ كانَ معَ رفيقِهِ على سجيَّتِهِ، فلمَ يتعهَّدُ نَفْسَهُ بتكَلُّفٍ تذكُرُ وعدِهِ والتزامِهِ بميثاقِ الرحلةِ الغامضةِ النورانيةِ؛ وذلكَ استغناءً منه للعلمِ الذي يؤمِّلُهُ والحكمةِ التي يرتجِيها ممَّنْ هو أعلمُ بالخفيَّاتِ وأسرارِ القَدَرِ. أي كانتِ اعتراضاتُ موسى وأسئلتهُ أوقعَ أثرًا وأغنى للعضةِ والاعتبارِ، إذ حاكى بذلكَ طبائعَ البشرِ في استعجالِ النتائجِ والحُكمِ على الظواهرِ دُونَ ترقُّبِ تجلِّياتِ الغيبِ وكشفِ الغوامضِ، وما وراءَ الحُجُبِ. (1) وتحقَّقَ للقصةِ بذلكَ عناصرُ التوتُّرِ وأنواعُ المفارقةِ، حتى اكتملتِ على أتمِّ وجهٍ من قوَّةِ التأثيرِ والإقناعِ.

ومنَ رموزِ القصةِ المكانُ الذي تمَّ تحديدهُ للقائِهِما أي عندَ مجمَعِ البحرينِ اللذينِ كأنَّما يشيرانِ إلى علمِ موسى والخَضِرِ عليهما السلامِ، إذ كلُّ منهما بحرٌ علومٍ خصَّه اللهُ بها، وتبَّتْ الفائدةُ باستلهاَمِ علمِهِما، وما يستوحى من معاني قصتِهِما.

ويجمَعُ هذهِ الأسرَ في تلكِ الأصقاعِ ضعفُ الحالِ حالِ الفاقةِ وقلَّةِ المعينِ. وتلكِ إشارةٌ إلى حقيقةٍ من جوهرِ الدينِ، وهي ما للتكافلِ وبذلِ الوُسْعِ في المعونةِ وإسداءِ المعروفِ من شأنِ عظيمٍ؛ ولهذا وُصِفَ العبدُ الصالحُ بأنَّهُ أوتيَ رحمةً من رَبِّهِ: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾. والنبوَّةُ رحمةٌ عامَّةٌ وخيرٌ عميم

(1) ن: كتاب المواقف لأبي فضل الإيجي، ت: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، 1997، 421/3-437، وفي ظلال القرآن، 2281/4.

"وَأَعْلَمَ أَنَّ قِصَّةَ مُوسَى وَالْحَضِرِ قَدْ اتَّخَذَتْهَا طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ النَّحْلِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَصْلًا بَنَوْا عَلَيْهِ قَوَاعِدَ مَوْهُومَةٍ. فَأَوَّلُ مَا أَسَّسُوهُ مِنْهَا أَنَّ الْحَضِرَ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا كَانَ عَبْدًا صَالِحًا، وَأَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي أُوتِيَهُ لَيْسَ وَحْيًا؛ وَلَكِنَّهُ إلهَامٌ، وَأَنَّ تَصَرُّفَهُ الَّذِي تَصَرَّفَهُ فِي الْمَوْجُودَاتِ أَصْلٌ لِإثْبَاتِ الْعُلُومِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَأَنَّ الْحَضِرَ مَنَحَهُ اللَّهُ الْبَقَاءَ إِلَى انْتِهَاءِ مُدَّةِ الدُّنْيَا لِيَكُونَ مَرْجِعًا لِتَلْقَى الْعُلُومِ الْبَاطِنِيَّةِ... وَبَنَوْا عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْإلهَامَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْوَحْيِ... وَقَدْ فَصَّلَهُ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي الْبَابِ الْخَامِسِ وَالْتَّمَانِينَ مِنْ كِتَابِهِ (الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ)". (1)

ويتلخَّصُ عمومُ الحركةِ في هذا المشهدِ في نسقين: نسقٍ متابعَةٍ تابعِ موسى - عليهما السلام - له حتى لقاءِ الحَضِرِ، ونسقٍ اتباعِ موسى للحَضِرِ - عليهما السلام - حتى نهايةِ القصة. فهي حركةٌ محدودةٌ مقارنةً بالنموذجِ الآتي، وذاتُ اتجاهاتٍ منتظمة.

3212 بين مغربِ الشمسِ ومطلعِها

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَّبَعْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُتَّخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ

(1) ت ت ت، 16/15-16. ن: الفتوحات المكية لابن عربي، (م)، 196/1-213-217/2.

حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغُ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا: (1)

تبلُّغ عناصر الحركة في اجتماعها والتناميها ذروتها في هذا النموذج من خلال تحركات جيوش ذي القرنين وما انضم إليها من جموع الصُّناع والعمال في مجاهل الأرض ومطامير المعمور مُخترقًا الآفاق ومسالك الممالك في طلبِ عدو، أو في ترصُّد أقوامٍ لمعرفة أحوالهم، أو في حركة تشييد كبناء السدِّ أو السور.

ذو القرنين رجلٌ من عظماء العالم خفيت أخبار سيرته، أو أُجمل كثيرٌ منها عن الناس والعلماء بالتواريخ؛ ولذا علّم أخبار اليهود زعماء قريش أن يمتحنوا النبي صلى الله عليه وسلم - بسؤاله عن أمورٍ منها خبرٌ أحدٍ أعظم بناء العالم وقادته الفاتحين أي بتحقيق أخبار قصته وتفصيلها. (2) وكان علمهم بهذه الأمور مُجملاً عدوه من أسرارهم التي يزهون بكنزها.

ومدارُ القصة ومآل العبرة يؤول إلى سياسة المصلحين بالعدل وبثِّ الصلاح في المعمور مع بيان اختلاف أحوال الناس وتحقق مراتبهم في التعقل والرقى.

"وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا تَخْلِيْطُ فِيهِ مِنْ حَالِ الرَّجُلِ الَّذِي يُوصَفُ بِذِي الْقَرْنَيْنِ بِمَا فِيهِ إِبْطَالٌ لِمَا خَلَطَ بِهِ النَّاسُ بَيْنَ أَحْوَالِ رِجَالٍ عُظْمَاءَ كَانُوا فِي عُصُورٍ مُتَقَارِبَةٍ، أَوْ كَانَتْ قَصَصُهُمْ تُسَاقُ مَسَاقَ مَنْ جَاسُوا خِلَالَ بِلَادٍ مُتَقَارِبَةٍ مُتَمَاتِلَةٍ، وَشَوَّهُوا تَخْلِيْطُهُمْ بِالْكَادِبِ. وَأَكْثَرُهُمْ فِي ذَلِكَ صَاحِبُ الشَّاهِنَامَةِ الْفَرْدَوْسِيِّ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِالْكَادِبِ وَالْأَوْهَامِ الْخُرَافِيَّةِ". (3)

(1) الكهف، 83-98.

(2) ن: هامش: 5-ص: 204 من هذه الدراسة.

(3) ت ت ت، 18/16.

والأظهرُ في لفظِ ذي القرنينِ أَنَّهُ لقبٌ له اكتسبَهُ من نعتِ نعتَهُ بهِ الناسُ أو بعضُ حاشيتهِ، فهو -على هذا- لا يتعلَّقُ بهيئتهِ أي بصفةٍ ترتبطُ بشعره، أو بخوذةٍ يضعُها على رأسه، أي أَنَّ هذا اللقبَ كنايةٌ عن قوتهِ وإقدامه في نفاذِ جيوشه في الممالكِ وسطوته على أعدائه. وقولُهُم ذو القرنينِ هو بمثابةِ أن يقال: ذو القوتينِ أو السلاحينِ. وهذا تعظيمٌ لبأسه وتكثيرٌ لأعدادِ مَنْ يقاتلُ تحت رايتهِ.

ويبدو أَنَّ جانبًا من مسرحِ القصةِ هو بلادُ شرقِ آسيا التي يترجَّحُ أَنَّ ذا القرنينِ منها، وتحديداً من الصينِ التي يبدو أَنَّهُ أحدُ عظمائها أو عظماءِ ملوكها. وتلك الأَرْضُ وما حَوْلها لم يردْ ذِكْرُ أحداثٍ تخصُّها في القرآنِ إلَّا في هذه القصةِ، فناسَبَ أن يُعتنى بخبرٍ مُجملٍ يتعلَّقُ بها لدواعٍ مُتضمنةٍ في الخبرِ داعيةٍ إلى سوقِ القصةِ لمحلِّ العبرةِ منها.

والذي يُرجَّحُ أَنَّ ذا القرنينِ هو من بلادِ الصينِ أمورٌ منها: أَنَّ أهلَ الصينِ عُرفوا منذ القدمِ بأنَّهم أهلُ صناعاتٍ وصنائعٍ مع تدبيرٍ في سياسةِ الأموالِ وتثميرها، وأنَّ كثيراً من ملوكهم كانت لهم سياساتٌ إصلاحٍ أجروها على رعاياهم بمراعاةِ المصلحةِ وبثِّ العدلِ، وأنَّ السدَّ والرَّدَمَ المتعاضمَ الذي بين بلادهم وبلادِ المغولِ الواردَ ذِكْرُهُ في كتبِ الجغرافيا والتاريخِ القديمة⁽¹⁾ لم يُعرفْ له نظيرٌ في العالمِ، فلم يوجَدُ إلَّا لديهم؛ ولهذا نُسبَ إليهم، فقيل: سورُ الصينِ العظيمِ، وأنَّهُ وَرَدَ في الحديثِ المُتَّفَقِ عليه أَنَّ شراً عظيماً اقتربَ أوأنَّهُ لابتداءٍ فتحٍ مثلِ الحلقةِ من سدِّ يأجوجَ ومأجوجَ، فإذا كان السدُّ هو السورُ الأعظمُ، فإنَّ هؤلاءِ هُمُ المغولُ الذين كانت لا تنقطعُ إغاراتُهُم واجتياحاتُهُم لما يليهم من الأقاليمِ الصينيةِ. (2) قال صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ أَقْتَرَبَ! فَتُحِ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمِ

(1) ن: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لشمس الدين البناء، ت: غازي طليعات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي،

1980، ص: 242، ومعجم البلدان، 198/3.

(2) ت ت ت بتصرف، 22/16.

يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا".⁽¹⁾ وهذا يعني اقتراب عهد غزو التتار - وهم قبيلة مغولية - للعالم الإسلامي وحاضرتيه بغداد 1258 م.

يترجَّحُ عندي أنَّ ذا القرنينِ قائدٌ عظيمٌ من قادة الممالكِ الصينية، أو أنَّه أميرٌ من أمراءِ ممالكِها استقلَّ بشأنه، وكانت له مكانةٌ وقوةٌ ممَّا هيأ له سطوةً وهيبةً جانب. وقد كان مؤمنًا بالتوحيدِ مُلهَمًا بالرؤى وغيرها. لعلَّه تأثَّرَ بفلسفةِ (كونفوشيوس)⁽²⁾ في تنمية الشخصية الأخلاقيةِ وتوسيعِ فكرةِ المسؤولية. وهذا مشاهدٌ في تاريخِ الحضاراتِ أي أنَّ يتجه أحدُ الملوكِ أو الرؤساءِ المنتمين إلى حضارةٍ ما إلى اعتناقِ مبدأٍ دينيٍّ مخالفٍ للسياقِ العامِّ الذي تسيرُ عليه أمتهُ، كما حدَّثت في مصرَ الفرعونيةِ في عهدِ أخناتون.⁽³⁾

"وَلَمَّا ظَنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ (إِسْكَندَرُ بْنُ فِيلِيْبُوسَ)، نَحَلُوهُ بِنَاءَ السَّدِّ، وَزَعَمُوهُ مِنْ صُنْعِهِ، كَمَا نَحَلُوهُ لَقَبَ ذِي الْقَرْنَيْنِ. وَكُلُّ ذَلِكَ بِنَاءٌ أَوْهَامٍ عَلَى أَوْهَامٍ، وَلَا أَسَاسَ لَوَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَلَا عَلاَاقَةَ لِإِسْكَندَرَ الْمَقْدُونِيِّ بِقِصَّةِ ذِي الْقَرْنَيْنِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ".⁽⁴⁾

وكونه أحدَ القادةِ الممتازينِ بتلك الأرضِ أو أحدَ أمراءِ أو ملوكِ الممالكِ الصينيةِ في بداياتِ القرنِ الخامسِ قبل الميلادِ أيامَ كانت ممالكُ البلادِ متفرقةً قبل توحيدها في نهاياتِ القرنِ الثالثِ قبل الميلادِ - كونه كذلك يشيرُ إليه جولائه في الأقطارِ يقودُ جيشه. وهذا ليس من الأعمالِ التي تخصُّ الأباطرةَ الذين يَنتدبون من ينوب عنهم في الحروبِ والسفاراتِ، فلعله كان مُوكِّلاً ببعضِ الأعمالِ مُفَوَّضًا في التصرُّفِ بما له من قوةٍ وبعْدِ نظر، كما سيتبيَّن من حديثِ ذي القرنينِ مع القومِ الذين طلبوا إليه بناءَ السورِ.

(1) صحيح البخاري، 1221/3، ن: صحيح مسلم، 2207/4.

(2) (551-479 ق.م) مصلحٌ وفيلسوفٌ صينيٌّ ما زال تأثيرُ أفكاره واضحًا في أهلِ الصينِ وما حولها من بعضِ البلادِ إلى اليوم. ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: كونفوشيوس = Confucius

(3) ن: ص: 289 من هذه الدراسة.

(4) ت ت ت، 23/16. هو الإسكندر الأكبر: (المقدوني) من أعظم قادةِ التاريخِ الفاتحين = (356-323)، ن:

الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الإسكندر الأكبر = Alexander the Great

وحديثُ القرآنِ عنه حديثٌ عن مؤمنٍ مُلهمٍ. ولعلَّه آنسٌ من الأقاليمِ الصينيةِ ضعفاً أيامَ غزو المغولِ أراضيها، فأخذَ ينشُرُ الصلاحَ، ويمنعُ الفسادَ، وينصرُ المستضعفينَ، ويؤسِّسُ للبناءِ وال عمرانِ مُستقلاً بجُلِّ رأيهِ. والإمبراطورُ الذي كان في عهدِهِ ابتداءً بناءِ الجزءِ الرئيسِ من السورِ هو الإمبراطورُ: (شي هوانجدي=259-210 ق.م) من حقبةِ أسرةِ (كين)=(221-206 ق.م)، وهو مؤسسُ الإمبراطوريةِ المُوحَّدة. والمؤرخُ الذي كتَّبتاريخُ الصينِ هو (سيماكيان) في عامِ 100 ق.م. ⁽¹⁾ وكثيراً ما تُنسبُ الأعمالُ العظيمةُ إلى الأباطرةِ والملوكِ، ويتمُّ تجاهلُ الأشخاصِ الجديرين بالذكرِ والتمييزِ، وبخاصةً إذا كانت لهم عقيدةٌ مخالفةٌ أو توجهاتٌ مُغايرة. وأمَّا ابتداءُ بناءِ سورِ الصينِ، فلم أجدُ ذكراً للأمرِ ببنائه، وقد اختلفَ في تاريخِ ابتداءِ البناءِ بين أوائلِ القرنِ الخامسِ قبل الميلادِ وبين تواريخٍ أقدمَ من ذلك. ولم أجدُ في سيرةِ (شي هوانجدي) ما يُميِّزُها إلا ما ذُكرَ من منعه لتداولِ الكتبِ وحرقيها، فإذا كان هو ذا القرنينِ، فدلالةُ ذلك أنَّه ضاق بالوثنياتِ، وأسفارها، والترويجِ لها لكونه موحِّداً، فكان ذلك من عَلائِمِ محاولتهِ إحداثَ أمرٍ جديدٍ في بلاده. ومن صفاتهِ التي قد تدعُمُ كونهِ ذا القرنينِ ما ذكره المؤرخون من قوتهِ، ودهائه، وسيطرتهِ على الممالكِ في شمالِ الصينِ والمناطقِ الوسطى. إلاَّ أنَّه وُصِفَ بالجبروتِ وإرساءِ نظامِ السخرةِ في بناءِ سورِ الصينِ، وبخاصةً بَعْدَ استتبابِ الأمرِ له في عاصمتهِ الهائلةِ: (كسيانيانج) التي أسَّسَ فيها نظاماً مركزياً لأولِ مرَّةٍ في تاريخِ الصينِ. ⁽²⁾

والأرجحُ أنَّ بانيَ السدِّ كان شروعُهُ في ذلك خلالَ القرنِ الخامسِ قبل الميلادِ، كما تقدَّم، وكما عليه رأيُ طائفةٍ من المؤرخين. ويبدو أنَّ اسمَ بانيِ السورِ أي الذي ابتداءً بناءهُ

(1) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عناوين: : آسيا=Asia، سور الصين العظيم=Great Wall of China،

الصين=china، كين، أسرة=Qin dynasty، شي هوانجدي=Shi Huangdi.

(2) ن: السابق، تحت عنوان: سور الصين العظيم.

غير معلوم لدى مؤرخي الصين وغيرهم، فهو -على هذا- ذو القرنين، ويبقى اسمه في الأدبيات الصينية مجهولاً. (1)

التمكين في الأرض ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ تهيئةً للتصرف في استخراج المنافع من مصادرها واستعمار الإقليم بما يعود بالخير على الرعية مع إقامة العدل وإرساء النظام على أسس وأصول راسخة قوية. والتمكين معنى إسلامي وسنة إلهية تتسع لقيم ودلالات عظيمة تشتمل على إقامة الدولة أو الأمة على أساس الدين، والأخلاق، والعدل، والعمل الذي هو حركة في الحياة تُنظّمها وتتنظّمها: قوامها تطلب الأسباب مع توكل القلب وإخلاص النية. وهو استخلاف منه -تعالى- بشروطه، وله أحوال ومراتب، واستكمال أسبابه يؤدي إلى استيعاب أحواله. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾، (2) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾. (3)

وإيتاؤه من كل شيء سبباً ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ يتعلق بإبداع القدرة في المعنى -سواء كانت ذهنية عقلية، أم مادية عملية- على تطويع مواد الطبيعة، ووسائل تصنيعها، والآلات المهيأة المتاحة لذلك في عصره، ويضاف إليها ما تتفوق عنه القدرة على الاختراع من منجزات لأجل تيسير ملاءمة البيئة للحياة فيها. وتسلل الأسباب في هذه الآية والآيات التالية يعبر عن فحوى القانون الذي أودعه الله -تعالى- في الكون من حقيقة صدور المسببات عن أسبابها، وهو الاتصال الذي يصدر عن القدرة الخلاقة الموجدة لكل الأسباب. والأسباب في تواليها وتدافعها خاضعة للإرادة الإلهية غير منقكة

(1) السابق والموضع.

(2) يوسف، 56.

(3) النور، 55. ن: فقه التمكين في القرآن الكريم، علي الصلابي، دار الوفاء، 2001 م، ص/22-35-105-432، والتمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد، دار السلام، 1997، ص: 237-243.

عنها بالكلية. وأتبع سبباً أي طريقاً في ظاهر المعنى. والمقصود الضمني أو الدلالة الخفية هي معنى تطلبه الأسباب في كفاح ومداومة مجتهداً متجهاً إلى أيسر الطرق المؤدية إلى أولى الغايات بالقصد والاعتبار.

ومغرب الشمس ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ مكان غروبها، فالغروب في أصقاع الأرض يُلوح على شمال الناظر إلى الشمال والشروق على يمينه. وقد دُكر مغرب الشمس - وهو اسم مكان هنا - لقصد بيان الموضع الذي بلغه أنه عند حدٍ غربيٍّ أقصى، فقد يكون الموضع:

أولاً: غرْب قارة آسيا أي بحر قزوين: (بحر الخزر) الذي هو بحيرة مالحة عظيمة - في حقيقة الأمر - لكون اليابسة تُحيطُ بها، وهي أعظمُ بحيرة في العالم، وتقع في الركن الجنوبي الشرقي لأوروبا، وفي جزءٍ من آسيا، وتبلغ مساحتها: (372,000 كم²)، وينخفض ساحلها الشمالي: (28.م) دون مستوى سطح البحر، فهو أكثرُ المواقع انخفاضاً في أوروبا، وأكبرُ جسمٍ مائيٍّ داخليٍّ في العالم. وتقعُ شرقيَّ جبال القوقاز التي يعتبرها كثيرٌ من الجغرافيين الخطَّ الفاصل بين آسيا وأوروبا، حيث يمتدُّ هذا الخطُّ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وهي تمتد في روسيا، وجورجيا، وأذربيجان، وترتفع بين بحر قزوين والبحر الأسود. وهي -تاريخياً- تُعتبرُ حاجزاً طبيعياً ضد الهجرات. (1) وكون الشمس تغربُ في تلك البحيرة، أو في جزءٍ منها يتضمَّنُ إشارةً إلى أن ما وراء تلك المنطقة أقاليمٌ شديدة البرودة تبتدئُ من مناطق شرق أوروبا إلى سواحلها الشمالية على المحيط المتجمد إلى سهول التندرا في القطب الشمالي. (2) والعينُ الحَمِيَّةُ (3) ذاتُ الطين الأسود، فماؤها به كُدرة. فلعله قد كانت هنالك آبارٌ نفضتُ قد نبعت، أو بسببٍ من ترسيب الهيدروكربونات، أو

(1) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عناوين: بحر قزوين=Caspian Sea، القوقاز=Caucasia، جبال القوقاز=Caucasus Mountains، العالم الأرضي=world.

(2) السابق، سيبيريا=Siberia، أوروبا=europe.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (حما)، 61/1.

أَنَّهُ حَدَّثَ انْتِشَارُ غَازَاتٍ مِنْ أَثَرِ الْبَرَائِكِينَ وَنَحْوِهَا حَيْثُ آدَى ذَلِكَ إِلَى ضِحَالَةِ مَاءِ الْجَهَةِ الْمُنْفِضَةِ مِنَ الْبَحْرِ اخْتِلَافًا بِبَعْضِ الْمَوَادِّ ذَاتِ الرَّائِحَةِ الْكْرِيهَةِ. وَتَعُدُّ عِدَّةٌ مُدُنٍ بِالْقَوْقَازِ مُشْتَمَلَةً عَلَى ثَرَوَاتٍ مِنَ النِّفْطِ وَالْمَعَادِنِ كَغُرُوزِنِي، وَبَاكُو، وَمِيَاكُوب. (1) وَقَدْ دَعَا الْمُؤَرِّخُونَ وَالرَّحَالَةُ الْمَسْلُومُونَ هَذِهِ الْمَنَاطِقَ الْأَرْضِ الْمُتَنَبِّتَةَ. (2)

ثَانِيًا: أَحَدَ الشَّوْاطِيِّ الْغَرْبِيَّةِ الْمُطَّلَّةِ عَلَى الْأَطْلَسِيِّ: عِنْدَ مَصَبِّ أَحَدِ الْأَنْهَارِ، أَوْ حَوْلَ عِدَّةِ مَصَابِّ لِلْأَنْهَارِ الَّتِي فِي أَقْصَى الشَّمَالِ الْإِفْرِيْقِيِّ، وَهِيَ عَدِيدَةٌ، وَتَتَّبَعُ مِنْ جِبَالِ أَطْلَسِ الْوَسْطِيِّ. وَفِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَصَبَّاتِ تَكْتُمُ الْأَعْشَابُ، وَيَتَجَمَّعُ حَوْلَهَا الطَّيْنُ وَالْأَوْحَالُ مَعَ تَوَافُرِ الْبِرِّكِ الَّتِي هِيَ بَرِّكُ الْمَرْوَجِ النَّهْرِيَّةِ. (3) وَكَانَ هَذَا الْمَحِيْطُ يُدْعَى قَدِيمًا بَحْرَ الظُّلْمَاتِ، وَكَانَ يُظَنُّ أَنَّهُ آخِرُ الْمَعْمُورِ. وَغُرُوبُ الشَّمْسِ هُنَاكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا أَرْضَ مَعْرُوفَةً لَدَى الْأَقْدَمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَحِيْطِ الْأَطْلَنْطِيِّ.

ثَالِثًا: مَوْضِعَ إِحْدَى الْخُمَّاتِ الْفَوَّارَةِ فِي الْعَالَمِ. وَذَلِكَ عَلَى قِرَاءَةِ عَيْنٍ حَامِيَّةٍ (4) مِنَ الْحَمِيِّ وَالْحُمُومِ الَّذِي هُوَ الْحَرَارَةُ. (5) وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ بَلَغَ مَوْضِعًا بَعِيدًا فِي الْغَرْبِ فِي أَمْرِيكَا الشَّمَالِيَّةِ حَيْثُ تَوْجَدُ أَعْظَمُ خُمَّاتِ الْعَالَمِ. (6) وَمَغْرِبُ الشَّمْسِ -عَلَى هَذَا- يَعْنِي أَقْصَى غَرْبِ الْأَرْضِ، وَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ أُوتِيَ مِنَ الْقُوَّةِ الْبَحْرِيَّةِ أَيُّ مِنَ السُّفُنِ وَنَحْوِهَا مَا تَمَكَّنَ بِهِ مِنْ أَنْ يَخُوضَ الْمَحِيْطَ إِلَى شَوَاطِيِّ الْعَالَمِ الْجَدِيدِ.

(1) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنواني: النفط=Petroleum--جبال القوقاز

(2) ن: الروض المِعْطَارُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَمِيرِيِّ، ت: إِحْسَانُ عَبَّاسٍ، النَّاصِرُ لِلتَّقَاةِ، 1980، ص: 350. وَجَاءَ فِيهِ وَفِي خَرِيدَةِ الْعَجَائِبِ لِابْنِ الْوَرْدِيِّ، (م)، ص: 42: أَنَّ الْأَرْضَ الْمُنْتَبَتَةَ مَمْتَدَّةٌ، حَرِشَاءٌ، سُودَاءٌ، خَرَسَاءٌ، جَرْدَاءٌ مِنْ كُلِّ نَبَاتٍ. طُولُهَا: عَشْرَةُ أَيَّامٍ فِي مِثْلِهَا، وَحَشِيَّةُ الْأَكْنَافِ، بَعِيدَةُ الْأَطْرَافِ، مَاؤُهَا غَائِرٌ، وَدَلِيلُهَا حَائِرٌ، وَرِيحُهَا مُنْتَبَتَةٌ، وَأَهْوَيْتُهَا وَخِيمَةٌ. وَلَيْسَ فِيهَا مَأْوَى لِعَابِرٍ، وَلَا مَسَلِّكَ لِقَاصِدٍ. وَتَقَعُ غَرْبِيَّ الْأَرْضِ الْخَرَابِ الَّتِي خَرَّبَهَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أَيُّ الْمَغُولِ.

(3) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوانين: البزكة=Mallard، النهر=River، المغرب=Morocco.

(4) ن: النشر في القراءات العشر، 314/2، وت ت ت، 25/16. وَقَرَأَ بِهَا الْكَسَائِيُّ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنِ عَاصِمٍ، وَغَيْرُهُمَا.

(5) ن: لسان العرب، مادة: (حما)، 197/14.

(6) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الخمة الفوارة=Geyser

والقوم الذين وجدهم هنالك من الأقوم التي يبدو أنّها لا تدينُ بدين، أو يُنظّم حياتها وتعاملاتها أعرافٌ قويمَةٌ يأمنُ الناسُ بما تشيعُهُ من عدلٍ بينهم وعقوبةٍ للعصاةِ المفسدين. فدعاهم -مُخَيَّرًا لهم بين الرحمةِ والعذابِ- إلى الإيمانِ والتوحيدِ، وأسَّسَ بينهم نظامًا يجمعُ بين الثوابِ والعقابِ. تُحَفِّظُ به الحقوقَ، وتتأسَّسُ به سلطةُ الضميرِ، وهو ما يتواءمُ مع رؤيةِ ذي القرنينِ وحركتهِ في الحياةِ لأجلِ إرساءِ قيمةِ العدلِ وحقِّ الناسِ في حياةٍ آمنةٍ مطمئنةٍ. والأقومُ الفوضويةُ غيرُ الخاضعةِ لِتَوَاميسِ تَحْكُمِهَا كهؤلاءِ المُشارِ إليهم في الآياتِ، أو الشعوبُ البدائيةُ أو الهمجيةُ الآتي ذِكْرُهُم في الآياتِ التالية تحدّثَ عنهم، وعن عجائبٍ من حياتهم الجغرافيون والرحالةُ الأوائلُ كابنِ فَضْلانَ في رحلتهِ⁽¹⁾ إلى ملكٍ من ملوكِ الصقالبةِ أي السلافيين مُتَوَجِّهًا إلى أقربِ نقطةٍ من شمالِ أوروبا، فلا غَرَوَ أَنْ يَكُونَ أسلافُ هذه الأقومِ ضاربينَ في الجهلِ والهمجيةِ.

وَمَطَّلِعُ الشَّمْسِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ جهاتٌ شرقيّ آسيا في أرضٍ منها ذاتِ سهولٍ منبسطةٍ تطلُعُ الشَّمْسُ على قاطني تلك الأراضِي، فلا يحجبُها جبالٌ، ولا شجرٌ كثيفٌ. وهؤلاءِ القومُ منبثونٌ في تلك السهولِ معرَّضون لأشعةِ الشمسِ لكثرةِ تحريكهم للرعي، فهم رَحَلٌ تَقَلُّ عندهم المساكنُ التي تحميهم منها إلا الخيامُ ونحوها.

"وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ بَلَغَ سَاحِلَ بَحْرِ الْيَابَانِ فِي حُدُودِ مَنشُورِيَا أَوْ كُورِيَا شَرْقًا، فَوَجَدَ قَوْمًا تَطَّلِعُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ لَا يَسْتَرُهُمْ مِنْ حَرِّهَا أَيُّ لَا جَبَلٍ فِيهَا يَسْتَنْظِلُونَ بِظِلِّهِ، وَلَا شَجَرَ فِيهَا، فَهِيَ أَرْضٌ مَكشُوفَةٌ لِلشَّمْسِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عُرَاةً، فَكَانُوا يَتَّقُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ فِي الْكُهُوفِ، أَوْ فِي أُسْرَابٍ يَتَّخِذُونَهَا فِي التُّرَابِ. فَالْمُرَادُ بِالسِّتْرِ مَا يَسْتُرُ الْجَسَدَ. وَكَانُوا قَدْ تَعَوَّدُوا مُلَاقَاةَ حَرِّ الشَّمْسِ. وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يَتَعَرَّضُونَ لِلشَّمْسِ لِيُدْفَعُوا عَنْ أَنفُسِهِمْ مَا يُلَاقُونَهُ مِنَ الْفَرِّ لَيْلًا!"⁽²⁾

(1) ن: رحلة ابن فضلان، (م)، ص: 7-30.

(2) ت ت ت، 28/16.

ولعلّه أجرى على هؤلاء القوم ما أجرأه على سابقهم من التخيير. ولم يُذكر ذلك امتحانًا لحذق السامع ونباهته.

والإحاطة في قوله: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ هي بما تعاضم من بأس ذي القرنين وما استقرّ تحت يديه من الجند والثروة. وهذا تمهيدٌ لما سيُقدّم عليه من أمرٍ عظيم: وهو بناء السد.

طبّق ذو القرنين الآفاق، فبَعَدَ بلوغه مغرب الشمس عاد إلى أقصى الشرق، ثم إلى منطقة دُونَ ذلك من دُونَ جبلين: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾. ويبدو أنّ هؤلاء القوم أقليةٌ مستضعفةٌ مُتَدَنِيَّةٌ في المعرفة بما يُصلح شأنهم، بهم قصورٌ في التفكير لعزلتهم عن الناس؛ ولكونهم لم يتعاطوا أسباب التعلم، فكانت لغتهم ضعيفةً البنى والتراكيب، وليس من غيرهم من يتكلمها، فلم يجدوا بينهم وبين ذي القرنين ترجمانًا، فلعلّهم قد لجؤوا إلى الإشارة ونحوها، فكانت صورتهم صورةً البكم أو أصحاب العي في الكلام والخطاب. والسدّ -هنا- الجبل⁽¹⁾ أي بين جبلين من جبال تلك البلاد. والظاهر أنّ هذين الجبلين هما من مرتفعات الحدود المنغولية: (يابلوني) التي تقع بين صحراء (جوبي) أحد المواطنين الأصلية للمغول البدو وبين الأراضي المنخفضة الشرقية للصين. ⁽²⁾ واستقرّ الأمر على أنّه فهم طلبهم أن يبني بينهم وبين أعداء لهم مفسدين في الأرض حاجزًا منيعًا يصدّ غزواتهم: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾. "وهؤلاء القوم مجاورون يأجوج ومأجوج. وكانوا أضعف منهم، فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد يأجوج ومأجوج. ولم يذكر المُفسرون تعيين هؤلاء القوم، ولا أسماء قبيلهم

(1) ن: لسان العرب، مادة: (سد) 207/3.

(2) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عناوين: الصين=china-جوبي=Gobi.

سَوَى أَنَّهُمْ قَالُوا: هُمْ فِي مُنْقَطَعِ بِلَادِ التُّرْكِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، وَكَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ، فَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ مِنْ قَبَائِلِ بِلَادِ الصِّينِ الَّتِي تُتَاخَمُ بِلَادَ الْمَغُولِ وَالتَّتَرِ". (1)

المغول أمة تركية وشعب آسيوي، والتُّرك أو الأتراك هم الشعوب التي تتكلم اللغة التركمانية، ويوجد منها عشرة فروع: من بينها اللغة التركية. ويُشكّلون أكبر المجموعات العرقية في معظم أجزاء آسيا الوسطى. ومن بين مجموعاتهم التتار والقيرغيز. والموطن الأصلي للمغول هو اليوم دولة منغوليا التي تقع في وسط شرقي آسيا بين الصين وروسيا. وعاصمتها أولانباتور. وهي أرض وعرة ذات هضاب وسلاسل جبلية في الأعم الأغلب، وتقع صحراء (جوبي) في جنوبها الشرقي. والسهول المنغولية يسكنها البدو الرُحَّل في خيام قابلة للطّي يُطَلَقُ عليها الجير أو اليورته. صُنعت من طبقات اللباد المكسوِّ بقماش الغُنْب أو الجلد. وهي مُنخفضة تحت مستوى سطح البحر ب(500م). وهي ذات سهول شاسعة، ومناخها قاسٍ جدًّا في الصيف والشتاء. (2)

وكان للمغول خُرُوجَاتٌ عظيمة في التاريخ أحالت البلاد التي غزوها إلى خراب، وأشاعت القتل وإفناء الخلائق. ومن بين قبائلهم قبيلة الهون، وهم براهرة نزحوا إلى أوروبا عبر نهر الفولجا 350م، حيث سحقوا القوط والشعب الألاني. وتزعمهم (أتيلا الهوني)، وكان غزوه لأوروبا من أسباب انهيار الدولة الرومانية الشرقية والغربية على وجه التقريب. وفي عهد جنكيزخان اتسعت الإمبراطورية حتى بلغت من كوريا والبحر الأصفر شرقا إلى حدود الدولة الخوارزمية الإسلامية غربا، ومن سهول سيبيريا شمالا إلى بحر الصين جنوبا أي أنها كانت تضم: الصين، ومنغوليا، وفيتنام، وكوريا، وتايلاند، وأجزاء من سيبيريا، ولاوس، وميانمار، ونيبال، وبوتان، ثمَّ العراق، والشام، والهند في أزمنة تالية. (3)

(1) ت ت ت، 32/16.

(2) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عناوين: الأتراك=Turks، منغوليا=Mongolia.

(3) ن: ياجوج ومأجوج فتنة الماضي والمستقبل، شفيق الماحي، دار ابن حزم، 2001 م، ص: 33-81-112، وقصة التتار من البداية إلى عين جالوت، راغب السرجاني، (م)، ص: 10-11-13، والموسوعة العربية العالمية، تحت عناوين: المغولية، الإمبراطورية=Mongol Empire، الهون=Hun.

وكان للطبيعة القاسية بالغة القسوة ببلاد المغول أكبر الأثر في تكوين الشخصية المغولية بما سيطرَ عليها من الأحقاد والرغبة في إرهاب الشعوب الأخرى والانتقام من أعدائهم بأشرس أنواع التنكيل والإبادة بعد كل ما خاضوه من حروب أهلية طاحنة اكتسبوا من جرائها صفات قتالية ومهارات نوعية لا عهد لمقاتلي الشعوب الأخرى بها⁽¹⁾ إلا ما كان من شأن هزيمتهم النكراء في عين جالوت على يد المسلمين 1260 م. وقد تلطّى بنار إغاراتهم قديماً الأقاليم الصينية التي تعرّضت -أيضاً- لغزو فرسان المنشو أصل سكان منشوريا اليوم.⁽²⁾

"وَيَا جُوجُ وَمَا جُوجُ أُمَّةٌ كَثِيرَةٌ الْعَدَدُ
وَهُمُ الْمَغُولُ وَيَعْضُ أَصْنَافِ النَّتَّرِ
وَهَذَا هُوَ الْمُنَاسِبُ لِأَصْلِ رَسْمِ الْكَلِمَةِ، وَلَا سِيَّمَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُمَا اسْمَانِ
عَرَبِيَّانِ".⁽³⁾

والاختلاف في أصل التسميتين امتدّ حتى قيل أن كلا اللفظين يصلح كل واحد منهما أن يُطلق على الشعبين أو الفرعين.⁽⁴⁾

"وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ الْمَغُولَ هُمْ مَا جُوجُ... اسْمٌ جَدِّ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ أَيْضًا (سكيثوس)... وَالَّذِي يَجِبُ اعْتِمَادُهُ أَنَّ يَاجُوجَ وَمَا جُوجَ هُمُ الْمَغُولُ وَالنَّتَّرُ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْفِدَاءِ أَنَّ مَا جُوجَ هُمُ الْمَغُولُ فَيَكُونُ يَاجُوجُ هُمُ النَّتَّرُ. وَقَدْ كَثُرَتِ النَّتَّرُ عَلَى الْمَغُولِ فَانْدَمَجَ الْمَغُولُ فِي النَّتَّرِ وَغَلَبَ اسْمُ النَّتَّرِ عَلَى الْقَبِيلَتَيْنِ. وَعَالِبُ ظَنِّي أَنَّهُ اسْمٌ وَضَعَهُ الْفُرَّانُ حَاكِي بِهِ مَعْنَاهُ فِي لُغَةِ تِلْكَ الْأُمَّةِ الْمُنَاسِبِ لِحَالِ مُجْتَمَعِهِمْ، فَاشْتَقَّ لَهُمَا مِنْ مَادَّةِ الْأَجْ، وَهُوَ الْخَلْطُ، إِذْ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ تِلْكَ الْأُمَّةَ كَانَتْ أَخْلَاطًا مِنْ أَصْنَافِ".⁽⁵⁾

(1) ياجوج وماجوج فتنة الماضي والمستقبل، ص: 67.

(2) ن: الموسوعة العربية العالمية، المغولية، الإمبراطورية=Mongol Empire، منشوريا=Manchuria.

(3) ت ت ت، 32/16.

(4) ن: مفاتيح الغيب، 145/21.

(5) ت ت ت، 32/16-33، ن: البداية والنهاية لأبي الفداء ابن كثير، ت: عبد الله التركي، دار هجر، 1997،

535/2.

وسمى ذو القرنين السورَ رَدْمًا ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَلْجَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ لِعِظْمَةِ تَكْوِينِهِ؛ وَلِكُونِهِ مِنْ طَبَقَاتٍ؛ وَلَا مَتَادِيهِ عَلَى حُدُودِ الْأَقَالِيمِ بِحَيْثُ لَا يُدْرِكُ آخِرُهُ لَتَعَاقِبِ الْبِنَاةِ عَلَى تَعَهُدِ مَدِّهِ فِي الْأَرْضِ أُبْعَدَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ؛ وَلَا رَتْفَاعِهِ بِحَيْثُ يَتَعَدَّرُ تَسْلُفُهُ مِنْ هَوْلَاءِ خِفَافِ الْأَبْدَانِ، قِصَارِ الْقَامَةِ، سِرَاعِ الْحَرَكَةِ وَالتَّوْتُبِ. وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ فِي أَصْلِهِ جِدَارَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ مُلَى مَا بَيْنَهُمَا بِالتَّرَابِ الْمَخْلُوطِ، حَتَّى صَارَ مُحْكَمًا لَا يُنْقَدُ مِنْهُ بِحَالٍ. وَقَدْ اسْتَعْمَلَهُمْ لِكثْرَةِ مَا يَحْتَاجُهُ بِنَاؤُهُ مِنَ الْعُمَالِ وَالبِنَائِيِّينَ؛ وَلِكُونِهِ أَرَادَ اسْتِصْلَاحَهُمْ وَتَعْلِيمَهُمْ أَنَّ الْعَمَلَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنَ الْقَعُودِ عَمَّا فِيهِ عَلُوُّ الْهِمَّةِ وَبِذَلُّ الْوُسْعِ فِي إِبْرَاءِ الذِّمَّةِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُمْ مَا لَا لِكُونِهِ أَرَادَ تَعْلِيمَهُمْ قِيَمَةَ الْعَمَلِ وَصَوْلًا إِلَى الْغَايَةِ الرَّفِيعَةِ: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي﴾. وَطَلَبُهُ إِلَيْهِمْ أَنْ يُؤْتُوهُ زُبَرَ الْحَدِيدِ⁽¹⁾ ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ هُوَ أَمْرٌ لَهُمْ بِالْمَنَاوَلَةِ وَجَلِبِ قِطْعِ الْحَدِيدِ، وَلَيْسَ طَلَبًا مِنْهُمْ أَنْ يَسْتَخْرِجُوهُ مِنْ مَنَاجِمِهِ لِكُونِ ذَلِكَ يُضَادُّ مَا تَحَدَّثَ بِهِ عَنْ تَمْكِينِ اللَّهِ لَهُ وَاسْتِغْنَائِهِ بِذَلِكَ عَنْ إِنْفَاقِهِمْ. وَقَدْ أَرَادَ صُنْعَ أَبْوَابٍ مِنْ حَدِيدٍ تُقَامُ فِي مَدَاخِلِ السُّورِ، وَهِيَ مَسْرُودَةٌ أَيْ ذَاتُ فُجَوَاتٍ مُنْتَظِمَةٍ تَمُرُّ مِنْهَا مِيَاهُ السِّيُولِ لئَلَّا يَنْهَدَمَ السُّورُ، وَتَمْنَعُ مَرُورَ النَّاسِ أَوْ الْغَزَاةِ. وَعَضَّدَ قِضْبَانَ الْحَدِيدِ بِالنَّحَاسِ الْمُدَابِّ الْمَصْبُوبِ. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ هَدَّتْ فِيهِ (حَتَّى) إِلَى شَيْءٍ مُغَيًّا قَبْلَهَا. وَالتَّقْدِيرُ: آتَوْهُ قِطْعَ الْحَدِيدِ، فَنَصَّدَهَا، وَبَنَاهَا، فَارْتَفَعَ مَا بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ⁽²⁾ أَيْ بَيْنَ جَانِبَيْ الْجَبَلَيْنِ، فَسَاوَاهُمَا فِي عُلوِّهِمَا أَيْ أَنَّ السُّورَ سَاوَى الْجَبَلَيْنِ فِي ارْتِفَاعِهِمَا.

(1) ن: لسان العرب، مادة: (زبر)، 315/4. وفيه أن زُبْرَةَ الْحَدِيدِ الْقِطْعَةُ الضَّخْمَةُ مِنْهُ.

(2) ن: السابق، مادة: (صدف)، 187/9. وفيه أن الصَّدَفَ مَا قَابَلَ الْإِنْسَانَ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ. وَجَاءَ فِي النِّهَايَةِ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ أَنَّ الصَّدَفَ كُلُّ بِنَاءٍ عَظِيمٍ مُرْتَفِعٍ، ن: 334/3.

والنَّفْحُ مقصودٌ به النَّفْحُ في الأكيار. (1) ولم يُذكر لظهوره لكونِ العملِ في صنع الحديد. وكانت أكيارًا منصوبةً مصفوفةً ما بينَ الصَّدْفَيْنِ للنَّفْحِ في كُتْلِهِ. (2)

والقَطْرُ (3) النَّحَّاسُ المُذَابُ كان يُصَبُّ على الحديد لإحداثِ شدةٍ تماسكه.

وقد جرى تنويعُ صورةِ الحركةِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ لكونِ التسلُّقِ أهونَ من نَقْبِ السُّورِ واختراقه؛ لذا لاءَمَ كُلَّ حركةٍ فعلها، فتخفيفُ استطاعوا يناسبُ أيسرَ الحركتين.

كان هذا النموذجُ مُفَعَّمًا بالحركةِ وخصبها مع تنوعِ أشكالها بحسبِ الأحوالِ المتنوعةِ لسعيِ ذا القرنينِ في الأقطارِ وخوضه للممالكِ قاطعًا المسافاتِ من مغربِ الشمسِ إلى مَطْلَعِهَا مع حركةِ الإفسادِ العظمى للغزاةِ التي قابلتها حركةٌ تعميرٍ أعظمٌ بما تَصَمَّنَتْهُ من احتشادِ جموعِ العمالِ والصناعِ في التشييدِ المُتَّعِنِ والبناءِ المُحَكَّمِ. وكان السَّدُّ أو السُّورُ موجيًّا بِرَمْزِيَّتِهِ إلى انقطاعِ الحركةِ بتوقفِ الغزوِ وتعطلِ هجمةِ أهلِ الفسادِ والطغيانِ لفتراتٍ من الزمانِ. (4)

(1) "الكبير: كيز الحُدَاد، وهو زِقٌّ أو جِلْدٌ غليظٌ ذو حَافَات. وأمَّا المَبْنِيُّ مِنَ الطينِ، فهو الكُور... والجمع: أَكْيَارٌ وكَبِيرَةٌ"، لسان العرب، مادة: (كبر)، 157/5.

(2) ن: ت ت ت، 36/16

(3) ن: تاج العروس، مادة: (قطر)، 444/13.

(4) الوصفُ الحديثُ للسورِ الذي هو أطولُ بناءٍ في التاريخ حيث بلغ أقصى طولٍ له (6400 كم²) أنه يمتدُّ شمالَ الصَّينِ بين الساحلِ الشرقيِّ وشمالِ وسطِ الصَّينِ، وتقعُ نهايتهُ الشرقيةُ قُرْبَ مدينةِ (كينهوانجداو). وقد أُصلِحَ السُّورُ بَعْدَ عدةِ انهياراتٍ لبعضِ أجزائه عبر التاريخ. وكان مُزوَّدًا بأبراجٍ مراقبةٍ عِزَّ امتداداته. ويجنحُ في الشرقِ عبر جبالِ الحدودِ المغوليةِ المرتفعة. ولهذا الجزءِ من السورِ أساسٌ من الكتلِ الجرانيتية، وله جوانبٌ من الحجرِ أو الأجر. وقد ملئَ داخلُه بالطينِ. وقد رُصِّفتِ القمةُ بالأجرِ المثبَّتِ بالإسمنتِ الحيري. وتشكلُ كتلُ الأجرِ طريقًا للعمالِ والجنودِ من فوقِ السُّورِ. وقد أعاد الشيوعيون الصينيون بناءَ ثلاثةِ أجزاءٍ منه منذ سنة 1949م عندما بدؤوا حُكْمَ البلاد. ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: سور الصَّينِ العظيم. وجعلُ السورِ دَكَّاءَ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ دلالةً تخصُّ السُّورَ على هَيْئَتِهِ في ذلك اليوم، وتشملُ باتساعٍ مضمونها غيرةً مِنَ الصروحِ العظيمةِ والشواهِقِ الضخمةِ في يومِ فناءِ الدنيا. وتبدو له رمزيةٌ خاصة، فهو أعظمُ أبنيةِ العالمِ الذي تَعَاوَرَتْ على بنائه أسرٌ حاكمةٌ عديدة، وتجري عليه السَّنُّ التي تجري على غيره من أشكالِ العمرانِ من أحوالِ التداعي والانهيار. ذلك: الزلزلةُ والهدم، ن: لسان العرب، مادة: (دكك)، 424/10. وراجع ذَكَرَ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ في الصحيحين، 1219/3-578/2، 273-18-163/2. وتقدَّمُ أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ المغولُ والتتارُ الذين وصفَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ أنَّ هجمتهم على العالمِ الإسلاميِّ كانت قِيَامَةً صغرى، ن: مجموع الفتاوى، (م)، 428-427/28. وقال الإمامُ ابنُ الأثيرِ في كتابه الكامل في التاريخ، ت: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، 1415 هـ: "فلو قال قائل: إنَّ العالمَ مُدُّ خَلَقَ اللهُ سبحانه وتعالى - آدمَ إلى الآنَ لم يُبْتَلُوا بِمِثْلِهَا، لكان صادقًا، فإنَّ التواريخَ لم تتضمَّنْ ما يقارنُها، ولا ما يدانيها". 399/10.

أعني بالصيغ الأسلوبية ما اختصَّ ببعض الأوضاع الصرفية أو الصوتية التي تتكون وفقها الكلمة مما عُنيَتْ به الدراسات الأسلوبية الحديثة الغربية والعربية مع شيءٍ من القصور في النواحي التحليلية الجمالية، وبخاصةٍ عند كثيرٍ من الأسلوبيين الغربيين، أمثال: جاك دريدا في مؤلفه: (الكتابة والاختلاف)، وميشال فوكو في مؤلفه: (الكلمات والأشياء).⁽¹⁾

وأما التراث البلاغي العربي، فلم يُعَنَّ بدراسة هذه المستويات على نحوٍ مستقلٍّ مع أهميتها القصوى، وخاصَّةً في مجال الكلمة القرآنية. وقد أشار إليها الدرس البلاغي التراثي في مناسباتٍ عارضة، وربما في حدودٍ ضيقة.

ومن هذه الصيغ أحوال الترخيم⁽²⁾ العارضة للكلمة، وحذف بعض الحروف من الكلمة، مثل: أسطع - تنزل، وصيغ تتعلَّق بالجمع، وبالوقف،⁽³⁾ والإدغام....⁽⁴⁾ وستقتصر هذه الدراسة على بحث صيغ الإفراد، والتثنية، والجمع المتصلة بالكلمة القرآنية في بعض نماذجها التحليلية.

الإفراد 1312

سَيِّئَةٌ وَخَطِيئَةٌ 11312

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.⁽⁵⁾

(1) ن: أدوات النص، محمد تحريشي، اتحاد الكتاب العرب، 2000، ص: 119.

(2) ن: هامش: 2-ص: 166 من هذه الدراسة.

(3) ن: السابق، هامش: 5-ص: 17.

(4) ن: السابق، ص: 88.

(5) البقرة، 81.

في جوابِ يَهُودِ الَّذِينَ زَعَمَ قَوْمٌ مِنْهُمْ أَنَّ النَّارَ لَنْ تَسْمَهُمْ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾⁽¹⁾ تردُّ هذه الآيةُ لتقريرِ حقيقةِ العدلِ الإلهيِّ الَّذِي يقتضي ترتيبَ العقوبةِ على الإساءةِ الَّتِي تعظمُ بالشِّركِ، وتكون دون ذلك بما دُونَ الشِّركِ. وأمَّا التَّقْصِيصُ عن عذابِ اللَّهِ تبارك وتعالى، فهو من أمانِي بني إسرائيلَ وَمَنْ وافقَهُم من النصارى المتذرعين بالخلاصِ وفداءِ المسيحِ لهم على الصليبِ، كما زعموه.

"وَالْمَرَادُ بِالسَّيِّئَةِ هُنَا السَّيِّئَةُ الْعَظِيمَةُ وَهِيَ الْكُفْرُ بِدَلِيلِ الْعَطْفِ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ الْخَطِيئَةُ اسْمٌ لِمَا يَقْتَرِفُهُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْجَرَائِمِ، وَهِيَ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ مِنْ خَطَى إِذَا أَسَاءَ. وَالْإِحَاطَةُ مُسْتَعَارَةٌ لِعَدَمِ الْخُلُوعِ عَنِ الشَّيْءِ؛ لِأَنَّ مَا يُحِيطُ بِالْمَرْءِ لَا يَتْرُكُ لَهُ مَنَفَذًا لِلْإِقْبَالِ عَلَى غَيْرِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَطَّنُوا أَنتَهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. * وَإِحَاطَةُ الْخَطِيئَاتِ هِيَ حَالَةُ الْكُفْرِ لِأَنَّهَا تَجْرِيءُ عَلَى جَمِيعِ الْخَطَايَا، وَلَا يُعْتَبَرُ مَعَ الْكُفْرِ عَمَلٌ صَالِحٌ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾*⁽²⁾.

وإفرادُ سيئةٍ وخطيئةٍ فيه دليلٌ على أَنَّ الشِّركَ، والإلحادَ، وما في حُكْمِهِمَا مِنَ الجِزَاءِ عَلَى اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وتكذيبِ الرُّسُلِ، والافتراءِ على اللَّهِ -تعالى- لانتقارُبُهُ خطيئةً، فحريٌّ بالكُفْرِ أَنْ يُعَدَّ سَيِّئَةً وَخَطِيئَةً اقْتِصَارًا عَلَيْهِ دُونَ تَطَرُّقِ إِلَى الْخَطَايَا وَالْجَرَائِمِ الْآخَرَى عَلَى سَبِيلِ التَّشْنِيعِ وَالتَّقْطِيعِ لِمَذَاهِبِ الْإِلْحَادِ؛ وَلِتَبْكِيَةِ الْمُتَهَوِّنِينَ بِأَمْرِ الشِّركِ وَالْكَفْرِ.

"وَبَلَى حَرْفٌ إِجَابٍ مُخْتَصٌّ بِجَوَابِ النَّفْيِ خَبْرًا وَاسْتِفْهَامًا. مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً فَاحْشَئْ مِنَ السَّيِّئَاتِ أَيَّ كَبِيرَةً مِنَ الْكِبَائِرِ كَدَابٍ هُوَ لِإِثْمِ الْكُفْرِ. وَالْكَسْبُ اسْتِجْلَابُ النِّعَمِ وَتَعْلِيْقُهُ بِالسَّيِّئَةِ عَلَى طَرِيقَةٍ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾* وَأَحَاطَتْ بِهِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ، بِحَيْثُ لَمْ يَبْقَ لَهُ جَانِبٌ مِنْ قَلْبِهِ، وَلِسَانِهِ، وَجَوَارِحِهِ؛ إِلَّا وَقَدْ اشْتَمَلَتْ وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ خَطِيئَتُهُ الَّتِي

(1) السابق والآية.

(2) ت ت ت، 581/1 * يُونُسُ، 22 * النَّبَأُ، 17.

كسبها، وصارت خاصةً من خواصه، كما تنبئُ عنه الإضافةُ إليه. وهذا إنما يتحقق في الكافر". (1)

والخطيئةُ أدلُّ في البابِ على عِظَمِ الجُرمِ من السيئة؛ لذا كان مآلُ المسيءِ أن تحيطَ به خطيئتهُ بَعْدَ سلوكِهِ طريقَ الشرِّ وتمرُّسِهِ به، أو بَعْدَ اِطِّلاعِهِ على حقيقةِ المصيرِ في يومِ البعثِ العظيمِ.

21312 رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَرِيحٌ عَاصِفٌ

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: (2)

"وهذا موقعُ رَشِيْقٍ جِدُّ الرِّشَاقَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ. وَإِسْنَادُ التَّسْيِيرِ إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى- بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ سَبَبُهُ؛ لِأَنَّهُ خَالِقُ الْهَامِ التَّفْكِيرِ وَقُوَى الْحَرَكَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ، فَالْإِسْنَادُ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ، فَالْقَصْرُ الْمَقَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ قَصْرٌ اِدْعَائِيٌّ. وَالْكَلامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْاِمْتِنَانِ وَالتَّعْرِيزِ بِإِخْلَالِهِمْ بِوَأَجِبِ الشُّكْرِ. وَحَتَّى اِبْتِدَائِيَّةٌ، وَهِيَ غَايَةٌ لِلتَّسْيِيرِ فِي الْبِحَارِ خَاصَّةً. وَإِنَّمَا كَانَتْ غَايَةً بِاعْتِبَارِ مَا عُطِفَ عَلَى مَدْخُولِهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿دَعُوا اللَّهَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بِعَيْرِ الْحَقِّ﴾، وَالْمَعْنَى هُوَ مَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ مِنَ الْمِنَّةِ الْمُؤَدِّنَةِ بِأَنَّهُ تَسْيِيرُ رِفْقٍ مُلَائِمٍ لِلنَّاسِ، فَكَانَ مَا بَعْدَ (حَتَّى) وَمَعطُوفَاتِهَا نِهَايَةً ذَلِكَ الرِّفْقِ؛ لِأَنَّ تِلْكَ الْحَالَةَ الَّتِي بَعْدَ (حَتَّى) يَنْتَهِي عِنْدَهَا السَّيْرُ الْمُنْعَمُ بِهِ وَيَدْخُلُونَ فِي حَالَةِ الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ، وَهَذَا النُّظْمُ نَسْجٌ بَدِيعٌ فِي أَفَانِينِ الْكَلَامِ". (3)

(1) إرشاد العقل السليم، 1/122 * آل عمران، 21.

(2) يونس، 22.

(3) ت ت ت، 11/135. لا أرى أن يُدعى القصرُ -هنا- ادْعَائِيًّا لكونه قصرًا باعتبار الأصل.

من بديع الأسلوب أنّ السياق لَمَّا كان نسقًا في ذِكْرِ الآلاءِ، تعدَّدتْ فيه ضمائرُ
الخطابِ الملائمةِ للسامعين، ثُمَّ انتقلتْ الآيةُ إلى ذِكْرِ الضراءِ، فتهيأُ المقامُ لضمائرِ الغيبةِ
التي تَمَحَّصتْ للمشركين الذين حُصُوا بأنهم يبغون في الأرضِ بغيرِ الحق، وهذا الوصفُ
لا يصلحُ لوصفِ المؤمنين. (1)

"وَهَذَا صَرْبٌ مِنَ الْإِلْتِقَاتِ لَمْ يُنَبَّهْ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَعَانِي، وَهُوَ كَالْتَّخْصِصِ بِطَرِيقِ
الرَّمْزِ. وَقَدْ عُدَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَمْثَلَةِ الْإِلْتِقَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ فِي ضَمَائِرِ الْغَيْبَةِ
كُلَّهَا تَبَعًا لِلْكَشَافِ بِنَاءٍ عَلَى جَعْلِ ضَمَائِرِ الْخِطَابِ لِلْمُشْرِكِينَ وَجَعْلِ ضَمَائِرِ الْغَيْبَةِ لَهُمْ
أَيْضًا، وَمَا نَحْوُهُ أَنَا أَلْتِيقٌ". (2)

جرى إفرادُ الريحِ في موضعين من الآيةِ لأداءِ معنيين متقابلين بحسبِ الوصفِ
المُفْتَرَنِ في كلِّ موضع، فالريحُ الطَّيِّبَةُ تسيرُ بها المراكبُ في البحرِ سيرًا لِينًا حتى تَبْلُغَ
مراسيها، وينجو مَنْ عليها من المسافرين.

وسياقُ الآيةِ يتضمَّنُ تصويرًا لانحرافِ السَّيْرِ الطَّيِّبِ إلى قُرْبِ الهلاكِ في البحرِ
عقوبةً من الله على الشُّرْكِ بِهِ وَعَدَمِ تَوْحِيدِهِ بِالْعِبَادَةِ وَالِدَعَاءِ، وَالرَّيْحُ الْعَاصِفُ تَهْوِي بِالْفُلِّ
بِمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ نَجَوْا لَمَّا جَازُوا بِدَعَاءِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَيَنْجُونَ لِيُنظَرَ كَيْفَ
يَعْمَلُونَ، وَهَلْ يَذَرُونَ مَا أَشْرَكُوا بِهِ بَعْدَ النِّجَاةِ. وَالْإِتْيَانُ بِاللَّفْظِ مَجْمُوعًا فِي الْمَوْضِعَيْنِ لَا
يَسْتَقِيمُ مَعَهُ الْمَعْنَى الَّذِي لِلْإِفْرَادِ؛ لِأَنَّ الرِّيحَ -وَإِنْ كَانَتْ طَيِّبَةً مُوَادِعَةً- يَتَعَطَّلُ قِصْدُ الْبَرِّ
بِهَا لِتَضَارِبِهَا وَلِعَدَمِ مُؤَاتَاتِهَا لِلرُّسُو، وَحُسْنُهَا أَنْ تَكُونَ ذَاتَ رَفِقٍ مَلَائِمٍ، وَلِينٍ وَمَتَابَعَةٍ،
وَالرَّيْحُ الْعَاصِفُ التَّعْبِيرُ بِهَا أَلْتِيقٌ بِمَعْنَى الْهَلَاكَةِ مِنْ اجْتِمَاعِ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ وَالتَّقَائِمِ عَلَى
السَّفَنِ فِي الْبَحَارِ، إِذْ إِنْ الرِّيحَ الَّتِي تَعْصِفُ بِالْمَرْكَبِ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ إِنَّمَا تَهْوِي بِهِ إِلَى
مَهْوَى سَحِيقٍ.

(1) السابق والصفحة نفسها بتصرف.

(2) السابق، 135/11. ن: تفسير الزمخشري، 373/2، وملاك التأويل لأبي جعفر العاصمي، دار الكتب العلمية،
د.ت، 304/2.

"والريحُ إذا أُفِرِدَتْ، فَعُرْفُهَا أن تُسْتَعْمَلَ في العذابِ والمكروه؛ لكنها لا يحسنُ في البحرِ أن تُكُونَ إلا واحدةً متصلةً لا نشرًا، فَتَقْدَرُ المفردةُ بالطيب، فخرَجَتْ عن ذلك العرف، وَبَرَعَ المعنى". (1)

الرياحُ في القرآنِ تقترنُ بالرحمة: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾، (2) وأكثرُ ورودِ الريحِ أن تقترنَ بالعذاب: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. (3) وإفرادُ الرِّيحِ يعني عَدَمَ تعدُّدِ المهابِ أو انعدامِ حدوثِ الفتراتِ في الهبوب.

والتحقيقُ أنَّ الجَمْعَ: (رياح) قد يرادُ به تعدُّدُ المهابِ أو حصولُ الفتراتِ في الهبوب. وأمَّا الإفرادُ، فمن دلالاتِهِ الاندفاعُ والقوة. ومعنى ذلك أن رِيحَ المطرِ بِأَسْحَابَتِهَا ذاتُ لِينٍ جهاتها متنوعةٌ حَسَبَ مَرَاتِ الهبوب، فسحاباتها تجيءُ مَبْثُوثَةً ممتلئةً غيًّا، (4) كما قال الكُمَيْت:

مَرَّتُهُ الْجُنُوبُ بِأَنْفَاسِهَا وَحَلَّتْ عَزَالِيَهُ الشَّمَالُ (5)

21313 مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: (6)

اتِّخَاذُ الأندادِ يَنبَنِي على توارثِ العقائدِ الَّتِي تنحرفُ عن أصلِ التوحيدِ بسببِ من تدافعِ الأممِ مع ضياعِ الأصولِ المكتوبةِ ونسيانِ المحفوظِ من الديانةِ الحقةِ عبرِ تتابعِ الأجيال. ويكتشفُ أصحابُ العقائدِ الشِّرْكَيةِ والاعتقاداتِ المنحرفةِ ما هم عليه من انفكاكِ

(1) المحرر الوجيز، 128/3.

(2) الحجر، 22.

(3) الأحقاف، 24.

(4) ت ت ت بتصرف، 179/8-180.

(5) ديوان الكُمَيْت، ت: داود سلوم، عالم الكتب، 1997، 340/2. مَرَّتُهُ: قَوَّتُهُ، والعزالي: جمعُ عزلاء، وهو فمُ المَزَادَةِ الأسفل: شَبَّهَ اتساعَ المطرِ به، ن: لسان العرب، مادة: (مرر - عزل)، 440/11-165/5.

(6) الجاثية، 23.

عن القيود الأخلاقية، والضوابط السلوكية، وقَبَل ذلك عن الالتزام بأصول العبادة الصحيحة- يتكشف لهم ذلك عندما تظهر لوائح الحق والعدل في رسالة سماوية، فينصرف أكثر الناس إلى ما ألفوه من قلة التكاليف وتقديم هوى النفس على ما في الشريعة من تعاليم، فيصير الهوى إِلَهَا يُتَّبَعُ وَنَدًا يُصْطَنَعُ في هيئة وثن. جاء في سورة يس على لسان الرجل المؤمن: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ (1).

والاستفهام لإنكار اتخاذ الأنداد. واتخاذ افتعال من الأخذ. ومن دلالاته التناول أي التحصيل، والجعل، والاصطناع، فهو ادعاءً للإلهية لغير مستحقها. وعليه فإن اتخاذ يتضمن تهكمًا واستخفافًا بعقولهم بقريضة إعادته في قوله -تعالى- من سورة الأعراف في آية واحدة: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا﴾ إلى: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (2). وذلك أنهم أرادوا عبادة ما له حوازٍ وغرائزٌ ينحطُّ بها عن الجمادات التي هي أنقى لما يتأذى الإنسان منه، أو يعافه. وقد انضموا إلى الجماعات التي جمعتها هذه العبادة المرتبطة بالنعمية والغريزة عند الأقوام البدائية، فما فوقهم ممن اتخذوا الطوائم (3) معبوداتٍ ومقدسات.

جرى التفرغ بالفاء في آيات الجاثية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ

(1) الآيات: 20-23.

(2) الآية: 148.

(3) الطوَّطُم رمزٌ تتخذه القبيلة، أو الأسرة من عناصر الطبيعة. ن: الموسوعة العالمية، تحت عنوان: الطوطم= Totem

إِلَهَهُ هَوَاهُ»⁽¹⁾ وهو التفرُّع على ما زعموه من ديمومة الخير والعافية في الدنيا، فهُم أهل تكذيبٍ بالآخرة، ومع ذلك فَتَنُ الشَّاكِينِ منهم إنما هو للاستهزاء والإحالة. تفرَّع على ظَنِّهِمُ التَّعْجِيبُ من حالِهِمُ المتضمَّنِ في أسلوبِ الاستفهام.

وردَ لفظُ (إله) مُفْرَدًا للمشاكلَةِ بَيْنَهُ وبينَ الهوى لقصدِ صرفِ النَّظَرِ إلى أَنَّ الشَّرِكَ باللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- والإلحادَ بالاعتقادِ في الطبيعةِ وغيرها: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ»⁽²⁾، إنما هو عبادةٌ للهوى، ومُتَابَعَةٌ للنفسِ، وتَعَبُّدٌ لرغائبِها، وإن تجلَّى ذلك في هيئةِ أوثانٍ أو قبورٍ تُقَدَّمُ إليها القرابينُ، وتُقصدُ من بعيدٍ للتبرُّك، والتوسلِ، والدعاء، وللانكبابِ عليها: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ»⁽³⁾.

وجمعُ هذا اللفظِ في آيةِ (يس): «أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً» المتقدمةِ في سياقِ ذِكْرِ الآلهةِ المتعددةِ ناسبَ ذِكْرِ الشفاعةِ المزعومةِ في عقائدِ المشركين، فتعدُّدُ الشفعاءِ يعني عندهم تعدُّدَ الشَّفَاعَاتِ وقوةِ الواسطةِ بكثرةِ الوسطاء: «إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى»⁽⁴⁾. ومطاوعةُ الهوى يحصلُ بها انسدادُ طريقِ الاستجابةِ عندَ المرءِ بحيثُ لا يصيرُ في مهوَى من مهووي الضلالِ إلا كان الَّذي يَنحَطُّ إليه مِنْ دَرَكَاتِ العَيِّ أَقْرَبَ إليه وأدعى له مِمَّا سِوَاهُ: «وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»⁽⁵⁾.

(1) الآيات: 21-23.

(2) الجاثية، 24.

(3) البقرة، 165.

(4) الزُّمَر، 3.

(5) الجاثية، 7-9. ن: مفاتيح الغيب، 230/27، وت ت ت، 357/25-358.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَلَمْ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾. (1) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾. (2)

جرى في آية المائدة تقريبُ النصارى على مذهبهم في اتِّخاذِ الأقانيمِ وإِدْعاءِ الألوهية للمسيحِ وأمه مريمَ عليهما السَّلام، وهذا التَّقريبُ يستفيدُه مَنْ يقرأ الآيةَ من رهبانِ النصارى، وهو جوابُ عيسى -عليه السَّلام- لله عَزَّ وَجَلَّ في يومِ القيامةِ حينَ يَتَوَجَّهُ -تعالى- إليه بهذا الخطابِ المتضمِّنِ أمرًا واقعا بعدَ رُفْعِهِ وَتَوَفِّيهِ، كما قال في سورةِ آلِ عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. (3) وهذا تبكيُّتٌ لما في مضمونِ الأناجيلِ من دعوى الأقانيمِ (4) والدعاوى التي حَطَّها الأخبارُ بأيديهم فيها، وفي ما تلاها من رسائلِ حُشِيَّتِ بالتحريفِ والمجازفاتِ العظيمةِ أي أنَّ في هذا إبطالًا لعقيدةِ التثليثِ أو الإيمانِ بالأقانيمِ التي قصَّتْ آيةٌ متقدِّمةٌ من المائدةِ بكفرِ القائلينَ بها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾. (5)

(1) المائدة، 16.

(2) النحل، 51.

(3) الآية: 55.

(4) التثليثُ في اللاهوتِ الكاثوليكي والبروتستنتي يُقصدُ به الاعتقادُ بوجودِ ثلاثةِ أقانيمِ: شخصٍ مقدسٍ: (الثالوثِ الأقدس)، وموَدَّاهُ باعتباره اعتقادًا مسيحيًّا مركزيًّا أنَّ الرَّبَّ في الجوهرِ واحدٌ؛ لكنه ذو أقانيمٍ ثلاثة: الأب، والابن، والروحُ القُدس. وكان هذا المفهومُ مثارَ جدلٍ قبل انعقادِ مجمعي نيقية والقسطنطينية. وكان الإعدامُ جزءًا من يوصفُ بالهرطقةِ أي يناقشُ في قضيةِ الثالوث. ومفهومُ الثالوثِ -كما يعتقدُه النصارى اليوم- كان قد تَبَلَّوَر -تدريجيا- قبلَ ومع انعقادِ مجمَعِ نيقية: 325 م برئاسةِ قسطنطين الكبير، ومجمَعِ القسطنطينية: 381 م، ومجمَعِ طليطلة: 589 م. ورفضتُ الكنيسةُ اليونانيةُ إضافةً إقنومِ الروحِ القُدسِ إلى عقيدتها، مع معارضةِ طوائفِ لهذه العقيدة منذ القرنِ الثالثِ عشرِ كالجرمانيين، والموحدين، والعموميين. ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: التثليث (=Trinity، وت ت ت، 153-57-56-55/6، ولسان العرب، مادة: (قنم) 495/12.

(5) الآية: 73.

وأما قوله في السورة نفسها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ﴾،⁽¹⁾ ففيه قصرٌ للإلهية على المسيح بزعمهم، وهو ظاهرٌ غيرٌ مقصود، إذ إن المقصود هو الإشارة إلى مسألة الحلول والاتحاد التي انحرفت إليها مذاهبُ النصارى؛ لأنَّهم لما ادَّعوا حلولَ الله في ذاتِ عيسى، تَوَزَّعتِ الإلهيةُ وبطلتِ الوحدانيةُ

كانت مهمةُ الحواريين الدعوةَ إلى شريعةِ عيسى عليه السَّلام، وتأثَّرَ بهم في سياحتهم الدينية في بلادِ الرومان واليونانِ ناسٌ كثيرون، لكنَّ الخلافاتِ اللاهوتيةَ انتشرت بين أجيالهم المتعاقبة، ففرَّقوا ثلاثَ فرق: نسطورية، ويعاقبية، ومَلَكانية، فقالتِ النساطرةُ بنبوةِ عيسى لله، وقالتِ اليعاقبةُ بعقيدةِ الحلولِ في عيسى، وقالتِ المَلَكانيةُ -وَهُم الكاثوليك- بالأقانيم أو الأصولِ الثلاثة.⁽²⁾

عودُ الوصفِ المثني: (إلهين) على الاسمين المتقدمين أي المسيح وأمه مريم -عليهما السَّلام- في آيةِ المائدة: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ﴾ ظاهرُهُ قصرُ الْمُتَقَوِّلِينَ على المسيح الإلهيةَ عليه وعلى مريم. وفي ذلك إظهارٌ لشناعةِ اتخاذِ الأندادِ والقولِ بعقيدةِ التثليث، وأنَّ عبادةَ غيرِ الله -تعالى- تضاهي في عُرفِ القرآنِ إشراكَ غيره معه، حيثُ إنَّ النصارى لم ينفوا الألوهيةَ عن الله تعالى؛ بل عبدوا معه غيره مع اختلافهم في ذلك على مذاهبٍ وعقائدٍ تقدَّم بيانُ بعضها.

ولم يَقلْ: (اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ وَالرُّوحَ الْقُدُسَ آلَهَةً) أي مع الله تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً؟ كان من الممكنِ -في غيرِ القرآنِ- الإتيانُ بثالثِ الشركاء: وهو الرُّوحُ الْقُدُسُ؛ ولكنَّ أوثرتِ التثنيةُ لصدورِ الكلامِ من مقامِ العزةِ والكبرياءِ في موقفِ استجوابِ رهيبي لنبِيِّ مرسل، والمسيحُ يعلمُ أنَّ السؤالَ عن عمومِ التبليغِ لا محالةٌ متوجِّه، كما في آخرِ السورة: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ

(1) الآية: 17.

(2) ن: ت ت ت، 249/25. والجواب الصحيح لابن تيمية، ت: علي ناصر، دار العاصمة، 1414 هـ، 3-12/2-28-90-184-200-232-482-491-304/4.

الْغُيُوبِ»؛⁽¹⁾ لكنَّ السؤالَ عن التَّقْصِيرِ، أو عَمَّا فِيهِ تَهْمَةٌ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ غَيْرُ مَتَّهَمٍ وَأَنَّ بَرَاءَتَهُ مُحَقَّقَةٌ لَا مَحَالَةَ - هُوَ أَمْرٌ قَدْ تَغَيَّبَ عَنْهُ حُكْمُهُ. وَلَمْ يَرِدْ لَفْظُ: (اِثْنَيْنِ) إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْاِقْتِصَارِ فِي حِينِ وَرَدِ فِي آيَةِ النُّحْلِ: «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ» اِقْتِصَارًا عَلَى عِبَادَةِ الْاِثْنَيْنِ عِنْدَ الْفَرَسِ لِكُونَ مَقَامِ آيَةِ الْمَائِدَةِ عَرْضًا لِبَعْضِ اِعْتِقَادِ النَّصَارَى الَّذِي سَيَبْطُلُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَوْقِفِ سُؤَالِهِ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَأَمَّا آيَةُ النُّحْلِ، فَفِي طَبَقِهَا تَعْرِيفٌ بِالْعَقِيدَةِ الثَّانَوِيَّةِ الزَّرَادَشْتِيَّةِ⁽²⁾ عِنْدَ الْفَرَسِ الْقَدَمَاءِ، وَبِمَا يَمِثُلُهَا مِنْ عَقَائِدِ.

"وَالصَّوَابُ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ جَمِيعَهَا قَوْلُ طَوَائِفِ النَّصَارَى الْمَشْهُورَةِ: الْمَلِكِيَّةِ، وَالْيَعْقُوبِيَّةِ، وَالنَّسْطُورِيَّةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الطَّوَائِفَ كُلَّهَا تَقُولُ بِالْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ: (الْآبِ، وَالْابْنِ، وَرُوحِ الْقُدْسِ)، فَتَقُولُ أَنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وَتَقُولُ عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ اللَّهُ، وَتَقُولُ أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى اتِّحَادِ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، وَأَنَّ الْمَتَّحِدَ هُوَ الْكَلِمَةُ، وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى عَقِيدَةِ إِيْمَانِهِمُ الَّتِي تَتَّضَمَّنُ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاحِدٍ: أَيْ ضَاطِبِ الْكُلِّ، خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلُّ مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى، وَبِرَبِّ وَاحِدٍ: يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنَ اللَّهِ الْوَحِيدِ الْمَوْلُودِ مِنَ الْآبِ".⁽³⁾

فِي آيَةِ النُّحْلِ «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ» اِبْطَالًا لِشَرِكِ مَخْصُوصِ أَشِيرٍ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِقْصَاءً لِأَنْوَاعِ الشَّرِكِ وَالْكَفْرِ الَّتِي اِهْتَمَّ الْقُرْآنُ بِبَيَانِ تَفَاصِيلِ وَعُمُومَاتِ تَتَّعَلَقُ بِهَا. وَقَدْ تَقَلَّدَتْ بَعْضُ قِبَائِلِ الْعَرَبِ الْمَزْدَكِيَّةِ وَالْمَانَوِيَّةِ أَيْ الْمَجُوسِيَّةِ كَبُكْرِ بْنِ وَائِلِ وَبَنِي تَمِيمٍ لَسْرِيَانِ سُلْطَانِ السَّاسَانِيِّينَ فِيهِمْ فِي زَمَنِ كَسْرَى

(1) المائدة، 109.

(2) الزرادشتية: Zoroastrianism=ديانة قديمة أسسها زرادشت الفارسي الذي عاش في القرن السادس ق.م...يتمثل جوهرها في قضية الصراع بين الخير والشر. وقد نادى زرادشت بالإيمان ب(أهورا مزدا) زاعماً أنه إله الحكمة. واعتقد أن (أنكرا مينو) روح شريرة، لا بُدَّ من القضاء عليه. الموسوعة العربية العالمية بتصرف، تحت عنوان: الزرادشتية=Zoroastrianism وت ت ت، 171/14-172.

(3) الجواب الصحيح، 12/2.

أبرويز وكسرى أنوشروان، فكان لائقاً أن يشارَ إلى هذه العقيدة التي تؤمنُ بالهين للخير والشر، أو للنور والظلام. (1)

"وَصِيغَةُ التَّنْبِيَةِ مِنْ قَوْلِهِ: (إِلْهَيْنِ) أَكَدَّتْ بِلَفْظِ اثْنَيْنِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْإِثْنَيْنِيَّةَ مَقْصُودَةٌ بِالنَّهْيِ إِبْطَالًا لِشِرْكِ مَحْضُوص...وَإِذْ نُهَوَا عَنِ اتِّخَاذِ إِلْهَيْنِ، فَقَدْ دَلَّ بِدَلَالَةِ الْإِقْتِصَاءِ عَلَى إِبْطَالِ اتِّخَاذِ آلِهَةٍ كَثِيرَةٍ". (2)

22312 رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾: (3)

المشرق هو جهة طلوع الشمس، والمغرب جهة غيابها. ووجود المشرق والمغرب، أو المشارق والمغارب، وتبادلها دليلٌ على أن الأرض كوكبٌ كرويٌّ له مدارٌ يدور فيه حول محوره أمام الشمس من الشرق إلى الغرب. وتشهدُ كُلُّ لحظةٍ من تاريخ دوران الأرض شروق الشمس في نقطةٍ وغروبها في أخرى تقابلها. (4) ونظرًا لانبعاج الأرض قليلًا عند خط الاستواء كانت هناك قمةٌ عظمى للشروق وأخرى للغروب، وهو ما تشيرُ إليه آيةُ الشعراء: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (5) وآياتٌ أخرى.

وبسبب ميل محور دوران الأرض بزاويةٍ مقدارها: 23,5 درجة على مستوى فلكِ دورانها حول الشمس) تعددت مشارق الشمس ومغاربها من نقاطٍ مختلفةٍ في الفصولِ المناخية المتباينة، فهي تطلعُ من سمتٍ في فصلٍ غير السمْتِ الذي تطلعُ منه في فصلٍ

(1) ت ت ت، 173-172/14.

(2) ن: هامش: 2-ص: 245 من هذه الدراسة.

(3) الرحمن، 17-18.

(4) من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 42042-14 يناير-2002 م.

(5) الآية: 28.

آخر، وهكذا، كما جاء في سورة المعارج: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾⁽¹⁾، والصفات: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾⁽²⁾.

والنهيأتان العظيمان لكلٍ من الشروق والغروب ينتشر بينهما نقاطٌ متعددة لكلٍ منهما على خطوط الطول والعرض. وذلك طوال السنة بسبب انتقال الضوء من خط طولٍ إلى آخر بصفةٍ دائمةٍ بسبب مدار الأرض حول محورها أمام الشمس. وينشأ عن ذلك مطالع ومغرب لا حضر لها على سطح الكوكب في كلِّ يوم.⁽³⁾

قوله -تعالى- في الآية موضوع البحث: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ يُعَبِّرُ عن حقيقةٍ علميةٍ مُثَبَّتَةٍ؛ فنتيجةً لدوران الأرض حول محورها انبجعت قليلاً عند خط الاستواء، وتَقَلَّطَتْ قليلاً عند القطبين؛ فأصبح لكلٍ من المشارق والمغرب العديدة نهايتان تمثلان أقصى زمانين ومكانين لكلٍ من شروق الشمس وغروبها على أقصى بقعتين من بقاع الأرض تمثل كلٌّ منهما مرةً أقصى الشروق، ومرةً أقصى الغروب، ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان.⁽⁴⁾

الجمع 3312

بين مشركي مكة وملا فرعون 13312

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ الْإِنْفَاقَ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَا مُوسَى مَسْحُورًا قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي

(1) الآية: 40.

(2) الآية: 5.

(3) من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 42042-14 يناير-2002 م.

(4) السابق بتصرف، عدد: 42322-21 أكتوبر-2002 م.

لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١﴾:

تأتي أولى هذه الآيات في معرض ردِّ شبهات كفار قريش وتمحلاتهم التي ساقوها وأوردت السورة بعضها. وتمحلتهم ومعاندتهم للقرآن هو مما يُناكذ مذهب العقلاء أهل الفطنة الذين لا يزورون عن حديث فيه من شوارد الحكم ولطائف المعاني ما فيه، فضلا عن أن يكون الكلام كلاما معجزا، والنظم مُحكَمَا عظيم التساوق في سَمْتِه، ومعانيه، وأسرار مبانيه. (2)

وقد أنحى القرآن عليهم ذلك العنت، كما في قوله -تعالى- من الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾. (3) وقد اشترطوا لإيمانهم معجزين أمورًا فيها ألوان من زخارف الدنيا ومباهج المال، فكان أن قورعوا بما هم عليه من شحِّ الأنفس والتقتير لامتناعهم عن الإنفاق على المحاويج والضعة من الناس. وآية ذلك أنهم اشترطوا معجزاتٍ وخوارق تَصَمَّنَتْ مِمَّا أَلْفُوا حَبَّهُ والتعلق به من متاع الدنيا وزخرفها. وذلك في قوله من الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (4) إلى آخر الآيات.

وَأُدْمِحَ فِي هَذَا الرَّدِّ بَيَانُ مَا فِيهِمْ مِنَ الْبُحْلِ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ. وَأُدْمِحَ فِي ذَلِكَ -أَيْضًا- تَذَكِيرُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ أَعْطَاهُمْ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، فَكَفَرُوا نِعْمَتَهُ، وَشَكَرُوا الْأَصْنَامَ الَّتِي لَا نِعْمَةَ لَهَا. وَيَصْلُحُ لِأَنَّ يَكُونُ هَذَا خِطَابًا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ كُلِّ عَلَى قَدْرِ نَصِيْبِهِ". (5)

(1) الإسراء، 100-104.

(2) ن: مدخل إلى ظلال القرآن، صلاح الخالدي، دار المنارة، 1986، ص: 195.

(3) الآية: 89.

(4) الآية: 90.

(5) ت ت ت، 223/15.

وإيراد لفظ (خزائن) مجموعاً في الآية مضافاً إلى رحمته -تعالى- استقيده منه تصوير هيئة مُركَّبة لحقيقة ما هم عليه من حرصٍ على الدنيا وإعراضٍ عن الآخرة، وإن كان عُرفَ عن بعضهم قلةُ الحرصِ أو بذلُ المال، فإنه مشمولٌ بالوصفِ الَّذِي فِي الْآيَةِ مِنْ جِهَةِ التَّعْلُقِ بِالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَحِظْوِظِ النِّفْسِ الشَّهْوَانِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَحْمِلُهُ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْمُنَاوَنَةِ لِنَبِيِّ مُرْسَلٍ بِرِسَالَةٍ خَاتِمَةٍ شَامِلَةٍ لِمَعَانِي الْخَيْرِ، وَوَجْهِ الْإِنْفَاقِ، وَأَسْبَابِ النِّجَاةِ، وَدَلَائِلِ الْحَقِّ بِدَارِ الْخُلْدِ وَالسَّعَادَةِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا مِنْ عِلَالِمِ صِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ لَا مُعَادَاتِهِ وَالتَّالِيْبِ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا﴾. (1)

وشعارُ الإسلامِ فِي الْإِنْفَاقِ التَّوَسُّطِ فِيهِ، وَهُوَ الْوَارِدُ فِي بَعْضِ آيَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ لِلْحَثِّ عَلَى التَّزَامِ الْحَدِّ الْأَوْسَطِ بَيْنَ النَّظَائِرِ الْمَذْمُومَةِ: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْدِرْ تَبْدِيرًا﴾، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾. (2) وَعَمُومُ التَّوَسُّطِ مِمَّا يُعْبَرُ عَنْ وَسْطِيَّةِ هَذَا الدِّينِ مَعْنَى عَامَّةٍ فِي السُّورَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ مَعَ مَا تَقَدَّمَ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. (3)

وقوله: ﴿خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ جَمَعَ بَيْنَ الرَّحْمَةِ بِأَثَارِهَا الْمَادِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَمَظَاهِرِهَا الْمَحْسُوسَةِ، وَبَيْنَ آثَارِهَا النَّفْسِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ، وَلَطَائِفِهَا الْخَفِيَّةِ، وَأَسْرَارِهَا الْمُسْتَوْدَعَةَ مَعَ مَا تَتَضَمَّنُهُ الرَّبُوبِيَّةُ مِمَّا لَا حَضَرَ لَهُ مِنْ مَعَانِي الْخَلْقِ، وَرِزْقِ، وَالرَّعَايَةِ إِلَى جَمِيعِ مَتَعَلِّقَاتِهَا وَلِوَاظِمِهَا الَّتِي قَوَامُهَا الرِّفْقُ وَمُوَالَاةُ الْآلَاءِ الرَّبَانِيَّةِ. وَهَذَا يَدْخُلُ فِي سِيَاقِ تَعْظِيمِ مَعْنَى الرَّحْمَةِ الَّتِي لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُ ضَعْفَاءُ الْعُقُولِ مِنْ أَمْثَالِ مَنْ تَقْرَعُهُمُ الْآيَةُ، إِذْ لَا

(1) الإسراء، 107-108.

(2) الإسراء، 26-29.

(3) السابق، 110.

يعدو فهمهم لحقيقة التراحم مجالاً مادياً محدود الحيز ضيق الأثر لا يتسع لما يستقبله قلب المؤمن وعقله مما يستلهمه من دقائق دلالات الربوبية وآثارها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾⁽¹⁾ تنظيرٌ لمطلوبات كُفَّارِ قريشِ الواردة في السورة، وهي الأمور التي سردوها لتكون آياتٍ لهم يستوتقون بها أو ببعضها للإيمان بما جاءهم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ووافق عدد ما سردوا عدد آيات موسى عليه السلام. وهذه الأمور هي: الينبوع - جنة النخيل - الأنهار - إسقاط السماء كسفاً - الإتيان بالله تعالى عن ذلك علواً كبيراً - الإتيان بالملائكة - بيت الزخرف - الرقي في السماء - تنزيل كتاب يقرؤونه. وذلك في آيات الإسراء من 90 إلى 93. ومآل هذا التنظير إلزامهم بأن تحقق الآية أو الآيات برهاناً على صدق الدعوى لا يلزم منه التصديق بأمر الداعي، ففرعون لم يؤمن لا قبل صدور الآية ولا بعدها. وهذا مؤدى قوله من الإسراء بعد سوق تخييرهم الذي هو أقرب إلى العطف: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾، وقبله في قوله، وهو أدخل في الباب: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾⁽²⁾.

آيات موسى هي: بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حية، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدَّم، والرَّجْزُ وهو داءٌ شديدٌ مُعِد،⁽³⁾ والقحط وهو السُّنُونُ ونقص الثمرات: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ

(1) والآية: العلامة، وزنها: فَعَلَةٌ في قول الخليل. وقيل: أصلها (أَيَّةٌ) = فَعَلَةٌ، فُطِبَتِ الباءُ أَلْفًا لانفتاح ما قبلها. وهذا قلبٌ شاذ، كما قلبوها في حارِجٍ وطائِيٍّ؛ إلا أنَّ ذلك قليلٌ غيرٌ مقيسٍ عليه. والجمع: آيات، وآي. وآياء: جمع الجمع نادر. ن: لسان العرب، مادة: (أيا)، 56/14.

(2) 94، 59.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (رجز، 348/4).

فَأَسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١﴾

وقد جرى تفصيلُ هذه الآياتِ في آيةِ الأعرافِ وسوفُها مجملَةٌ في الآيةِ موضوعِ البحثِ لِيَبَانَ تَعَدُّدُ الدواعيِ على الإيمانِ وَفُقُ تَنَوُّعِ الآياتِ، ولأنهُ جرى مخاطبةُ المكابرينَ بالشواهدِ الماديةِ الساطعةِ في دلالتها لِلإلحادِ الَّذِي واجهَهُ أنبياءُ اللهِ كموسى -عليه السَّلام- في تَصَدِّيهِ لطاغيةِ ذلك الزمانِ ومليئِهِ. وَيَتَمَحَّضُ عن هذا أَنَّ أحوالَ المعاندينَ من أهلِ الكفرِ والجحودِ في سائرِ الأزمانِ لا تتفاوتُ من حيثُ أصلُ ازدراءِ قواطعِ صدقِ النبواتِ

وسؤالُ بني إسرائيلَ هو للاحتجاجِ على المشركينَ من أهلِ مكة، إذ كانوا يلودونَ باليهودِ يسألونهم عن مسائلَ تعرضُ لهم، أو يستقصونَ عن أمورٍ يتوصلونَ بها إلى التَّقْصِي عن التصديقِ والإذعانِ لشيءٍ يقودهم إليها الأخبار: أخبارُ يهودَ الَّذِينَ لم يكونوا يُريدونَ أن يُنزعوا رئاسةَ العِلْمِ في الجزيرةِ تثوبَ إليهم وفودُ العربِ لما يعرضُ لهم من مسائلَ، فقد كانوا يُعرفونَ بأهلِ الكتابِ الأوَّلِ، يقرؤونَ لهم بعلمِ التواريخِ وكُنزِ الأسفارِ في الحصونِ المُحصَّنةِ وَالْأَطامِ التي زادتهم هيبَةً ومهابةً مع ما لهم من قوَّةِ المالِ وسطوةِ السلاحِ، وإن لم يُفتشوا عن الحقيقةِ في دينهم، ولم يُقرؤا لهم بصحةِ الدينِ؛ فإنهم وَقَّروا مكانتَهُم، وشهدوا لهم بالعلمِ. (2)

(1) الأعراف، 130، 133-134.

(2) ن: البداية والنهاية، 134/2-68/3-69-70-191/6، والأطام: الحصون، واجدتها أطمّة، ن: لسان العرب، مادة: (أطم)، 19/12.

وبصائر⁽¹⁾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾⁽²⁾ وصف جاء بصيغة الجمع تدليلاً على تعدد سواطع البراهين ومصادر النور الهادي إلى الحق المبين، فإن حال الغفلة والعناد تستوجب تكرار المثيرات وتنوع الدلائل لإيقاظ القلوب الموات والعقول المستكينة لظلام الفكر وضلال التفكير.

وجميعاً في قوله من السورة: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ اسم جامد يدل على الجمع المستقصي جاء وصفاً لحال فرعون ومن معه إذ أدركهم الغرق بغتة في اليم، فكان ذلك سبباً في استئصالهم والقضاء عليهم، ففجأة الإهلاك بالغرق في عرض البحر في حال طلب العدو أنكى للعصاة وأدعى لعدم توقع النجاة ولتحقق الهلكة.

"وَوَعْدُ الْآخِرَةِ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ الْخَلَائِقَ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ مِنَ الْبُعْثِ وَالْحَشْرِ.

وَاللَّفِيفُ: الْجَمَاعَاتُ الْمُخْتَلِطُونَ مِنْ أَصْنَافٍ شَتَّى، وَالْمَعْنَى: حَكَمْنَا بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِغَرَقِ الْكُفْرَةِ وَتَمْلِكِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَخَّكُم بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَمَعْنَى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ﴾
أَحْضَرْنَاكُمْ لَدَيْنَا. وَالتَّقْدِيرُ: جِئْنَا بِكُمْ إِلَيْنَا".⁽³⁾

(1) "وَالْبَصِيرَةُ عَقِيدَةُ الْقَلْبِ، قَالَ اللَّيْثُ: الْبَصِيرَةُ اسْمٌ لِمَا اعْتَقَدَ فِي الْقَلْبِ مِنَ الدِّينِ وَتَحْقِيقِ الْأَمْرِ. وَقِيلَ: الْبَصِيرَةُ الْفِطْنَةُ. تَقُولُ الْعَرَبُ: أَعْمَى اللَّهُ بِصَائِرِهِ أَيُّ فِطْنَةٍ... وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَعَاوِيَةَ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: يَا بَنِي هَاشِمٍ تُصَابُونَ فِي أَبْصَارِكُمْ! قَالُوا لَهُ: وَأَنْتُمْ يَا بَنِي أُمَيَّةَ تُصَابُونَ فِي بَصَائِرِكُمْ"، لسان العرب، مادة: (بصر)، 64/4.

(2) الثبور: الهلاك، والخسران، والويل. ن: لسان العرب، مادة: (ثبر)، 99/4.

(3) ت ت ت، 229/15.

22 الفصل الثاني: قِيمُ الزمانِ والمكان

مشاهد من قصة نبي الله سليمان مع بلقيس ملكة سبأ

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيُّ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: (1)

مِمَّا أُوتِيَ سُلَيْمَانُ مِنْ آيَاتِ النُّبُوَّةِ، وَعَلَامَاتِ البَعْثَةِ، وَعَوَاضِدِ المُلْكِ طَيِّبِ الزَّمَانِ، وَقَطْعِ المَسَافَاتِ، وَقَرُبِ الأَمَاكِنِ فِيمَا لَا عَهْدَ لِأَهْلِ الزَّمَنِ بِهِ. وَقَدْ أَرَادَ اللهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَ -

(1) النمل، 29-44.

كأبيه داودَ عليه السَّلام - بين المُلكِ والنبوة، فبلغَ غايةً عظيمةً فيما سُخِّرَ له من سطوةٍ على الممالكِ بَعْدَ وراثتهِ النبوةِ والحكمة: ﴿وَعَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾. (1)

وهذا مِمَّا كَرَّمَ اللهُ بِهِ شعبَ إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَا تَوَالَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ التَّفْضِيلِ وَالْمَكْرَمَاتِ، انْحَازَ إِلَى النُّكُوصِ وَعَدَمِ الْإِزْعَوَاءِ الْأَكْثَرُونَ مِنْهُ وَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ: ﴿سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. (2) وتقدَّم - في غير ما سورة - أنهم أُسْتَنْقِدُوا مِنْ ذُلِّ السُّخْرَةِ لَدَى الْمِصْرِيِّينَ بِرِسَالَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام، فَهُوَ الَّذِي سَنَّ لَهُمُ الشَّرِيعَةَ، وَصَيَّرَ لَهُمْ نِظَامَ جَمَاعَةٍ، فَابْتَدَؤُوا سُلَّمِ الْحَضَارَةِ بِتَخْطِيطِ رُسُومِ مَسَاكِينِهِمْ، وَمَلَابِسِهِمْ، وَنِظَامِ الْجَيْشِ، وَالْحَرْبِ، وَالْمَوَاسِمِ، وَالْمَحَافِلِ. وَقَبْلَ ذَلِكَ جَمَعَ بَيْنَ النَّبُوَّةِ وَالْوِزَارَةِ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَائِهِمْ - وَهُوَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام - فِي دَوْلَةٍ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَمَالِكِ ذَلِكَ الْعَهْدِ: فِي مِصْرَ أَيَّامِ حُكْمِ الْهُكُّسُوسِ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾. (3)

وَالسِّيَاقُ الزَّمَانِيُّ وَالْمَكَانِيُّ (4) الَّذِي تَنْتَضِمُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَاتُ وَآيَاتُ قَبْلِهَا اسْتَدْعَى عُنَاوَانَ تَعْبِيرِيَّةً يَرْتَسِمُ مِنْ خِلَالِهَا الْمَعْنَى الْعَامَّةُ الْمُرْتَبِطُ بِخِصَائِصِ الْمُلْكِ وَعِظَمَةِ السُّلْطَانِ الَّذِي تَحَقَّقَ لِهَذَا النَّبِيِّ الْعَظِيمِ تَطْوِيعًا لِشَعْبِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي مَرَدَّ عَلَى الْعِضْيَانِ،

(1) النمل، 16. ن: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، 1999، 256/2.

(2) البقرة، 211.

(3) يوسف، 56.

(4) المفعول فيه وهو المسمى ظرفاً: الظرف وقت أو مكان ضمناً * في باطراد كهنأ أمكث أزمناً... الطرف: زمان أو مكان ضمناً معنى في باطراد، نحو: أمكث هنا أزمناً. والمعنى: أمكث في هذا الموضع، وفي أزمناً، واحترز بقوله: ضمناً معنى (في) عن اسم الزمان أو المكان الواقع مبتدأً كالدار لزيد، فالدار ليست ظرفاً، وهناك من سماه ظرفاً. واحترز ب(باطراد) من نحو: دخلت البيت، فهو متضمن معنى (في)؛ ولكن تضمناً ليس مطرداً؛ لأن أسماء المكان المختصة لا يجوز حذف في معناها، ولا تنصب على ظرفية؛ بل هي منصوبة على التشبيه بالمفعول به؛ لأن الظرف هو ما تضمن معناها باطراد. وهذه متضمنة لها لا باطراد. والخلاف لهذه القضية أن المفعول به غير متضمن معنى في، فكذاك ما شبه به. شرح ابن عقيل بتصرف، 191/2. ن: أوضح المسالك، 231/2-232، وضياء السالك، 152/2-158، وحاشية الصبان، 817.

فتوالت عليه الآفات، واشتدَّ على المصلحين إصلاحه، فاحتيج إلى أن يُسأسوا بسياسة الملك، ويؤخذوا بتدابير بناء الدول، ولزم أن يخاطبوا بوحى السماء من لدن نبيِّ ملكٍ يزعم بسلطانه ما لا يزعم بوحى الله إليه

الإلقاء ﴿إِنِّي أُلْقِي إِلَيْكَ كِتَابًا كَرِيمًا﴾ هو الرَّمِي من أعلى أي أن الكتاب قد طُرِحَ بين يديها حيث عمدَ الهددُ إلى إلقائه على السَّنَنِ الْمُتَّبَعِ في بلاطها في استقبالِ الكتب، إذ تُسَلَّمُ إليها الرسائلُ رأسًا في غيرِ مجلسِ الحُكْمِ. هذا هو الظاهرُ من قولها. وقد تضمَّنَ الإلقاءُ تسارعًا يناسبُ جوَّ القصةِ برسمِ جزءٍ من الصورةِ بدقةِ الحدثِ الصادرِ عن الهددِ المُدْرَبِ على هذا الصنيعِ بما يفوقُ المعتادَ في تدريبِ مثله. وذلك يُفهمُ من حصافتهِ وخصوصيةِ إعدادهِ الَّذِي أُعِدَّهُ للخدمة: ﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾. (1)

واستشرفُ الملكةُ للمستقبلِ الظاهرُ من كلامها دليلُ حكمتها وبعْدَ نظرِها، وذلك بواسطةِ كلماتٍ وظفَّتْها الآيةُ تعبيرُ عن ذلك أي عن طريقِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ المُنَوَّنِ العاملِ عَمَلِ الفعلِ إعرابًا، أو معنًى، أو تقديرًا، كما في: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾، ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ﴾. وقولها: (ناظرةٌ) هو من الترقُّبِ الزماني، أو أنه من النظرِ العقليِّ الذي هو قِوَامُ الحكمةِ وحصافةِ الرأي. «وَصِيغَةُ ﴿كُنْتُ قَاطِعَةً﴾ تُؤَدِّنُ بِأَنَّ ذَلِكَ دَأْبُهَا وَعَادَتُهَا مَعَهُمْ فِي الْمَاضِي بِدخولِ فعلِ الكونِ، وفي المستقبلِ بتتوينِ اسمِ الفاعلِ، فكانتُ عاقلةً مؤثرةً للشورى تدفعُ عن شعبِ مملكتها مَنْ تظنُّهم أهلَ استبدادٍ وسطوةٍ.

إذا الظرفيةُ وردت في كلامِ الملكة: ﴿إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ في سياقِ المحاورَةِ بينها وبين مُشِيرِيهَا؛ ولهذا تُكُونُ (إذا) للزمنِ الماضي بقرينةِ المقامِ، وتتسعُ -هنا- للزمنِ المستقبلِ -وهو الأصلُ في دلالتها- لورودِ الكلامِ موردَ الاعتبارِ بطبائعِ الملوكِ أو مهاوي الطُّغَاةِ منهم. وآيةُ ذلك قولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ الذي هو حكمٌ على المستقبلِ بدلائلِ

(1) سبأ، 22.

الماضي على نهج الاستصحاب⁽¹⁾ الذي هو كالنتيجة للدليل الذي في: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا...﴾

قرينة المقام - كما تقدّم - تشير إلى أن إذا واقعة للزمن الماضي؛ إلا أن قالب الحكمة يجعلها منطبقة على كلّ زمانٍ ماضٍ ومستقبلٍ؛ لأن المعنى المقصود لا ينفك عن التحقق في كلّ وقت. وأمّا نجاعة هذا الفحوى، فراجعةً إلى أن مقصود الملكة ينصرف إلى اعتبار الجهة أي أن المغلوب في أرضه ينظر - عادةً - إلى ما يصدر من عدوّه على أنه إفسادٌ وإذلالٌ له حتى يتمكن منه، فينقاد لهذا العدو ظاهراً وسريّةً إذا غلب على فكره ونفسه

ومن أمثلة مجيء (إذا) للماضي قوله - تعالى - من الجمعة والتوبة: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا﴾. (2)

كان لوجهاء المدينة، وعُرفاء الحرب، ومُقدّمِيها الذين يشهدون مجلسها للتشاور فيما طرأ على الدولة من مُستجدّات رأيٍ يميل إلى أخذ الأهبة والاحتشاد. وقد أظهروا ذلك اعتماداً منهم على ما رأوه من حاضرٍ قوتهم وظاهرٍ عدّتهم، أمّا هي فلها من الحكمة وبعيد النظر ما حملهم على التفويض إليها في آخر كلامهم، فرأت - وفق استحضارها لشواهد التاريخ وتجارب السابقين - أن تصانع سليمان عليه السلام، وتداريه بإبداء المودة ولين الجواب طلباً للزلفى. وقد رأت منهم اندفاعاً إلى المواجهة العسكرية، فأرادت أن تكبت ذلك فيهم أكثر ممّا أرادت التعريض بصاحب الكتاب، فسأقت هذا المثل من شواهد ما عرف الناس من أحوال الملوك وسير الفاتحين عبّر تعاقب الزمان. واستطاعت بذلك أن تُدبّر لتفادي الإلقاء باليد إلى الهلكة، وظنّت أنّ رشوتها لنبيّ الله تُغني عنها.

(1) الاستصحاب لغة: المصاحبة، واصطلاحاً: الحكم ببقاء الشيء على ما كان عليه حتى يقوم الدليل على تغييره، الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الإسلام=islam، ص: 27.

(2) الآيتان: 11-92.

الحرف: (لَمَّا) في: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ يُدُلُّ على وقوع شيءٍ عند وقوع غيره، فهو حرفٌ وجودٍ لوجود، فيصلُ بين حدثين في زمنٍ واحدٍ محققًا قياسَ رَدَّةِ فعلِ سليمانَ عليه السلام. (1)

وحديثُ سليمان -عليه السلام- عن المستقبل: (لِنَأْتِيَنَّهُمْ - فَلَنُخْرِجَنَّاهُمْ) حديثُ الواثق بنصرِ الله وتأييده المطمئنِّ إلى وحيِ ربِّه الذي أيدَهُ بالمعجزات، كما أيدَ أباهُ من قبل. وقد أراد أن يَسْتَعْرِضَ جمهرةَ المخاطبينَ ليبدوَ لَهُ مطلوبُهُ، ويتبينَ منهم الأقدَر على إنفاذِ ما يأمرُ به من إحضارِ عرشِ المَلِكَةِ بينَ يديه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾. وإذا كان اختصارُ الزمنِ واختزالُ المسافاتِ علامةً فارقةً للقوةِ والقدراتِ الفائقة، وهو ما يدرك قيمتهُ أهلُ الحضاراتِ المتقدمةِ في العلمِ والصناعة، فإنَّ سليمانَ أحبَّ أن يظهرَ ذلك في وقتٍ هو وقتُ مواجهةٍ بينِ دولتهِ وبينِ هذه المملَكةِ التي خاطبَ ملكَها بالإنعانِ لأمره. ومؤدَّى تسخيرِ الأسبابِ والأخذِ بها اكتسابًا يُفهمُ من سيرةِ داودَ عليه السلام. وقد وردَ ذلك في قوله من سورة سبأ: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحُدَيْدَ أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾. (2)

(1) ن: ت ت، 263/19-307/1.

(2) الآية: 10-11.

"والظرف تحريك الأجناف وفتحها للنظر إلى شيء، وارتداده انضمامها؛ ولكونه أمرًا طبيعيًا غير منوط بالقصد، أُوثر الارتداد على الرد".⁽¹⁾

وقد عملَ ظرفُ الزمان: (قبل) على صناعة معنى السرعة والأسرعية في كلام عفرية الجن والإنسي الذي عنده علم من الكتاب، فقد تضمنَ الظرف في الجمل الثلاث الزمن السابق لمظروفه الزماني: وهو الإتيان، والقيام من المقام، وارتداد الظرف. وقد تحقق لمن ميّره الله -تعالى- بعلم الكتاب أن يجيب سليمان -عليه السلام- بما لا مزيد عليه من تهية المطلوب وتلبية المأمول. وقد ترتب له ذلك بفضيلة العلم، وشرف الدراية، وقوة المعرفة، وهو ما حصله باجتهاده في علوم الشريعة التي أهّلته في تحصيل علوم كسبية على ما يظهر من هذه المناظرة بين مثال القوة ومثال الحكمة، إذ إن قوة الجن التي ظهرت في عهد مملكة سليمان عبّر عنها العفرية في الآية المتقدمة. ولا يمنع اشتهاؤ عهد سليمان -عليه السلام- بتسخير قوى خفية من الأخذ بأسباب قوة العلم الكسبي الذي لعله كان مميّزًا لهذا العهد -أيضًا- بدليل قوله لأبيه داود: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾.

"ومن في قوله: من الكتاب ابتدائية، أي عنده علم مكتسب من الكتب أي من الحكمة، وليس المراد بالكتاب التوراة. وقد عدّ في سفر الملوك الأول في الإصحاح الرابع أحد عشر رجلًا أهلًا خاصة سليمان بأسمائهم، وذكر أهل التفسير والقصاص أن الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا، وأنه كان وزير سليمان".⁽²⁾

(1) تفسير أبي السعود، 287/6، "وارتداد الظرف حقيقته: رجوع تحديق العين من جهة منظورٍ تحوّل عنها لحظة. وعبر عنه بالارتداد؛ لأنهم يعبرون عن النظر بإرسال الظرف وإرسال النظر، فكان الارتداد استعارةً مبنية على ذلك. وهذه المناظرة بين العفرية من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأق بالحكمة والعلم ما لا يتأق بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة لقوله: ﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وأن قوة العناصر طبيعية فيها، وأن الإكتساب بالعلم طريق لإستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضًا. فذكر في هذه القصة مثلًا لتعلب العلم على القوة. ولما كان هذان الرجلان مسخرين لسليمان، كان ما اختصا به من المعرفة مزيةً لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى. ومقام نبوته يترفع عن أن يباشر بنفسه الإتيان بعرض بلقيس". ت ت ت، 266/19.

(2) السابق، 271/19، ن: تفسير القرآن العظيم، 192/6.

ظرف المكان: (عند) جارٍ مجرى الوصفِ للحضرةِ المَلَكِيَّةِ، حيث بلاطُ سليمان - عليه السَّلام - الَّذِي تَكْتَنُفُهُ مَظَاهِرُ العِظَمَةِ والأبْهَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، وبعد استقْرارِ عرشِ المَلِكَةِ بالقربِ منه تكاملَ المشهَدِ، وَتَرَآى للحاضِرِينَ ما بلغه حُكْمُ نَبِيِّ اللَّهِ مِنَ السُّطُوَّةِ، والهِيبَةِ، والعِزَّةِ. لقد أصفى الظرف: «فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» توصيفًا لاستقْرارِ وتمكِنِ العرشِ في موضِعِهِ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ. وهذا ما حملَهُ في هذا الموقفِ على الثناءِ على اللَّهِ تعالى، وشُكْرِ نِعْمَتِهِ، وَتَلَفُّظِهِ بِحِكْمَةٍ عَمَلِيَّةٍ صَادِرَةٍ عَنِ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ والثباتِ لِمَا يَبْلُو بِهِ عِبَادَهُ مِنْ إِسْبَاغِ النِّعَمِ: «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ».

وبإشرافِ المَلِكَةِ على الوصولِ إلى مملكةِ بيتِ المقدسِ يصحبُها الوفدُ المَلَكِيُّ وبدخولِها المملكةَ يتحقَقُ إطباقُ نورِ الإيْمَانِ والتوحيدِ على ظلامِ الشريكِ في مشهَدِ انكسرتُ فِيهِ حضارةٌ أمامَ حضارةٍ أعظمَ، ومدنيةٌ أمامَ أخرى أبهى وأكرمَ: «قَالَ نَكَّرُوا لَهَا عَرَشَهَا» إلى «قَالَ إِنَّهُ صَرَخَ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ».

قوله: «وَأُوتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا» استعمالُ للظرفِ باستغراقِ مِنَ الابتدائيةِ لزمِنٍ ممتدِّ أفادهِ دخولِ الجارِ على الظرفِ، وقد أرادَ التَّنْوِيَةَ بِضَلَاةِ آبَائِهِ وَقَوْمِهِ فِي الحِكْمَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ مَقْصُودِ العِلْمِ فِي الآيَةِ، مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ الخليلِ، ومرورا بِيُوسُفَ، وموسى، وأبيه داودَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ، إذ أُوتِيَ قَوْمُهُ على عهدِ موسى شريعةَ التوراةِ وحكمةَ النبوةِ، فصاغَ لهم قوانينَ الجماعةِ، ووضعَ لهم مِنْ حُطَطِ العِمْرَانِ، ونِظَامِ الحَرْبِ، وأنظمةِ الإدارةِ ما هَيَأَ لهم مكانًا في تاريخِ الحضارةِ لم يحافظوا عليه مِنْ بَعْدِ زوالِ آخِرِ معاقِلِهِمْ أَيَّامَ رسالةِ المسيح. (1) وقد يكونُ المرادُ مِنَ الظرفِ القَبْلِيَّةِ الاعتباريةِ الَّتِي تتعلَقُ برتبةِ التوحيدِ، والمعرفةِ بِاللَّهِ، وما يسفرُ عنه ذلك من رجاحةٍ في التفكيرِ، ونورٍ في البصيرةِ، وقدرةٍ عقليةٍ إدراكيةٍ متحضرةٍ، وهو ما يتفوقُ بِهِ الموحِدُونَ على أَهْلِ سِيِّ وَسائِرِ حضاراتِ الشرقِ

(1) ن: خفايا التوراة، كمال الصليبي، دار الساقبي، 1988، ص: 9.

الضاربة في الشِّركِ وضلالِ العقيدة لذلك العهد. ويُضاف إلى اعتبارِ المنزلة اعتبارُ البُعدِ الزمنيِّ في قوله: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مع دلالة التمكّن في الإسلام ورسوخِ القَدَمِ في التوحيد "والصَّرْحُ بَيْتٌ وَاحِدٌ يُبْنَى مَنْفَرَدًا، ضَحْمًا، طَوِيلًا فِي السَّمَاءِ. وَقِيلَ: هُوَ الْقَصْرُ، وَقِيلَ: هُوَ كُلُّ بِنَاءٍ عَالٍ مُرْتَفِعٍ..."

عَلَى طُرُقٍ كَنُحُورِ الظُّبَا ۚ تَحْسِبُ أَرَامَهُنَّ الصُّرُوحَا*
وقال الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾، قال: الصَّرْحُ فِي اللُّغَةِ الْقَصْرُ وَالصَّخْنُ. يُقَالُ: هَذِهِ صَرْحَةُ الدَّارِ وَقَارِعَتُهَا أَيُّ سَاحَتِهَا وَعَرَصَتُهَا، وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: الصَّرْحُ بِلَاطٍ اتَّخَذَ لَهَا مِنْ قَوَارِيرٍ". (1)

الصرحُ بناءٌ عَظِيمٌ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ، لَعَلَّهُ أَنْفُسُ آثَارِ تِلْكَ الْحَقْبَةِ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَهِيَ آثَارُ أَرَادَ اللَّهُ -تَعَالَى- إِنْدِرَاسَهَا وَزَوَالَهَا لِانْتِقَالِ عِلْمِ التَّوْحِيدِ إِلَى أُمَّةٍ آخِرِ الزَّمَانِ: أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لقد وردَ اسمُ المكانِ (2) (الصرح) بصيغةِ التعريفِ، ثُمَّ بصيغةِ التنكيرِ:
﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾.
والتعريفُ محلُّهُ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ لَدَيْهِمْ؛ بَلْ هُوَ مُتَعَيِّنٌ غَايَةَ التَّعَيُّنِ، فَهُوَ قَبْلَةُ الْأَبْصَارِ وَمَوْئِلُ الْأَنْظَارِ، لَا تَخْطئهُ الْعَيْنُ، وَلَا يَزِيغُ عَنْهُ الْبَصَرُ، ثُمَّ جَرَى تَنْكِيرُ اللَّفْظِ تَهْوِيلًا وَتَعْظِيمًا لِقَدْرِهِ بِقَرِينَةِ الْوَصْفِ الْجَارِي بَعْدَهُ: (صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ). وَقَدْ انطَبَقَ الضَّمِيرُ فِي عَوْدِهِ عَلَيْهِ انطَبَاقًا كَلِيًّا: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى دَقَّةِ الصَّنْعِ، وَنَفَاسَةِ الْبِنَاءِ، وَمَقْدَارِ رُوَعِيَّتِهِ وَجَمَالِهِ، وَاشْتِمَالِهِ بِالْإِتْقَانِ وَحُسْنِ التَّهْيِئَةِ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى بَدِيْعِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي بَلَغَهَا صُنَاعُ دَوْلَةِ التَّوْحِيدِ فِي الْقُدْسِ الشَّرِيفِ فِي تِلْكَ الْأَوْنَةِ.

(1) لسان العرب، مادة: (صرح)، 509/2. * ديوان أبي ذؤيب الهذلي، ت: أنطونيوس بطرس، دار صادر، 2003 م، ص: 61.

(2) ظرف المكانِ المختص، أو اسمُ المكانِ المختص: هو ما دلَّ على مكانٍ له صورةٌ وحدودٌ محصورةٌ كالمسجد، والدار، والحانوت. ن: التحفة السنيّة، ص 109، والموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الظرف=adverb.

وسياق الضمير في الفعلين: (رأت- حسب) يشير إلى روعة إتقان ذلك المعلم ببلاطه الرُجَاجِي الشفاف وقد أُجْرِيَ الماء من تحته فبدا كاللجة مع ما يكتنف الصرخ من الرونق العظيم الَّذِي يُدْرِكُ من مضمون الآية.

وظرفُ المعية وردَ في كلام بلقيس وقد آخَى الإسلامُ بينها وبينَ سليمانَ عليه السَّلام. أصابَتْها صدمةٌ في نفسها لما عاينَتْهُ من عظمةِ مُلْكٍ من دعاها إلى الدِّينِ الحقِّ، وهي سليلَةٌ بيتِ مُلْكٍ وملوكِ عِظامٍ من ساداتِ اليَمَنِ وَأَقْيَالِهَا، والمرءُ يُوتى من جنسِ مألوفه، فالعالمُ الحكيمُ يُوتى من بهاءِ العِلمِ والحكمة، وسليكَ المُلْكِ يُوتى من بهرجةِ المُدُنِ وزخارفِ الممالك، وهكذا، فبَعْدَ أن نزعَتْ المَلِكَةُ هذا المَنزَع، آنَسَ الإيْمَانُ من قلبها غِرَّةً، فتسلَّلَ إليه نورُهُ بَعْدَ أن صدَّها ما كانت تَعْبُدُ من دُونِ الله، إذ ورثت عبادةَ الشمسِ وقومها من عصرٍ بَعِيدٍ، فانزاحَ عنها ذلك بَعْدَ شهودِها ملكاً نبياً لم تزدهُ آلاءُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- إلا استمساكاً بالهدى والرشاد.

تَقَفُ قوانينُ الزمنِ بينَ الإنسانِ وبينَ ما يتطلَّعُ إليه من أمنيّاتٍ ورغباتٍ في سرعةِ الإنجازِ واختصارِ الأوقاتِ حتى تتسعَ حياتهُ لأَكْبَرِ قَدْرِ ممكنٍ ممَّا يرنو إلى تحقيقه وإتمامه قبل نفاذِ العمرِ وفواتِ حظِّهِ الَّذِي يُؤمِّلُ من الدنيا. وقد تهيَّأتِ قِصَّةُ سليمانَ - عليه السَّلام - من هذه السورة بهذا المضمون. والمعنى أنه قد سُخِّرَتْ لَهُ

خوارقُ العادات، وتسنى له السيطرةُ على الجنِّ الَّذِينَ سَخَّرَهُمُ اللهُ لَهُ لخدمته والقيامِ بأمره مع ما علَّمَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- من منطقِ الطيرِ وكلامِ العجاوات، وما اهتدى إليه علماءُ مملكته وحكماؤها من أسبابِ العِلمِ والحكمة. ولم تزل نواميسُ الطبيعةِ تُعْطَلُ أو تُكَيَّفُ لخدمةِ الإنسانِ بمعجزاتِ الرسلِ ومنجزاتِ العِلم. ومن هذه القوانينِ قانونُ الزمنِ الناشئِ عن دورانِ الأفلاك، وهو ما تشيرُ إليه آيةٌ من هذه السورة نفسها: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا

تَفْعَلُونَ﴾. (1) وفي هذه السورة -أيضاً- حديثٌ عن أمةٍ أسيرةٍ لقيودِ الزمنِ والحركة، ومع ذلك فهي عظيمةُ النشاطِ لا تفتُر عن بناءِ مساكنها وحبِ أقواتها، هي أمةُ النملِ التي أَسْمَعْتُ واحدةً منها سليمانَ حديثها فتبسمَ ضاحكا من قولها: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. (2)

1122 ولسليمانَ الرِّيحَ

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلنا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ﴾: (3)

"وَمَعْنَى تَسْخِيرِ الرِّيحِ: خَلَقَ رِيحَ ثَلَاثِمِ سَيَرِ سَفَائِنِهِ لِلْغُرُوِ أَوِ النَّجَارَةِ، فَجَعَلَ اللهُ لِمَرَّاسِيهِ فِي شَطُوطِ فِلَسْطِينَ رِياحًا مُوسِمِيَّةً تَهْبُ شَهْرًا مُشْرِقَةً لِتَذْهَبَ فِي ذَلِكَ المُوسِمِ سَفْنُهُ، وَتَهْبُ شَهْرًا مُغْرِبَةً لِتَرْجَعَ سَفْنُهُ إِلَى شِوَاطِيِ فِلَسْطِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكنا فِيها﴾ فِي سُورَةِ الأَنْبِياءِ. فَأَطْلَقَ الغُدُوَ عَلَى الإِنْصِرَافِ وَالإِنْطِلاقِ مِنَ المَكَانِ تَشْبِيهاً بِخُرُوجِ المَاشِيَةِ لِلرَّعِيِّ فِي الصَّبَاحِ، وَهُوَ وَقْتُ خُرُوجِها، أَوْ تَشْبِيهاً بِغُدُوِ النَّاسِ فِي الصَّبَاحِ. وَأَطْلَقَ الرِّواحَ عَلَى الرُّجُوعِ مِنَ النِّهْمَةِ الَّتِي يُخْرِجُ لَهَا...

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ غَادٍ فَمُبْكِرُ غَدَاةٍ غَدٍ أُمِّ رَائِحٍ فَمَوْجِرُ * (4)

(1) النمل، 88.

(2) السابق، 18.

(3) سبأ، 12.

(4) ت ت ت ت، 158/22. * الآية: 81. * ديوان لبيد بن ربيعة، 152/1. حول بلاغة الظروف الزمانية ن: ت ت ت، 356/1-93/2-366-169/6-82/7-21/8-105-122/11-74/12-114/22-500/30، وحول الظروف المكانية ن: المصدر نفسه: 432/1-267/7-108/9-254-200/14-201-160/16-97/20-395/23-27/28-391/30.

جرى طيُّ الزمانِ لسليمانَ -عليه السّلام- آيةً من آياتِ نبوتِهِ ومعجزةً تُعَصِّدُ مُلْكَهُ، فكانت قصتهُ مع مملكةٍ سياً وغيرها بذلك مثلاً مُتَضَمِّناً للتنقّلاتِ الزمانيّةِ والمكانيّةِ في مشاهدٍ متسارعةٍ بين أطرافِ الممالكِ عابرةً أقاليمَ الأرضِ، ومما يحاكي ذلك ما يتوصّلُ إليه الإنسانُ في سُلْمِ الحضارةِ بواسطةِ العِلْمِ الَّذِي هو مُنْحَةٌ اللهُ للإنسانِ، وبخاصّةٍ في عصورِ انقطاعِ المعجزاتِ.

القرية - المدينة في آيات القرآن

1222 المجتمعات القروية وارتباطاتها المعنوية

جاء في لسان العرب:

"القرية وَالْقَرْيَةُ: لغتان: الْمِصْرُ الجامع...المكسورة يَمَانِيَّة...وفي الحديث أَنَّ نَبِيًّا من الأنبياءِ أَمَرَ بِقَرْيَةِ النملِ، فَأُحْرِقَتْ *...والقَرْيَةُ من المساكن، والأبْنِيَّة، وَالضِّيَاع. وقد تُطْلَقُ على المدن. وفي الحديث: [أَمَرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى]*... (المدينة النبوية)...أي ما يُفْتَحُ على أيدي أهلها...وجاءني كلُّ قارٍ وبادٍ أَي الَّذِي يَنْزِلُ الْقَرْيَةَ وَالْبَادِيَةَ".⁽¹⁾

وجاء في كتاب كفاية المتحفظ: "القَرْيَةُ: كلُّ مَكَانٍ اتَّصَلَتْ بِهِ الْأَبْنِيَّةُ، وَاتَّخَذَ قَرَارًا، وَتَقَعَّ عَلَى الْمُدُنِ وَغَيْرِهَا".⁽²⁾

مفهوم القرية في السياق القرآني حسب التصور الذي ينتهي إليه هذا البحث يتلخص في أنها تمثل مجتمعا بشريا وسطا بين البادية أو التجمعات الصحراوية وبين المدن بخصائصها المتحضرة ذات النُمُو المُطَرَّد، كما هو الحال مع مكة في وضعها التاريخي حتى الهجرة النبوية، فقد كانت أقرب إلى البيئة المدنية مع احتفاظها بكثير من عناصر الفوضى وضعف الانتظام الحضاري في حين استحكمت يثرب اسمها: (المدينة) مع بشائر الهجرة النبوية.

(1) مادة: (قري)، 174/15 * الحديث: "قَرَصَتْ نَمْلَةً نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ: قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أُحْرِقَتْ أُمَّةٌ مِنْ الْأُمَّةِ نُسِجَ"، صحيح البخاري، 62/4، ن: صحيح مسلم، 1759/4. * أَمَرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى. -يَقُولُونَ: يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ- تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَّتَ الْحَدِيدِ"، المصدران السابقان، 20/3، 1006/2. ن: مسند أحمد، 169/12، وتاج العروس، 284/39، والقاموس المحيط، ص: 1706، والمحکم والمحيط الأعظم، 497/6.

(2) كفاية المتحفظ في اللغة لأبي إسحاق الطرابلسي، ت: السائح حسين، دار اقرأ، د.ت، ص: 172.

ترتبط هذه القيمة المكانية في آياتها التي وردت بها في القرآن بجملة من الأحوال والدلالات السلبية التي تجمع بينها خصائص معنوية على ما يلي:

اتصل هذا الحيّز المكاني: (القرية) في آيتي البقرة: (58-59) بعدم امتثال الأمر الإلهي من بني إسرائيل وتبديلهم قول الله -تعالى- بقول من عند أنفسهم، وبالرجز الذي أنزل عليهم: (وهو الطاعون)، (1) وبذكر ظلمهم وفسقهم الذين هم عليه في ذلك العهد، وفي كلّ العهود والحقب. وكانوا لما بلغوا بريّة فاران بمدينة قادش على مشارف الأرض المقدّسة التي أمروا بدخولها، نكص أكثرهم عن الامتثال. والظاهر أنّها قرى ومدن مختلفة من مثل حبرون، وأريحا، والرملة، وبيت المقدس. وقد اختلف في تعيينها. (2) والذي أراه أنّها أرض الكنعانيين وغيرهم من سكان فلسطين والأردن. وجاءت تسمية المكان بالقرية لكون أوائل الأرض المأمور بدخولها قرى ومزارع، وهي ذات أشجار مثمرة وخيرات كثيرة. وقد عاد من ابعتهم موسى -عليه السلام- لاستطلاع نواحيها ومن فيها وهم اثنا عشر رجلا، وأخذ عشرة منهم في ذمّ الأرض وتخويف بني إسرائيل من دخولها على خلاف يوشع بن نون وكالب بن بغبة اللذان صدقا فيما رواه لموسى -عليه السلام- وقومهما. (3) والباب قد يكون اتخذ للتحصن خلفه، وقد يكون مضيقا بين جبلين، وليس من المقطوع به أنّه يدلّ على مدينة وراءه.

(1) ن: التفسير المنير، 67/1.

(2) ن: الجامع لأحكام القرآن، 409/1.

(3) ن: ت ت ت، 513/1.

وفي الآية: (259) ارتباطُ بقريةٍ خاويةٍ على عروشها بانهدامِ الجدرانِ على أسْفَفِ بيوتها. وهو ما يُشبهُ أن يكونَ مشهدَ أمةٍ من الناسِ أدركتهم قارعةُ العذابِ فهمُ بموضعِ الموعدةِ والاعتبارِ، أو أدركَ أوأخزهم سلطانٌ متجبرٌ استأصلهم من الأرض. (1)

وارتبطت هذه القيمةُ المكانيةُ في سورةِ النساءِ: (75) بمعنى الظلمِ الَّذِي كان واقعا على مُسْتَضْعَفِي مَكَّةَ من المؤمنينَ الَّذينَ عُلبوا على أمرهم، فلم يستطيعوا الهجرةَ إلى المدينة.

وترتبطُ في الأنعامِ: (92) بمعنى الإنذارِ الَّذِي هو الإخبارُ بما فيه توقُّعُ ضررٍ، وهو ضد البشارة، ونكُرُ إنذارِ أهلِ مَكَّةَ نصُّ على ما هم عليه من كراهةِ الحقِّ الَّذِي جاء به الإسلامُ؛ ولذا تحتمَّ تخويفُهم على خلافِ الَّذينَ أقبلوا على الإسلامِ منهم، فهمُ أهلُ بشارَةٍ ووعِدٍ بالنصرِ وبكرامةِ الدارينِ. (2)

وتتصلُ في الأنعامِ أيضًا: (123) بإجرامِ أهلِ الترفِ في كُلِّ قريةٍ يصحُّ أن تُتعتَ بهذا النعتِ، وبما هم عليه من المكرِ، وبما هم فيه من الغفلةِ والاعتذارِ، وهذا معنَى عامٌّ ينطبقُ على أفرادِهِ المتعددين، فهذه سُنَّةٌ جاريةٌ لدى الأممِ والتجمعاتِ البشريةِ الَّتِي تؤثرُ فيها عواملٌ خاصة. وهي في حالِ ظهورِها تؤدي إلى نتائجَ متوافقة، كالحالِ الَّتِي كان

(1) ويترجحُ أن المذكورَ في الآيةِ هو حزقيالُ بنُ بُوزي نبيِّ إسرائيلِ في عصرِ أرميا ودانيالَ من أسارى بُخنتصر: (605-552 ق.م) إلى بابل، وهو صاحبُ مَزَائِدٍ دُونَهَا في كتابِ حيث تنبأ فيها بمصائبِ اليهودِ وما يُرجى لهم من الخلاصِ من سبْيِ الكلدانيين. وكان أمرُهُ حوالي منتصفِ القرنِ الخامسِ قَبْلَ ميلادِ المسيحِ أي بَعْدَ مائةِ عامٍ من خرابِ أُورَشَلِيمَ بَعْدَ حملتي نبوختنصر ضدَّ المَمْلَكَةِ الجنوبيةِ الأولى: (597 ق.م) قمعًا لِثَوْرَةٍ قامت هنالك، فعينَ صدقيا محل يهوياكين، ونفى ثمانيةَ آلافِ يهوديٍّ من الأرسطراطيين. وبعد بضعِ سنين -عندما أعاد العِزْرانيون الكُرَّةَ بإيعازٍ من المصريين- توجهَ إليهم: (586 ق.م)، حيث جرى تخريبُ القدسِ وتدميرُ الهيكلِ، وعينَ جداليا حاكمًا لفلسطين. ن: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 251/10، وت ت ت، 35/3-36، وموسوعة الكتاب المقدس، العهد القديم- سِفْر حزقيال، الإصحاح: 37- عدد: 1 وما بَعْدَهُ.

(2) تَقَرَّرَت القُرَى في بلادِ العَرَبِ بَعْدَ مَكَّةَ، فَسَمَّاها العَرَبُ أُمَّ القُرَى، وكانَ عَرَبُ الحِجَازِ قَبْلَها من القَبَائِلِ القاطنةِ حَوْلَ مَكَّةَ مِثْلَ حُرَاعةَ، وَسَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، وَهَوَازِنَ، وَثَقِيفَ، وَكِنَانَةَ. ن: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي، (م)، ص: 29-33-39، ومعجم قبائل المملكة العربية السعودية، حمد الجاسر، (م)، ص: 3-11-33، ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة، عُمَرُ رَضِيَ كحالة، دار العلم للملايين، 1968، 513/2-514.

عليها كفار مكة من الإجماع في حق المؤمنين والاعتقاد بما أترفوا فيه من زخارف الدنيا وأسباب العلو والاستكبار فيها.

"وَفِي هَذَا تَنْبِيْهُ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْبَدَاوَةِ أَقْرَبَ إِلَى قَبُولِ الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى؛ لِأَنَّهُمْ لِبَسَاطَةِ طِبَاعِهِمْ مِنَ الْفِطْرَةِ السَّلِيْمَةِ، فَإِذَا سَمِعُوا الْخَيْرَ، تَقَبَّلُوهُ بِخِلَافِ أَهْلِ الْقُرَى، فَإِنَّهُمْ لِنَسَبَتِهِمْ بِعَوَائِدِهِمْ وَمَا أَلْفَوْهُ، يَنْفِرُونَ مِنْ كُلِّ مَا يُعْيِرُهُ عَلَيْهِمْ". (1)

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ﴾، (2) فمن النفاق ما هو أصيل متجذر، ومنه ما هو أقل شأنًا ورتبة.

"وَتَخْصِيصُ الْقُرَى بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ فِيهَا دُونَ الْبَوَادِي - كَمَا أَشَارَتْ إِلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ وَغَيْرُهَا مِنْ أَيْ الْقُرْآنِ، وَشَهَدَ بِهِ تَارِيخُ الْأَدْيَانِ - يُبَيِّنُ أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ - تَعَالَى - مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ هُوَ بِنْتُ الصَّلَاحِ لِأَصْحَابِ الْحَضَارَةِ الَّتِي يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا الْخَلْقُ بِسَبَبِ اجْتِمَاعِ الْأَصْنَافِ الْمُخْتَلِفَةِ، [بَعْدَ بِنْتِ رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ] وَأَنَّ أَهْلَ الْبَوَادِي لَا يَخْلُونَ عَنِ الْإِنْحِيَاظِ إِلَى الْقُرَى وَالْإِيْوَاءِ فِي حَاجَاتِهِمُ الْمَدْنِيَّةِ إِلَى الْقُرَى الْقَرِيبَةِ". (3)

وفي الآية: (131) ارتباط بمعنى الظلم الذي هو الشرك، وبإهلاك عموم القرى التي يأتيها من الله نذير فتعصيه، والمقام مقام إعدار وتهديد لمشركي مكة وغيرهم، وهو - أيضًا - مقام عبرة ووعظ في سياق إيجاز تضمن إثبات العدل الإلهي ونفي ما يضادّه في حقّه عزّ وجلّ. قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾. (4)

وفي الآيتين: (4- 5) من الأعراف ترتبط القرية بدلالات الإهلاك والبأس انتقاماً من أولئك المتجبرين الظالمين للمؤمنين من أقوامهم، وهنا مزية إقرارهم بالظلم عندما جاءهم بأسه. وكما - في صدر الآية: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ خبرية دالة على الكثرة. واستيعاب

(1) ت ت ت، 8-47.

(2) التوبة، 101. مرّد: أقبل وعتا، وبلغ الغاية في ذلك، ن: لسان العرب، مادة: (مرد)، 3/400.

(3) ت ت ت، 9/16.

(4) النمل، 52.

الزمان: ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ إذاعةً لِلذُّعْرِ من سوءِ العاقبةِ في وقتي الذهولِ عما لا يُدْهَلُ عنه عادةً؛ لِإِنَّ هذينِ الوقتينِ استقرَّ أنهما لطلبِ الراحةِ من تطلبِ الرزقِ أو الخوضِ في اللهُو والشواغل.

وارتباطاتها في الأعراف: (80-84) في خبرِ لوطٍ مع قومِهِ بدلالاتِ ارتكابِ الفاحشةِ، وبالإسرافِ في المعاصي، وأعظُمها الشركُ، وبالإجرامِ، وسوءِ العاقبةِ. نَزَلَ لوطٌ -عليه السَّلامُ- على قومِ سدومٍ وعمُورًا على شاطئِ الملح: (البحرِ الميتِ)، وهي من أرضِ كنعانِ، وهم من أسلافِ الفنيقيينِ، وهو من أورِ بابلِ، فهو آرامي؛ ولذا لم يُنعتْ بأخيهِم، وهو ابنُ أخي إبراهيمَ عليهما السَّلام.

يقول ابن الأثير: "ومدائنُ قومِ لوطٍ خمسٌ: سدومُ، وصبعةُ، وعمرةُ، ودوما، وصعوَةُ، وسدوم هي القرى العظمى". (1)

وفي سورةِ الأعرافِ أيضًا: (85-102) يردُ لفظُ القريةِ والقرى في قصةِ شعيبٍ -عليه السَّلامُ- مع قومِهِ أهلِ مَدْيَنَ، (2) وفي ما تلا ذلك من آياتٍ تتصلُ معنويًا لتشكلَ سياقًا واحدًا- في ستةِ مواضع. وترتبطانِ دلاليًا بما يلي: الشركُ باللهِ سبحانه، ودلُّ السياقِ عليه من خلالِ أمرِ شعيبٍ لأهلِ مَدْيَنَ بعبادةِ اللهِ وحده: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

(1) الكامل في التاريخ، 93/1، ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: سدوم وعمورا=Sodom and Gomorrah.

(2) "ومَدْيَنُ أُمَّةٌ سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدِّهَا مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ مِنْ رُوحِهِ الثَّالِثَةِ الَّتِي تَرَوَّجَهَا فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَهِيَ سُرِّيَّةٌ اسْمُهَا قَطُورًا. وَتَرَوَّجَ مَدْيَنُ ابْنَةَ لُوطٍ، وَوُلِدَ لَهُ عِنْفَةُ، وَعَقْرُ، وَخَنُوكُ، وَابْنِدَاعُ، وَالذَّعَةُ. وَقَدْ أَسْكَنَهُمْ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ فِي دِيَارِهِمْ وَسَطًا بَيْنَ مَسْكَنِي ابْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ. وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ بَطُونُ مَدْيَنَ. وَكَانُوا يُعَدُّونَ نَحْوَ 25 أَلْفًا. وَمَوَاطِنُهُمْ بَيْنَ الْجَبَازِ وَخَلِيجِ الْعَقْبَةِ بِقُرْبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَقَاعِدَةُ بِلَادِهِمْ (وَج) عَلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، وَتَنْتَهِي أَرْضُهُمْ مِنَ الشَّمَالِ إِلَى حُدُودِ مَعَانٍ مِنَ الشَّامِ، وَإِلَى نَحْوِ تَبُوكَ مِنَ الْحِجَازِ، وَتُسَمَّى بِلَادُهُمُ الْأَيْكَةَ. وَيُقَالُ: الْأَيْكَةُ هِيَ تَبُوكُ، فَهِيَ مِنْ مَدْيَنَ. وَكَانَتْ بِلَادُهُمْ قُرَى وَبَوَادِي، وَكَانَ شُعَيْبٌ مِنَ الْقُرَيْبَةِ وَهِيَ الْأَيْكَةُ. وَقَدْ تَعَرَّبُوا بِمَجَاوِرَةِ الْأَمَمِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَانُوا تَحْتَ مُلُوكِ مِصْرَ. وَقَدْ اِكْتَسَبُوا بِمَجَاوِرَةِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَمَخَالَطَتِهِمْ لِكُونِهِمْ فِي طَرِيقِ مِصْرَ عَرَبِيَّةً، فَأَصْبَحُوا فِي عِدَادِ الْعَرَبِ الْمُسْتَعْرَبَةِ مِثْلَ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ... وَيُقَالُ: إِنَّ الْخَطَّ الْعَرَبِيَّ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ فِي مَدْيَنَ"، ت ت ت، 8-ب/239-240، السُّرِّيَّةُ: الجاريةُ، ن: لسان العرب، مادة: (سُرر)، 356/4.

غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ⁽¹⁾. والبينةُ مُعْجَزَةٌ أَيْدَهُ اللهُ بها أو حجةٌ بَكَّتْهُمْ بها في جدالهم له، وبخُسهم الناس، وَتَطْفِئُهُمْ للكيل، وإفسادهم في الأرض، والصدُّ عن سبيلِ الله مع اجتهادهم في ذلك وشدتهم على من يرون فيه نُزوعًا إلى الحق، ومحبتهم للاعوجاج، وانحرافهم عن المنهج، وجحودهم للنعمة، ونسيانهم للفضل، وعدمُ اعتبارهم بسنةِ الله في الغابرين، والاستكبارُ، وتهديدهم لشعيبٍ ومَن معه من المؤمنين، والكفرُ والكفرُ والتكذيبُ بالحق، والرجفةُ والهلاكُ، والخسرانُ، والبأساءُ والضراءُ، والبأسُ، والإصابةُ بالذنوب، والطبغُ على القلوب، ونقضهم للعهد، والفسوقُ عن أمرِ الله تعالى.

جاء في الموسوعة العربية العالمية:

"واختلف العلماء: هل أصحابُ الأيكةِ هم أهلُ مَدِين، أم أنهم قومٌ آخرون؟ هل أُرسِلَ نبيُّ الله شعيبٌ إلى القومينِ معًا؟ رَجَحَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ أنهم أمةٌ واحدة، وُصِفُوا في كلِّ مقامٍ بوصف. كان أهلُ مَدِينَ عربًا...في أرضٍ معانٍ من أطرافِ بلادِ الشامِ قريبًا من بحيرةِ قومِ لوط. وقد كانت أرضُ مَدِينَ تمتدُّ من خليجِ العقبةِ إلى مُوَابٍ وَطُورِ سَيْنَاءَ، وتقع على أهمِّ طريقٍ من طرقِ النقلِ التجاري...وكانت رسالةُ شعيبٍ -عليه السَّلام- دعوةً إلى تركِ الخداعِ والاحتكارِ في بيئةٍ فشا فيها هذا الفسادُ بحكمِ موقعها على طرقِ التجارة".⁽²⁾

والذي يظهرُ أنَّها قَرَى وبوَاد، كما ذَكَرَ ذلك الإمامُ الطاهرُ بن عاشور؛⁽³⁾ لكونها واقعةً على طريقِ تجاريٍّ ممتد، فهذا وصفٌ يلائمُ القرى والبوادي في توالي تمرکزها وامتدادها في اتجاهٍ يستقيمُ وَيُنْعَرِجُ إلى منتهاها. وعرفنا ممَّا تقدَّم أنهم يَتَرَصَّدُونَ لِلسَّابِلَةِ والقوافل: يقطعون الطريقَ عليها، ويأخذون الإتاوات، أو يسلبون المارةَ فضلًا عن استشرَاءِ أخلاقِ الغشِّ وَالتَّطْفِيفِ في الميزان، وهذا كُلُّهُ ينبئُ عن عدمِ تحقُّقِ الوازعِ القانونيِّ أو

(1) الأعراف، 85.

(2) تحت عنوان: شعيب عليه السلام=Shu'ayb، ن: البداية والنهاية، 439/1.

(3) ن: ت ت ت، 8-ب/239-240.

العرفي الذي يسود في غالب المجتمعات المتمدنة، ويُفتقد في المجتمعات الفوضوية ذات النزعات غير المنضبطة إجمالاً في التعاملات والعلاقات بالآخرين، وهي المجتمعات التي عبّر القرآن عنها بمصطلح القرى أو القرية. قال -تعالى- عن قوم شعيب: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾. (1)

وتقترن في السورة أيضاً: (163-166) بعدوان طائفة من أهل أيلة: وهي مدينة العقبة على البحر الأحمر أول بلاد الشام ممّا يلي مصر من جهتها. وكانت من قرى بني إسرائيل على عهد مملكة داوود عليه السلام. (2) ووصفت بحاضرة البحر لاتصالها بخليج صغير على ساحله. وتتصل في السورة أيضاً- بالبلاء من الله تعالى، وبفسقهم، وإهلاك الله لهم. وبعذابه إياهم عذاباً شديداً، وعدم التقوى منهم، وكذلك نسيانهم لأوامر الله تعالى، والسوء، والظلم الذي كانوا يرتكبونه، والعذاب البئيس، والمسخ إلى قردة خاسئين. في الآية: (98) من سورة يونس ارتباط بعدم الإيمان الذي يفهم من السياق، وبعذاب الخزي.

وورد ذكر قوم يونس -عليه السلام- في الآية وأنهم آمنوا بدعوته جاء في سياق استثناء منقطع لكون نينوى مدينة لا قرية: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾، (3) فغالِبُ شأن هؤلاء الأقسام هو الإعراض عن الحق الذي اتاهم به أنبيأؤهم؛ ولذا تكرّر تغليطهم صراحةً في آيات كثيرة، وفيها كناية بتغليط كفار مكة الذين هم أهل قرية سلكت مسلك أولئك الأقسام الذين تنكبوا الطريق، فامتنعوا عن الهدى، وصدوا عن سبيل الله من آمن به.

(1) الأعراف، 85-86.

(2) ن: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 257/10-265-325.

(3) يونس، 98.

"والمقصود: التعريض بأن مشركي أهل مكة يوشك أن يكونوا على سنن أهل القرى.
قال -تعالى- في سورة الأنبياء: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.*
ونظير هذه الآية استعمالاً ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا
بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.* وذلك تعريض بتحريض
أهل مكة على الإيمان قبل نزول العذاب".(1)

ومما يؤكد حقيقة أن القرى في القرآن ذات سمات متشابهة معنى ونظم الآيتين
المتقدمتين في سورتي يونس وهود: 98-116:

بادر قوم يونس إلى الإيمان توقعًا منهم للعذاب وحلول النعمة. واستثناء قرينتهم من
القرى منقطع لمجاورتهم شعوبًا ومدنًا متحضرة حيث غلب عليهم في بلادهم: (نيناوى):
المناخ العقلي والنفسي المتحضر بعناصره المميزة، فنجم عن ذلك متابعتهم لنبيهم
مصحوبة بالخشية والاعتبار: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْحِزْيِ﴾. ولهذا لم ترد لفظه
(قرية)، أو ما يضاهاها في جملة المستثنى. ومما يشير إلى أنهم أهل مدينة متأثرة
بعناصر حضارية قوتهم العددية مقارنة بالنسب العددية لقرى تلك العصور: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى
مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾.(2) وفي هذا الاستثناء إنحاء على القرى لعنادهم؛ ولهذا لم يرد أنها
قرية صراحة.

وفي هود: (100) ارتبطت بالقرى الغابرة غير القائمة المشبهة بالأرض التي تم
حصادها، وأما القائمة، فهي ذات الآثار الباقية التي يعتبر الناظرون بمصائر أهلها.
وارتبطت بالظلم، وبالشرك، وبالأمر الذي هو تنبيب أي هلاك، والأخذ الأليم الشديد للقرى
الظالمة، وبعذاب الآخرة.

(1) ت ت ت، 289/11، * الآية: 6، * هود، 116.

(2) الصافات، 147.

وفي سورة (يوسف): (82) يُطْلَقُ اسْمُ الْقَرْيَةِ عَلَى الْمَدِينَةِ لِقَرِينَةِ فَنِيَةٍ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ أَوْ الْمَوْقِفِ، فَقَدْ طَلَّبَ أَبْنَاءُ يَعْقُوبَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- أَنْ يَسْأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا عَنْ مَدَى صَدَقِهِمْ، فَهَمَّ مِنْ جِهَةٍ -قَصَّوْا أَعْمَارَهُمْ فِي الْقَرْيِ وَالْبُؤَادِي، فَلَا غُرُوَ أَنْ تَجْرِيَ عَلَى لِسَانِهِمْ عَلَمًا عَلَى مَدِينَةٍ كَبِيرَةٍ عَظِيمَةٍ هِيَ مَنْفِيسُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا- تَسْمِيَةً أَلْفُوهَا فِي دِيَارِهِمْ هِيَ الْقَرْيَةُ يُطْلَقُونَهَا عَلَى مَجْتَمَعٍ بَشَرِيٍّ يَضُمُّ لَفِيْقًا مِنَ النَّاسِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ أَوْ سِوَاهَا، وَمِنْ جِهَةٍ، فَإِنَّهُمْ قَدْ يَكُونُونَ بَادِرُوا إِلَى لَفْظِ اسْتَعْمَلُوهُ -عَلَى عَادَتِهِمْ- اسْتِعْظَامًا لِلْمَوْقِفِ الَّذِي يَقْفُونَهُ بَيْنَ يَدَيْ أَبِيهِمْ، وَقَدْ كَانَ أَلَمٌ بِهِمْ نَظِيرُهُ أَيَّامَ تَأَلَّبُوا عَلَى يَوْسُفَ، وَضَيَّعُوهُ.

فَأَرَادُوا أَنْ يَقْرَبُوا الشُّقَّةَ عَلَى أَبِيهِمْ بِوَصْفِهِمُ الْمَدِينَةَ بِأَنَّهَا قَرْيَةٌ، فَكَأَنَّهَا مِمَّا يَتَّصِلُ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الْقَرْيِ وَالْبُؤَادِي. وَلَمْ يَرِدْ إِطْلَاقُ اسْمِ الْقَرْيَةِ عَلَى حَاضِرَةٍ مِضْرَ الْعَظْمَى فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

وفي آيَتِي يَوْسُفَ: (109-110) ارْتَبَطَتْ الدَّلَالَةُ بِضَعْفِ الْعُقُولِ، أَوْ عَجْزِهَا عَنْ إِدْرَاكِ قِرَاءَةِ الشُّوَاهِدِ، وَبِاسْتِيْآسِ الرِّسْلِ وَتَكْذِيبِهِمْ. وَبِالْبَآسِ، وَبِالْإِجْرَامِ مِنْ قَبْلِ كِفَارِ الْقَرْيِ الْمَتَعَصِبَةِ إِزَاءَ الْحَقِّ.

وفي سُورَةِ الْحَجْرِ ارْتَبَطَتْ بِمَعْنَى الْإِهْلَاكِ لِكُلِّ قَرْيَةٍ أَتَاهَا مِنَ اللَّهِ كِتَابٌ مَعْلُومٌ أَيْ بَشَارَةٌ وَنَذَارَةٌ لِإِظْهَارِ الْمَحْجَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ: "أَيُّ مَا أَهْلَكْنَا أُمَّةً إِلَّا وَقَدْ مَتَّعْنَاهَا زَمَانًا... فَهِيَ مُمْتَعَّةٌ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ عِنْدَ إِبَانِهِ". (1)

وفي سُورَةِ النَّحْلِ: (112-114) ارْتَبَطَتْ بِدَلَالَاتِ كِفْرَانِ النِّعْمَةِ، وَبِالْجُوعِ، وَالْخَوْفِ، وَسُوءِ الصَّنِيعِ، وَبِتَكْذِيبِ الرِّسْلِ، وَبِالظُّلْمِ النَّاشِئِ عَنْ مِقَارَعَةِ دَعْوَةِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ إِثَارًا لِلشَّرِكِ وَحِظِّهِمْ مِنَ الْعَاجِلَةِ دُونَ الْأَجَلَةِ. (2)

(1) ت ت ت، 14/14.

(2) ن: تفسير أبي السعود، 5/145.

وفي الإسراء: (16-17) ارتباطُ بإرادة الإهلاك، وبالترَف، ووقوعِ القولِ أيّ العقاب، وبالتدميرِ الشديد، وبكثرةِ الذنوبِ والخطايا.

وفي الآية: (58) ارتباطُ بالإهلاكِ وبالعذابِ الشديد، وهو إمّا عذابٌ استئصالٍ يدركُ كُلَّ قريةٍ كفرت، أو عذابُ السيفِ والانتقامِ كحالِ صرعى بدرٍ بِالْقَلِيبِ.

وفي سورة الكهف: (59) ارتباطُ بالإهلاكِ، وبالظلم، وبأنَّ نهايةَ الْمُتَوَعِّدِينَ بذلك الإهلاكِ لها موعدٌ لا يتخلف.

وفي الآية: (77) ترتبطُ القريةُ بدلالةِ اللؤمِ وسوءِ الطبعِ في لقاءِ الغرباءِ الَّذِينَ استقبلوا بالإنكارِ وَإِبَايَةِ الْقَرَى لَهُمْ، وهما موسى والخضرُ عليهما السَّلَام. وَعَبَّرَتِ الْآيَةُ عَنْ هذهِ البلدةِ بأنها قرية. ثُمَّ وَرَدَ فِي السِّيَاقِ أَنَّهَا مَدِينَةٌ حَيْثُ جَاءَ عَلَى لِسَانِ الْخَضِرِ يَكْزُهَا فِي الْآيَةِ: (82): ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾. وهذا التتوُّعُ في التسميةِ قد يُؤوَلُ إِلَى أَنَّ الْكَنْزَ كَانَ تَحْتَ جِدَارٍ بَقْرِيَّةٍ

هي مسقطُ رأسِ أبي الغلامين، وهي ضاحية، أو أنها من قرى أطرافِ المدينة، وأنهما لَمْ يَكُونَا مَقِيمَيْنِ بِتِلْكَ الْقَرْيَةِ الَّتِي مَا كَانَ لِيَنْشَأَ فِيهَا أَيْتَامٌ مَعَ قَبْحِ طَبَاعِ أَهْلِهَا وَقِسْوَةِ عَشْرَتِهِمْ، حَتَّى أَنَّهُمْ يَرْدَانِ ضَيْفَيْنِ كَرِيمَيْنِ قَدْ رَأَوْا عَلَيْهِمَا سِيْمَاءَ الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى بَدَلًا أَنْ يَلْقَيَا مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْمَوَاسَاةِ مَا يَنْبَغِي لِكُلِّ عَابِرٍ سَبِيلٍ؛ وَالحَالُ أَنَّ طَرِيقَهُمَا -أَيِ مُوسَى وَالْخَضِرِ- يَمُرُّ بِالْقَرْيِ وَالضَوَاحِي قَبْلَ الْوَصُولِ إِلَى الْمَرْكَزِ أَوِ الْأَصْلِ. وَكَيْفَ لَغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ أَنْ يَأْمَنَا بِجَوَارِ قَوْمٍ لِنَامِ جَفَاةٍ؟ فَالْأَقْرَبُ أَنْ يَتَعَهَّدَ مَتَعَهَّدَ رَحَلَتَهُمَا إِلَى الْمَدِينَةِ. وَفِيهَا يَنْشَأُ بِهَا حَتَّى يَبْلُغَا أَشَدَّهُمَا، وَقَدْ يَكُونُ أَبُوهُمَا لِصَلَاحِهِ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قَدْ عَزَمَ قَبْلَ مَوْتِهِ أَنْ يَكْبُرَ ابْنَاهُ بَعِيدًا عَنِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ،⁽¹⁾ فَتَخَيَّرَ مَكَانًا غَيْرَ الْقَرْيَةِ، وَتَرَكَ أَمْرَ الْكَنْزِ لِلَّهِ أَمَانَةً يَبْلُغُهَا لِلْيَتِيمَيْنِ بِمَشِيئَتِهِ، أَوْ يَكُونُ أَفْضَى بَسْرِهِ إِلَى بَعْضِ مَنْ يَأْتُمُّهُمْ عَلَيْهِ. وَبِهَذَا لَا يَكُونُ وَرُودُ هَذَا الْاسْمِ عَلَى لِسَانِ الْخَضِرِ لَغَيْرِ غَايَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ؛ بَلْ كَانَ

(1) ت ت ت، 14/16.

متضمناً من المعاني ما تقدّم، وهو يندرج في سلك الدلالة العامة التي تكون وراء مصطلح القرية والقرى في القرآن،

وفي سورة الأنبياء: (6-15) اتصلت القرية بانعدام الإيمان، وبالإهلاك، وإهلاك المسرفين، ورهق بعض العقول أن تدرك حقائق الأشياء ودعوة التوحيد، وبقضم الله الكافرين أي دقّ وكسر ظهورهم وشورهم، وبالأس، والفرار بالركض، وبالإتراف، ويكون النازل بهم العذاب صاروا حصيداً خامدين.

وفي (74) ارتباط بعمل قوم لوط للخباثت، وبأنهم قوم سوء، وبفسقهم.

وترتبط القرية والقرى في القصص: (58-59) بالإهلاك، وبطر المعيشة، وبخراب الدور وحلّوها من أهلها، وبظلم أهل القرى المستوجب نقمة الله وانتقامه. والبطر التكبر، وهو بهم لجحودهم نعم الله تعالى - بعدم التسليم والاعتراف. وهذا البطر من أشرط هلاك المنذرين، وهذا وغيره استقصاء لإغذار أهل مكة.

مكة أم القرى العربية التي انضوت تحت لوائها الديني بلاد كالتائف، وجدة،

ومنى، ونجد، وما حولهن من القرى والبوادي، وكذلك قرى اليمن، والبحرين، وعمان. ومن اطراد السنن أن تحلّ دعوة الرسول القرية الكبرى من مجموع القرى والبوادي التي تؤوب إلى أمها، وتنقاد لها في الاتباع والتترك. والأمر الذي يظهر بها لا يخفى على النواحي، والأطراف، وما يتصل بها. يأتون إلى أعظمها قرية بين مارة، وحجيج، وأهل تجارات...

ومن القرى التي انمحي سكانها نظائر لقرى غيرها في بقاء آثارهم وطول ديارهم شواهد لأجيال من الناس ينظرون إليها، فهم بين معتبر وذاهل عن العبرة والاتعاظ بتلك المنازل التي لم يبق إلا رسومها. (1)

(1) ن: ت ت ت، 150/20-153.

وارتباطاتها في سورة العنكبوت: (28-35) بفعلِ الفاحشة، وقطعِ السبيل، وإتيانِ المنكر، وجرأتهم على الله ونبِيِّه بقولِهِمْ: ﴿اِثْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ﴾، وبظلمِ أهلِ القرية، وبالرَّجْزِ النازل، وبفسقِهِمْ.

وفي سبأ: (15-21) ارتبطتِ القرى بدلالاتِ الإعراضِ عن شكرِ النعمة، وهو الشُّكْرُ الَّذِي أَمَرْتَهُمْ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ، وبسبيلِ العَرِمِ أَي السبيلِ الشَّدِيدِ الَّذِي لَا يُطَاقُ،⁽¹⁾ وهو شديدٌ لعظمِ المياهِ المنحدرة، وكثرةِ تدفقِها، وتنوعِ اتجاهاتها، وبِالأَكْلِ الحَمِطِ أَي المُرِّ الَّذِي لَا يَنْتَفِعُ بِهِ، وقد يكونُ الأراك، والأثلُ أَي ما يشبهُ الطَّرْفَاءَ وهو شَجَرُ العَصَاةِ من شجرِ البوادي، وَلَا تُوَكَّلُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِوَرَقِهَا، والسِّدْرِ القليلِ أَي الضَّالِ يُشْبِهُ النَّبِقَ وَلَا ثَمَرَ لَهُ وله شوْكٌ وهو أحدُ نوعين. ⁽²⁾ وهي كُلُّها من شَجَرِ الفيافي.

وترتبطُ -أيضاً- في هذه الآياتِ بالكُفر، وبظلمِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، وبجعلِهِمْ أخبارًا وقصصًا يُروى، وبتشريدِهِمْ وتمزيقِهِمْ، إذ تَفَرَّقَتْ سبأُ في البلاد،⁽³⁾ فَلَحِقَتْ غَسَّانُ بالشام، وأنمازُ ببِثْرِب، وجُذامٌ بِتِهَامَةَ، والأزْدُ بِعُمان، وباتباعِهِمْ لِسَعَايَةِ إبليسَ فيهم وظنَّهُ أَنَّهُمْ مُتَّبِعُوهُ.

كانت مَمْلَكَةُ سبأٍ في عهدِ ملكِها بلقيسَ بنتِ الهداد⁽⁴⁾ ذاتِ شأنٍ في الحضارةِ والعمران: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.⁽⁵⁾ وهي -كما وصفَتْها الآيةُ- بلدةٌ طَيِّبَةٌ، والطَّيْبَةُ: الحَسَنَةُ فِي جِنْسِهَا الْمُلائِمَةُ لِمُزاولِهَا وَمُسْتَثْمِرِهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحِ طَيِّبَةٍ﴾،⁽⁶⁾ فهي ذاتُ حدائقٍ وبساتين، أينما التفتوا، رأوا النضارةَ وحُسْنَ الجداولِ التي تتفرَّقُ مياهُها فيها مقبلةً من جوابي السدودِ ومُرْتَفَعَاتِهَا، وَأَعْظَمُهَا سَدُّ مَأْرِب، أو أَنَّها كُلُّها تدعى كذلك. وكان سبأُ أوَّلَ ملوكِ اليمن، وهو الَّذِي ابتداءً بناءَ السد، والذي أتمَّهُ ابنُهُ

(1) ن: لسان العرب، مادة: (عرم)، 394/12.

(2) ن: السابق، مواد: (سدر - خمط - أثل) 11/9-296/7-354/4، وتفسير أبي السعود، 128/7.

(3) جاء في المثل: "ذهبوا أو تفرقوا أيادي سبأ"، مَجْمَعُ الأمثال، 275/2.

(4) ن: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، دار الساقى، 2001 م، 73/4-198/2.

(5) النمل، 23.

(6) يونس، 22.

حَمِيرَ . وكان يُبْنَى في ممراتِ الماءِ بين الجبالِ أسوارٌ يُصَبُّ القارُّ في شقوقِ صخورها لإحكامِ تماسكها حتَّى تَلْتَمِمْ فَيُنْحَبِسَ الماءُ الَّذِي يَسْقُطُ هُنَالِكَ، وكانوا يُعِدُّونَ الجوابي قُرْبَ الخزانِ العظيمِ، فإذا فاضَ الماءُ من أعلى السدِّ، انصبَّ في الجوابي، فكان السقيُّ بالسَّوَانِي⁽¹⁾ للمزارعِ والبيوتِ في وقتِ انقطاعِ الأمطارِ في الصيفِ والخريفِ يتمُّ بفتحِ مغاليقِ منافذِ مياهِ السِّدادِ في نوباتٍ مَقَدَّرَةٍ، فتسِيحُ إلى مواضعِها، وكان يُصَبُّ في سدِّ مَأْرِبِ سبعونَ وادياً. وقد حلَّ الجفافُ بهم بَعْدَ السيلِ، ثُمَّ حَدَثَ اختلالٌ في نظامِ سقوطِ الأمطارِ، وهو ما أدَّى إلى بوارِ الأرضِ وتصحرِها. ⁽²⁾ وكانت بإزاءِ مَمْلَكَةِ سِأٍ في عهدِ بلقيسَ وأبيها مَمْلَكَةُ داوودَ وابنه سليمانَ -عليهما السَّلَام- في بيتِ المَقْدِسِ. ⁽³⁾

وتميَّزَت هذه المملَكَةُ عن سِأٍ في عِظَمِ المكاسبِ الدنيويَّةِ والمراقي السلطانيَّةِ الَّتِي تَهَيَّأَ كثيرٌ منها على سبيلِ المعجزةِ وخرقِ العادةِ إكرامًا لمَمْلَكَةِ التوحيدِ والوحيِّ في زمنِ تَفَشَّتْ فِيهِ عقائدُ الشِّرْكِ والإلحادِ،

"هذه الآيةُ وما بعدها وصفٌ حالِهم قبلَ مجيءِ السيلِ، وهي أَنَّ اللهَ تعالى مع ما كان مَنَحَهُم مِنَ الجنَّتَيْنِ والنعمةِ الخاصَّةِ بهم كان قد أصْلَحَ لهم البلادَ المتصلةَ بهم، وَعَمَّرَهَا، وجعلهم أربابها، وَقَدَّرَ فيها السيرَ بأنَّ قَرَّبَ القرى بعضها من بعض، حتى كان المسافرُ من مَأْرِبِ إلى الشامِ يبيتُ في قريةٍ، وَيَقِيلُ في قريةٍ أُخْرَى، فلا يحتاج إلى حملِ زاد". ⁽⁴⁾

كانوا يقصدون الديارَ الشاميةَ -وهي القرى الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها بِبِرْكََةِ بيتِ المَقْدِسِ- مستغنينَ عن الميرةِ وحملِ الأروادِ. وكان في طُرُقِهِم تلكَ الَّتِي يسلكونها قرىً قد أعدوا فيها ما يَنَقَّوْمُونَ به في تلكَ الأسفارِ من استنباطِ الآبارِ، واتخاذِ الوكلاءِ الَّذينَ يقومون على

(1) وهي النَّوْاضِحُ والسواقِي، ن: لسان العرب، مادة: (سنو)، 403/14.

(2) ن: ت ت ت، 170/22، ومن أسرارِ المُغَايِرَةِ في نَسَقِ الفاصلةِ القرآنيةِ، محمد الأمين الخضري، القاهرة، 1994، ص: 50.

(3) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنواني: داود- سليمان=davdd- solomon.

(4) المَحْرَّرُ الوجيز، 480/4.

حوائجهم إذا ظعنوا، وإذا ارتحلوا. وتلك القرى على الصرّاب والآكام ظاهرة للرئين ذات أبعاد متعادلة، أو هي في ضواحي المدن وظواهرها تكاد تتصل ببعضها: وطّدها كبراء القوم لتيسير مرور القوافل؛ ولرعاية أمنها من الوحوش، والسباع الضارية، وفُتّك الطرُق، وقطّاع السبيل؛ وللترحيب بالسابلة قصاد المدائن والبلدات بأرض الشام، فلا يكاد المسافر يقيل في قرية حتى يبيت في أخرى. ولا تخلو من كثير من الخانات، والإسطبلات، ومصانع المياه، والحوانيت، والأسواق لمن رغّب في اقتناء البضائع والسلع على اختلافها والتزود بالأطعمة، والثمار، والمحاصيل الرائجة يشتركون منها في مواطن ويبيعون في مواطن أخرى، فظلموا أنفسهم، وقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا. كان هذا لسان حالهم، فإن لم يقولوه صراحة، فللجحد وكفران النعمة أحوال وأقوال يؤازر بعضها بعضاً، أو أنهم قالوا ذلك تبرماً بالرخاء، وبالترف، وراحة الأبدان، واشتاقوا إلى رياضتها بقطع المفاوز والفيافي، كما يسمعون عن أسفار آبائهم، أو عن تجشم شعوب الصحراء في ركوب الصعاب واجتياز المهالك في البوادي والقفار، فكانوا إذا ما خرجوا من مأرب قوافل للتجارة، عبروا تهامة، ثم الحجاز، ثم مشارف الشام. وهي رحلة طويلة، ومحلّ المنّة كونها ذات مراحل. كلّموا قطعوا مرحلة أناخوا وأراحوا الإبل والخيول، واستجمّوا بطيب المقام، ثم آذنوا بالرحيل. وبطرهم هذا جرى مثله على لسان بني إسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾. (1)

وقد حلّ بهم خراب المنازل، وأزمعوا الرحيل بعد انهيار السدّ بسبب إهمال الملوك والأقبال لوازم صيانتهم من العوادي والآفات؛ ولانشغالهم بالحروب الداخلية؛ وربما بسبب تعمد بعض أعدائهم للنيل من مقدّراتهم، فكان سيل العرم المقوّض لتلك الحضارة، وانتشر في طرق أسفارهم سم قحولة الأرض - الهوام، والعوادي، وكثرة المفاوز، والقرى الخربة، فقد صارت قراهم الأولى وحسبها أثراً بعد عين. وتقييد القرى في هذه الآيات بالوصفين:

(1) البقرة، 61.

(ظاهرة- التي باركنا فيها) يخرجها عن السياقات العامة التي يرد فيها هذا المصطلح في القرآن، فالقرى الظاهرة ليست مقصودة لذاتها، وليس أهلها بمحل العبرة التي مرّت في الأمثلة المتقدمة، وفي سائر آيات القرآن التي تُجمل أحوال القرى وما عليه أهلها من الضلال وعظم الشنآن لعقيدة التوحيد، وتعاليم الشرائع، ومبادئ الأخلاق. وإنما كان الغرض من ذكر هذه القرى: (قرى ظاهرة) وظيفياً يشير إلى ما كانت أُعدت له من غرض تعهد القوافل وعابري السبيل، والوقوف على حوائجهم والمعاملة معهم بالتجارة، والإجارة، وغيرها. والقرى التي بارك الله فيها هي -في حقيقة الأمر- مدائن بأرض الشام مباركة، كبيت المقدس، والخليل، وبيت لحم.... وكونها سُميت قرى هو من قبيل المشكلة؛ ولكون البركة تتصل ببركات الأرض وجنى مزارعها التي تنمو زروعها بالأسباب المسخرة. فالحديث -إذن- عن القرى المنتشرة بين اليمن والشام، وما تُعج به أرض اليمن من المزارع، والبساتين، والجنان النضرة. وهذه مظاهر -في عمومها- ثلاثم القرى، والأرياف، وضواحي المدن الكبيرة.

وانهيار السدّ -باعتباره واقعة تاريخية- رمزٌ للانهايار الاقتصادي والأخلاقي الذي أصاب هذه الحضارة في سبب إصابة مباشرة؛ ذلك أنّ تكدّس الثروات، وتوافر أشكال الثراء والترّف، والانشغال عن الاحتفاظ بمقومات النموّ والبناء -كُل ذلك يؤدي إلى توالي عوامل الانهيار وظهور آثارها بشكلٍ قد لا يُلاحظ إلا بعد استفحال الأمر وبداية نهاية الطور الأخير من أطوار العمران للدولة أو للحضارة.

يقول ابن خلدون:

"واعلم أنّ الداعي لذلك كلّهُ إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم، ويعظم الخرج، ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة. يستحدثون ألقاباً ووجوهاً يُوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج، ثم لا يزال الترف يزد، والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال الناس تشتد،

ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تُمحي دائرتها، ويذهب برسمها، ويغلبها طالبها، والله أعلم". (1)

وأشكال الفساد التي تفتك باقتصاديات الدول لا يخلو منها زمان، وهي تتنوع، وتتجدد بحسب البيئة والفترة التاريخية التي تشهد نمو حضارة دولة من الدول أو مملكة من الممالك. وفي الأسطورة التي انضافت إلى واقعة انهيار سد مأرب أن الجردان التي تُعرف بالخلد⁽²⁾ هي التي خربت السد قبل أن تتعهد الملوك بالإصلاح والترميم، وهي صورة رمزية للفاستين الذين يقوضون اقتصاد الدولة بأنواع الجرائم الاقتصادية والتعديت على مقدرات الأمة، فهم أشد وبالا عليها من القوارض والآفات التي تنخر في البناء.

وتتصل في سياق أيضاً: (34-38) بكون أهل القرية هم بموضع النذارة، وكونهم مترفين منعمين مع ما هم عليه من النكران والجحود، وبالتهكم في خطاب أنبياء الله: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾، وبالكفر مقربين على أنفسهم بذلك، وبفخرهم بالأموال والأولاد، والتألي على الله بنفي كونهم من أهل العذاب افتراءً عليه عز وجل، وبنفي العلم عن أكثر الناس وبأنهم يصدرون عن الجهل والتخبط في العقول، وبزعم بعضهم أن أموالهم وأولادهم تُقربهم إلى الله زلفى، وهذا يفهم من سياق النفي في الآية: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآلَتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾،⁽³⁾ وبسعيهم معجزين في آيات الله، وكونهم في العذاب مخضرين.

وفي يس (13-29) ارتبطت القرية بدلالات تكذيب أهلها للرسول حواري المسيح وأوصيائه إلى بعض القرى، واتهامهم بالكذب فيما جاؤوا به، وبتطيرهم من دعوة الحق، وبتهديدهم إياهم بالعذاب الشديد إذا لم يكفوا عن دعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد،

(1) المقدمة، ص: 290. وألخرج وألخرج: أول ما ينشأ من السحاب. والمقصود -هنا- الإتاوات، وما يُجبي من أموال الناس من مكوسٍ ونحوها. قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾، (المؤمنون، 72)، ن: المُحكَّم والمحيط الأعظم، مادة: (خرج)، 4/5، وتاج العروس، 509/5.

(2) ن: تاج العروس، مادة: (خلد)، 61/8، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 268/1.

(3) سبأ، 37.

وبكونهم مسرفين في ظلمهم واعتدائهم مُهَدِّدين الرسل بالرجم وغيره، وبالشرك بالله - تعالى- الَّذِي هُم عليه، وهو ما يُفهم من تَعْرِيزِ الرجلِ المؤمنِ بهم وقد جاء من أقصى المدينة: وفيه إنكارُهُ على مَنْ يتخذُ من دُونِ اللَّهِ أندادًا آلهة، وبالضلالِ المبينِ الناشئِ عن الشركِ بالله عَزَّ وَجَلَّ، وبالصيحةِ الواحدةِ الَّتِي صاروا بها خَامِدِينَ مِنْ هَوْلِ ما أحدثته من الفزعِ العظيم. والأمرُ العظيمُ لَهُ خطرُهُ وعظمتُهُ إذا كَانَ مِنْهُ تعالى. (1)

من الحقائق التاريخية أَنَّ عيسى -عليه السَّلَام- قد أوصى الحواريين بالاجتهادِ في بيتِ دعوةِ التوحيدِ ومناوأةِ الوثنياتِ المنتشرةِ في أصقاعِ الشرقِ، فكان الواحدُ منهم إذا رأى رؤيا، أو جالَ بباليه خاطرُ إلهام، اعتَبَرَ ذلكَ بمثابةِ وحيٍ مِنْ اللَّهِ، واستجابَ له، وجاب البلادَ قاصداً أرضاً بعينها للدعوةِ والنهيِ عن عبادةِ الأصنام. وهؤلاءِ الحواريون هم: بولس (2) وهو بخلافِ بولس الرسول، وبرنابا، (3) وأندراوس، ويعقوب (جيمس)، ومثي،

(1) ن: التصوير الجمالي في القرآن الكريم، عيد يونس، عالم الكتب، 2006 م، ص: 129-130.

(2) وهو غيرُ القديس بولس أو بولس الرسول صاحب الرسائل الشهيرة الَّتِي هي جزءٌ من العهدِ الجديد. وكان -أي صاحبِ الرسائل- يهودياً في الأصلِ نشأ في طرسوس، وقد قامَ باضطهادِ المؤمنينَ بالمسيحِ في بيتِ المقدسِ قَبْلَ رحلتهِ إلى دمشقِ الَّتِي عَنَّ لَهُ أثناءها اعتناقُ المسيحيةِ ضِمْنَ أجواءِ غامضة، وهو من الشخصياتِ الكنسيةِ الأولى، كما أَنَّهُ حاملٌ عبءِ التصير، واعتمادِ التحريفِ في الديانةِ النصرانية، وتأسيسِ الأديرةِ في آسيا الصغرى وجنوبِ شَرْقِيِ أوروبا، وقد توفي في روما بعدَ سنةٍ 60 م، وستأتي إشارةٌ برنابا الحواريِ إِلَيْهِ في الهامشِ الآتي ضمنِ إنجيله، ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: بول القديس = Saint, Paul .

(3) ولعلَّه كاتبُ الإنجيلِ الَّذِي لا يؤمنُ به النصارى لما فيه من الحقِّ والبشارةِ بمحمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومما جاء فيه قولُه: "إنَّ اللهَ العظيمَ العجيبَ قد افتقدنا في هذه الأيامِ الأخيرةِ بِنَيْبِهِ يسوعُ المسيحُ برحمةٍ عظيمةٍ للتعليمِ والآياتِ الَّتِي اتخذها الشيطانُ ذريعةً لتضليلِ كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليمٍ شديدِ الكفر، داعين المسيحَ ابنَ الله، ورافضين الختانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ اللهُ دائماً، مجوزين كُلَّ لحمِ نجسٍ، الَّذِيْنَ ضَلَّ في عِدادِهِمْ -أيضاً- بولس الَّذِي لا أتكلمُ عنه إلا مع الأسى، وهو السببُ الَّذِي لأجلِهِ أُسْطِرُّ ذلكَ الحقُّ الَّذِي رأيتهُ، وسمعتهُ أثناءَ معاشرتي لیسوعَ لِكَيْ تُخَلَّصُوا، ولا يُضِلَّكُمْ الشيطانُ، فتهلكوا في دَيْئُونَةِ اللهِ، وعليه فاحذروا كُلَّ أحدٍ يبشركم بتعليمٍ جديدٍ مُضادٍ لما أكتبته لِيُخَلَّصُوا خلاصاً أبدياً". موسوعة الكتاب المقدس، مستهلُّ إنجيلِ برنابا، 62/5. وقد ذَكَرَ مصمِّمُ الموسوعة -إثباتاً عن المستشرقِ سييل- أَنَّ الَّذِي عَثَرَ عَلَى هذا الإنجيلِ هو الراهبُ اللاتيني فرا مرينو استخرجه من مكتبةِ الفاتيكان أثناء انشغالِ البابا: (سكتس) عنه في غفوة. وقام بنشره في فجر القرنِ 18 في العالمِ المسيحي بعدَ اطلاعه على هذا المخطوطِ المكتوبِ بالإيطالية. ومن ثَمَّ اعتناقه للإسلام. راجعُ هذه القصة في تعريفِ مصمِّمِ الموسوعةِ بهذا الإنجيلِ، وهي تختلف عن قصةِ الموسوعةِ العربيةِ العالميةِ الَّتِي تنصُّ على أَنَّ مكتشفَ هذا الإنجيلِ هو كريمير مستشارُ ملكِ بروسيا 1709 م. راجعُ الموسوعة تحت عناوين: الأنبياء والرسل = Messengers and Prophets، رسل المسيح = Apostles، برنابا = Barnabas، وما تحتها من إحالات. ن: التفسير المنير، 92/16.

وسمعان بطرس،⁽¹⁾ ويهوذا الإسخريوطي،⁽²⁾ وتاديوس، ويهوذا بن يعقوب أو أخوه، ويعقوب بن ألفي، وماتياس.⁽³⁾

وهناك اختلافات حول قصة أصحاب القرية - التي هي من قرى أنطاكيا - بين كُتُب التاريخ وكُتُب التفسير: ⁽⁴⁾ وخلصتها أن ثلاثة رسل قد بُعثوا إلى أهل قرية من قرى المدينة الكبيرة: (أنطاكيا) التي كانت خليطاً من اليهود واليونان، فكذبوهم، وتوعدوهم بالعذاب والقتل: وهم برنابا، وشاول: (بولس) اللذان هما من تلامذة المسيح وحوارييه، وسيلا، أو سمعان، وهذا هو الثالث الذي نُصِرَ به الاثنان المتقدمان.⁽⁵⁾

وعندما سمع بالخبر نجاراً من أقصى المدينة، جاء إلى أهل القرية - بعد علمه وتحققه من صدق الرسل الذين جاؤوا بعقيدة التوحيد - ليحملهم على متابعتهم.

وقد ورد أن برنابا وبولس قطعاً رحلتها إلى أهل أنطاكيا مرة إلى أيقونية، وأخرى إلى بيت المقدس: وكان موضوع وجوب الختان ممّا صعب عليهما أمر الدعوة. وعندما عادا إلى بيت المقدس رأى الأخبار إرسال سيلا، وبرسبا الذي غادر ولم يمكث في أنطاكيا.⁽⁶⁾

(1) يزعم النصارى أنه مؤسس الكرسي البابوي، وأن بابوات روما خلفاؤه، وهو أول أساقفة أنطاكيا، ثم روما في عهد نيرون الذي اضطهد المسيحيين، وكان بطرس أحد ضحايا هذا الاضطهاد، توفي في روما سنة 64 م، ن: السابق، تحت عنوان: بطرس، القديس = Saint, Peter .

(2) وهو الذي يتهمة النصارى بخيانة المسيح عليه السلام، ن: السابق، تحت عنوان: يهوذا الإسخريوطي = Judas Iscariot .

(3) أورد الإمام بن عاشور في تفسير سورة آل عمران: (52): "وَالْحَوَارِيُّونَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا وَهُمْ: سَمْعَانُ بَطْرُسُ، وَأَخُوهُ أَنْدَرَاوُسُ، وَيُوْحَنَّا بَنُ زَبْدِي، وَأَخُوهُ يَعْقُوبُ، وَهَوَّلَاءُ كُلُّهُمْ صَيَادُو سَمَكٍ، وَمَتَّى الْعَشَّارُ، وَتُومَا، وَفِيلِيْبُسُ، وَبَرْتُو لِمَاوُسُ، وَيَعْقُوبُ بَنُ حَلْفِي، وَبَارْتُولَمَآوُسُ، وَسَمْعَانُ الْقَانَوِيُّ، وَيَهُوذَا الْأَسْخَرِيُوطِيُّ"، ت ت ت، 256/3.

(4) ن: البداية والنهاية، 11/2، والتفسير المنير، 318/22.

(5) قد يكون بعض الدعاة الذين ساحوا في البلاد لنشر دعوة المسيح من غير الحواريين، وهذا ما يفسر الاختلاف في الأسماء الواردة في الأخبار. ن: ت ت ت، 249/25.

(6) ن: موسوعة الكتاب المقدس، أعمال الرسل من العهد الجديد، الإصحاح: 13 - عدد: 1-9، والإصحاح: 15: 35-34.

وقد يكونُ تحمُّلُ هؤلاءِ الرسلِ لوصيةِ المسيحِ وانبراؤهم للدعوةِ معنًى من معاني كونهم رسلاً، ولم ينصَّ القرآنُ على هذا التفصيلِ لقصدِ الإيجازِ الَّذي هو أسلوبُ قرآنيٍّ من أخصِّ أساليبِ القرآنِ وأنفسِها استعمالاً. والصوابُ أنَّهم رُسلٌ لقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (1).

وارتباطُ القريةِ بتكذيبِ الرسلِ وارتباطُ المدينةِ بالرجلِ المؤمنِ الَّذي قَدِمَ ساعياً من أقصاها لمناصرةِ الحقِّ والاستشهادِ في سبيله يثيرُ إلى معنى التنوعِ في استعمالِ هاتين القيمتينِ المكانيتينِ، وهو يندرجُ في سلكِ المعاني الَّتِي ارتبطت بها القريةُ أو القرى في الاستعمالِ القرآنيِّ، وهي المعاني السلبيةُ الَّتِي احتشدت في السياقاتِ الواردِ في آياتها ذكراً هذا الحيزِ المكانيِّ.

وقد جرى في كتابِ قصةِ الحضارةِ وصفُ هذه المدينةِ بأنَّها مدينةٌ مرصوفةٌ يسهلُ فيها السعيُّ من أقصاها إلى أَدناها على نحوِ ما وُصِفَ به سعيُّ الرجلِ المؤمنِ إلى القريةِ الَّتِي جاءها المرسلون والَّتِي هي من قرى (أنطاكيا) عاصمةِ سوريا حينها. وكان النهرُ تعاونهُ شبكةً عظيمةً من الطرقِ البريةِ يحمل بضائعَ الشرقِ وتجارتهِ إلى العاصمةِ في حين كانت (سلويا - سبيريا):

"(Selluce Spieria) ثغرَ البلادِ الواقعَ على البحرِ الأبيضِ على بُعدِ 14 ميلاً من إنطاكيا نحو مصبِّ النهرِ تأتي إليها بحاصلاتِ الغربِ. وكان الجزءُ الأكبرُ من المدينةِ يقومُ على سفحِ الجبلِ، ويشرفُ على نهرِ العاصي الَّذي يجري من تحته. وكانت المدينةُ ذاتَ موقعٍ جميلٍ استطاعت إنطاكية بفضلِه أن تُنافسَ رودسَ في أن تكونَ أجملَ مدائنِ الشرقِ الهلنستيِّ. وكانت شوارعُها تضاءُ بالليلِ، فنُكسبُها بهجةً وجمالاً، وتؤمنُ سكانها

(1) يس، 14-15.

على أنفسهم وأموالهم، وكان شارعها الرئيسُ البالغُ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفًا بالحجر الأعلب".⁽¹⁾

كان يقوم على جانبي هذا الشارع صفان من العمَد المسقَّفة، فكان في وسع الإنسان أن يسيّر راجلاً من أحد طرفي المدينة إلى طرفها الآخر آمنًا من المطر وحرّ الشمس. وكان الماء النقيّ يصلُ بمقَادِيرٍ موفورةٍ إلى كلِّ البيوت. وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم 600.000 الذين كانوا خليطًا من اليونان، والسوريين، واليهود بإفراطهم في اللهو والمجون، يعبون الذات، ويسخرون من الرومان المتباهين الذين جاؤوا ليحكموهم. وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة، والفلسفة، والطب؛ ولكنها لم تكن مركزًا علميًا؛ ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كلّهُ في العمل، فإذا احتاجوا إلى الدين، لجؤوا إلى المنجّمين والسحرة.⁽²⁾

وفي الشورى: (7-9) ارتباطُ بكونِ أهلِ أمِّ القرى أهلًا للنِّذارة، إذ أزمعوا مُناوأة الدعوة، وعملوا على الكيد للداعي، والمكر بالمؤمنين. ولسابق علم الله التّجيزي بما انطوت عليه نفوسهم زوّج في آيات كتابه بين التبشير والإنذار. وفي الآيات أيضًا- ارتباطُ فريقِ السعيرِ الذين أصرُّوا على الكفر ومخالفة الحقِّ الذي جاء به الإسلام بكونهم ظالمين، فافتقدوا كلّ وليٍّ أو نصير، وبتخاذهم أولياء من دُونِ الله. وهذا الوعيدُ أتى شبه صريح كما في قوله آخر قصة لوطٍ في سورة الحجر: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾.⁽³⁾

وفي الزخرف: (23-25) ارتباطاتٌ معنويةٌ بكونِ أهلِ القرى مستحقّين للنِّذارة، وبتّرفهم، وبإصرارهم على السير على آثار آبائهم، وبتهمّمهم، وبإعلانهم بالكفر، وبانتقام الله منهم إذ ألوا إلى عاقبة أمرٍ هي بمحلّ الاعتبار والنظر. وفي الآيتين (31-32):

(1) ول ديورانت، (م)، 420/11.

(2) السابق بتصرف، 421-420/11.

(3) الآية: 83.

اتصال بتألي مشرقي قريش على الله تعالى، ذلك أنهم أظهروا الاعتراض على نزول الوحي على رجل من غير عظماء مكة وثقيف بزعمهم، وهو تهكم في صورة افتتات ومعارضة، فهم غير مسلمين -ابتداء- بنزول القرآن، فكيف يُسلمون بنزوله على أحد عظمائهم إلا أن يكون ذلك جاريًا على سبيل التمثل والإحالة.

وفي الأحقاف: (27- 28) ارتباط القرى بدلالات الإهلاك مع رجاء رجوعهم إلى الحق، وبتخاذ أهلها من دونه أندادًا يزعمون أنهم قربانهم إلى الله، وأنهم نصراء لهم ينصرونهم مما يكرهون، وبالإفك، وبما كانوا يفترون من الأباطيل والضلالات.

وفي سورة محمد: (13- 14) تتصل القرية بدلالات الإهلاك، وبانعدام النصير، وبتزيين الأعمال التي يغتر بها الضالون، وبتابع الأهواء المضلة.

والقرى في سورة الحشر: (7، 14) هي تلك التي يقطنها مشركو العرب كالصفراء، وينبع، ووادي القرى، وهي التي أفاء الله على نبيه من أموال أهلها من غير قتال، ولا إيجاب خيل أو ركاب، أو القرى التي يقطنها بعض المنافقين، أو قبائل من اليهود كخبيز، والنضير، وقريظة، وتيماء، فَيَنْتَرِسُونَ فيها بالأسوار أو مُحْنَدِقِينَ حولها، ولا يقاتلون إلا اضطرارًا تترسًا بالحصون، وبالآطام. (1)

2222 المدينة وارتباطاتها المعنوية في آيات القرآن

المدينة في السياقات القرآنية هي مجتمع بشري تغلب عليه سمات الحضرة، أو أنها تبرز فيه على نحو تتناقض، أو تضمحل معه خصائص المجتمع البدوي أو القروي الريفي، فالمدينة القرآنية تختلف عن القرية في خصائصها النفسانية والاجتماعية، كما ظهر ويظهر لنا في هذا المبحث، وبخاصة فيما يتعلق بأمر تلقي الدعوات الدينية السماوية، والظروف المصاحبة لهذا التلقي، والاستجابة لما يأتي به نبي أو رسول إلى قومه من أمر التوحيد، وتقويم السلوك، والشعائر التي تُفرض عليهم، أو تُسن لهم.

(1) الإيجاب: سرعة السير، والركاب: الإبل، ن: لسان العرب، مادة: (وجف)، 352/9.

وقد حصرْتُ فيما تقدّم مجموع الارتباطات المعنوية التي سجلتُ ورودها في الآيات التي تُذكرُ فيها القرية أو القرى، وهي التي أقومُ بتلخيصها وتصنيفها في نهاية هذا المبحث للوقوف على حقيقة أنّ هذه المجتمعات لها خصوصية أو خصوصيات في الاستعمال القرآني، وأنها مرتبطة بتاريخ تكذيب الرسل، ومحاربة الرسالات، ورفض نُظم الحياة التي أرادها الله -تعالى- أنماطاً أخلاقيةً وَعَدِيَّةً تحكّم حياة الإنسان والمجموع، وترتقي بها لتكون ذات سمات سماوية وخصائص ربانية تعبر عن حمل الأمانة وتحمل المسؤولية الإيمانية والأخلاقية التي تعهد الإنسان بالتزامها منذ كان في عالم الدّر؛ ولهذا لم يتكرّر ورود ذكر المدينة أو المدائن إلا في مواضع قليلة من القرآن؛ ولأنّ موقف أهل كلّ مدينة كان مرتبطاً في الأغلب بظروف وعوامل سياسية وتاريخية جعلت الحكم على مواقف مُتساكني المدن مختلفاً عما يمكن الحكم به على مواقف أهل القرى التي بُعث فيها أنبياء، إذ كانت مواقفهم أقرب إلى الارتهان لعوامل العناد والطغيان، كما تقدّم.

يُذكر المدائن في سورتي الأعراف: (111)، والشعراء: (36، 53) جاء على لسان مشيري فرعون أن يَحْشِدَ لدحض أمر موسى -عليه السلام- السحرة يأتون من مُدن مِصْرَ⁽¹⁾ للنيل منه ومن قومه وتمهيداً لما أزمع فرعون من استئصالهم بعد إظهار كذب الداعي أمام جمهرة الناس الحاضرين في ضحى يوم الزينة: وهو يوم كسر الخلجان أي إرسال الزائد من مياه النيل إلى الأراضي البعيدة لسقيها،

وهو يوم عيدٍ عظيمٍ يحتفل به القبط في ساحة قصر فرعون على عادة الملوك وعائلاتهم في شهودهم احتفال الرعية بأعيادها في ساحات القصور. (2)

قامت الحضارة المصرية القديمة على أساس وثنية اعتمدت عليها حُكْمُ القبط من قبل أسر الفراعنة حكماً ثيوقراطياً مستتبداً استعمل الطبقات الدنيا في السخرة، وهي طبقات

(1) كان ذلك قبل 1275 ق.م، وهي سنة خروج موسى وقومه من مصر. ن: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 115/10. وفرعون مُرَبِّي موسى رمسيس الثاني. وأما فرعون الذي بُعث إليه، فهو ابنه منفتح الثاني. ن: ت ت ت، 111/19.

(2) ن: ت ت ت، 246/16.

العبيد والعمال الفقراء الذين قامت على أكتافهم حضارة من أوائل حضارات البشرية خضوعاً لحكام في صورِ آلهة مزعومة حكمت الأمة المصرية ابتداءً من عام 3100 ق.م: "استطاع ملك الوجه القبلي -واسمه مينا- هزيمة ملك الوجه البحري في ذلك التاريخ. بعد ذلك وَّحدَ نعرمر البلاد، وكوَّن أولَ سلطةٍ مركزيةٍ في العالم. وأسَّس مدينةً (ممفيس) عاصمةً له بالقرب من موقع القاهرة الحالي. وتحوَّلت العاصمة إلى طيبة، ثمَّ إلى مُدنٍ مصريةٍ شمالية، وظلَّ لطيبة شأنها الديني حتى قوَّضها الرومان سنة 29 ق.م]. كذلك أسَّس نعرمر أولَ عائلةٍ (أسرة) حاكمة، وهي تشتمل على عددٍ من الملوك من أسرةٍ واحدة. وقد حكمت مصر القديمة أكثر من ثلاثين أسرةً أخرى".⁽¹⁾

وصاحبُ الرؤيا هو رمسيس الثاني، وهو حاكمُ مصر الثالث في الأسرة التاسعة عشرة. وحُكْمُهُ بتقتيل الأبناء واستحياء النساء لخشيته من تواطؤ بني إسرائيل مع أعدائه حسب ما تنهى إليه من أخبار جواسيسه الذين كانوا يتسقطون من أنباء الإسرائيليين الذين كانوا يعيشون بأرض جاسان غير مخالطين للمصريين أو متأثرين بهم في عباداتهم وعاداتهم - حُكْمُهُ بذلك يُعدُّ من دلائل سطوته العظمى وما بلغه حكام ذلك العصر من الاستبداد وإرهاب الرعايا، كما يتضح من أخبار تسخير أفراد الشعب في أعمال السخرة لبناء الآثار المصرية العظمى التي مازالت شاهدةً على مدى استفحال وتغول قبضة حكام المصريين في تلك العهود، فلم يكن لذلك من الممكن التغاضي عن اتباع بعض الأفراد لدين أو دعوةٍ أمرًا واردةً في ظلِّ سطوةٍ دينيةٍ ترعاها مؤسَّسة الكهان وأرباب الديانة المصرية العتيبة في تلك الحقبة التي كانت بحكم الاستحالة أن تتساهل في أمرٍ يتعلَّق بعبادة (رع) والآلهة الأخرى للمصريين.

(1) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: مصر القديمة=Ancient،Egypt وطبيبة قاعدة مصر العليا، ومنفيس قاعدة السفلى، وهي مقرُّ الفراعنة. وقد استولى عليها الهكسوس الرعاة الرحالون القادمون من فلسطين والجزيرة العربية، وحكموا مصر مائة عام من 1670 ق.م، وهم شعب سامي يدعون العمالقة. ن: السابق والصفحة نفسها، والأعلام، 88/5.

ومدينة (منفيس: قاعدة مِصر السفلى) هي الواردُ ذِكرُها في سورة القصص: (15، 20)، وهي التي خرج منها موسى -عليه السلام- خائفاً يترقبُ بعد قتله أحدَ عمالِ مخازرِ الفرعونِ إثرَ اقتتاله مع الإسرائيليين الذي استعاث بموسى، فقتلَ موسى القبطيَّ بوَكْرِهِ أي بضرِبِهِ بِجُمعِ الأصابعِ بصورةٍ عَقْدِ ثلاثةٍ وسبعين لفرطِ قوته. وكان موسى قد نشأ في هذه المدينة في قصرِ فرعونَ معدوداً من أفرادِ العائلةِ الحاكمة، حتى قيل أنه كان يُدعى: موسى ابنَ فرعون. ولعلَّ أُمَّهُ التي أرضعته بقصرِ فرعونَ قد أطلعتُه على حقيقةِ أمره، وأنه من بني إسرائيل، وأنه ابنُها قد رَدَّهُ اللهُ إليها. والذي رباه هو رعمسيس الثاني الذي شهَدَ عصرُهُ تسخيرَهُ مُقَدَّرَاتِهِ لتنفيذِ برنامجِ عمرانِيٍّ كبيرٍ، فبنى عاصمةً جديدةً بدلتا النيل، وأتمَّ القاعةَ العظيمةَ ذاتِ الأعمدةِ لمعبِدِ (أْمُون رع) في الكرنك. وكان موسى يريدُ اللحاقَ بموكبِ فرعونَ الذي مرَّ بالمدينةِ قبلَ وقوعِ القصة. (1)

وأقصى المدينة الواردِ ذِكرُهُ في القصص: (20) هو ناحيةُ قصورِ فرعون، حيثُ خروجُ خبرِ اثْتِمَارِ القومِ بموسى من هنالك، والرجلُ -لا غرو- كان يَعْرِفُ موسى، فأقبلَ إليه ناصحاً بمغادرةِ المدينةِ والنجاةِ بنفسه. (2)

كان ورودُ المدينةِ والمدائنِ في الآياتِ السابقةِ غيرَ مختصِّ بدعوةِ موسى ورسالتِهِ من حيثُ إيمانُ أهلِ مدينةٍ بعينها بدعوةٍ دينيةٍ في حينِ قُصِدَتْ القريةُ والقرى بتوجيهِ الإدانةِ إلى أهلها، أو إلى غالبيةِ سُكَّانِها والسوادِ الأعظمِ من سادتها وكبرائها لعداوتهم للحقِّ؛ ولكفرهم؛ ولتكذيبهم الرسلَ مع الشُّطَطِ في العداوةِ واللَّدِّ في الخصومة. والمُدنُ في التاريخِ القديمِ انضوتُ تحتِ نظامٍ سياسيٍّ وسلطةٍ مُنظَّمةٍ تُمثِّلُ هيبةَ الدولةِ وِسْطوتِها على المدنِ والبلداتِ، كما في فلسطينِ بمدنها التي شهدت رسالةَ المسيح، وكانت خاضعةً لسلطانِ روما في الشرق. وقد تكونُ المدينةُ نفسها سلطةً سياسيةً مستقلةً ذاتِ سيادةٍ مكتفيةً بحدودِ مساحتها وإن كانت محدودةً كنيَوى التي أرسلَ يونسُ إلى شعبها.

(1) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: رمسيس الثاني=Ramses II.

(2) ن: تاريخ الطبري، 236-234/1.

مصر كانت دولة ذات خصائص إمبراطورية وذات نظامٍ ثيوقراطي، تضمُّ العديدَ من المدائنِ والعواصمِ التاريخية. وهذا يعني أنَّها لم تكن دولةً مدنيةً؛ بل هي دولةٌ توسعيةٌ محكومةٌ بنظامٍ وراثيٍّ ومؤسسةٌ دينيةٌ تنزعُ من مواطنيها أيَّ حضورٍ ومشاركةٍ؛ بل تعملُ على قمعِ الحريات، وعلى الأخصِّ الدينية منها؛ إلا في عصرٍ توجهتُ فيه السلطةُ إلى الاقترابِ من ديانةِ التوحيدِ على نحوٍ ما حصل في عصرِ أخناتون الذي حكمَ مصرَ من 1367 إلى 1350 ق.م، وكان خروجُ قومِ موسى من مصر بعد ذلك بـ 75 عامًا أي في 1275 ق.م. والمهادُ التاريخي لتوجُّهِ السلطةِ نحو التوحيدِ يُمثِّلهُ دعواتُ الرسلِ كإدريس، ويوسف، وموسى عليهمُ السلام، وظهورُ شخصياتٍ مؤمنةٍ ذاتِ تأثيرٍ كمؤمنِ آلِ فرعون، وآسية التي هي زوجُ الفرعون، وغيرهما ممَّن لم تصلنا أخبارُهم. (1)

وفي سورةِ يوسفَ: (30): المدينة: هي حاضرةُ حكامِ مصرِ الهكسوس، وكان أبوفيس هو ملكُ البلاد، ورئيسُ شرطتهِ (طيفار العَمَلِيقي)، ويُلقَّبُ بالعزیز، وهذا لَقَبُ خُطَّةٍ له. وهو الَّذي اشترى يوسف، واتخذهُ ولدًا يربيه في قصره. (2)

وفي هذه الآيةِ والآياتِ الَّتِي تليها مظاهرُ ماديةٍ وإشاراتُ اجتماعيةٍ ونفسيةٍ إلى حياةِ المدينةِ كاتخاذِ المُتَكَاتِ كالأرائكِ ونحوها، واستعمالِ السِّكِّينِ في قَطْعِ الفاكهةِ أو الحلوى. ومن ذلك فراغُ سيداتِ الطبقاتِ المُتَرَفَّةِ، وبحثُّهن عن المغامراتِ الغرامية، وانشغالُ النساءِ في مجالسِهِنَّ بأخبارِ بعضِهِنَّ، واتخاذُ ذلكِ مادةً للتسليةِ وهنَّكِ أَسْتارِ البيوت. وهذا مُشاهدٌ في حياةٍ كثيرٍ من سيداتِ القصورِ في كُلِّ العصورِ.

وفي سورةِ الحجرِ: (67) ذكرُ أهلِ المدينةِ الَّذينَ جاؤوا بِنَيْتِ لوطٍ يستبشرون، وقد أزمعوا الاعتداءَ على ضيفهِ الَّذينَ أتاهم خبرُهُم غافلينَ عن أنَّهم ملائكةُ العذابِ أنتهم بعقابِ اللهِ لهم. وهؤلاءِ المستبشرونِ الفساقُ يظهَرُ أنَّهم من غيرِ أهلِ سكانِ قريةِ لوطٍ أي هُم من أهلِ المدينةِ الَّتِي قد تكونُ هذه القريةُ من أريافِها. وقد يكونُ انضمَّ بعضُ أهلِ

(1) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: أخناتون=Akhenaton، وت ت ت، 129-128/24-350/7.

(2) ن: أخبار الزمان للمسعودي، دار الأندلس، د.ت، ص: 258.

المدينة إلى أهل قرية لوط - عليه السلام - فيما هم فيه من الخنا وارتكاب الفواحش. وقرينة ذلك أن المدينة لم تُذكر في أخبار قصة لوط في القرآن إلا في هذه السورة،
مر بنا تعديداً ابن الأثير لأسماء مدن تقع على شاطئ البحر الميت، ومنها سدوم وعمورة، وهي خمس مدن. (1) والذي أراه أن قوم لوط الذين كان بينهم كانوا في قرية أو أكثر من قرى تلك التجمعات العمرانية؛ ولذا ذكر ابن الأثير أن سدوم هي القرى العظمى من بين مدائن قوم لوط، إذ إن التعبير عنها بالمدائن يعود إلى كونها تجمعات بشرية حافلة بالسكان لا لأنها ذات طبيعة مدنية.

كان ابتداء فساد السوية الجنسية - مع المجاهرة، والإعلان، وكون ذلك مُشاعاً - في هؤلاء القوم، وأظهره عرفاً بينهم لا ينكرونه، ولعل هذا هو مقصود قول لوط - عليه السلام - لهم في أكثر من سورة: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾، (2) وليس مطلق فعل الشذوذ، فإن ذلك - لا غرو - يقع شيء منه في كل العصور، وفي أي مجتمع من المجتمعات البشرية.

ومن إشارات كون المدينة الوارد ذكرها في سورة الحجر: (67) غير قرية قوم لوط عدم ذكرها في أي من آيات قصة لوط مع قومها إلا هاهنا، ثم لم ترد كلمة قوم بصيغة التنكير في سياق تفصيل قصة لوط أو ذكر بعض حوادثها سوى في هذه السورة التي لم ترد فيها لفظ القرية؛ بل الوارد المدينة، ووردت - أيضاً - في الذاريات التي لم يرد في قصة لوط - عليه السلام - فيها ذكر أي من اللفظين: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾. (3) وجرى تنكير قوم لإفادة الاتساع بحيث يشمل التعبير أهل القرية وغيرهم ممن هم على شاكلتهم، كما في الحجر: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. (4) ومما يشير إلى أن القادمين

(1) راجع: ص: 269 من هذه الدراسة.

(2) الأعراف، 80.

(3) الذاريات، 32.

(4) الآية: 67.

من المدينة هُم من غير أهل القرية؛ بل انضموا إلى أهل القرية في فُجورهم وفسقهم - قولهم للوط: ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾⁽¹⁾ وفي ذلك نبرة سطوة وغلوّ في المنطق لطلبهم منه عزّل نفسه عن العالمين أي عن أصناف القبائل، وهو تحكّم لا يصدر إلا عن مقرّ السطوة والسيادة وهي المدن عادة، وهؤلاء بعض المنتمين إلى إحداها تألبوا مع أهل القرية على لوط - عليه السلام - والنيل من دعوته الدينية والأخلاقية، في حين أنّ أهل القرية قالوا للوط - كما ورد في سورة هود - كلاماً أبعد عن معنى التحكّم والإلزام الوارد في كلام بعض أهل المدينة: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾⁽²⁾.

والمدينة الوارد ذكرها في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾⁽³⁾ هي مدينة الحجر أو حجر ثمود، وتقع ضمن مدائن صالح المعروفة اليوم، وهي - اليوم - أطلال وبيوت منحوتة في الجبال، وتقع بين مدينة النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبين تبوك بأرض الشام. والموضع الذي خرج إليه صالح - عليه السلام - ومن معه - روي أنهم أربعة آلاف -⁽⁴⁾ هو الرّس، وربما سواه من المواضع. يقول صاحب كتاب الطواف حول البحر الأريتري⁽⁵⁾ واصفاً مواضع الثموديين وناقلاً عن كتاب أقدم عهداً من كتابه:

"(thamudeni): كانوا يقيمون على ساحل صخريّ طويل، لا يصلح لسير السفن، وليست فيه خلجانّ تستطيع أن تأوي إليه القوارب، فتحتمي بها من الرياح، ولا ميناءً

(1) الحجر، 70.

(2) الآية: 79.

(3) الآية: 48.

(4) ن: ت ت ت، 287-282/19.

(5) عاش هذا المؤلف المجهول خلال القرن الأول الميلادي. ن: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 140/6-197/16.

تتمكن من الرسو فيه، ولا موضع أو جزرٌ عنده تُقبلُ إليه القوارب الهاربة من الأخطار".⁽¹⁾

ويظهر من كلام هذا المؤلف أنّ مَواطِنَ ثمودَ كانت في الحجازِ على ساحلِ البحرِ الأحمر. وقريبًا من ذلك ما ذهب إليه بطلميوس الذي جعلَ بينها وبين ديارِ عادِ ديارِ (سره كيني) ويُفهمُ من هذا أنّها كانت في شمالِ غربِ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ أي في أعالي الحجازِ في هذه المنطقةِ الجبليةِ التي تخترقُها الطرقُ التجاريةُ، وتُمثِّلُ هذه الطرقُ شريانَ التجارةِ في العالمِ القديم، كما يذكرُ سترابو وغيره.⁽²⁾ وهذه الطرقُ تَربِطُ الشامَ ومصرَ بالحجازِ واليمن. وهو ما ذهبَت إليه المصادرُ العربية. ⁽³⁾ ولعلَّ تاريخَ الثموديين يبدأ من بداياتِ الألفِ الأولِ قبلَ الميلاد، وهُم في جملةِ الشعوبِ التي حاربتُ الآشوريين في عهدِ سرجون الثاني الذي تغلَّبَ عليهم، وأجلاهم إلى السامرة، وترجعُ كتاباتهمُ التي عثُرَ عليها المؤرخون إلى القرنِ السابعِ قبلَ الميلاد، وربما إلى زمانٍ أقدمَ من ذلك، وقلمُهم قديمٌ ومتطور، وهو متأثرٌ بأقلامِ أخرى كالمُسنَدِ وخطِّ طُورِ سِيناء. ⁽⁴⁾

ويرى المؤرِّخُ (دوتي) أنّ الحِجَرَ التي سكن بها قومُ ثمودَ هي موضعُ (الخريبة) اليومَ لا مدائنُ صالحِ التي هي حِجْرُ النَّبْط، كما يقول. وتقع هذه المدائنُ -وهي عاصمةُ النَّبْط- على مسافةِ 10 أميالٍ من الخريبة. ⁽⁵⁾

أصابَتْ قومَ ثمودَ صاعقةُ العذابِ الهون،⁽⁶⁾ وهم منتشرون نهارًا خارجَ البيوتِ طلبًا للرزق، كما في سورةِ الحِجْرِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.⁽⁷⁾

(1) السابق، 345/1.

(2) ن: السابق، 55/5.

(3) ن: السابق، 326-325/1.

(4) ن: السابق، 349/1، والموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: صالح عليه السَّلام=Salih

(5) ن: المُفَصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 326-325/1.

(6) أي ذِي الخزي والهون، ن: لسان العرب، مادة: (هون)، 438/13.

(7) الآية: 83.

وكانت هذه البيوت منحوتة في الجبال. ومنها الفاره الذي يناسب طبقة من الناس منهم. ومنهم الكبراء الذين اتخذوا في السهل قصورا: ﴿أَتُنْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمِنِينَ فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَخَلِّ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾،⁽¹⁾ ﴿وَإِذْ كُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾،⁽²⁾ أو أنهم كانوا متساوين في التلذذ بنعمة طيب السكنى، فكانوا في الصيف يسكنون السهول أي في قصورهم فيها، وشتاءً يأوون إلى البيوت المنحوتة في الجبال. وهذه نعمة يرتاض بها العيش، وينعم الإقليم، وهذا أدخل في معنى الامتتان.

والمدينة المنسوب إليها هؤلاء التسعة العتاة هي الحجر: (حجر ثمود).⁽³⁾ واسمها علم على سورة من القرآن: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾،⁽⁴⁾ فقد كان هؤلاء القوم أهل حضارة لم تكتمل لها شروط التمدن. وإن كانت قد عالجت أسبابا من ذلك. والذي يظهر أن الثموديين قد خالطوا شعوبا أخرى، وتأثروا بثقافات متنوعة، كما مر بنا في العرض المتقدم؛⁽⁵⁾ ولكن ظلت فيهم أو في كثير من نواحي بلادهم من القرى والبوادي الخصائص القروية، أو خصائص أهل القرى الواردة في آيات القرآن التي قمت ببيان ارتباطاتها في الصفحات الماضية.⁽⁶⁾

ولم ترد القرية أو القرى في قصة صالح عليه السلام - في القرآن، ولم ترد المدينة في قصته إلا في آية النمل: ⁽⁷⁾ وذكرته مقترنة بهذا العدد: (تسعة) أي عدد جماعة المجرمين الذين انتمروا على الإيقاع به وتبنيته وأهله أي بقتله وقتلهم.

(1) الشعراء، 146-149، الطلغ الهضيم: الجنى اللين الناعم المنهضم، ن: لسان العرب، مادة: (هضم)، 613/12.

(2) الأعراف، 74.

(3) أمّا مدائن صالح، فهي تسمية معاصرة. ن: ت ت ت، 73/14.

(4) الآية: 80.

(5) ن: ص: 291 من هذه الدراسة.

(6) ن: السابق، ص: 272.

(7) الآية: 48.

من الملاحظ -إذن- أنّ الطوائع النفسانية كانت متراوحة بين التحضر النسبيّ والفوضوية القبليّة القروية لدى هذا الشعب المتاخم لخطّ من أهم الخطوط التجارية، وهو ما أكسبه علاقاتٍ واتصالاتٍ بقوافل الممالك والقبائل على اختلافها مع بقاء نزعاتٍ فوضويةٍ تأبّت على الانضباط بضوابط الحضارة الناضجة من شيوع روح القانون، والانقياد لسلطاتٍ تنظيمية، ووجود مؤسساتٍ إداريةٍ واقتصاديةٍ كالتّي وُجِدَتْ في تلك العصور في الممالك والدول ذات الكيانات السياسية والاقتصادية في حين أنّ الثموديين، ومن قبلهم أسلافهم قوم عادٍ بالأحقاف⁽¹⁾ كانت السيادةُ فيهم موزعةً بين الرؤساء والوجهاء الذين عبّر عنهم القرآن بالملا، كما في قوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾،⁽²⁾ أو هم المسرفون كما جاء في قول صالحٍ عليه السلام: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾⁽³⁾ أي الذين أسرفوا في العجرفة والعناد، وبلغوا الغاية في الغرور والعداوة. والقرآن يحدثنا عن تهية الله -تعالى- لهؤلاء القوم أسباب الارتقاء التي إذا بنوا عليها، وأقاموا العمران، نهضوا واستكملوا بناء حضارتهم، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.⁽⁴⁾ وقد نتج عن هذا التباين انقسام في بنية المجتمع الثمودي بين من آمن بدعوة صالحٍ عليه السلام، وبين الذين كذبوا بدعوته، وناوؤوا ما جاء به من الحق، وهذا راجع إلى الطبيعتين المتناقضتين بين عقلية ناضجة تبحث عن النظام والانتظام، وأخرى فوضوية متدهورة لها سمات أهل القرى نفسها من مجموع السلبيات النفسانية والعقلية. وقد يلمح التناقض -أيضاً- بين تصرفات جبابرة قوم كقوم عادٍ بين البناء والعبث وبين العمران والاستبداد: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ

(1) كانت منازل عادٍ ببلاد العرب بالشحر من أرض اليمن، وحضر موت، وعُمان، والأحقاف. والأحقاف الرمال العظيمة المستطيلة المعوجة بين عدن وعُمان مشرفة على البحر. ن: ت ت ت، 8-ب/201-45/26، والبدء والتاريخ، 37/3، ولسان العرب، مادة: (حققف)، 52/9.

(2) هود، 59.

(3) الشعراء، 151.

(4) هود، 61.

رِيحَ آيَةٍ تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١﴾. وهذه هي قوانين الاستكبار التي تؤذُن بالنهايات.

أدى الانقسام إلى تكون فريقين متكافئين عدديا - كما يبدو - وهو الأمر الذي لم ألاحظه في أخبار أقوام الأنبياء الآخرين الذين كان أتباع النبي فيهم قلة من المستضعفين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾. (2) ثم إنه يبدو أنه كان لصالِح - عليه السلام - مكانة أهلت له قبل بعثته أنصارا وأتباعا. قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، (3) ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾. (4) وهذا الشك والارتياب يعبر عن ثقافة الفوضى والتخبیط السائدة بينهم، حتى أنهم لا يذعنون لآيات الرسل ومعجزاتهم.

ومن أمثلة الممالك أو المدنيات ذات الرقي الحضاري في تلك الحقبة مملكة سبأ في بدايات الألف الأول قبل الميلاد التي عُرفت لدى المؤرخين بانتظام السلطة السياسية فيها وانتظام السلطات الأخرى. يُفهم ذلك من خلال الحوار الذي سجّله القرآن بين الملكة وملئها: رجال الدولة وأشرافها. (5)

المدينة في قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ (6) هي (ربة عمون) عاصمة مملكة (عمون) - عمّان الحالية - التي كان زمانها بين القرن الثالث عشر والقرن السادس قبل الميلاد، أو مدينة أخرى أقرب ما تكون من موقع هذه المدينة. ويرى باحثو دائرة الآثار بالمملكة الهاشمية الأردنية أنّ كهف الرقيم هو كهف الرجيب قرب قرية تُدعى بالاسم نفسه. وقد وُجِدَتْ بداخله مدافن يرجع تاريخها إلى عهد القيصر:

(1) الشعراء، 128-130. الرّيح: المرتفع من الأرض. ن: تاج العروس، مادة: (ريح)، 137/21.

(2) النمل، 45.

(3) هود، 62.

(4) النمل، 49.

(5) السابق، 32.

(6) الكهف، 19.

(ثيودوسيوس الثاني (: Theodosius II= (408-450 م) الذي كان في زمانه قيامُ الفتية من رقدتهم بالكهف. وذهب إلى هذا الرأي الأستاذ: (هـج نيلي) (Hugh Nilley)) الذي زار الموضوع، ودرسه، وكتب مقالاً عنه. وكان دخولهم الكهف في عهد الطاغية: (تراجان): (91-117 م)، وهو الأمر بإنشاء الممر الحربي المعروف باسم طريق تراجان وباني مدينة (أيلة) الرومانية. وفي سنة 112 م هابته النصارى، واختفوا بدينهم في مُدن الأردن وغيرها لأمره بقتل كلِّ مسيحيٍّ باعتباره خائناً للقيصر. وأمَّا القولُ بأنها أُبْس على طريق طرسوس بين حلب وأنطاكية وبين مرعش بأرمينية، أو أنها إفسوس اليونانية التي بها هيكلُ المشتري، فلم يُقْم عليه دليلٌ علمي. (1)

سَلَّمَ أَهْلُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَكَانُوا عِنْدَ انْبِعَاثِ أَهْلِ الْكَهْفِ نَصَارَى فِيهِمْ بِطَارِقَةٍ وَأَسَاقِفَةٍ. وَقَدْ تَأَيَّدَ بِهَذِهِ الْآيَةِ دِينُ الْمَسِيحِ بَعْدَ تَنْصُرِ (قِسْطَنْطِينِ الْكَبِيرِ) الَّذِي تَرَأَسَ أَوَّلَ مَجْلِسِ عَالَمِيٍّ لِلْكَنِيسَةِ النَّصْرَانِيَةِ 325 م. فِي حِينِ كَانَتْ الْوَثْنِيَّةُ فَاشِيَةً فِي مَدَائِنِ الشَّرْقِ فِي زَمَنِ دُخُولِ الْفَتِيَةِ الْكَهْفِ. (2)

ومدينةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْوَارِدُ ذِكْرُهَا فِي آيَتَيْنِ مِنَ التَّوْبَةِ، وَفِي الْأَحْزَابِ، وَفِي سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ

(1) وهذا ما ذهبت إليه البعثة الأميركية لمدرسة الأبحاث الشرقية بالتعاون مع دائرة الآثار الأردنية. ن: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: 74-73/5، وتفسير الطبري، 627/17، وت ت ت، 262-261/15: وفيه أن دخولهم كان في عهد الإمبراطور: دوقيانوس.

(2) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: التثليث.

لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا»، ﴿يَقُولُونَ لَيْنَا رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (1) هي التي كانت تُدعى يثرب قبل الهجرة، ثم سماها النبي صلى الله عليه وسلم - المدينة. (2)

وبالنظر إلى عِظَمِ إقبالِ أهلها على الإسلام رغم أنهم كانوا على الوثنية من عبَادِ الأصنام ككفارِ قريشٍ وغيرهم من قبائلِ العرب؛ إلا أنهم عرفوا صدقَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتَبَيَّنُوا الْحَقَّ الَّذِي فِي دَعْوَتِهِ، وَأَحْسُوا رُوعَةَ الْقُرْآنِ، وَأَنَسُوا مِنْهُ حِلَاوَةَ الْبَيَانِ، فَأَمَنُوا إِيمَانَ نَصْرَةٍ، وَإِثَارَ، وَتَضَحِيَّةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى. لقد كان فيهم طَبْعٌ مَدَنِيٌّ مَا زَالَ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ إِلَى الْيَوْمِ - مِنَ اللَّيْنِ، وَالرَّفَقِ، وَالْمُودَةِ، وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ، اِكْتِسَابُهُ مِنْ تَعَدُّدِ أَصُولِهِمُ الَّتِي تَرَجُّعُ -جَمَلَةً- إِلَى مَمَالِكِ الْيَمَنِ بِبِلَادِ الْحَضَارَةِ وَالْمَدِينَةِ مِنْذُ آلَافِ السِّنِينَ، وَإِلَى كَثْرَةِ مَخَالَطَتِهِمْ لِلْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ، وَتَنَوُّعِ تِجَارَاتِهِمْ، وَبُعْدِ الْبَيْئَةِ الَّتِي عَاشُوا فِيهَا عَنْ أَصْنَامِ قَرِيشٍ فِي مَكَّةَ الَّتِي كَانَ أَهْلُهَا عَلَى مَشَارِفِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، يَنْظُرُونَ إِلَى تِلْكَ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ فِي كُلِّ حِينٍ. وَحَتَّى عَلَى الْمَسْتَوَى السِّيَاسِيِّ فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَلَى وَشَكِّ تَتَوِيحِ مَلِكٍ عَلَيْهِمْ قَبْلَ الْهَجْرَةِ (3) لِنَتَحَوُّلِ الْمَدِينَةِ إِلَى مَمْلَكَةٍ تَطْلُبُ أَسْبَابَ الْمَجْدِ وَالتَّحْضُرِ كَحَالِ مَمَالِكِ ذَلِكَ الزَّمَانِ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- مَنْ عَلَيْهَا بِأَعْظَمِ مَنَّةٍ، وَهِيَ أَنْ تَكُونَ مَدِينَةَ نَبِيِّهِ، وَدَارَ هِجْرَتِهِ، وَأَوَّلِ مَدَائِنِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ.

وقد ارتبطت الآيات المتقدمة بالإشارة إلى المنافقين تصريحاً أو تلميحاً، وكأنهم يُذَكِّرونَ مَعَ ذِكْرِ الْمَدِينَةِ الَّتِي غَالِبُ أَهْلِهَا عَلَى الْحَقِّ وَالْإِسْلَامِ لِيُفْهَمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ

(1) الآيات: 101-120، 60-62، 8.

(2) ن: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، د.ت، 146/2.

(3) ن: البداية والنهاية، 492/4.

قلة مهانةً سرعان ما انفرط عقدهم، وانمحي وجودهم لتبقى دارُ الهجرة خالصةً للإيمان
والمؤمنين مهاجرين وأنصاراً.

3222 خلاصةً للارتباطات المعنوية للقرية والقرى في القرآن

يمكن تلخيص هذه الارتباطات فيما يلي:

عدم امتثال أوامر الله تعالى، وتبديل القول، والرجز، والظلم، والفسق، والقرية
الخاوية، والإنذار، والإجرام، والترف، والمكر، والغفلة، والظلم الذي بمعنى الشرك،
والإهلاك، والبأس، وارتكاب الفواحش، والإسراف، والإجرام، وسوء العاقبة، والشرك بالله
سبحانه، والبخس، والتطفييف، والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله، ومحبة
الاعوجاج عن جادة الحق، وجود النعمة، ونسيان الفضل، وعدم الاعتبار، والاستكبار،
والتهديد بالقول، والكفر، والتكذيب، والرجفة، والهلاك، والخسران، والبأساء، والضراء،
والبأس، والإصابة، والذنوب، والطبع على القلوب، ونقض العهد، والفسوق، والاعتداء،
والبلاء، والعذاب، وانعدام التقوى، ونسيان الأمر الإلهي، والسوء، والعذاب البئيس،
والمسخ، والقردة، والخاسنون، وعذاب الخزي، والتئيب، وضعف العقول، والاستيأس،
وكفران النعمة، والجوع، والخوف، وسوء الصنيع، ووقوع القول، والتدمير، وكثرة الذنوب،
واللؤم، والشح، وانعدام الإيمان، وإهلاك المسرفين، وقصم أهل الشرك، والفرار من سوء
العاقبة، والحصيد، والخامدون، وقوم سوء، والبطر، والخراب، وقطع السبيل، وإتيان
المنكر، والجرأة على الله، والإعراض عن الشكر، والسيء العزم، والأكل الحمت، وجعلهم
أحاديث، والتمزيق، والتهكم، والفخر، والتألي، والجهل، وادعاء الزلفى، والتطير، ووعيد
المشركين برجم المؤمنين، واتخاذ الآلهة، والصيحة، والسعير، واتخاذ الأولياء من دون
الله، وتقليد الآباء، والاعتراض على تنزيل الله القرآن على غير عظمائهم، والسخرية،
والإفك، والافتراء، وتزيين الأعمال، واتباع الأهواء.

نلاحظ من تلخيص الارتباطات والاتصالات المعنوية بالقيمة المكانية: (القرية أو القرى) في آيات القرآن أنّ هنالك مجموعة من الخصائص النفسية والسلوكية لتلك المجتمعات ذات الخصوصيات النوعية في سلوكها الحياتي العام، وفي تعاملها مع مسألة النبوة والإيمان من خلال جملة الأفكار والتصرفات التي تطبع علاقاتهم بأنبيائهم ورسولهم وانطباعاتهم عما جاءوا به إليهم من الوحي والإرشاد.

تعدّ هذه المجتمعات تجمعات قبلية أو شبه قبلية تتسم بالفوضوية وعدم الخضوع لأعراف مستقرة منضبطة ذات اطراد وشمول، أو قوانين راسخة تنظم الحياة والعلاقات بين أفراد المجموع. وهي لم ترق في سلم الحضارة أدنى درجاته، ومنها ما قطع في ذلك مراحل أولية، ولم تخرج من طور تعدد السلطة أو السلطات السياسية، والاقتصادية، والعسكرية تعددًا قبليًا أو عائليًا، فهي لا تخضع لمنظومة حكم حقيقي تعدد مرجعًا مستقرًا للقرار السياسي وغير السياسي في البيئة الموضوعية لمجموع المتساكنين. وحيث هذه البيئة ليس مرتبطًا بالمفهوم الجغرافي؛ بل يعدّ إطارًا اجتماعيًا نفسيًا ذا أبعاد سياسية واقتصادية.....

وعلى مستوى الفرد والجماعة تتسم هذه التجمعات بالسلوك الانفعالي أي بمجموع الانفعالات والعقد النفسية التي تنتج عنها التخبطات في إصدار الأحكام، وفي ردود الأفعال حيال كل أمر جديد، أو غريب، أو دعوة للإصلاح، أو رغبة في الاستبصار. وفي هذه الأجواء تظهر سلوكيات شاذة أو اندفاعية من مثل الاحتماء بالأقوى أو بالآخر في التعبير عن الرأي أو الفكرة في مواجهة ما يواجهه المجموع من الأمور التي يرون فيها خطرًا، أو تهديدًا، أو وسيلة من وسائل التعرض للمجهول الذي يمعن في الذعر منه هذا النمط من المجتمعات البشرية على مستوى الكل والفرد. وهذا المجهول -بطبيعة الحال- دينوي وليس أخرويًا. ويمكن أن ندعو هذه الشخصية التي تتبنى أسلوب الاحتماء كوسيلة

للتعبير عن الضعف الخفي؛ أو لإظهار الانخراط تحت الوجهة العامة التي تفرضها طبقة السادة والوجهاء - يمكن أن ندعوها بالشخصية الاحتمائية. وفي سائر الأحوال تسود روح المجاملة بين عناصر هذا التكوين الاجتماعي، وبخاصة مجاملة الأفراد الأعظم جاهاً ووسطوة، وكذلك مدهانة الطبقة المترفعة أو الأرفع التي تقوم بالسيطرة على المشهد ككل. ولا شك أن الخاصية الفعالة في تبني فلسفة هذا الوسط الاجتماعي المحموم هي الضراوة والعنفوان في مجابهة الخصوم أو المخالفين بحيث لا يُدخَر جهدٌ في شن الحروب النفسية، وبتّ الدعاية المضادة بالأساليب الدفاعية الهجومية من القسوة المادية والمعنوية، وخلق مناخات السخرية

والتهكم، وأجواء الاستفزاز، والتضخيم، والتعتيم، والتقزيم، ونشر الأكاذيب والمبالغات التي يُقصد منها تحشيد أكبر قدر ممكن من المواقف الانتقادية الحادة بواسطة جهد ومهارات كل فرد أو مجموعة من مكونات هذا الحيز الاجتماعي.

وفي ضمن الصهارة النفسية للفرد في هذا التكوين تنصهر العناصر الكيميائية النفسية التي تتغذى عليها هذه الشخصية غير السوية التي تتصدى لمحاولات التغيير التي لا تؤمن بها، ولا تُقر بمصداقيتها، وهذه العناصر تتنوع بين الآفات النفسانية، والاجتماعية، والعادات السلوكية، والسمات الفكرية والعقلية غير المنضبطة. ومن ذلك:

الحسد، والمكر، والكيد، والكبر، والمجازفة، والمكر السيئ: (التامر)، والارتجالية، وسوء الظن، والتشكيك، وعدم الإذعان للحقائق الباهرة، والمبالغة في التضخيم، والمبالغة في التقزيم، وانعدام التعاطف الإنساني، والمخادعة، والمناورة، وخط الأوراق، وعدم البناء على المقدمات المنطقية للخروج بنتائج عقلية علمية، والتسرّع في الحكم على الأشياء، وانعدام القدرة على حسن التخلص، والتشتت في الأفكار، والتشاغل، وعدم الوقوف على الحق الذي في كلام الخصم، والتلون، والتردد، والاستخفاف والاستهتار بمشاعر وأفكار الآخرين، والتمحل، والاستدلال بما لا يصلح حجة في بابه، والصخب، والجلبة، والتشويش في الحوار، وبذل الوسع في نقض الفكر المقابل بالتهافت، والترثرة، وإثارة الغوغاء،

والتهرب من التزامات الحوار كإجابة على سؤال يُطرح، أو التهرب من مواجهة قضية يستعصي عقل هذه الشخصية على الخوض فيها، والعناد، والمكابرة، والسخرية، والتبرم، والافتئات، والتناقض، والارتباك، والإسفاف، ومصادرة المطلوب، والاضطراب في المحاور، والعناية بما يشتت ذهن من غير المُجدي من الأفكار، والتلبس، والتكرار، وإطالة الكلام من غير طائل، والتشاؤم، ومحاكاة الصوت أو الحركة، واستخدام تعابير الوجه في التعبير عن الامتعاض، أو الاستهزاء، وغيرها من التعبيرات السلبية، والاستشهاد بغير شواهد القضية، والتصيد، والتغليط، وإنكار الأقوال السابقة، وادعاء ما لم يصدر عن الخصم،

واستباق ما لم يحن الحديث عنه، وافتراض المُحال، والتجني، والكذب، والتدليس، والتعدي في القول، والتخبُّط في استعمال الاصطلاحات والمفاهيم، وعدم الالتزام بآداب الحوار، وإظهار مشاعر الكراهية، والمقاطعة، والإعراض، وغيرها كثير من الآفات النفسية والسلوكية.

هذه الأمور -جميعًا- تعمل في مجملها على تكوين عقلية شكية مرتابة تنزع إلى مادية التفكير بسلب الضمير سلطته وجعل الدوافع النفسانية هي المسيطرة على العالم الداخلي للشخصية. وتتفرد العقلية الشكية بالمساواة بين الحقائق والأباطيل،

وعدم الوقوف عند ما لا يسع العقل إلا قبوله من شمس الأدلة من كل منقول أو معقول أي من اليقينيّات والبراهين الساطعة. ويصنّف النزوع إلى الشك والتشكيك عمودًا فقريًا لتألبات وأنشطة طبقات السادة الشرسة في مقاومتها لدعوات المصلحين ورسالات الرسل والنبوات. وذلك من خلال جرأتهم على الغيبيات التي يجدون في التَّنْقُص من حقائقها مادة خصبة لإرضاء نوازع المادية والارتهان للحواس والنزوعات الشهوانية في استمالة العقول القاصرة والنفوس الضعيفة لإصدار الأحكام وبت الضلالات والأوهام. هذه المجتمعات المغلقة أو شبه المغلقة -بالإضافة إلى سماتها الفوضوية- يتنازعها، أو ينتاب أفرادها مشاعر الإحباط وروح الهزيمة، وتفتك بها الأمراض الاجتماعية والظواهر السلبية

التي تجعل منها متسمةً باللامبالاة والعشوائية في التفكير والتصرف مع التشبُّث بالموروثات، والتقاليد، وما كان عليه الأسلاف من ضلالاتٍ دينيةٍ أو سلوكية، وذلك في أجواءٍ من قابليةٍ انتشارٍ وتصديقٍ الشائعات وقابليةٍ الاستجابة لتأثيرها المدمر وآثارها السيئة. وتميلُ -بشكلٍ عفويٍّ- إلى التحلُّق في الأندية والأسواق لبثِّ الأباطيل والنوادر، ولتسْفُطِ الأخبار وترقبٍ ما يأتي به مسترقو السمع ونَقْلُهُ السوء من كُلِّ جديدٍ أو غريبٍ ممَّا يزيدُ الفتنَ أوارا والعداوة والأحقاد اضطرابًا واستعارًا.

ولا تخلو هذه البيئة من عوارضٍ مناخٍ تسوِّدُ الاضطرابات ومظاهرُ التقلبِ وتَعَاوُرِ عواملِ الأفكارِ العاصفةِ والأمزجةِ المرعدة، ولا ريبَ أنَّ العالمَ المعاصرَ قد شهدَ الكثيرَ من نماذجِ هذه البيئةِ المتلونة. وما زلنا نذكر أننا قد عايْنَا بعضَهَا

في العالمِ الافتراضيِّ أو الواقعيِّ هذه الأيام، وفي عقودٍ سابقة، ولم تزلْ هذه الخصائصُ موجودةً في الكثيرِ من البيئاتِ الريفيةِ على الرغمِ من اتصالها بِمَرَاكِزِ حضريةٍ متمدنة. وتوجد في هذه المراكزِ المتمدنة بِنَسَبٍ أَقَلِّ وأضعف. ومن ذلك المشاهدُ الغوغائيةُ كالهياج، وقابليةِ الإثارة، وأشكالِ التجمعِ والتفرُّقِ واضطرابِ الحركةِ في اتجاهاتها دُونَ أسبابٍ منطقيةٍ مع ظهورِ إشاراتٍ وعلاماتِ التنشِجِ وافتقارِ السلوكِ إلى الانتظامِ والانضباط، والصخب، وارتفاعِ الأصواتِ تأييدًا أو معارضةً، أو لمجردِ فرضِ الوجودِ وإثارةِ انتباهِ الآخرين مع ما يصحبُ ذلك من حركاتٍ وأفعالٍ تعبِّرُ عن رُوحِ الفوضى والاضطراباتِ النفسيةِ والذهنية. ولا شَكَّ أنَّ مثلَ هذه الجموعِ تعاني -في جملتها- من تَفْشِي الجهل، وموتِ المَلَكَاتِ والمواهب، وسطوةِ الفراغ، وقلةِ الشواغل؛ بل إنَّ تَطَلُّبَ أسبابِ الكسبِ والعملِ يُعَدُّ في أدنى مستوياتِهِ بسببِ ضمورِ القدرات، وضعفِ الحافزِ المادي، وغيابِ الدوافعِ الذاتية، وانحسارِ الحالةِ الاقتصاديةِ في بيئةٍ يسودُ فيها انعدامُ العدالةِ الاجتماعية، وتبرزُ فيها ظواهرُ الفقرِ والعوزِ بسببِ الثقافةِ الرِّيعِيَّةِ وضعفِ استغلالِ المواردِ العامة: وأهمُّها القوةُ الحيويةُ البشريةُ مع تَعَوُّلِ أصحابِ الثرواتِ والنفوذِ في استنزافِ المواردِ والانتفاعِ من سوءِ توزيعِ المنافعِ والعوائدِ في تنميةِ المجتمع. وذلك

كُلُّهُ مع ضعفِ الرعايةِ الاجتماعيةِ والعنايةِ الأسريةِ الَّتِي يفتقدُها الفردُ منذ نشأته. وهناك نوعٌ من السلطةِ السياسيةِ متعددةِ مراكزِ القوةِ والنفوذِ أو ذاتِ الطبيعةِ الاستبداديةِ الفرديةِ الفوضويةِ تعيش في هذا المناخ، وتتنامى، وتستمدُّ عناصرَ بقائها من إذكاءِ هذه الخصائصِ المتداخلةِ لتضمَّنَ صيرورتها في مواجهةِ النظامِ والقيمِ.⁽¹⁾

(1) ن: الأيدولوجية الانقلابية، نديم البيطار، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، ص 706-707.

32 الفصل الثالث: الدلالة الرمزية

تبتعدُ الرمزيةُ الأدبيةُ أو الشعريةُ عن المقصودِ بالرمزِ القرآنيِّ مدارِ البحثِ في هذا الفصلِ لكونِ الرمزيةِ -باعتبارها تياراً أدبياً- تستوعبُ مضامينَ خاصةً تتعلّقُ بالغموضِ وإسْدالِ الحُجُبِ على المعنى، فهي درجةٌ أبعدُ من المجازِ بمراحل. ⁽¹⁾ ويتعمّقُ الرّمزُ ليتحوّلَ إلى الرمزيةِ التي هي -في رأيِ نازكِ الملائكةِ رائدةِ الشعرِ الحديثِ- ثمرةٌ طبيعيةٌ للغموضِ الذي يُغلفُ النفسَ البشريةَ بدرجةٍ قصوى، فيستحيلُ التعبيرُ ضرباً من الغموضِ المستندِ إلى مخزونِ اللاوعيِ من الأحداثِ والذكرياتِ. ⁽²⁾

الرمزيةُ حركةٌ أدبيةٌ بدأتِ بمجموعةٍ من الشعراءِ الفرنسيين في الفترة من 1885-1895م، حيث قاد هذه الحركةَ الأديبُ الفرنسيُّ (ستيفان ملارميه)؛ لكن شِعْرَ (بول فرلين) كان أكثرَ اجتذاباً للقراءِ بسببِ صياغتهِ الفنيةِ للرمزِ على نحوٍ أكثرَ تأثيراً وانسجاماً مع الشعورِ بالفكرة. ⁽³⁾

ومن نماذجِ الرّمزِ ذاتِ البُعْدِ الوجدانيِّ المُمتدِّ عنصرُ الطلِّ أو الأطلالِ في الشّعْرِ العربي القديم. ⁽⁴⁾ إذ يُمَثِّلُ رمزيةً مستقرّةً في إحدى تجلياتها الأولى. وأيضاً، فإنّ الماءَ يُمَثِّلُ عنصرًا رمزيًا في المعلّقاتِ من الممكنِ أن يُدرَسَ فنيًا وأنثروبولوجيًا. ⁽⁵⁾ ومن الممكنِ أن تُسَفَّرَ الدراسةُ عمّا لهذا العنصرِ من مخزونِ رمزيّ في القرآنِ يتّصلُ بالنورِ الذي يحيي القلوبَ بقيَمِ الإيمانِ

(1) ن: نظرية الأدب، ص: 244.

(2) ن: شظايا ورماد، المكتب التجاري، 1959، ص: 15، والخطاب الآخر، علي حداد، اتحاد الكُتاب العرب، 2000 م، ص: 228.

(3) ن: الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: الرمزية=Symbolism.

(4) ن: الظاهرة الشعرية العربية، حسين خمري، اتحاد الكُتاب العرب، 2001 م، ص: 149.

(5) ن: السبع المعلّقات - مقارنة سيميائية أنثروبولوجية، عبد الملك مرتاض، اتحاد الكُتاب العرب، 1998، ص: 250.

الدلالة الرمزية في القرآن تعتمد على عنصر الخفاء والاستتار لا الغموض، فالغموض عتمة في النص قد تستفحل وتزداد تعقيداً تبعاً للشاعرية المنشئة للعمل الأدبي. الرمز القرآني إشراقاً تلوح بعد فجر المعنى، ونور مستتر يبصره المتأمل المتمعن في الكلمات، حتى يسطع في سماء النص.

والقيم الرمزية تتكشف للباحث في المعنى ومعنى المعنى دون تعسف أو إرهاب للكلمات. فالرموز في القرآن ليست مُنبثّة في جميع آياته وكلماته. وإنما هي متفرقة، ولها أوقات ومواضع. والدلالة الرمزية المقصودة -هنا- هي التي توازى المعنى الأصلي، أو تضيف إليه ما لا يتناقض أو يتعارض مع السياق العام للقرآن، ومع أصول الدين والاعتقاد.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: (1)

للمرمر أو الصورة الرمزية - وهو في كثير من الأحيان اسم جامد أي اسم ذات - (2) دور في رسم المعاني بصور تجلي الهيئة الكلية، وتشرق بتفصيلاتها، وخطوطها، وألوانها المناظر المصوّرة في سياق الكلام البليغ.

سميت هذه السورة بسورة النور لمناسبة ورود هذه الآية فيها، وهي واسطة العقد منها لتضمنها وصف الله - جلّ في علاه - بهذا الوصف القدسي البديع الذي يكثر بمعاني العظمة، والكمال، والجمال. ولعل أخواتها - في عموم النظم وعود المقصود إلى الله سبحانه - آيات وسور أخرى من القرآن كفاتحة الكتاب، والإخلاص، وآية الكرسي، وأول فاطر، وآية الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾: (3)

(1) النور، 35، المشكاة: الكوة في الجدار غير نافذة. ن: لسان العرب، مادة: (شكو)، 439/14. وهي أقرب إلى الجامد لتردد وقوعها في بعض اللغات؛ ولا استقرارها في الاستعمال غير مشتقة مع عدم لمح الأصل؛ وذلك لدلالاتها على شيء مصطنع. ن: مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهاني، (م)، ص: 266، وت ت ت، 235/18.

(2) ن: شرح الرضي على الكافية، 16/1-325/3، وشرح التصريح على التوضيح، ص 140، والنحو الوافي، 181/3-182. "الاسم الجامد هو الذي لم يؤخذ من غيره. وإنما وُضِعَ على صورته الحالية، فليس له أصل يرجع إليه، مثل: باب، رجل، غصن... وهو إما اسم ذات كهذه الأمثلة، أو اسم معنى، مثل: ذكاء، سماحة، فهم... ويُقَابَلُهُ المشتق، وهو ما أُخِذَ من غيره"، تعجيل الندي بشرح قطر الندى، عبد الله الفوزان، (م)، ص: 200، ن: دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، عبد الله الفوزان، (م)، ص 287.

(3) الآية: 23.

النور اسمٌ جامدٌ من حيث إنه أصلٌ أصيلٌ في بابه، اشتقت منه أسماءُ الإنارة وأفعالها: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾⁽¹⁾ والأسماءُ الدوائِلُ على المادياتِ أوائلٌ من حيث نُشوؤها في اللغاتِ تسبقُ في أكثرِ الأحيانِ - أسماءُ المعاني لكثرةِ ما يحيطُ بالإنسانِ من أشكالِ المادةِ وما يتراءى له من أجرامِ الهيئةِ ولوائحِ الطبيعةِ من حوله والنورُ أعمُّ في دلالاتِهِ الواقعيةِ والرمزيةِ لكونِ الضياءِ حالةً من حالاتِهِ تشيرُ إلى شدةِ السطوعِ المحتاجِ إليه في إدراكِ تفاصيلِ المشاهداتِ في حياةِ الناسِ بالنهارِ الذي يتحقق فيه ذلك. والنورُ أنسبُ في الدلالةِ لأنَّ العقولَ والقلوبَ جرى في الأساليبِ وصفُ متعلقاتِها كالمعارفِ والعلومِ بالنَّيرةِ، أو بأنها نورٌ، كما يقال: نورِ العقلِ، أو في قلبِهِ نورٌ. ولا تحتاجُ العقولُ المستبصرةُ إلى شدةِ السطوعِ، ولا القلوبُ المتفتحةُ على طوابعِ الإيمانِ إلى قوةِ الإضاءةِ وهيمنةِ الضياءِ؛ بل إلى النورِ الوداعِ الهاديِّ الذي هو أهدى للسالكِ في ظلمةِ الليلِ ووحشةِ الطريقِ من الضوءِ المستفحلِ المباغتِ.⁽²⁾

وقد توالفت في السورةِ آياتُ الأحكامِ وآدابِ الإسلامِ في مناسباتِ شتى ومواضعٍ عديدةٍ كآياتِ الحدودِ، وكخُلُقِ أدبِ الاستئذانِ في البيوتِ، وفي السِّلْمِ والحربِ. وجرى الامتنانُ بإنزالِ الآياتِ بحكمتهِ -تعالى- بيانا وتفصيلا للتعاليمِ، وأنواعِ السلوكِ، والخُلُقِ الكريمِ.⁽³⁾ وفي هذا استدلالٌ على أن التوجيهاتِ والإرشاداتِ الربانيةِ في سائرِ الأحكامِ في الأوامرِ والنواهي هي فيضٌ من نورِ الهاديِّ الذي عمَّ الكونَ، وتعهَّدَ به عبادهُ في جميعِ تفاصيلِ حياتهم منهاجا لا يتبدل. وهذا من أوجهِ مناسبةِ وقوعِ هذه الآيةِ العظيمةِ في سورةِ أحكامٍ وتعاليمٍ عُنونتْ بأولِ كلماتِها. ومن ذلك آياتٌ تُوسِّعُ في استقصاءِ معطوفاتها، كما في الآياتِ: 31-61 من هذه السورةِ.

(1) الفرقان، 61.

(2) النور، 1-18-34-46-58-59.

(3) ن: التفسير القرآني للقرآن، 9/1199-1200.

والإشراقات التي تصدُر عن إرادة الله، وتنشأ بتقديره حسيّة ومعنوية، فهي تشمل موجودات العالم النيرة والعقول والقلوب المؤمنة. ومن الحسيّ ما يتراءى من النيرات السماوية التي هي من صنَع الله وإتقانه البديعين الباهرين. وهي التي ينبثق شعاعها في ظلمة الكون ليتراءى المشهد في الأعين أنوارا تتسامى في الأعالي لتصل بين القلوب التي ترنو إلى ربّها وبين رضى الخالق العظيم. ومن غير الحسيّ ما أفاضه على الخلق من المعارف والحكمة، وما بتّ في كُتبه ورسالاته من النور والهدى. وأعظم ما يُساق مثلا على نُوره الأتمّ الأعمّ القرآن الذي أَرادَه مُصدرا للنور الخالد الذي لا ينضب، ولا ينقضي عن الناس بهاؤه وهداه لكونه رسالته الخالدة الباقية بقاء الحياة على الأرض. (1)

وقد أريد تمثيل الهداية الربانية بالهيئة متعددة العناصر وما يتصل بها من صور تتألف على رسم المشهد الكلي، حيث توالى عناصر الدلالة الرمزية في هذه الهيئة الكلية مُحَقَّقة من خلال تظاُفرها تمثّل المدلول العام المتوافر على عناصر معنوية متدفقة قوية التماسك والتأثير. وهذه العناصر هي: النور - مشكاة - زجاجة - كوكب - دري - شجرة - زيتونة - لا شرقية ولا غربية - زيت - نار.

هذه الهيئة المركّبة من التمثيل، أو هذا الإطار التصويري أبلغ أثرا في السامع، وأدعى إلى التعلق بالمقصود، وأقرب إلى أسر الانتباه؛ ثمّ إنّ التمثيل الوارد في الآية قد امتدت تفاصيله لتشمل الحيز القريب من الناس في حياتهم، وفي بيوتهم في العالم الأرضي لتنتقل إلى العالم السماوي، ثمّ لتعود في حركة عكسية بديعة إلى رسم مكونات أرضية محيطة بالناظر المُتممّن. وقد تضمن ذلك استدعاء نير علويّ - وهو الكوكب الدري - بحيث تمّ توظيفه توظيفا نوعيا في علاقته عبّر نظام من الصور متعددة المهام. وكمال التمثيل تسنى - هنا - بقبوله تفريق التشبيهات مع قوة التلاؤم الحاصل بينها. (2)

(1) ن: تفسير القرآن العظيم، 58/6، ومجموع فتاوى ابن تيمية، 402/2.

(2) ن: ت ت ت، 235/18.

والابتداء بِذِكْرِ المشكاةِ داعيةِ أسلوبِ ذِكْرِ اللازم، فهو من قبيلِ التهيئةِ للتمثيلِ الَّذِي أسأسهُ المصباحُ الَّذِي يُلمحُ إلى أصلِهِ الَّذِي أُخِذَ منه أيُّ الصبحِ. وقد كُرِّرَ ذِكْرُ المصباحِ؛ لأنه مصدرُ الإنارةِ. وفي هذا تكثيفٌ لمجالِ الضوءِ في المشهدِ وَلَفَتْ إلى مصدرِهِ الَّذِي ينبثقُ منه النورُ، والتكريرُ -هنا- إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ. ومثلُ ذلكِ إيرادُ لفظِ الزجاجةِ مُكْرَّرًا، وهو الَّذِي يُدعى تشابُهَ الأطرافِ عندِ البديعيين. (1)

وهذا الانتقالُ بينِ العناصرِ المتباعدةِ في الواقعِ الخارجيِّ المتقاربةِ في الهيئةِ المصوَّرةِ يعكسُ معنى نورِ اللهِ المُقَدَّرِ المُهَيَّأِ المنبثِّ في تضاعيفِ الكونِ أرضِهِ وسماهِ الَّذِي هو منبثقٌ من معنى النورِ في مستهلِّ الآيةِ.

وهنا اتصالٌ بينِ أسفلِ الصورةِ وأعلىها بينِ الزجاجةِ والكوكبِ الَّذِي حُوكيَ بياضُ لونِ ضوئِهِ وَصفاؤُهُ بشيءٍ من لوازمِ الأرضِ؛ بل البحرِ خصوصًا، وهو الدُّرُّ، وذلك من خلالِ وصفِ الكوكبِ. والدُّرُّ ونظائرُهُ تُضربُ لشدةِ الصفاءِ والتجليَّةِ، كما في قولِ لبيدِ:

وتضيءُ في وجهِ الظلامِ منيرةً كجمانةِ البحرِ سُلَّ نظامُها (2)

وتستمرُّ الحركةُ لتتصلَ بالشجرةِ المباركةِ الَّتِي يوقدُ بزيتها الكوكبُ الَّذِي يرتدُّ عنه الأداءُ التصويريُّ إلى المصباحِ والزجاجةِ. ولا غرو أن الزيتَ الَّذِي يوقدُ به كوكبُ في السماءِ ساطعُ النورِ زيتٌ مباركٌ عظيمُ التوقدِ يكادُ يضيءُ، ولو لم تَمَسُّهُ نارٌ، نقيٌّ، صافٍ، عظيمُ الجودةِ، بهيِّ الهيئةِ، بديعُ الأثرِ، شديدُ اللَّهبِ، متجددُ التوقدِ، كما يفهمُ من زمنِ الفعلِ: (يُوقدُ). وقد جرى وصفُ الجنسِ: (شجرة) بالنعومِ: (زيتونة) بحيثِ تقدَّمَ ذِكْرُ الجنسِ على نوعِهِ توصلًا إلى ما لها من عظيمِ البركةِ، حتى استقامَ أن تستقلَّ وصفًا، وإن

(1) تشابه الأطرافِ نوعٌ من أنواعِ مراعاةِ النظيرِ. ن: الإيضاح في علومِ البلاغةِ، ص: 324. ومن أمثلتهِ السائرةُ: "إذا هبَّ الحجاجُ أرضًا مريضةً * تتبَعُ أقصى دائها فشفاها * شفاها من الداءِ الغضالِ الَّذِي بها * غلامٌ إذا هَرَّ الفناء سقاها * سقاها دمَاءِ المارقينَ وعلها * إذا جمَحَتْ يومًا وخيفَ أذاها * إذا سمعَ الحجاجُ رَزَّ كتيبةً * أعدَّ لها قبل النزولِ قِزاها * أعدَّ لها مصقولةً فارسيةً * بأيدي رجالٍ يلبونُ صُراها". ديوانُ ليلي الأخييلية، ت: واضح الصمد، دار صادر، 1998، ص: 88.

(2) ديوان لبيد بن ربيعة، ص: 112. والجمانة: من فضةٍ تُشبهُ اللؤلؤةَ، وتوهمها لبيدٌ لؤلؤةً، وهو يصفُ بقرةً وحشيةً. ن: لسان العرب، مادة: (جمن)، 92/13.

أُعْرِبَتْ بَدَلًا لِاسْتِهَارِهَا بِبِرْكَةِ مَنَافِعِهَا وَوَفْرَةِ خَيْرِهَا، فَهِيَ يُعْتَدَى بِشَمْرِهَا، وَيُنْتَدَاوَى بِزَيْتِهَا مَعَ كَوْنِهِ طَعَامًا وَافِرَ الْفَائِدَةِ عِلَاجًا لِأَمْرَاضٍ شَتَى، وَيُسْتَنَارُ بِهِ، وَحَطْبُ هَيْكَلِهَا يُوَقَّدُ عَلَيْهِ، فَيُسْتَعْمَلُ فِي التَّدْفِئَةِ وَالطَّهْيِ، وَهُوَ الْأَحْسَنُ؛ لِأَنَّ فِيهِ الْمَادَّةَ الدَّهْنِيَّةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصَيِّغٌ لِالْكَلِينِ﴾⁽¹⁾. وَلِغَابَاتِ الزَّيْتُونِ طَيِّبُ هَوَاءٍ، وَنَقَاءُ جَوٍّ، وَتَلطِيفٌ لِلطَّقْسِ. وَمَنْ بَرَكَتِهَا بَرَكَتُ بِلَادِ الشَّامِ الَّتِي هِيَ بِلَادُ الزَّيْتُونِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾.

وقوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أريد به معنى التوسط وكون الشجرة واقعة في خصب وطيب موطن، والطريقة دخول النفي على كلا الوصفين مع كونهما معطوفين وهما ضدان، فهذا التركيب يختصر معنى بليغا يتوصل إليه بالتفتيش عليه، وجار مجراه مع اختلاف الصيغة قولهم: الرُّمَّانُ حُلُوٌّ حَامِضٌ. وَكُونُ مَكَانِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَسَطًا يَقْتَضِي الْقَوْلَ أَنَّ الْأَمَاكِنَ سِوَاهُ غَيْرُ ذَاتِ خِصْبٍ وَوَفْرَةٍ عُنَاصِرَ مِثْلِهِ، فَسِوَاءُ أَكَانَ الْمَتَجَّهُ صَوُوبَ الشَّرْقِ أَوْ الْغَرْبِ أَوْ غَيْرِهِمَا قِيَاسًا عَلَيْهِمَا، فَلَنْ يَصَادَفَ أَحْسَنَ خِصْبَةٍ وَأَنْعَمَ تَرَبَّةً مِنْهُ.

وفي قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يرد الفعل (يضيء) بمعنى (يتقد)، وهو مأخوذ من قوة اللعان وسطوع اللون. وقرينة ذلك (لو) وما بعدها، ولو - هنا - وَصْلِيَّةٌ بِمَعْنَى: حَتَّى. فَكَيْفَ الشَّأْنُ إِذَا مَسَّتْهُ النَّارُ؟

ومظاهر التحسين التي تتجلى المشبه به تسري إلى المشبه، كما في:

(1) المؤمنون، 20. الصِّبْغُ: الدُّهْنُ، ن: لسان العرب، مادة: (صبغ)، 437/8.

(2) الأنبياء، 71.

شَجَّتْ بِذِي شَبِيمٍ مِنْ مَاءٍ مَخْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ

تَنْفِي الرِّيَّاحِ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٍ يَعَالِيلُ⁽¹⁾

عناصرُ المركَّبِ التصويريِّ في الآيةِ تَمَّ تمثيلُ المعاني بها من أولِ تشبيهِ النورِ بالمصباحِ، وهذه أعلى درجاتِ التمثيلِ، وختمَ هذه الأشياءِ بقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، وهي جملةٌ مستأنفةٌ- يُوَكِّدُ حقيقةً مقصوداً تقريرها في الآية: وهي كونُ النورِ الإلهيِّ قد عمَّ العالمَ.

المشكاةُ مُستودِعُ نورِ المصباحِ الَّذِي ينتشرُ في حيزِهِ شعاعُهُ منحصرًا في نطاقِ يستوعبه بالكلية، وصفاءُ الزجاجِ، ونقاءُ الزيتِ، وصفاءُهُ يعظمُ به الإسراجُ وقوةُ الإنارةِ. والمشكاةُ تُصَوِّرُ إحاطةَ الدلالةِ بالمدلولِ وانطباقَ الكلامِ على المرادِ منه دُونَ تخلفٍ أو اختلافِ. واستمرارُ ضوءِ المصباحِ وتواليهِ وحفظُ ذلكِ لحفظِ القرآنِ وخلودِ الرسالةِ. والإيضاحُ والتبصيرُ الَّذِي يُحْدِثُهُ السراجُ لبصائرِ الدينِ وأنوارهِ الهدايةِ. والزجاجةُ في تجليتها لضوءِ المصباحِ لعدمِ طُرُوءِ الشوائبِ على الإسلامِ، وأنه لا تتطرقُ إلى كتابهِ العظيمِ الرِّيْبِ، والشُّبُهَةِ، والشكوكِ. والشجرةُ المباركةُ بثمارها للوحيِّ الَّذِي يجلِّي الحقائقِ، وتُجنى منه براهينُ الحقِّ ودلائلُ الإيمانِ. وتوسطُ الشجرةِ ووقوعُها بين طرفي الإفراطِ والتفريطِ للحنيفيةِ السمحةِ ووسطيةِ الدينِ. ودوامُ التوقدِ لديمومةِ الهدايةِ. والزيتُ الصافي النقيُّ الَّذِي تتقدُّ به جذوةُ الإسلامِ لتعاليمِ النبوةِ المتضمنةِ في السنةِ وتفصيلِ الأحكامِ.

(1) ديوان كعب بن زهير، (م)، ص: 46. شَجَّتْ: خَلَطَتْ، وَمَرَجَتْ، وَالشَّبِيمُ: البَرْدُ، وَالشَّمِيمُ: البَارِدُ، وَمَخْنِيَةُ الوَادِي: مُنْعَطِفُهُ وَمَاءٌ مُنْعَطَفَاتِهِ أَصْفَى وَأَبْرَدُ، وَأَفْرَطَ: مَلَأَ، وَالسَّارِيَةُ: السَّحَابَةُ تُمَطَّرُ لَيْلًا، وَالْيَعَالِيلُ: سَحَابٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَالْمَشْمُولُ: البَارِدُ الطَّيِّبُ. ن: لسان العرب، مواد: (شجج- شيم- حنا- فرط- سرا- علل- شمل)، 303/2-316/12-202/14-366/7-377/14-467/11-364/11. هذا البيتُ من قصيدةِ البُرْدَةِ. ويصِفُ فيه ريقها أَنَّهُ المَاءُ البَارِدُ كَمَا أَحْسَنَ المَوَاضِعَ، وَهُوَ مَخْنِيَةُ الوَادِي، وَيُكْرَّرُ وَصَفَ المَاءِ بالبُرْدَةِ والفَمَ كَذَلِكَ مَعَ الطَّيِّبِ، وَوَصَفَ عَوَارِضَهُ بالبَيَاضِ، وَمَاءُ الفَمِ كَصَوْبِ سَحَابَةٍ أَي كَمَا أَحْسَنَ السَّحَابِ الأَبْيَضِ المِتْرَاكِمِ.

واعتصارُ الثمرةِ باستخراجِ الزيتِ المفهومِ من لُبِّ الكلامِ يومئُ إلى استنباطِ العلماءِ المحققينَ للأحكامِ والمعانيِ المستترةِ المكنونةِ في مكانِها. (1)

"فَأَحْسَنُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَنَّ اللَّهَ مُوجِدٌ كُلِّ مَا يُعْبَرُ عَنْهُ بِالنُّورِ. وَخَاصَّةً أَسْبَابَ الْمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْحُجَّةِ الْقَائِمَةِ وَالْمُرْشِدِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي بِهَا حُسْنُ الْعَاقِبَةِ فِي الْعَالَمِينَ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ. وَهُوَ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعَانِيهِ". (2)

وفي قوله -تعالى- من سورةِ النورِ: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (3) تعلقُ بالتمثيلِ المتقدِّمِ، فهو متَّصلٌ بهِ لكمالِ المعنى واتحادِ المقامِ: الجارُ والمجرورُ متعلقانِ بقوله: ﴿نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، أو بالفعلِ: (يوقَد) من الآيةِ على خلافِ فيهما، والأولُ أولى. (4)

بَعْدَ أَنْ تَنَوَّعَتْ أَمْثَلُهُ تَصْوِيرِ النُّورِ فِي الْآيَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ اسْتَقَرَّ الْمَشْهُدُ فِي بُيُوتِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ- فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ -لَا عَزْوًا- مَوْئِلُ نُوْرِ الْإِسْلَامِ، فَمِنْهَا يَصْدُرُ نُوْرُ الْقُرْآنِ الْمَضْرُوبُ لَهُ الْمَثَلُ، إِذْ هُوَ كِتَابُ الْإِسْلَامِ وَوَحْيُ الرَّحْمَنِ، فَبَعْدَ أَنْ تُرْفَعَ يَتَحَقَّقُ فِيهَا ذِكْرُهُ تَعَالَى، وَيَعْلُو تَسْبِيحُهُ وَتَوْحِيدُهُ، فَهِيَ تَلُوْحٌ فِي الْمَشْهُدِ -وَقَدْ اسْتَقَرَّ لِلتَّأْمَلِ- مَنَائِرُ تَنْبِيرِ ظِلْمَةِ الْأَرْضِ حَتَّى تَتَّصَلَ أَنْوَارُهَا بِأَنْوَارِ السَّمَاءِ. وَقَدْ عَمَّ الضَّوْءُ الْمَشْهُدِ، وَاسْتَعْرَقَ مَجَالَ الرُّوْيَةِ فِي سِيَاقِ الْآيَاتِ بِإِضَافَةِ عُنْصَرِي الْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِبْطًا لَطْرَفِي النَّهَارِ أَيِ عُنْصَرِي الذَّهَابِ وَالْإِيَابِ بِسُلُوكِ التَّعْبُدِ لِلَّهِ، حَيْثُ إِنَّ هَذَيْنِ الْعُنْصَرَيْنِ هُمَا الْأَسَاسَانِ فِي حَرَكَةِ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ.

(1) ت ت ت بتصرف، 244-243/18.

(2) ت ت ت، 233/18.

(3) الآيتان: 36-37.

(4) ن: روح المعاني، 270-269/18.

تتحول الصورة في الآية الآتية إلى صورة طبيعية خادعة انخداع الكفار ببعض أعمالهم التي يحسبون أنها على قدر من الحُسن بحيث تستوجب القبول أو الثناء، ويُصوّر تضييعها بالسراب الذي يحسبه الظمان ماء، فإذا هو شدة الهلاك بعد لهفة الوصول وجهد السعي. وبهذا تنعقد مقابلة بين رمزين: النور الذي يهدي والسراب الذي يُردي: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾⁽¹⁾ فلم يهده نورٌ إلى حيث النجاة والخلص، وإنما استدرجه السراب⁽²⁾ بلمعانه إلى هلاكه وخسران سعيه.

وفي الآية الآتية من سورة النور ختامٌ للمعنى، وتتميمٌ لمتعلقات المثل، وإيرادٌ للفظه النور مرتين في آخر الآية تدعيمًا لأجزاء المعنى بهذا الإيراد. وتمّ ذلك بسوق مشهدٍ يكتنفه الإظلام، وتتراكب فيه الظلمات، ويغشى الرؤية كثافة من القتام والعتمة. وهو تصويرٌ لحال الكافر المغترّ بعمله الغافل عن عبادة ربّه وتوحيده:

(1) النور، 39.

(2) "السراب الآل. وقيل: السراب الذي يكون نصف النهار لاطنًا بالأرض لاصقًا بها، كأنه ماء جار. والآل الذي يكون بالضحى... بين السماء والأرض... السراب الذي يجري على وجه الأرض، كأنه الماء". لسان العرب، مادة: (سرب)، 462/1. "والسراب: رطوبة كثيفة تصعد على الأرض، ولا تغلو في الجوّ. تنشأ من بين رطوبة الأرض وحرارة الجوّ في المناطق الحارة الرملية، فيلوح من بعيد، كأنه ماء. وسبب حدوث السراب اشتداد حرارة الرمال في أرضٍ مستوية، فتشند حرارة طبقة الهواء الملاصقة للرمل، وتجر الطبقة الهوائية التي فوقها... وحرارة الطبقة السفلى التي تلي الأرض تخذت فيها حركاتٍ تموجية، فيصعد جزءٌ منها إلى ما فوقها من الطبقات... فإذا انعكس على تلك الأشعة نور الجوّ من قُرب طلوع الشمس إلى بقية النهار، تكيفت تلك الأشعة بلون الماء، ففي أول ظهور النور يلوح السراب، كأنه الماء الرّاكد أو البحر. وكلما اشتدّ الضياء، ظهر في السراب ترفّز، كأنه ماء جار. ثمّ قد يُطلق السراب على هذا الهواء المنمّوج في سائر النهار من الغدوة إلى العصر"، ت ت ت، 251/18. "السراب نوعٌ من أنواع الخداع البصري... ويشمل السراب الأجسام البعيدة التي يبدو أنها أقرب ممّا هي في الواقع. وثمة أجسامٌ أخرى مثل: جبل أو سفينة: يبدو كأنها تطفو في السماء. وفي الإمكان رؤية السراب في الصحاري، أو في البحر، أو في القطب الشمالي. وينشج السراب عن انحناء أشعة الضوء أثناء اختراقها للهواء ذي الدرجات الحرارية المختلفة. وتسمى تلك الحركة الانحنائية الانكسار. ويُعدّ سرابٌ الواحة أكثر أنواع السراب شيوعًا. ويعاني منه المسافرون في الصحراء أحيانًا، عندما يرون بركة ماءً بعيدة تبدو لهم كأنها واحة؛ ولكن عند وصولهم إلى المكان لا يجدون إلا الرمال الجافة فقط"، الموسوعة العربية العالمية، تحت عنوان: السراب=Mirage.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا
فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾⁽¹⁾

يتلاشى -في هذه الحال- ضوء الشمس، ويتم امتصاص أشعتها بفعل الغلاف
الغازي للأرض. وبخاصة الجزء السفلي منه: (نطاق المتغيرات المناخية). وبفعل السحب،
ومن خلال الأمواج السطحية والداخلية للبحر اللجّي أي العميق يتم امتصاص أطياف
اللون الأبيض من الأحمر إلى الأزرق. وهي خمسة أطياف. ويستمر انكسار وانحسار
الضوء، حتى تستحيل أغوار البحار والمحيطات إلى ظلمة مطلقة.⁽²⁾

(1) الآية: 40.

(2) ن: من أسرار القرآن، صحيفة الأهرام، عدد: 42203-24 يونيو-2002 م.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: (1)

كون إبراهيم الخليل -عليه السلام- أمة يَوْمِي إلى أنه أصل أمة عظيمة بدأت برسالة هي رسالته، وختمت برسالة خاتمة جامعة ناسخة لم تنسخ الحنيفية التي جاء بها إبراهيم؛ لأنها أصل الدين: ﴿اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وإنما نسخت شرائع متقدمة كشرية موسى وعيسى عليهما السلام؛ إلا ما صحَّ اعتباره منها. فقد جاء إبراهيم -عليه السلام- بالتوحيد يوم سادت عقائد الشرك والوثنية، وبنى البيت، وأقام شعائر الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، (2) وسمى أمته المسلمين: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، (3) فهو إمام الخنفاء، ووالد الأنبياء، (4) والمبعوث بالملة السمحة.

الأمة الطائفة العظيمة من الناس التي تجمعها جهة واحدة. (5)

وكان أمة أي عابداً مُنِيباً، فهو في اجتهاده وتضرعه أمة أي عظيم العمل مع طول العبادة والقيام مع الإخلاص وكمال الخصال والمحامد.

(1) النحل، 120-123.

(2) الحج، 26-27.

(3) السابق، 78.

(4) ن: تفسير ابن كثير، 610/4، وصحيح البخاري، 22/1، والبحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، دار الكتب العلمية، 2000، 349/4-350.

(5) ن: ت ت ت، 315/14، ولسان العرب، مادة: (أمم)، 22/12.

وأول ورودٍ للحنيفية في القرآن: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (1)

وفي لسان العرب أنّ الحنَفَ هو ميلٌ كِلا القدمينِ إلى الأخرى أو ميلٌ في إحداهما. والحنيفُ المسلم. وعربُ الجاهلية يُسمُّونَ مَنْ اختتنَ، وحجَّ البيتَ حنيفًا، إذ لم يتمسكوا بشيءٍ من ملةِ إبراهيمٍ بغيرِ ذلك. (2) وصورةُ ذلك أنّ إبراهيمَ -عليه السلام- مالَ في مشيه عن مشيِّ غيره من الناس، واتَّجَهَ إلى غيرِ اتِّجاهِهِمْ، فرأوا في حركته ميلاً وانحرافاً عنهم. وكان اعتدادهُ بشرفِ مقصدهِ وما حُبِّي به من الكرامةِ عظيماً: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾. (3) وقد صارَ الحنيفُ لقبَ مدحٍ بالغلبة. (4)

والحنيفيةُ -في مستواها اللغوي- صورةٌ رامزةٌ إلى أصلِ ملةِ إبراهيمَ -عليه السلام- التي هي الإسلام: ﴿حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾. وقد توطدت دعائمُ استمساكِه بالملةِ في مواقفٍ في حياته كالذي سألَ فيه اللهُ -تعالى- أن يجعلهُ وابنهُ مسلمينَ له: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، (5) ومن ذلك دعاؤه أن يجعله مقيمَ الصلاةِ في سورةِ إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي﴾، (6) وإعلانهُ تمامَ العبوديةِ لله في سورةِ الأنعام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾، (7) وإخلاصهُ النيةَ والعملَ لربه في الأنعام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾، (8) وحطَمَ الأصنام: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾، (9) وأظهر الانقطاعَ

(1) البقرة، 135.

(2) مادة: (حنف)، 56/9.

(3) الأنعام، 80.

(4) ن: ت ت ت، 737/1.

(5) البقرة (128).

(6) الآية: 40.

(7) الآية: 80.

(8) الآية: 81.

(9) الأنبياء، 58.

لَهُ بِالْتَوَكُّلِ عَلَيْهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾،⁽¹⁾ وَتَصَدَّى لِلْحَاجِّ عَلَى التَّوْحِيدِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾،⁽²⁾ وَسَأَلَ اللَّهَ مَا عِنْدَهُ مِنْ حُسْنِ الْجَزَاءِ: ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.⁽³⁾

تُمَثِّلُ هَذِهِ الْمَوَاقِفُ أَصُولًا وَأَحْوَالًا وَأَوَائِلَ تَوْسُّسٍ لِمَا بَعْدَهَا، يَتَأَسَّى بِهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْ قُوَّتِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ أَصْحَابُ الْأَمَانَاتِ وَأَمْنَاءُ الدَّعَوَاتِ.

"اسْمُ الرَّسُولِ الْعَظِيمِ الْمَلَقَّبِ بِالْخَلِيلِ هُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِحَ. وَتُسَمَّى الْعَرَبُ تَارِحَ أَرَرَ بْنُ نَاحُورٍ... وَمَعْنَى إِبْرَاهِيمَ فِي لُغَةِ الْكَلْدَانِيِّينَ: (أَبٌ رَحِيمٌ) أَوْ (أَبٌ رَاحِمٌ). قَالَهُ السُّهَيْلِيُّ وَابْنُ عَطِيَّةٍ. وَفِي التَّوْرَةِ أَنَّ اسْمَ إِبْرَاهِيمَ إِبْرَامُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَمَّا أَوْحَى إِلَيْهِ، وَكَلَّمَهُ، أَمَرَهُ أَنْ يُسَمَّى إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّهُ يَجْعَلُهُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الْأُمَّمِ، فَمَعْنَى إِبْرَاهِيمَ عَلَى هَذَا: أَبُو أُمَّمٍ كَثِيرَةٍ. وُلِدَ فِي أَوْرِ الْكَلْدَانِيِّينَ سَنَةَ: (1996) قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ، ثُمَّ انْتَقَلَ بِهِ وَالِدُهُ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهِيَ أَرْضُ الْفِينِيقِيِّينَ، فَأَقَامُوا بِحَارَانَ: هِيَ حَوْرَانَ [دِمَشقَ، أَوْ شَمَالَ سُورِيَا]".⁽⁴⁾

ثُمَّ كَانَتْ رِحْلَتُهُ إِلَى فِلَسْطِينِ، ثُمَّ مِصْرَ، فَالْحَاجَّزِ أَيَّ إِلَى مَكَّةَ الَّتِي هِيَ الْمَقْصَدُ وَمُنْتَهَى الْغَايَةِ.⁽⁵⁾

وَمِنَ التَّنْوِيهِ بِهِ بِإِيمَاءَاتِ رَامِزَةٍ مَا وَرَدَ بِآيَةِ الْبَقْرَةِ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾،⁽⁶⁾ فَالْكَلِمَاتُ يُقْصَدُ بِهَا مَنْطُوقُ وَحْيِ اللَّهِ إِلَيْهِ الْمَتَضَمِّنُ لِأُمُورِ امْتِحَانِ الْخَلِيلِ بِالْقِيَامِ بِهَا عَلَى

(1) الشعراء، 78-82.

(2) البقرة، 258.

(3) الشعراء، 85. ت ت ت بتصرف، 275/3.

(4) السابق، 701/1، ن: الروض الأثف، 34/1، ولم أجد في تفسير ابن عطية. ن: عودة التاريخ، 239.

(5) ن: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 349-345/10، وتاريخ الطبري، 143/1.

(6) الآية: 124.

أتمّ الوجوه. ولعلّها أمورٌ محصورةٌ مميّزةٌ بالتخصيصِ لكونها دوالاً من حيث مآلاتها على مكوناتٍ نفسه من الصبر، والتسليم، والرضى بحكم الله تعالى. وقد أُجملت -هنا- لاستبقاء دلالتها الخفية أو طبيعتها التي ترمز إلى عظم قوة صلة إبراهيم -عليه السلام- بربه الذي اتخذهُ خليلاً: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾⁽¹⁾ أي صفيًا مَرْضِيًّا بكمالِ صدق المناجاة، وخالصية التعبد، والإخباتِ إلى الله في عالمٍ يضجُّ بالشركِ واستفحالِ الوثنياتِ المنتشرة. ثمَّ إنَّ هذه هي عادةُ القرآنِ في إجمالِ ما ليس بمحلِّ الحاجة. ولعلَّ المراد بالكلماتِ أصولُ الحنيفية، فهي قليلةُ العددِ عظيمةُ المنزلةِ لعمقِ المحتوى. ومن ذلك -بعُدَ أصلِ التوحيدِ ولوازمه- أمرُه بذبحِ ولدهِ إسماعيلَ عليه السلام،⁽²⁾ وأمرُه بالاختتان،⁽³⁾ والمهاجرةِ إلى مكة حيث موضعُ البيتِ الحرامِ مع تزكٍ أهلهِ وابنه وهو رضيعٌ بأرضٍ غيرِ ذاتِ زرعٍ أي بمكة، وليس فيها من الناسِ سواهما.⁽⁴⁾ وأوّلُ ذلك -وهو ذبحُ ولدهِ- أعظمُ هذه الأمورِ وأشدُّها على نفسه. وقد قال -تعالى- في سورةِ النجم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾⁽⁵⁾. وهذه التوفيقيةُ تقابلُها كلمةُ الإتمامِ في قوله: ﴿فَاتَّمَمْنَ﴾⁽⁶⁾ والفاءُ للدلالةِ على فوره وسرعةِ امتثاله أي وقوعِ القبولِ القلبيِّ منه دون تردُّدٍ أو تعقبٍ لأوامرِ الله. والإتمامُ فحوى في الدلالةِ على حُسنِ كمالِ الأداءِ منه لكلِّ فعلٍ على أحسنِ أحوالِ الامتثال. وتضمَّنتِ المقالةُ في الآيةِ النصَّ على جعله إمامًا أي رسولًا يؤمُّ الناسَ -بمطلقِ الدلالةِ- إلى النورِ الأسمى. والوصفُ بالإمامِ فيه تمييزٌ لقصدِ تأملِ إشراقاتِ هذه الكلمةِ الرامزةِ التي هي من مُتضمَّاتِ دلالةِ الرسالة؛ ولكن بُرورها في نَظْمِ الآيةِ يستحضرُ سياقاتها اللغويةَ العامةَ التي من بينها الهدايةُ والإرشادُ مع تقدُّمِ الهاديِ أفواجِ المؤمنينَ المتبعينَ له. وإمامتهُ

(1) النساء، 125.

(2) الصافات، 102.

(3) ن: الصحيحين، 2320/5، 1839/4.

(4) إبراهيم، 37.

(5) الآية: 37.

(6) البقرة، 124. ن: ت ت ت، 130/27.

تحققت بالتبليغ والافتداء مع سطوع هيئته بين الأمم التي تنقل بين بلادها، فحصل له من ذلك تجليل وتأثر مع التآسي والإكبار. وقد تنقل بين بلاد الكلدان بالعراق إلى الشام، والحجاز، ومصر. (1)

"وَقَدْ قِيلَ إِنَّ دِينَ (بِرَهْمًا) الْمُتَّبَعِ فِي الْهِنْدِ أَضْلُهُ مَنْسُوبٌ إِلَى اسْمِ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مَعَ تَحْرِيفٍ أُدْخِلَ عَلَى ذَلِكَ الدِّينِ، كَمَا أُدْخِلَ التَّحْرِيفُ عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ". (2)

والبيت، أو المسجد الحرام، والبلد الحرام أي مكة رمز من رموز الإسلام المحتشد بالدلالات والمعاني الجليلة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْتَحَدُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، (3) فهو موئل المؤمنين في كلِّ العصور يتوافدون إليه حُجَّاجًا ومُعتمرين بسائر أجناسهم لأداء عبادة الحجِّ بأركانها وسننها مؤتمين بنبيهم صلى الله عليه وسلم. وهو مؤتمرهم الأكبر لاجتماعهم يلتقون فيه أُمَّةً عظيمةً منتسبين إلى شعوب الإسلام في أقطار الأرض. تجمعهم المساواة، ويوحدهم التوحيد. وموقف يوم عرفة بجبلها مشهدٌ عظيمٌ فيه صورةٌ من يوم المحشر، إذ الناس في صعيدٍ متجردين للخالق -سبحانه- من شهوات الدنيا منيبين إليه راجين تقبله لهم، ولأعمالهم متضرعين إليه بطلبِ حُسنِ الجزاء بكرامة الوصولِ ونعمة النزولِ بمنزلِ الرضوانِ والإحسان.

ولمَّا كان المقصودُ من هذا ذِكْرٍ مَنقَبَةِ الْبَيْتِ وَالْمَنَةِ عَلَى سَاكِنِيهِ، كَانَ الشَّأْنُ الْإِيْمَاءَ إِلَى مَزِيَّةِ تَوَالِي أَجْيَالِ النَّاسِ عَلَى أُمَّهِ لزيارته والتعبُّدِ فِيهِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ مَعَ رِخَاءِ الْعَيْشِ فِي جَنَابَتِهِ وَوَفْرِ الثَّمَارِ وَالْأَرْزَاقِ. وَالْأَمْنُ مُصَدَّرٌ أَخْبَرَ بِهِ عَنِ الْبَيْتِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ سَبَبٌ أَدَّى إِلَى فُشُوِّ أَسْبَابِ الْأَمْنِ. وَالْأَمْنُ حَفْظُ النَّاسِ مِنَ الْأَضْرَارِ وَالْأَخْطَارِ، فَتَشْرِيدِ الدُّعَارِ، وَحِرَاسَةِ الْبِلَادِ، وَتَمْهِيدِ السُّبُلِ، وَإِنَارَةُ الطَّرِيقِ آمِنًا، وَالانْتِصَافُ مِنَ الْجَنَاحَةِ، وَالضَّرْبُ عَلَى

(1) ن: ص: 317 من هذه الدراسة.

(2) ت ت ت، 704/1.

(3) البقرة، 125.

أيدي الظلّمة، وإرجاع الحقوق إلى أهلها أمن. (1) فالأمن كلمة رامزة إلى قيمٍ مثلى يتطرق إليها الفهم بحسب الأحوال. ومن ذلك دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿فَاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقُهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. (2)

وتضمّن قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (3) إشاراتٍ رمزيةً إلى مُتعلقاتها: فالصلاة في مقام إبراهيم -عليه السلام- تومئ إلى أصل الحنيفية أبي الأنبياء (4) الذي بنى وابنه الكعبة المشرفة، والذي يتصل التوحيد في أمته، ولا ينقطع إلى قيام الساعة. والتطهير يشمل كلَّ تطهيرٍ مادي، ومعنوي، وعقدي. ووصف السجود هو للمؤمنين الطائفين، والعاكفين، والركّع. وقد عدل إلى وصفهم بجمع اسم الفاعل المشارك للمصدر في الصيغة: (السجود) بخلاف السجّد الموائم لقرينه الركّع استحضاراً للقيم المعنوية التي في المصدر من معاني الخشوع والإخلاص في أخلص لحظات القرب من رحاب القدسية العليا: وهي لحظات السجود للخالق العظيم.

ومن مواقف إبراهيم -عليه السلام- الرامزة إلى أحوال متعاقبة من جدال أهل الكفر والإلحاد للمؤمنين عبّر التاريخ موقفه مع نمرود بن فالخ بن عابر (5) ملك بابل، وهو ما نصّت عليه آية البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. (6) وهذا أول ثلاثة شواهد في ثلاث آيات متتاليات من سورة البقرة سيقّت لبناء الحجة لمضمون

(1) ت ت ت بتصرف، 709/1.

(2) إبراهيم، 37.

(3) البقرة، 125.

(4) ن: ت ت ت، 111/16.

(5) ن: تفسير الطبري، 430/5.

(6) البقرة، 258.

جملة متقدمة من السورة في قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾. (1) وهذا الشاهد أقواها
لكونه أجمعها لاشتماله على ضلال الكافر وهدى المؤمن؛ ولاشتماله على المغالطة في
الجدال، وهي دأب أهل الإلحاد في شتى مذاهبهم. وهي هنا زعم الملك القدرة على الإحياء
بتريك إنفاذ القتل لمن عفا عنه، وبقتله إذا أراد موته. ولم يجاره إبراهيم الخليل في التوسع
في مثاله الذي ساقه مزهواً متهكماً، وهو أمر هين يكون بأن يطلب إليه إحياء ميت
يوضع بين يديه؛ بل ارتقى في الاستدلال، فأمره أن يأتي بالشمس من غير جهة بزوغها.
وليست عنده داعية للتمحل في هذا، فبهت، وانقطعت أغاليطه.

التأمل في صفحة السماء هو من الطبائع البشرية؛ ولكن التعمق في ذلك والتوصل
به إلى الارتقاء في معرفة الحق من خواص ذوي العقول الراجحة والقلوب السليمة:
﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ
اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِيَّيَّيَ بَرَيْتُمْ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِيَّيَّيَ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. (2)

مجيء الفعل: (نرى) من الإفعال أي من الإراءة مع كونه يرى بطبيعة التكوين ما
يلوح له من ظواهر الملكوت السماوي والأرضي - مجيء الفعل كذلك يعني أنه -تعالى-
يرتب على ما يرى إبراهيم -عليه السلام- من المبصرات المعقولات النافعة والأقيسة
الموصلة إلى تمام اليقين، ويجيل بباليه الخواطر التي تكسبه الحجة على مناظره. ويتزسخ
بذلك -أيضاً- يقينه بمعرفته لأسرار قدرة الخالق معرفة لا يساورها الشك والشبه. وكان

(1) السابق، 257.

(2) الأنعام، 75-79.

اعتقادُ قومِهِ ببابلَ في الهيئةِ ونجومِها وكواكبِها راسخًا، إذ كانوا من الصابئينَ عبَادِ الأجرَامِ. (1) مع عبادتِهِم للأصنامِ التي جعلوا لها هياكلَ ومعابدَ، وهي صُورٌ للملائكةِ التي زعموها وسطاءَ بينهم وبين الله سبحانه. وفي تفسيرِ ابنِ كثيرٍ أنّ الكواكبَ المرعيةَ في الهيئةِ هي الكواكبُ السيارةُ السبعةُ المتحيرةُ. وأعظمُها إشراقًا -بَعْدَ الشمسِ والقمرِ- كوكبُ الزُّهرةِ، (2) فلعلُّه المقصودُ في الآيةِ.

وهذه مناظرةٌ ذاتُ إشاراتٍ بينه وبين قومِهِ يبدو من سياقِها أنّهم كانوا بمسيرٍ في ليلةٍ مُظلمةٍ، أو في مجلسٍ يحدِّثُهُم إبراهيمُ -عليه السلام- رغبةً منه في إيمانِهِم، فبَعْدَ أَنْ دَحَضَ اعتقادَهُم في الأصنامِ بما وسعَهُ ذلكَ عَمَدَ إلى هذه المناظرةِ بقرينةِ تقدُّمِ هذا الدحضِ بخطابهِ لأبيه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (3) وقد تلا مشهدَ هذه المناظرةِ الليليةِ ذَكَرُ محاجةِ قومِهِ له في آيةِ الأنعامِ. (4) وقد ترقَّى في جدالِهِم باستعراضِهِ للنِّيراتِ السماويةِ مع نسبةِ استحقاقِ العبادةِ لها جِزْمًا بَعْدَ آخَرَ ابتداءً من جِزْمِ ميِّزِهِ في السماءِ، لعلُّهُ الزُّهرةُ، أو المشتري، أو نجمٌ بعينه، ثم انتقلَ إلى القمرِ، ثم إلى الشمسِ. وهذا التدرُّجُ يرمزُ إلى أطوارِ العبادةِ التي مرَّتْ بها الشعوبُ من تقديسِ الطوغمِ إلى عبادةِ الشمسِ في مصرِ القديمةِ، ثمَّ الانتهاءِ إلى طُورِ الوحدانيةِ أو ما يقاربُها، كما حدَّثَ على عهدِ أخناتون. (5) وقد تكونُ الإشارةُ إلى الشمسِ في مجلسٍ آخَرَ غيرِ هذا، أو في المجلسِ نفسِهِ وأشارَ إليها لابتداءِ بزوغِها أيَّ أنّ الحديثَ امتدَّ بهم إلى الصباحِ.

وأمرُ إبراهيمَ بذبحِ ولدهِ إسماعيلَ -عليهما السلام-، إذ رأى ذلكَ في الرؤيا صورةً ماثلةً لشدةِ البلاءِ والمحنةِ العظيمةِ التي امتُحِنَ بها رسولٌ من أولي العزمِ: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى

(1) ن: المُفَصَّلُ في تاريخِ العربِ قبل الإسلامِ، 278/12 وما بَعْدَها.

(2) ن: تفسيرِ ابنِ كثيرٍ، 291/3-292.

(3) الأنعام، 74.

(4) الآية: 80.

(5) ن: الله، عباس العقاد، (م)، ص: 6-10-41-49.

فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَدْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾. (1) وقد جاءه الولدُ بعدَ طولِ نشدانه وترقبه بعدَ أن كبرت سنه. وذلك أشدُّ عليه. وقد قال في سورة إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. (2) وهذا الابتلاءُ تقدّمته محنة تركه لهاجرَ وابنها -عليهم السلام- بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ أي بوادٍ بين جبلين أرضه ذاتُ حجارةٍ لا زرعَ بها، ولا تصلحُ لشيءٍ من ذلك. وذلك قبلَ تقريّ مكةٍ وقدم الواردين إلى مسجدِها الحرامِ وأسواقِها. وقد سألَ الله - عزَّ وجلَّ - أن يجعلَ أفئدةَ من الناسِ تهوي إليهم أي أن يجاورهم بها الرحماءُ المشفقون الذين يتولّون إسماعيلَ وأمه بالرفق، وأولئك هم قبيلةُ جُهمَ أصهارُ إسماعيلَ عليه السلام. وأخصُّ من هذا أن يُرادَ بالأفئدةِ قلوبٌ مؤمنةٌ مُسرعةٌ في الخيرِ تعمُرُ هذه البلدةَ الطيّبةَ المُحرّمة. ويبقى أن ابتلاءَ إبراهيمَ في المرتينِ بابنه -عليهما السلام- هو في عليا السنام، وصبره ورضاه مدعاةٌ لكلِّ مؤمنٍ أن يتأسى به، فدوّنَ رضى الله كلُّ مصابٍ ومصيبة.

ويدخلُ في هذا المعنى الإلقاءُ به في النارِ عقوبةً من الظالمين على إيمانه وتحطيمه أصنامهم: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾، (3) فهذا من شواهدِ التسليمِ لله من المؤمنين الذين يتعرّضون لاضطهادِ المتجبرين.

ومن علاماتِ توكله، واستمساكه بما عند ربّه، وإنابته، وحلمه، وانقطاعه لله، حتى صار مثلاً للتحنُّث، والإقبالِ على الله، والإخبارِ إليه مع دوامِ العبادةِ والدعاءِ ما وردَ في هود والشعراء: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ

(1) الصافات، 102.

(2) الآية: 39.

(3) الأنبياء، 68-70.

يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذِي يُمِيتُنِي الَّذِي أَحْيَا نَفْسِي وَالَّذِي يُحْيِي نَفْسِي وَالَّذِي أُطْعِمُنِي أَنَا يُطْعِمُنِي وَالَّذِي يُغْفِرُ لِي
خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿١﴾.

(1) الآيات: 75، 78-82.

42 الفصل الرابع: الدلالات الموضوعية

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾: (1)

التأويل في اللغة من الأول، والأول: الرجوع. آل الشيء - يؤول أولاً ومآلاً: رجع، وأول إليه شيئاً: رجعه، وألث عن الأمر: ارتددت عنه، وطبخ النبيذ حتى آل إلى التلث أي رجع إلى التلث. والإيل والأيل من الوحش، أو هو الوعل، سمي بذلك لمآله إلى الجبل يتحصن فيه. وأول الكلام، وتأوله: دبَّره، وقدره، وأول الآية وتأولها: فسرها. وأمَّا التأويل، فهو (تفعيل) من: أول - يؤول - تأويلاً. والثلاثي: آل - يؤول بمعنى: رجع. ويقال: أُلث الشيء - أوَّله: إذا جمعته، وأصلحته، فكان التأويل جمع معاني ألفاظ أشكلت بلفظ واضح لا لبس فيه. (2)

تقدمت هذه الآية من سورة آل عمران آيات استهلَّت بها، وتضمنت ابتداءً التنويه بنظم القرآن بالإشارة إلى كونه مؤلفاً من حروف العربية لغة القوم الذين نزل بين ظهرانيهم، فأقيم بذلك التأكيد على كونه معجزاً، خارقاً، فائقاً المقدور عليه من أشكال نظمهم، فهو كلام الله ضمَّنه كتاباً ختم به رسالات السماء، فهو آخر الكتب السماوية. له من روعة البيان ودقَّة النظم ما لا يُبلغ وصفه، ولا يُحاط بإحكام انعقاد معانيه وجمال تراكيبه ومبانيه. (3)

(1) آل عمران، 7.

(2) لسان العرب بتصريف، مادة: (أول)، 32/11، وتاج العروس، 31/28.

(3) ن: الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، محمود البقاعي، مكتبة وهبة، 1424 هـ، ص: 145.

وإن كانت هذه السورة مدنية، فما وجهُ ابتدائها بهذه المقطعات؟ وجهُ ذلك أنَّها نزلت بعد قصة وفد نصارى نجران. (1) وهم من أهل اليمن: عربٌ غاربةٌ حسنٌ أيما حسنٍ خطابُهُم بهذا المعنى، كما خوطب به أهل مكة من قبلهم، وتلا ذلك التنويه بالوحدانية إرساءً للتوحيد في مطلع السورة، وأنَّ كلَّ ما عدا اللّهممهورٌ تحت ملكوته تابعٌ لمشيئته. (2) متبوعٌ ذلك بإيراد اسمي الحياة والقيومية لله تمهيداً لإيراد ذكر آثار هذين الاسمين على خلقه وآثارهما في حياتهم، وفي الطبيعتين السماوية والأرضية. وفي ذكر هذين الوصفين تعريضٌ بوفد نجران في اعتقادهم الذي يعتقدونه في المسيح الذي كُذِّب، وأوذى في الله عزَّ وجلَّ، واختفى من قومه الذين اجتهدهم الشيطان، وهموا بصلبه وقتله. وقد ورد أنَّ أساقفتهم قالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَسْتَ تَزْعُمُ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ عَيْسَى كَلِمَةُ اللهِ وَرُوحٌ مِنْهُ؟" قال عليه الصلاة والسلام: بلى. قالوا: فَحَسْبُنَا ذَلِكَ!". (3)

وهذان الوصفان إنما هما لله وحده. وتلا ذلك ذكرُ إنزال القرآن وإنزال التوراة والإنجيل، وذكرُ ما لهذه الكتب من صفة الهدى، وما اختصَّ به القرآن من كونه فرقاناً؛ وذلك لما له من قوة التأثير وقوة التمييز والتفريق بين الحقِّ والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال. ويشعرُ هذا الوزن: (فُعْلان) بشدَّة التَّوَعُّلِ في المعنى لمزيد قوة خاصية الهداية الكامنة في تضاعيف هذا الكتاب العظيم؛ ولما له من اختصاصٍ ببسط البراهين وإزالة الشبهة، فهو مؤسَّسٌ على أصولٍ رصينة وفروعٍ عن تلك الأصولِ ناطقةٍ بالحقِّ قاضيةٍ ببطلانِ أوهامٍ وتهاويم المناوئين وتخريصاتهم المضلَّة. وهذا داخلٌ في معنى الهيمنة التي للقرآن على الكتب السابقة كالتوراة، والإنجيل، وغيرهما من الأسفار والصحف، فبهذه الهيمنة أبطل أحكام ما تقدَّمه؛ إلا ما وردَ اعتباره منها في شرع الإسلام: ﴿الم اللهُ لا إله إلاَّ

(1) ممَّن نصَّ على ذلك ابن كثير في تفسيره. 5/2. والخبر في سيرة ابن إسحاق بسنده عن محمد بن جعفر. ن: تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، (م)، 177/1. ولم أجده في شيء من كُتُب الحديث المُعْتَبَرَة، وهو مشتهر في كُتُب التفسير والسيرة.

(2) ن: تفسير أبي السعود، 7/2.

(3) السابق، 7/2.

هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾.

وسبب نزول هذه السورة - كما تقدم، وكما ذكره الواحدي، وغيره - هو قضية وفد نصارى نجران الذين وفدوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في سنة نزول السورة، (2) إذ هي من أوائل المدنيات. يرأسهم العاقب، وهو عبد المسيح، وهو أمير القوم، والسيد، واسمهُ الأيهم، وهو مشير الأمير وصاحب الرأي فيهم. (3)

وقد بين لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما هم عليه من ضلال العقيدة وبُعد عن الحق الذي جاء به الإسلام. ولما قامت الحجة عليهم، أصرُّوا على ما يعتقدونه من ألوهية المسيح، ولم يرتضوا التوحيد الحق. ومعلوم ما كان عليه أهل نجران من تشبُّث بالنصرانية، فهم أكثر العرب عراقة في هذه الملة، حيث إن لهم مدراسًا ورهبانًا مشاهير. وقد نزلت بضع وثمانون آية من أول هذه السورة في شأنهم، كما ورد في سيرة ابن هشام. (4) وقد ذكر ذلك الفخر، (5) وأبو حارثة بن علقمة، وكان أسقفهم، وخبزهم، وإمامهم، وصاحب مدارسهم، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل؛ ولكنه تنصَّر، فعظَّمته

(1) آل عمران، 1-6. من أواصر الارتباط بين مُستهلِّ هذه السورة وخواتيم سورة البقرة التي قَبَّلها بيان عقيدة الإسلام، وما عليه المؤمنون من إذعان، وطاعة، وامتثالٍ لوحي رَبِّهم بعدما ملأ قلوبهم من اليقين والإيمان مُتميِّزين عن أهل الكتاب الذين ارتابوا في القرآن، وخاضوا فيه، وتأوَّوه. ومنهم مَنْ اتخذهُ ظَهْرِيًّا: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، البقرة، (285).

(2) ن: أسباب النزول، مؤسسة الحلبي، 1968، ص 61-62.

(3) ن: تاريخ الإسلام، 695-696، وت ت ت، 145/3-146، وتفسير الثعلبي، ت: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث، 2002 م، 6/3.

(4) ن: تهذيب سيرة ابن هشام، 177/1.

(5) ن: مفاتيح الغيب، 134/7.

الرُّومَ وملوكها، وشرفوه، وبنوا له الكنائس، ومولوه، وأخدموه لِمَا يعلمونه من صلابته في دينهم. وقد كان يعرفُ أمرَ رسولِ الله...ولكن احتملهُ جهلهُ على الاستمرارِ في النصرانية...قَدِموا على رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فدخلوا عليه مَسْجِدَهُ حين صَلَّى العصر، عليهم ثيابُ الْحَبْرَات. قال: يقول بعضُ مَنْ رآهم...ما رأينا بَعْدَهُمْ وفدًا مِثْلَهُمْ. وقد حانت صلاتُهُمْ، فقاموا في مسجدِ رسولِ الله...يُصَلُّون، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: دَعُوهُمْ، فَصَلُّوا إِلَى الْمَشْرِقِ".(1)

وهؤلاء الوفدُ تشبَّهوا بِشَبِّهِ مِنْ أَشْيَاءِ التَّمَسُّوْهَا فِي الْقُرْآنِ، وَلَبَّسُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى النَّاسِ. وقد وردت القصةُ ببعضِ هذه الشُّبُهَاتِ والتأويلاتِ الَّتِي أُسْقِطُوا عَلَيْهَا عَلَى بَعْضِ الْآيَاتِ. ولقد أومأت الآيةُ السادسةُ من هذه السورة: (آلِ عِمْرَانَ) إِلَى مَعْنَى يَتَّصِلُ بِتَفْنِيدِ شَبْهَةٍ مِنْ شَبْهِهِمْ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ذلك أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ وَاهِمِينَ أَنَّ تَخْلُقَ عَيْسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِدُونِ مَاءٍ أَبِ دَلِيلِ الْوَهْيَةِ فِيهِ، وَجَهْلُوا، أَوْ تَجَاهَلُوا أَنَّهَا كَيْفِيَّاتٌ فِي الْخَلْقِ تَجْرِي بِقَدْرِ اللَّهِ وَقَدْرَتِهِ، فَهُوَ تَمَحُّلٌ وَجِدَالٌ نَاشِئَانِ عَنْ غَفْلَةٍ عَنْهُ -تَعَالَى- الَّذِي مَا قَدَرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾،(2) فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَهًا مَنْ كَانَ عَدَمًا، ثُمَّ خَلَقًا فِي رَحْمِ إِمِّهِ؟

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ استئنافٌ من جملةِ استئنافاتٍ تتابعت في أوائلِ هذه السورة. ومضمونهُ يبيِّنُ على ما نَقَدَّم من تنويهِ بِنزِيلِ الْقُرْآنِ بِالْحَقِّ وَوَصْفِهِ بِأَنَّهُ فُرْقَان. وكما أَنَّ الْآيَةَ تَأْكِيدٌ لِمَا نَقَدَّم من آياتٍ هي -أَيْضًا- تَمْهِيدٌ لِلتَّعْرِيفِ

(1) تفسير ابن كثير، 50/2. وثياب الْحَبْرَات: ثياب ذاتُ خطوطٍ مُوشَّاة. ن: لسان العرب، مادة: (حبر)، 197/4.

(2) آل عمران، 59.

بوفدِ نجرانَ الَّذِينَ تَأَوَّلُوا آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهَا انتصارًا لِمَا يَعْتَقِدُونَهُ مِنَ الْوَهْيَةِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُمْ مِثَالٌ مِنْ أَمْثَلِهِ سَوْءِ التَّأْوِيلِ وَمِجَانِبَةِ الْحَقِّ فِي تَتَبُّعِ الْمَعَانِي وَمَعْرِفَةِ التَّفْسِيرِ.

وتبتدئُ الآيَةُ بِأَسْلُوبِ الْقَصْرِ⁽¹⁾ أَي قَصْرِ صِفَةِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَهَذَا الْقَصْرُ دَاخِلٌ فِي تَجْرِيدِ إِلَهِيَّةِ هَذَا الْوَحْيِ، وَفِي تَوْكِيدِ عَصَمَتِهِ مِنَ الْأَهْوَاءِ أَوْ الْأَغَالِيظِ، مُفَحِّمٌ لِلْعُقُولِ، وَهَادٍ لِلْقُلُوبِ: لِمَنْ طَلَبَ الْحَقَّ، وَلَمْ يَشْتَطِّ فِي تَتَبُّعِ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ، كَمَا فَعَلَ هَذَا الْوَفْدُ، وَكَمَا هُوَ شَأْنُ غَيْرِهِ مِنَ الَّذِينَ أَمَعُوا فِي التَّأْوِيلَاتِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ، أَوْ الْبِدْعِ، أَوْ الْفَلَسَفَاتِ...

وهذا القصرُ في الآيَةِ لَا رَيْبَ أَنَّهُ لَأَمِّ التَّقْسِيمِ الَّذِي وَرَدَ فِيهَا، وَهُوَ أَنَّ مِنَ الْقُرْآنِ مُحْكَمًا وَمُتَشَابِهًا. وَهَذَا التَّقْسِيمُ أَوْ الْإِنْقِسَامُ يَرْجِعُ إِلَى اخْتِلَافِ أَقْدَارِ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ فِي فَهْمِهِمْ وَمَلَكَاتِهِمْ، وَإِلَى اعْتِبَارِ ضَعْفِ وَقُوَّةِ الْعُقُولِ وَاخْتِلَافِهَا فِي الْأَخْذِ وَالْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فإِدْرَاكُ الْمَرَادَاتِ يَتَبَايَنُ بَتَبَايِنِ الْمَلَكَاتِ، فَالْعُلَمَاءُ الْأَثْبَاتُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لَيْسُوا كغَيْرِهِمْ، وَالَّذِينَ يَتَعَمَدُونَ تَنْقُصَ الْقُرْآنِ، وَيَتَطَلَّبُونَ التَّشْغِيبَ عَلَى نَسَقِهِ وَبَيَانِهِ ابْتِغَاءً الْفِتْنَةَ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ- دَاخِلُونَ -هُمْ أَيْضًا- فِي عِدَادِ مَنْ عَنَتَهُمُ الْآيَةُ، وَهُمْ -لَا شَكَّ- أَضْدَادٌ لِلرَّاسِخِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَالْقَصْرُ يُؤَكِّدُ عَلَى صُدُورِ الْقُرْآنِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ وَحْيٌ عَلَامٌ الْغُيُوبِ. أَنْزَلَهُ بَعْلَمِهِ بِالْحَقِّ. يَكْتَنِفُهُ الصِّدْقُ. (2)

وَأَمَّا مَا فِيهِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى مَا يُسْفِرُ عَنْهُ سَوْءُ التَّأْوِيلِ، أَوْ إِلَى قُصُورِ قُوَّةِ الْإِدْرَاكِ، أَوْ تَبْيِيتِ التَّنْقُصِ وَتَعَمُّدِ التَّلْبِيسِ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْهَوَى، كَمَا تَقَدَّمَ. (3) وَأَمَّا

(1) ن: مختصر المعاني للفتازاني، دار الفكر، 1411 هـ، ص: 107، وبغية الإيضاح، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، 2005 م، 63/1، ومنهاج البلاغ لحازم القرطاجني، ت. محمد ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص: 18.

(2) ن: شرح العقيدة الطحاوية لأبي جعفر الطحاوي، ت: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، 1998، 172/1-173.

(3) ن: تفسير الكشاف، 339/1.

الثناء على القرآن بكونه مُتشابهًا في الجملة: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾،⁽¹⁾ فمرّده إلى أنّ القرآن قَسِيمٌ بعضه بعضًا في اتحادِ جمالِ النَّظْمِ، وفي تناسُقِ أنساقه، وفي توافقِ سُورِهِ وأجزائه على بهاءِ الهيئة، وعمقِ المعنى، وثراءِ المضمون، وشرفِ المقاصد، ورفعةِ المنزلة، وسُمُوِّ القدر، ونُبْلِ الغايات، وقوةِ العارضة، وسطوحِ البراهين.⁽²⁾

وربطُ سياقِ هذه الآياتِ بقصةِ وفدِ نجرانٍ - وهو الربطُ الَّذِي تُوكِّدُهُ الأخبارُ والرواياتُ المتعلِّقةُ بأسبابِ النزولِ - يعيُنُ على تبيّنِ المقصودِ من تأويلِ القرآنِ من قِبَلِ مذمومين عمَدُوا إلى صرفِ الكلامِ إلى غيرِ وُجْهَتِهِ. فيتبيّنُ مقصودُ الآيةِ أو بعضه على نحوِ ما لم يلتفتُ إليه الكثيرون مِمَّنْ عُنُوا بتفسيرِ هذه الآيةِ،⁽³⁾ وهذا لا يعني استبعادَ أوجهٍ متعدّدةٍ لمعنى التأويلِ الواردِ ههنا. وإنما التعويلُ⁽⁴⁾ على أنّ ما تَضَمَّنَتْهُ هذه القصةُ السائرةُ مُعتبرٌ مع غيره في الحكمِ والتفسيرِ البلاغيِّ للآياتِ.

وقد وَرَدَ في الخبرِ أنّ هؤلاء الوفدَ قد حاولوا إلقاءَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلى ما أرادوا الاعتمادَ عليه من تأويلاتٍ قَرَّرُوا بها تأكيدَ ألوهيةِ المسيح، وأنّه ابنُ الله. تعالى اللهُ عن ذلك، وأنّه يحيي الموتى بأمرِهِ لا بأمرِ اللهِ سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾،⁽⁵⁾ ﴿أَنِّي أَخْلُقُ

(1) الزُّمَرُ، 23.

(2) ن: ت ت ت، 156/3، ودراسات في علوم القرآن، ص: 183.

(3) ن: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات لزين الدين المقدسي، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1986، ص: 50-55-162.

(4) ن: تفسير الطبري، 6/150.

(5) النساء، 171.

لَكُمْ مِنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١﴾.

هذا هو دأبهم حتى مع أنبيائهم وكُتُبهم. وذلك هو التحريفُ والانتحالُ اللذان برعوا
فيهما، فكيف يتورعون عن فعلٍ ذلك مع كتابِ الله القرآن؟

والمحكّماتُ هُنَّ أصولُ الاعتقادِ والتشريعِ، وما فيه تأديبِ، وعظة، وإرشاد، وتقويم،
والفرائض، والشعائر... وصيغةُ إفرادِ (أم) وكونها لم تُجمَع على أمهاتٍ -رغمَ تعدُّدِ
الآيات- تنصيصٌ على اعتبارِ أصليّةِ كُلِّ واحدةٍ منها؛ أو لبيانِ أَنَّ الكلَّ بمنزلةِ الواحدةِ
من هذه الآيات. وهذا أوفقُ بلوازمِ الصناعةِ وأجزُلُ في المعنى، كما في قوله تعالى:
﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. (2) وآياتُ هذا القسمِ أيُّ المحكّمِ تستدعي دلالاتها، ولا
عنتَ في تحصيلِ معانيها ممَّن يتطلّبها. (3) وإنِ اختَمَلت معانيَ أخرى احتمالاً ضعيفاً،
فإنَّ ذلك ممَّا لا يُعندُّ به. وكونها أمَّ الكتابِ يعني أنَّها أصولٌ فيه. يقومُ عليها الدين،
وتتأسَّسُ الشريعة، ويُرجَعُ إليها في فهمِ الفروعِ وما التَّبَسُّ في معناه ودلالته.

والمتشابهاتُ (4) تنوعتِ العقولُ في استنباطِ معاني دلالاتها وتأويلها. ويمكنُ الانتهاءُ
إلى أنَّها ما حَفَّتْ فيها درجةُ وضوحِ دلالاتها، (5) أو امتنعَ العلمُ بمدلولها كالمُعَيَّباتِ، أو
خَفِيَتْ معانيها نوعَ خفاءٍ كالمجمّلاتِ، ومثالها: الأحرفُ التي في أوائلِ السُّور. ومن أمثلةِ
المُعَيَّباتِ ما استأثر اللهُ بعلمه كمدّةِ بقاءِ الدنيا، ووقتِ قيامِ الساعة، وخواصِّ الأعدادِ كعددِ

(1) آل عمران، 49.

(2) الأنبياء، 91.

(3) ن: تفسير ابن كثير، 6/2، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت: محمد كيلاني، دار المعرفة،
د.ت، ص: 228.

(4) ن: السابق، ص 254.

(5) قال صلى الله عليه وسلم: "اعْمَلُوا بِالْقُرْآنِ: أَحْلُوا حَلَالَهُ، وَحَرَمُوا حَرَامَهُ، وَاقْتَدُوا بِهِ، وَلَا تَكْفُرُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ. وَإِذَا
تَشَابَهَ عَلَيْكُمْ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى أَوْلِي الْعِلْمِ مِنْ بَعْدِي، كَمَا يُخْبِرُونَكُمْ"، شُعْبُ الْإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ، ت: عبد العلي حامد،
الدار السلفية، 2003 م، 104/4.

الزبانية. وَيَدْخُلُ فِي الْمَتَشَابِهِ مَا اخْتَلَفَتْ فِيهِ قِرَائِحُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَمَذَاهِبُ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْفِرْقِ. (1)

وكلما ترسخت قَدَمُ الْعَالِمِ فِي الْعِلْمِ، وَبَدَلَ الْوُسْعَ فِي تَحْقِيقِ الْمَسَائِلِ وَتَجْرِيدِ الْمَعْضَلَاتِ بِالْاجْتِهَادِ، ضَعُفَ الْخَفَاءُ، وَخَفَّ اللَّبْسُ. وَيَدِقُّ الْفَهْمُ لِلآيَاتِ الَّتِي تُشَكِّلُ عَلَى الْمُشْتَغَلِينَ بِالتَّفْسِيرِ، وَبِغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ. (2) وَمِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ الْمَجَالَاتُ التَّجْرِبِيَّةُ الَّتِي يَسْتَعِينُ بِهَا الْمُتَخَصِّصُونَ فِي دَرَسَاتِ الْإِعْجَازِ الْعِلْمِيِّ فِي الْقُرْآنِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَعَقُّلَ مَعَانِي الْقُرْآنِ وَتَعَمُّقَ مَقَاصِدِهِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْعَصْرِ وَالْعِلْمِ، وَيَتَبَايَنُ بَتَبَايُنِ الْمَشَارِبِ وَالْمَعَارِفِ، وَهُوَ مَا يُؤَدِّي إِلَى تَنَوُّعِ مَسْتَوِيَّاتِ الدَّلَالَةِ، ثُمَّ إِنَّ لِللُّغَةِ وَمَدَى اضْطِلَاعِ الْعَالِمِ بِعُلُومِهَا وَأَدَابِهَا شَأْنًا عَظِيمًا فِي تَحْقِيقِ الرِّسْوَحِ فِي الْعِلْمِ، وَأَيْضًا، فَإِنَّ تَحْصِيلَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ هُوَ الْأَسَاسُ الْأَوَّلُ فِي رِسْوَحِ الْعَالِمِ، وَفِي دَعْمِ مَوَاهِبِهِ الْعِلْمِيَّةِ، وَمَقْوَمَاتِهِ الْمَعْرِفِيَّةِ، وَمَلَكَاتِهِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَقَدْ نَزَلَ الْقُرْآنُ بَعْدَ تَطَاوُحِ الْأَعْصَارِ فِي بِيئَةٍ أُمِّيَّةٍ لَا عَهْدَ لَهَا بِدُرُوسِ الْعِلْمِ، وَلَا بِأَمَالِيهِ، فَلَمْ يَلِقْ أَنْ يَكُونَ مَادَّةً عِلْمِيَّةً مُحَضَّةً؛ بَلْ جَاءَ كِتَابًا مُعْجَزًا فِي نَظْمِهِ وَنَسَقِهِ، عَجِيبَ التَّرَاكِبِ بِهَيِّ الْهَيْئَةِ. يَنْزِلُ بِالْأَحْكَامِ الَّتِي أَحْتَاجُهَا النَّاسُ فِي غَضُونِ تِلْكَ الْحَقْبَةِ، وَفِي كُلِّ عَصْرِ. وَأَيَّاتُهُ الْكُونِيَّةُ تَوَاعَمَتْ مَعَ فُهُومٍ وَعُقُولٍ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ الَّذِينَ يَرُونَ

(1) ن: تفسير ابن كثير، 6/2. جاء في كتاب أقاويل الثقات: "ثُمَّ إِنَّهُ يَتَمَسَّكُ بِهِ كُلُّ ذِي مَذْهَبٍ عَلَى مَذْهَبِهِ، فَالْجَبْرِيُّ يَتَمَسَّكُ بِآيَاتِ الْجَبْرِ كَقَوْلِهِ: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً»، (الأنعام، 25) - الإِسْرَاءِ، 49)، وَالْقَدْرِيُّ يَقُولُ: هَذَا مَذْهَبُ الْكُفَّارِ لِقَوْلِهِ: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ»، (فَصَّلَتْ، 5)، وَقَوْلِهِ: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ»، (البقرة، 88)، وَمُنْكَرُ الرُّؤْيَةِ يَتَمَسَّكُ بِقَوْلِهِ: «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ»، (الأنعام، 102)، وَمُنْتَبِثُ الْجَهَةِ بِآيَاتِ الْجَهَةِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَيُسَمِّي كُلَّ وَاحِدِ الْآيَاتِ الْمُوَافِقَةِ لِمَذْهَبِهِ مُحْكَمَةً وَالْمُخَالَفَةَ لَهُ مُتَشَابِهَةً، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالْحَكِيمِ أَنْ يَجْعَلَ الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ الْمَرْجِعُ فِي الدِّينِ هَكَذَا؟ قَالَ: وَالْجَوَابُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ ذَكَرُوا لَذَلِكَ فَوَائِدَ كَمَزِيدِ الْمَشَقَّةِ لَزِيَادَةِ الثَّوَابِ، وَلِيَجْتَهَدَ فِي التَّأَمُّلِ فِيهِ صَاحِبُ كُلِّ مَذْهَبٍ: يَعْنِي فَإِنَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فِي الْفُرُوعِ، فَلَهُ أَجْرٌ، وَفِي الْأَصُولِ خِلَافٌ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْفَوَائِدِ"، ص: 50.

(2) ن: التَّفْكَيرُ الْبِلَاغِي عِنْدَ الْعَرَبِ - أُسُسُهُ وَتَطَوُّرُهُ إِلَى الْقَرْنِ السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ، حَمَادِي صَمُودِ، الْجَامِعَةُ التُّونِسِيَّةِ، 1981، ص: 516-517، وَالْأَلْسِنِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ، 13/2.

الكونَ وما حَوْلَهُمْ من أَعْرَاضِ الدنْيا على نَحْوِ يَخْتَلِفُ عما أسفرت عنه معارفُ عصورٍ تلت، وما حَدَثَ فيها من أطوارِ العلم، والتجريب، والابتكار. وهذا كُلُّهُ مُؤَدِّنٌ بحرصِ الشارعِ على استنهاضِ الهممِ في التحصيل، والاستقراء، وبذلِ الوسعِ في تنويرِ الحَوَالِكِ ووضعِ التآليفِ والتصانيفِ في شتى العلومِ تَوْصُلًا إلى أفضلِ مقاماتِ التكليفِ وَتَرَقُّبًا للمعارجِ القاصية، ولمنزلةٍ من أعلى منازلِ التشريفِ الَّتِي يَحْظَى بها العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياءِ. وإذا لم يَأْخُذْ المؤمنُ نَفْسَهُ بالاجتهادِ في الفهمِ عن رَبِّهِ ورسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو إلى عدمِ ذلكِ في غيره من مجالاتِ العلمِ والحياةِ أَدْعَى، وهو إلى ذلكِ أَحَقُّ بِالِإِغْضَاءِ عن الأخذِ بأسبابِ الترقِي وتحقيقِ مسؤوليةِ استعمارِ الأرضِ بتحقيقِ الخلافةِ.

وقد جرى تفصيلُ الكلامِ على المتشابه، وإتباعه، وشأنِ الَّذِينَ يفتشون عنه، ويتطلبونه بالإنحاءِ عليهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾. ومَرَدُّ هذا التفصيلِ هو بيانُ خَطَرِ دَابِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ عَنُوا أَنفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ على القرآنِ والبحثِ عن كلِّ ما يُهَيِّئُ لَهُمْ فِرْصَةً الطعنِ فيه. وقد قَدَّمَ صفتَهُم على فعلِهِم إظهارًا لحقيقتِهِم لدى أصحابِ العقولِ وبيانًا لعللِ في عقولِهِم وقلوبِهِم من الزيغ، والانحراف، والميلِ عن الحقِّ إلى كلِّ باطل، فلم يكنْ سعيُهُم تَحَرِّيًّا للحقِّ وبحثًا عن دقائقِ المعاني وجلائلِ الحِكمِ شأنِ العقولِ المتجرِّدةِ عن غواشيِ الحسِ المخصوصةِ بالنظرِ الدقيقِ والتأملِ الأنيقِ المَعهودينِ من الألباءِ المُتَقَرِّسينِ ذوي الحِصافةِ والنباهة؛⁽¹⁾ بل صنيعُهُم تتبُّعٌ لِآيِ القرآنِ لِمَا زعموه تناقضًا للتلبيسِ على الناسِ. ورائدُهُم في ذلكِ بَثُّ الفتنة، وإيقاعُ الناسِ في حَرَجٍ من دينِهِم بمناقضةِ المُحكَمِ بالمتشابه، والحيلولةُ بين غيرِ المؤمنينَ وبين أنْ يطمئنُّوا إلى الإسلامِ. والحالُ أَنَّهُم بمعزلٍ عن هذه الرتبة. والأصلُ أَنَّ نَشْرَ التآويلاتِ الباطلةِ يترتبُ عليه اضطراب، وبلبلة، وإشاعةٌ للأغاليطِ والأفكارِ السلبيةِ بين أوساطِ العوامِ، والمتعلمين، والنخبِ على اختلافِ توجهاتِها. وتعدُّ هذه المرحلةُ في

(1) ن: تفسير أبي السعود، 7/2 وما بعدها.

تاريخ الفكر من المراحل التي انحرف التفكير فيها بتبني منهج في التأويل عدل به أصحابه إلى ترسيخ انحراف الفكر في فهم النص وفق ضوابط وأصول الاعتقاد، والشرع، واللغة.

وقدّمت النتيجة على مقدماتها رسمًا لصورة المآل وتقديمًا لمراميهم في سياق الكلام: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ أي تقديم الفتنة على التأويل؛ لأن ذلك الأهم والأوقع في التحذير منهم. (1)

وبالنظر إلى الحقول اللغوية المتصلة بالتأويل نرى أنها الرد، والصرف، والتحول، والرجوع، والعاقبة. وينتظمها سلك واحد يربط مفهومها اللغوي بالتأويل في الاصطلاح. (2) وفي التنزيل: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾. (3) وتأويله: وضوح معنى ما زعموه محالًا من البعث، والجزاء، وإرسال الرسل، والتوحيد، وما بعد العيان بيان. (4) قال تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾. (5) وتأويل رؤيا يوسف في هذا المقام تحققها بعد هذا الزمن الطويل. وقد وقر في قلب أبيه تعبير تلك الرؤيا، كما هو ظاهر القرآن؛ إلا أنه لم يبين له ذلك لفرط حرصه وتحوطه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. (6)

وفي الحديث: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل". (7)

(1) قال صلى الله عليه وسلم: "إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَنْتَبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ، فَأَحْذَرُوهُمْ"، فتح الباري، 210/8، ن: شرح النووي على مسلم، 216/16-217.

(2) ن: التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين، إبراهيم بويدان، ر، 23/1.

(3) الأعراف، 53.

(4) ت ت ت بتصرف، 154/8.

(5) يوسف، 100.

(6) يوسف، 5.

(7) مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَد، 225/4، والمعجم الكبير للطبراني، ت: حمدي السلفي، مكتبة الزهراء الحديثة، 1983،

263/10، والسلسلة الصحيحة (مختصرة)، 90/6.

والتأويل لدى الأصوليين تتنوع صيغ تعريفه،⁽¹⁾ وتتقارب. ولعلَّ أجودها حدًّا وأجداها عبارة تعريف الأمدي: "هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر مع احتمال له بدليل يُعَصِّدُه".⁽²⁾

وممَّا يُروى عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما - في هذا الباب ما أورده الإمام ابن كثير:

"التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يُعَدَّرُ أحدٌ في فهمه، وتفسيرٌ تعرفه العرب من لغاتها، وتفسيرٌ يعلمه الراسخون في العلم، وتفسيرٌ لا يعلمه إلا الله عزَّ وجل. ويُروى هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبي الشعثاء، وأبي نَهيك، وغيرهم".⁽³⁾

ولالإمام ابن تيمية في هذا المجال توجيهات من المفيد الاستئناس بها وتأملها.⁽⁴⁾

(1) للمقارنة بين هذه التعريفات، ن: أصول السرخسي، ت: أبو الوفاء الأفعاني، دار الكتب العلمية، 1993، 127/1، والبرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين الجويني، ت: صلاح بن عويضة، دار الكتب العلمية، 1997، 302/1، والمُسْتَنْصَفَى من علم الأصول للغزالي، ت: محمد الأشقر، مؤسسة الرسالة، 1997، 47/2، وشرح مختصر الروضة لنجم الدين الطوفي، ت: عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، 1987، 558/1.

(2) الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين الأمدي، ت: سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، 1986، 59/3. ن: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، دار الحديث، 1984، 519/4، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة، 1974، 192/4، ومناهل العرفان، محمد الزرقاني، دار الكتاب العربي، 1995، 7/2، وشرح تنقيح الفصول للقرافي، ت: ناصر الغامدي، ر، 390/2، والتفسير والتأويل في القرآن الكريم، صلاح الخالدي، دار النفائس، 1996، ص: 137، ومباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، دت، ص: 318.

(3) تفسير ابن كثير، 10/2.

(4) "وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فِي لَفْظِ السَّلْفِ فَلَهُ مَعْنَيَانِ: أَحَدُهُمَا: تَفْسِيرُ الْكَلَامِ وَبَيَانُ مَعْنَاهُ سَوَاءً وَافَقَ ظَاهِرُهُ أَوْ خَالَفَهُ، فَيَكُونُ التَّأْوِيلُ وَالتَّفْسِيرُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مُتَقَارِبًا أَوْ مُتَرَادِفًا. وَالْمَعْنَى الثَّانِي فِي لَفْظِ السَّلْفِ... هُوَ... الْمُرَادُ بِالْكَلامِ... فَإِذَا قِيلَ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ، فَتَأْوِيلُ هَذَا نَفْسُ طُلُوعِهَا. وَيَكُونُ التَّأْوِيلُ مِنْ بَابِ الْوُجُودِ الْعَيْنِيِّ الْخَارِجِيِّ... فَإِنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ [التَّأْوِيلَ عِنْدَ الْأَصُولِيِّينَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ] مِنْ بَابِ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ مِنْ جِنْسِ تَأْوِيلَاتِ الْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَتَمَّتْهَا عَلَى دَمِهِ، وَصَاحُوا بِأَهْلِهِ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ، وَرَمَوْا فِي آثَارِهِمُ بِالشُّهُبِ"، مجموع الفتاوى، 289/13. ن: شرح العقيدة الطحاوية، 172/1-173-183-191-194، ومختصر المعاني، ص: 206، والنقير والتحبير على التحرير لابن أمير الحاج، دار الكتب العلمية، 1983، 210/1 وما بعدها. ن: شرح ابن بطال القرطبي على صحيح البخاري، ت: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، 2003 م، 412/2، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، 1987، 354/1، وسير أعلام النبلاء، 279/14-280، وسبل الاستنباط من القرآن والسنة، محمود توفيق، مطبعة الأمانة، 1413 هـ، ص: 483.

وحول معنى التأويل يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور:

"فَإِذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، * بِإِخْرَاجِ الطَّيْرِ مِنَ الْبَيْضَةِ، فَهُوَ التَّفْسِيرُ، أَوْ بِإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِ مِنَ الْكَافِرِ، فَهُوَ التَّأْوِيلُ... وَالْعَايَةُ الْمَقْصُودَةُ مِنَ اللَّفْظِ هِيَ مَعْنَاهُ وَمَا أَرَادَهُ مِنْهُ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ مِنَ الْمَعَانِي، فَسَاوَى التَّفْسِيرِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى مَا فِيهِ تَفْصِيلٌ مَعْنَى خَفِيٍّ....

عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَأْوِيلُ حُبِّهَا تَأْوِيلُ رُبْعِي السَّقَابِ فَأُضْحَبَا *

أَي تَبْيِينُ تَفْسِيرِ حُبِّهَا أَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا فِي قَلْبِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَشُبُّ حَتَّى صَارَ كَبِيرًا كَهَذَا السَّقَابِ أَيْ وَلَدِ النَّاقَةِ الَّذِي هُوَ مِنَ السَّقَابِ الرَّبِيعِيَّةِ". (1)

ورأينا كلامَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لم يَخُلْ من إشارةٍ إليه، ففي دعائه لابن عباسٍ المتقدِّمِ (2) توظيفٌ لمفهومِ التأويل، إذا استُخْضِرَ بالروية، أسفرَ عن توسُّعٍ حاصلٍ في هذا الاستعمالِ يجعلُهُ متميِّزًا عن التفسير، فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في دعائه: "اللَّهُمَّ فَفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ" يُفِيدُ أَنَّ التَّأْوِيلَ عِلْمٌ يُعَلَّمُ، وَيَتِمُّ تَحْصِيلُهُ، وَيَتَمَيِّزُ عَنِ الْفَقْهِ فِي الدِّينِ. وَأَمَّا التَّأْوِيلُ، فَلهُ مَزِيدٌ اخْتِصَاصٍ وَزِيَادَةٌ تَعْلُقُ، كَمَا سَيَتَبَيَّنُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى. (3)

(1) ت ت ت، 16/1. * الرُّوم، 19. * البيت في ديوان الأعشى، ص: 11. ن: مجاز القرآن لأبي عبيدة، ت: محمد

فؤاد سزكين، دار الفكر، 1390 هـ، 87/1.

(2) ن: ص: 337 من هذه الدراسة.

(3) ن: السابق، ص: 342.

ومما تقدّم - وفيه إطالة في النقول استيفاءً لمُتطلّبات المعقول - يظهر أنّ التّأويل مصطلحٌ له خصوصيةٌ وتاريخٌ تطوّر، حيثُ تبنّى أهلُ كلّ عصرٍ أو اتّجاهٍ حدًّا أو وظيفةً لهذا المصطلح. (1)

والتّأويلُ المذمومُ في الآيةِ هو الَّذي يُرتبُ عليه مُجريةُ قضيةٍ تنصُرُ مذهبَهُ، أو توافقُ هوى نفسه. وانطلاقًا من هذا الاستعمالِ القرآنيّ تتابعُ اصطلاحُ أهلِ كلّ عصرٍ على ذمِّ التّأويلِ؛ حيثُ فشا ظهورُ الفرقِ، وعمّت المذاهبُ الكلاميةُ وكُنُبُ الفلسفةِ، (2) وغصّت بها مكثباتُ الحواضرِ الإسلاميةِ مع الانشغالِ بقضايا الفلاسفةِ واصطلاحاتهم المشكّلة. (3)

ومن هذه الكُتُبِ الّتي تناولت التّأويلَ بالنقدِ أو الانتقادِ كتابُ ذم التّأويلِ لموقِّقِ الدينِ عبدِ الله بنِ قُدّامةِ المقدسي. (4)

(1) لا يخفى قُدْرُ ما كان عليه الصحابةُ -رضوانُ الله عليهم- من تهَيُّبٍ لتفسير القرآن، وللفتوى مع سعةِ علمهم، وطولِ صُحبَتهم، وقربهم من مهابطِ الوحي. ومن ذلك مقالةُ الصّديقِ المشهورةُ، ن: جامع البيان في تأويل القرآن، 78/1، وقصةُ سؤالِ عُمَرَ عن الأبِ الواردةِ في سورةِ عبس، ن: سير أعلام النبلاء، 55/11، وخبرُهُ مع صبيغ بنِ عسَلِ الحنظلي، أو ابنِ شريكِ التميمي، وهو الَّذي خاض فيما اشتبّه عليه من القرآن، وأخذَ يسألُ الناسَ عن أشياء كالذاريات والمرسلات، فعادَ عليه الفاروقُ التعزيرَ بالضربِ بالجريد، حتى ذهب ما برأسه، كما قال، فأرجعه عُمَرُ إلى البصرة، وأمَرَ عاملَهُ أبا موسى الأشعريّ أن يُجَنِّبَهُ الناس. ن: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، ت: محمد علي البجاوي، دار الجيل، 1992، 458/3. جاء في تفسير التحرير والتنوير، 164/3: "قال ابنُ العَرَبِيِّ في (العواصم من القواصم): [مِنَ الكائِدِينَ لِالإِسْلَامِ الباطِنِيَّةِ وَالظَّاهِرِيَّةِ] قُلْتُ: أَمَّا الباطِنِيَّةُ، فَقَدْ جَعَلُوا مُعْظَمَ الْقُرْآنِ مُتَشَابِهًا، وَتَأَوَّلُوهُ بِحَسَبِ أَهْوَائِهِمْ، وَأَمَّا الظَّاهِرِيُّونَ، فَقَدْ أَكْثَرُوا فِي مُتَشَابِهِهِ، وَاعْتَقَدُوا سَبَبَ التَّشَابِهِ واقِعًا، فَأَلَوَّلُونَ دَخْلًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾، (آل عمران، 7)، وَالْأَخِيرُونَ خَرَجُوا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، (آل عمران، 7)، أَوْ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾، فَخَالَفُوا الخَلْفَ وَالسَّلَفَ. قال ابنُ العَرَبِيِّ في العواصم: لَوَأَصَلَ الظَّاهِرِيَّينَ الخَوَارِجُ الَّذينَ قَالُوا: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَعْنِي أَنَّهُمْ أَخَذُوا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، (الأنعام، 57)، وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهُ بِمَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْحُكْمِ". لم أجدُ في كتاب العواصم ما أورده الشيخُ في هذا النّقل، ولعله استقاه من طبعةٍ قديمة، أو نسخةٍ مخطوطِ نادرة. ت: محب الدين الخطيب، دار الجيل، 1987.

(2) ن: تلبس إبليس لابن الجوزي، ت: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، 1985، ص 109-171.

(3) ن: آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي، ت: ألبير نصري نادر، دار المشرق، 1982، ص: 64 وما بعدها، ورسالة

الرد على يحيى النحوي في الرد على أرسطوطاليس، ت: عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، 1983، ص: 109.

(4) ت: بدر البدر، الدار السلفية، 1986.

ولقائل أن يقول أن الذمَّ والمؤاخَذة إنما يقعان على أصحاب هذا التأويل أو ذاك لا على التأويل في ذاته وكنهه؛ لأنَّ صنْعهم -في حقيقة الأمر- لا يتعدى كونه قدرةً على التلبيس والإيهام وقصدًا إلى التعمية، ومغالطة المعاني، وابتسار العبارات، ونزع الجمل أو بعضها من سياقاتها، وهو مما لا تتوانى عنه همم المؤولة الذين دأبهم النيل من الإسلام والتشكيك في القرآن في كلِّ العصور. (1)

قال في تفسير المنار:

"وَأَمَّا الْإِبْتِدَاعُ بِالزِّيَادَةِ فِي الْعِبَادَاتِ الْوَارِدَةِ وَالشَّعَائِرِ الْمَشْرُوعَةِ، فَمِنْهُ مَا كَانَ كَاخْتِفَالَاتِ الْمَوْلِدِ، وَتَرْتِيَلَاتِ الْجَنَائِزِ، وَأَذْكَارِ الْمَآذِنِ كَالزِّيَادَةِ فِي الْأَذَانِ، وَمَا كَانَ فِي تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحْرِمِ اللَّهُ مِنَ الزَّيْنَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، أَوْ فِي إِخْلَالِ مَا حَرَّمَهُ كِبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ، وَاتِّخَاذِهَا أَعْيَادًا، وَتَشْرِيفِهَا، وَإِقَادِ الْمَصَابِيحِ وَالسُّرُجِ مِنَ الشُّمُوعِ وَغَيْرِهَا عَلَيْهَا، فَإِنَّ خَوَاصَّهُمْ يَحْتَجُونَ بِآرَاءِ سَقِيمَةٍ، وَأَقْبِسَةِ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ مُقَدِّمَاتِ عَقِيمَةٍ، وَاسْتِحْسَانَاتٍ يُنْكِرُونَ أُصُولَهَا، وَيَأْخُذُونَ بِفُرُوعِهَا. وَعَوَامُّهُمْ يَقُولُونَ: قَالَ فُلَانٌ مِنْ الْمُؤَلَّفِينَ، وَفَعَلَ فُلَانٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الصَّالِحِينَ، وَنَحْنُ لَا نَفْهَمُ كَلَامَ اللَّهِ، وَلَا كَلَامَ الرَّسُولِ [صلى الله عليه وسلم]، وَإِنَّمَا نَفْهَمُ كَلَامَ هَؤُلَاءِ الْفُحُولِ". (2)

ويضيف الشيخ رشيد رضى أنه وجد -ولا يزال يوجد- معممون يصريحون في دُروسهم بأنه لا يجوز لمسلم في زمانهم أن يعمل بكتاب الله، ولا بالسنة، ولا بما نقله المُحدِّثون عن سلف الأمة، بل الواجب اتباع فكرة المذهبية المطلقة. وإن لم يرو شيخ المُقلِّد عن إمام المذهب، ولم يستدلَّ عليه عليه بدليل مبنِّي على أصول المذهب التي كان بها مذهبًا كعمل أهل المدينة عند مالك بشرطه. (3)

(1) للاستزادة ن: التفسير المنير، 153/3.

(2) 381/8. من التفاسير التي ضمت مثل هذه العقائد: روح البيان، إسماعيل حقي، دار إحياء التراث، د.ت، 548/3-6/4.

(3) ن: تفسير المنار، 381/8.

وَمَذَاهِبُ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي أُدْخِلْتُ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ مَنَافِذِ النَّشِيعِ وَالنَّصُوفِ مَعْرُوفَةٌ. وَقَدْ كَانَ لَوَاضِعِي تِلْكَ التَّأْوِيلَاتِ مِنَ الْفُرْسِ غَرَضٌ سِيَاسِيٌّ مِنْ إِفْسَادِ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِهِ وَإِحْدَاثِ الشَّقَاقِ بَيْنَهُمْ فِيهِ، وَهُوَ إِضْعَافُ الْعَرَبِ وَإِزَالَةُ مُلْكِهِمْ لِلتَّمَكُّنِ مِنْ إِعَادَةِ مُلْكِ فَارِسَ وَسُلْطَانِ الْمَلَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، ثُمَّ رَسَخَ بِالتَّقْلِيدِ فِي طَوَائِفَ مِنْ أَجْنَاسٍ أُخْرَى حَتَّى الْعَرَبُ جَهَلُوا أَصْلَهُ. وَمِنَ الْأَفْرَادِ مَنْ يُحَاوِلُ إِفْسَادَ دِينِ قَوْمِهِ عَلَيْهِمْ لِيَكُونُوا مِثْلَهُ، فَلَا يَكُونُ مُحْتَقِرًا بَيْنَهُمْ. وَمِنْ زَنَادِقَةِ عَصْرِنَا مَنْ يُحَاوِلُونَ هَذَا لِظَنِّهِمْ أَنَّ قَوْمَهُمْ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونُوا كَالْإِفْرَنْجِ فِي حَضَارَتِهِمْ الْمَادِّيَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ؛ إِلَّا إِذَا تَرَكُوا دِينَهُمْ، وَهُمْ يَرَوْنَ الْإِفْرَنْجَ يَتَعَصَّبُونَ لِدِينِهِمْ، وَيُنْفِقُونَ الْمَلَائِينَ فِي سَبِيلِ نَشْرِهِ". (1)

ووصفُ صنيعِ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ وَيَحْرِصُونَ عَلَى تَتَقُّصِ الْقُرْآنِ، أَوْ الَّذِينَ يَحَاوِلُونَ نَصْرَةَ مَعْتَدَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ، أَوْ الْكَلَامِيَّةِ، أَوْ الْفَلَسْفِيَّةِ، أَوْ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي دَعْمِ وَتَأْيِيدِ آرَائِهِمْ وَاتِّجَاهَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ وَنَحْوِهَا مَعَ تَوَافُرِهِمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ مَعَ ضَلَاةٍ قَدْ تَكُونُ لَهُمْ فِي الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْفَلَسْفِيَّةِ، وَالْفِكْرِ الْأَيْدِيُولُوجِي الْخَاصِ (2) وَصَفُ صَنِيعِ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ تَأْوِيلُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ، فَالآيَةُ نَصَّتْ عَلَى ابْتِغَائِهِمُ التَّأْوِيلَ، وَلَمْ تَنْصُصْ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا مِنْ ذَلِكَ شَأْنًا وَغَايَةً. وَإِذَا اعْتَرَضَ مَعْتَرِضٌ بِأَنَّ التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةَ لَيْسَ لَهَا حَصْرٌ فِي تَارِيخِ الْفِكْرِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنَّهَا لَمْ تَخُلْ مِنْهَا فِتْرَةٌ مِنَ الْفِتْرَاتِ أَوْ حَقَبَةٌ مِنَ الْحَقَبِ، قُبِلَ هَذَا الْوَجْهُ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ، حَيْثُ إِنَّ أَهْلَ الْآفَاقِ مِنَ الْعُلَمَاءِ قَدْ اصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَةِ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ بِأَنَّهَا تَأْوِيلَاتٌ أَيْ أَنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مَفْهُومِ هَذَا الْمُصْطَلَحِ مَعَ الْإِتْفَاقِ بَيْنَ أَهْلِ الدَّرَايَةِ مِنْ مُحَقِّقِي عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ عَلَى كَوْنِ هَذَا النُّوعِ مِنَ الْإِسْتِغَالِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ تَأْوِيلًا مَوْصُوفًا لَا مُجَرَّدًا عَنِ الْوَصْفِ، مَقْدُوحًا فِيهِ، مَذْمُومًا لِإِعْتِبَارَاتٍ تَخْصُّ أَهْلَ كُلِّ طَرِيقٍ أَوْ اتِّجَاهٍ؛ (3) إِلَّا أَنَّنِي أُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ قَدْ حَفَلَ

(1) السابق والصفحة نفسها.

(2) ن: الموسوعة المُيسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: مانع الجهني، (م)، 11/26.

(3) ن: أقاويل الثقات، ص: 98.

بالإطباق على قذح وفضح هذا الصنيع بالنص على أن في قلوب هؤلاء القوم زيغاً أي ميلاً وانحرافاً، وأنهم يتبعون ما تشابه منه، وأن غاياتهم عبّر عنها قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبَعُونَهَا عَوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾.

"يوجدُ هذا الاتجاهُ في كتاباتِ العديدِ من المفكرين المتأثرين بالاستشراقِ أمثال: الطيب تيزيني في كتابه: (النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة)، وعابد الجابري في كتابه: (التراث والحداثة)، ومترجم كُتب محمد أركون: هاشم صالح في: (القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني)، وفي عدد من مؤلفات علي حرب: (نقد النص)، (نقد الحقيقة)، وفي مؤلفات نصر حامد أبو زيد، مثل: (الخطاب والتأويل)، (مفهوم النص)، وأدونيس في كتابه: (الثابت والمتحول)، وتركي علي الربيعو في كتابه: (الإسلام وملحمة الخلق الأسطورة)، ورشيد الخيون في كتابه: (جدل التنزيل)، وتلميذ محمد أركون: رمضان بن رمضان في كتابه: (خصائص التعامل مع التراث)، ومحمد أحمد خلف الله في: (الفن القصصي في القرآن)، ومحمد شحرور في: (الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة)، وصادق جلال العظم في: (نقد الفكر الديني)، وعبد الهادي عبد الرحمن في: (سلطة النص)، وأمين الخولي في مادة تفسير في (دائرة المعارف الإسلامية)، وحسن حنفي في: (دراسات إسلامية)، (مفهوم النص)".⁽²⁾

وقد جرى تقديمُ ابتغائهم الفتنة على ابتغائهم التأويل للإشعار بأن ما يبتغونه منه ليس مما يدخلُ في معنى تأويل الحُذاق النابهين، وإنما هو من قبيلِ تصرُّفات الكائدين

(1) آل عمران، 99.

(2) ن: الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن بتصرف، محمد السرحاني، (م) ص: 11-12، وجهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، محمد عبد الرؤوف، المجلس الأعلى للثقافة، 2004 م، ص: 355، وجهود المستشرقين في مجال الكشف الإسلامي، عبد الستار الحلوجي، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الملك محمد بن سعود، عدد: 6، 1976، ص: 728-730، والعلمانيون والقرآن، صلاح يعقوب، ر، ص: 180.

للإسلام لاشتمال القرآن على أصول الحكمة، وأسرار من الخلق، وإشارات العلوم التجريبية، والنظم الاجتماعية والأخلاقية: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، (1) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. (2)

والإتباع بالإفصاح عن التأويل الحق في قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه إيدان ببيان منزلة علم تأويل الكتاب، وأن علمه خاص به - تعالى - ابتداء، فقد استأثر بعلم ما استأثر بعلمه منه، ثم أين لمن شاء من أمناء دينه بعلم ما لم يستأثر به منه على مراتبهم في الإخلاص والاجتهاد.

والوقف في الآية الذي أذهب إليه على قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، وجملة ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مستأنفة. وهذا مزوي عن جمهور السلف، وهو قول ابن عمر، وعائشة، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ورواه أشهب عن مالك في جامع العنبيّة، وقاله عروة بن الزبير، والكسائي، والأحفش، والفراء، والحنفيّة، وإليه مال فخر الدين الرازي. (3)

والعدول (4) عن الالتزام بالوقف على لفظ الجلالة في الآية هو الأبعد عن انتظام سياق الكلام؛ لأنّ الوصل يبعث على التردد بين خبرية جملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، وبين حاليتها. وهذا التردد مدفوع، ولا وجه للتسليم له تسليمًا محضًا. وذلك أنّ الفصل هو

(1) الزمر، 23.

(2) آل عمران، 86.

(3) ت ت ت بتصرف، 165/3، ن: تفسير القرآن العظيم، 11/2، وتفسير الرازي، 153/7، والطرارز للعلوي، ت: محمد شاهين، دار الكتب العلمية، 1995، 23/2-24، وأثر الوقف على الدلالة التركيبية، محمد حبص، دار الثقافة العربية، 1993، ص: 15-17. راجع حديثاً عن الوقوف في القرآن في المقدمّة الثامنة من تفسير التحرير والتنوير، 82/1.

(4) حَوْلَ هذا المصطلح، أو مصطلح الانحرافات: (deviations) ن: علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، مؤسسة المختار، 1998، ص: 180، والبلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية، 1994، ص: 168.

الأوفق لمراعاة خصوصيات علمه تعالى، وكونه الأتم، والأعم، والأكمل، والأشمل، فعدم العطف عليه يُحقِّق من الفوائد والاعتبارات ما لا يضيغ معه تقدير علم الراسخين من العلماء، كما سيتبين. (1) هذا هو ظاهر النظم الذي لا يجوز العدول عنه إلا لمسوغ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، (2) ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (3)

ووصف العلماء بالرسوخ في العلم والثبات فيه بصيغة الاسم التي تفيد الثبوت والإقامة على الحال فيه مزيد إبانة لمراعاة مكانة العلم وإظهار لقيمة الاجتهاد في علم أسرار تأويل الكتاب. ورُسوخهم في العلم يُستدل منه على أن الاشتغال بالفهم عن رب العزة بالتماس دقائق النظم، وجلائل الحكم، وفرائد كنوز الإعجاز هو داخل في صفتهم وغير خارج عن ملاك ما يُمكنون فيه من القابليات والاستعدادات. وإقرارهم بالإيمان - بصيغة الماضي ﴿أَمَّا﴾ الدالة على تحقق الفعل وشدة وثوقه - توكيد للأصل وإسفار عن المنطلق. وقولهم: ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ يُشير إلى كل ما في القرآن من مُحكمٍ ومُتشابه. وعدم الإفصاح وترك التفاصيل يُعبّر عن إدعائية القلوب والتجرد لدواعي الإيمان، فعدم الاستقصاء أدعى إلى الشمول وأحق باستغراق كل الكتاب. هذا الاستغراق الذي يظهر - أيضًا - في قولهم: ﴿مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ أي استغراق العندية تعبيرًا عن صدور القرآن عن رب العزة مُتسمًا بالكمال خاليًا عن النقص والإخلال. وقد تم وصفهم أو الإشارة إليهم بجملة التذييل بصيغة الفَصْر تكميلًا للثناء وتجريدًا لوصفهم القاضي بما لهم من حقٍ وحقيقة: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. وهم لم يزلوا في صدق إخلاصهم مجتهدين يستزلون

(1) ن: إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة، 1983، 1/39-4/98، والجواهر الحسان في تفسير القرآن، 1/244.

(2) البقرة، 255.

(3) الأنعام، 59.

بدعائهم وتضرعهم لطائف المنن يوم الميعاد: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. (1)

يعودُ سياقُ الآياتِ من السورةِ للتنويهِ بأوليِ العلم: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (2)

وفي خواتيم السورةِ يعودُ خيطٌ من خيوطِ المعنى المسرودةِ للثناءِ على أوليِ العلمِ أوليِ الألبابِ الَّذِينَ حَمَلَهُمِ النَّظْرُ فِي كِتَابِ رَبِّهِمْ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ مَلَكُوتِهِ، فَسَمَتِ نَفُوسُهُمْ إِلَى مِرَاقِي الْمُجْتَهِدِينَ وَمَعَارِجِ السَّالِكِينَ الرَّبَّانِيِّينَ الْمُتَنَعِّمِينَ بِمَنَاجَاةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. (3)

(1) آل عمران، 8-9.

(2) السابق، 18.

(3) آل عمران، 190-191.

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ
يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: (1)

وردت أولى كلمات السورة بصيغة التنكير، -وهو تتكيز التنويع- تعظيماً للأمر المقصود الذي هو فسُخُ العهود وحسُم العقود مما يتحتم فيه ذلك بعد قيام الحجة أو نفاذ المدة، وهذا يعني قطع العصمة وزوال الأمان، بعد الإغذار المتقدم والإمهال المتجدد. (2)

اِفْتَتَحَتِ السُّورَةُ افْتِتَاحَ الْعُهُودِ وَضُكُوكِ الْعُقُودِ بِأَدَلِّ كَلِمَةٍ عَلَى الْمَقْصُودِ، وَأَجْمَعَ سِيَاقٌ لِدَوَالِ التَّبَرِّيِّ، وَالنِّذَارَةِ، وَالْوَعِيدِ. وَالْأَسْلُوبُ جَارٍ مَجْرَى الْإِلْزَامِ الَّذِي يَكُونُ فِي الصِّيغِ الرَّسْمِيَّةِ، أَوْ الْكُتُبِ وَالْمَوَاتِيقِ الْمَمْهُورَةِ الْقَاضِيَةِ بِأَحْكَامِهَا، وَحُدُودِهَا، وَالزَّمَانِيَّةِ ذَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ. وَقَدْ كَانَ لِلْعَهْدِ، وَالْحَلْفِ، وَالْجَوَارِ مَكَانَةٌ كَبْرَى عِنْدَ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَمِنْ دَلَائِلِ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي كَلَامِ ابْنِ الدُّغْنَةِ سَيِّدِ الْقَارَةِ لِأَبِي بَكْرِ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قَدْ عَلِمْتُ الَّذِي عَقَدْتُ لَكَ عَلَيْهِ، فِيمَا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّ إِلَيَّ ذِمَّتِي؛ فَإِنِّي لَا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْعَرَبُ أَنِّي أَخْفَرْتُ فِي رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَرُدُّ إِلَيْكَ جَوَارِكَ، وَأَرْضِي بِجَوَارِ اللَّهِ". (3)

(1) التوبة، 1-3.

(2) "براءة: مُصَدَّرٌ بَرِيءٌ كَتَبَ مِنَ الدِّينِ، إِذَا أُسْقِطَ عَنْهُ، وَمِنَ الذَّنْبِ وَنَحْوِهِ، إِذَا تَرَكَهُ، وَتَنَزَّ عَنْهُ: أَيُّ هَذِهِ بَرَاءَةٌ وَاصِلَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. كَمَا تَقُولُ: هَذَا كِتَابٌ مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. قَالَ الرَّاعِبُ: أَصْلُ الْبُرْءِ وَالْبَرَاءِ وَالْتَّبَرِّيِّ: التَّقْصِي مِمَّا يُكْرَهُ مُجَاوِرَتُهُ أَيُّ مَلَابَسَتُهُ"، تفسير المنار، 10/135. ن: المفردات في غريب القرآن، ص: 45، ولسان العرب، مادة: (برأ)، 1/31.

(3) تاريخ الإسلام، 1/319، ن: ت ت ت، 10/102.

«وَالْبِرَاءَةُ الْخُرُوجُ وَالتَّقْصِي مِمَّا يُشْعَبُ وَرَفْعُ التَّبَعَةِ. وَلَمَّا كَانَ الْعَهْدُ يُوجِبُ عَلَى الْمُتَعَاهِدِينَ الْعَمَلَ بِمَا تَعَاهَدُوا عَلَيْهِ، وَيُعَدُّ الْإِخْلَافُ بِشَيْءٍ مِنْهُ غَدْرًا عَلَى الْمُخْلَفِ، كَانَ الْإِعْلَانُ بِفَسْخِ الْعَهْدِ بَرَاءَةً مِنَ التَّبَعَاتِ الَّتِي كَانَتْ بِحَيْثُ تَنْشَأُ عَنِ إِخْلَافِ الْعَهْدِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ لَفْظُ (بِرَاءَةٌ) هُنَا مُفِيدًا مَعْنَى فَسْخِ الْعَهْدِ وَنَبْذِهِ لِيَأْخُذَ الْمُعَاهِدُونَ جِذْرَهُمْ. وَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يَنْبِذُونَ الْعَهْدَ، وَيَرُدُّونَ الْجَوَارِ إِذَا شَاءُوا تَنْهِيَةَ الْإِلْتِمَامِ بِهِمَا... وَمَا فَعَلَ عَثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ فِي رَدِّ جَوَارِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ إِيَّاهُ قَائِلًا: [رَضِيتُ بِجَوَارِ رَبِّي، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُسْتَجِيرَ غَيْرَهُ]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَاَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾. * (1)

والسورتان من القرآن اللتان ابتدأتا باسم نكرة هما هذه السورة وسورة النور: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (2) وسورة براءة تنظيم لعلاقات الدولة الإسلامية ورؤية للمحيط الخارجي وما يتصل به من مكونات الداخل التي منها ما يشكل شذوذاً مؤقتاً ضاراً بالجماعة المسلمة، وهو ما يتمثل في مجموع المنافقين الذين يهددون، أو كانوا يهددون كيان المجتمع، وسورة النور تنظيم وتقنين لقيم وأعراف الاجتماع في دولة الإسلام، ويشمل ذلك الأسرة الصغيرة والأسرة الكبيرة التي هي كل المجتمع.

وإذا كانت خطورة ظاهرة النفاق قائمة بالنسبة للداخل الإسلامي، كما هي متأكدة إزاء علاقات الدولة، فإن السورة تعرض لبعض متعلقات هذه الظاهرة مع إفاضة سورة التوبة في العناية بتصوير الظاهرة وتحليلها. ومن هنا نفهم اشتراك السورتين في الناحية التشريعية الملحة في تأمين المجتمع المسلم من داخله ومن الخارج، فالجامعة بينهما في ذلك بيّنة؛ ولذا حسن هذا الابتداء الذي يعتضد به الاعتناء بالأسس التي بها يقوى بنية الدولة، وتترسخ عناصرها التكوينية. وسورة النور تضمنت الرفع من مقام النبوة وصوناً

(1) السابق، 103/10 * الأنفال، 58. ن: تاريخ الإسلام، 1/185-188-318-319، والكامل في التاريخ، 1/597.

(2) الآية: 1.

لبيت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن كلِّ تعريضٍ أو تشهيرٍ ينتحلُّه أهلُ النفاقِ لِيَعْمُصُوا على أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أموراً استمروا بها في الإِزْجَافِ كحديثِ الإِفْكَ⁽¹⁾ الذي أرادوا إجراءهُ على الألسنة؛ طعنا في الدين، وفي مقامِ النبوة. وقد تَشَوَّفَ المسلمون إلى نزولِ سورةٍ من القرآنِ أو آياتٍ منه تنصُّ على تبرئةِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عائشةَ -رَضِيَ اللهُ عنها- من فوقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، ولعلَّهُ لم يُتَرَقَّبْ قرآنٌ أن ينزلَ كما تُرَقَّبُ نزولُ هذه السورةِ المباركة؛ فإيرادُ هذه الكلمةِ مفتتحَ السورةِ نَكْرَةً هو تنويهٌ بهذا الحالِ إضافةً إلى الدواعي المتقدمة. (2)

والمدَّةُ الْمُنْصُوصُ عليها فيها مزيدٌ رفَعٍ لِمُظَنَّةِ الخيانة، وتلافٍ لِقَالَةِ السوء، فليس بَعْدَ الإمهالِ مَعْتَبَةً، وقد أَعَذَرَ صاحبُ الحقِّ الممتنُّ بالمهلة.

ومن تمامِ البيانِ وبلوغِ الإِرفاقِ أن هذه البراءةَ جاءتْ نداءً من الله عَزَّ وَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمؤمنين، وفي هذا البيانِ اشتمالٌ على مضمونٍ واحد، فمن لم يَهَبِ اللهُ سبحانه، هَابَ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن لم يَهَبْهُمَا، هَابَ جُمُوعَ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي تَأْتَمُرُ بِأَمْرِهِمَا حمايةً لَبَيْضَةِ الدين، وحفظاً لِلدِّمَارِ، ولِهَيْبَةِ الدولة. وقد نُسِبَ فعلُ المعاهدةِ إلى الْمُؤْمِنِينَ تَشْرِيكًا لِكُلِّ فَرِدٍ من أفرادِ الجماعةِ المسلمةِ في المسؤولية؛ ورعايةً لِلدورِ الَّذِي يضطلعُ به كُلُّ أَحَدٍ منهم، فهم لا يخفرونَ ذمَّةَ اللهِ ورسوله، ولا يُنْفَذُونَ عَهْدًا أو أمراً توافرتِ الدواعي على نقضه، فإِنْتَقَضَ بأمرٍ من اللهِ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم يكن المشركون مستحقين لأن تراعى مصالحهم، فَيُنْظَرُوا بعقدِ معاهدة، أو بمهلة؛ وإنما النظرُ إلى مصلحةِ الأمة، وإلى دَرءِ ما يُناقِضُها من تَمَالُؤِ قبائلِ المشركين

(1) ن: فتح الباري، 272/5، ن: شرح النووي على مسلم، 102/17.

(2) "هناك شَبَهٌ بين سورةِ براءةٍ وسورةِ الأنفالِ قَبْلَها، فهي كالتممة لها في وضعِ أصولِ العلاقاتِ الدوليةِ الخارجيةِ والداخليةِ، وأحكامِ السِّلْمِ والحربِ، وأحوالِ المؤمنين الصادقين، والكفار، والمنافقين، وأحكامِ المعاهداتِ والمواثيقِ؛ إلا أنَّ في الأنفالِ بيانَ العهودِ والوفاءِ بها وتقديسها، وفي براءةٍ نَبْذُ العهودِ. ودُكِرَ في السورتينِ صُدُّ المشركين عن المسجدِ الحرامِ، والترغيبُ في إنفاقِ المالِ في سبيلِ اللهِ، وتفصيلُ الكلامِ في قتالِ المشركين وأهلِ الكتابِ، وبيانُ أوضاعِ المنافقين. وبالرغمِ من هذا الشبهِ الموضوعيِّ في السورتينِ، وأنَّهما تُدْعَوَانِ القرينتينِ، وأنَّهما نزلتا في القتالِ، فإنَّهما في الأصحِّ سورتانِ مستقلتانِ"، التفسير المنير، 92/10.

على الكيد للإسلام وَالْإِتْمَارِ بِهِ. وفي الآية اخْتِبَاكَ: (1) فالبراءة والعهدُ قَبْلَهَا كُلُّ مِنْهُمَا كائنانِ من الله، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن الصحابة الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وكان الاقتصارُ على بعضِ أجزاءِ المعنى دُونَ بعضِ لغرضِ إظهارِ امتثالِ المؤمنينَ وإدعائِهِمْ لِمَا يَصُدُّرُ إِلَيْهِمْ من تشريعاتٍ وتعاليم.

"﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾: الْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَعْنَى الْبِرَاءَةِ؛ لِأَنَّهَا لَمَّا أَمَرَ اللهُ بِالْأَذَانِ بِهَا، كَانَتْ إِعْلَامًا لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ هُمْ الْمَقْصُودُ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَصَمِيرُ الْخِطَابِ فِي فِعْلِ الْأَمْرِ مَعْلُومٌ مِنْهُ أَنَّ هُمُ الْمَوْجَّهُ إِلَيْهِمْ الْكَلَامُ، وَذَلِكَ الْتِقَاتٌ. فَالتَّقْدِيرُ: فَلْيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ، وَنُكْتَةُ هَذَا الْاِلْتِقَاتِ إِبْلَاغُ الْإِنذَارِ إِلَيْهِمْ مُبَاشَرَةً. وَيَجُوزُ تَقْدِيرُ قَوْلِ مَحذُوفٍ مُفْرَعٍ عَلَى الْبِرَاءَةِ مِنْ عُهُودِهِمْ أَيِ فَقُلْ لَهُمْ: سِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ". (2)

وفي اختيارِ فِعْلِ السِّيَاحَةِ تَوْسِعَةٌ عَلَيْهِمْ وَتَوْسِيعٌ لِدَائِرَةِ الْأَمَانِ. وَالسِّيَاحَةُ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ مَقْتَرَنَةً بِالْأَمَانِ وَالطَّمَأِينَةِ، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ. وَالْأَمَانُ مَبذُولٌ لَهُمْ مَا اسْتَحْضَرُوا الْوَعِيدَ الَّذِي فِي آخِرِ الْآيَةِ مِنْ قَهْرِ الْكَافِرِينَ وَإِخْرَائِهِمْ، وَهَذَا الْوَعِيدُ أَوْ التَّخْوِيفُ سَيَقَ احْتِرَازًا مِنْ تَطَرُّقِ الْغُرُورِ إِلَى نَفْسِهِمْ وَتَنْشِيطًا لِدَاعِيَةِ التَّعَقُّلِ لَدَيْهِمْ، حَتَّى يَكْفُؤُوا أَذَاهُمْ عَنِ النَّاسِ.

وفي سياقِ الِاتِّقَاتِ جَاءَ الْأَمْرُ بِالْعِلْمِ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَيْرٌ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ لَغَرَضِ الْإِهْتِمَامِ بِمُضْمُونِ الْكَلَامِ وَتَعْرِيفًا بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ الَّتِي أَذْهَلَتْهُمْ عَنِ حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَالْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ. وَمِنْ مَحَاسِنِ الْكَلَامِ الْبَلِيعِ أَنْ تُصَدَّرَ بَعْضُ فِقْرِهِ بِمَا فِيهِ اسْتِثَارَةٌ لَوْعِي الْمَخَاطَبِ، وَمِثْلُ (اعلم) تعلم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾. (3)

(1) ن: خزانه الأدب، 242/3، والبلاغة العربية- أسسها وفنونها وعلومها، ص: 506.

(2) ت ت ت، 105/10، ن: صيغة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، محمود توفيق، مطبعة الأمانة، د.ت، ص: 35.

(3) الأنفال، 24.

وفي الآية نفي وإثبات يَتَمَحَّضُ عنهما إظهارُهُم بصورة العاجزِ المقهورِ المعروضِ على الخزي والإذلالِ بَقِيءِ الأموال، وبالأُسْر، والقتل، وعذابِ الآخرة. وفيه تفصيلٌ ليس هنا مقامه: ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الكَافِرِينَ﴾

عُطِفَ الكلامُ في قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ (1) على مُسْتَهَلِّ السورة، وموقعِ كلمة (أذان) كموقعِ كلمة (براءة) في التقدير. وهذا إعلانٌ بِإنتِقَاضِ عهدِ المشركين ونَبْذِ ما كان من وضعِ الحربِ أوزارها عشرَ سنينَ في أصحِّ الأقوال. (2) "لأنَّ البراءةَ مختصةً بالمعاهدين والناكثين منهم، وأمَّا الأذان، فعامٌّ لجميعِ الناس: مَنْ عاهد، وَمَنْ لم يعاهد، وَمَنْ نكث من المعاهدين وَمَنْ لم يَنْكُث". (3)

وهنا ارتفاعٌ في نبرةِ الخطابِ واتِّساعٌ في حجمِ الدائرةِ البشريةِ المرصودة، فهي في هذه الآية أوسعُ نطاقًا. وناسبَ هذا الاتساعَ الوصفُ بكلمةِ الأكبر: ﴿يَوْمَ الْحِجِّ الْأَكْبَرِ﴾ في يومِ عَرَفةَ، أو في يومِ النحرِ الَّذِي يليه. وكان بعثُ المؤدِّنين في يومِ النَّحر، كما هو ثابتٌ في الصحيحين. (4) والناسُ في ذلك اليومِ في ذلك الموقفِ من السنةِ التاسعةِ للهجرةِ (5) فيهمُ المؤمنُ، والمشركُ، وضعيفُ الإيمانِ، ومنهم مَنْ سارعَ إلى الردِّ بعدَ ذلك اليومِ أي بعدَ وفاةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْ ورائِهِمْ مَنْ لم يشهدِ الموسمَ من أهلِ

(1) جاء في اللسان: "أَذِنَ بالشيءِ إِنْنا، وَأَذَنًا، وَأَذَانَةً: عَلِمَ، وفي التنزيلِ العزيز: ﴿فَأَذُنُوا بِحَرْبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة، 279) أَي كُونُوا على عِلْمٍ...ويقال: قد آذَنْتُه بكذا وكذا أُوذِنْتُه إيذانا، وإذنا، إذا عَلَّمْتُهُ، وَمَنْ قرأ ﴿فَأَذُنُوا﴾ أَي فأنصتوا، ويقال: أذنتُ لفلانٍ في أمرِ كذا وكذا آذُنٌ له إِنْنا بكسرِ الهمزةِ وجزمِ الذال...والأذان: الإعلامُ، وأذنتُك بالشيءِ عَلَّمْتُكَه، وأذنتُه عَلَّمْتُهُ...وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾، (التوبة، 3) أَي إعلامُ، والأذان: اسمٌ يقوم مقامُ الإيذان، وهو المصدرُ الحقيقيُّ، مادة: (أذِن)، 9/13. ن: أثرُ تعدُّدِ الآراءِ النحويةِ في تفسيرِ الآياتِ القرآنيةِ، سامي عوض، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث، 2007 م، مجلد: 29- عدد: 1، ص: 10.

(2) ن: سبل الهدى والرشاد لمحمد الصالحي، ت: عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1993، 52/5-72.

(3) تفسير الكشاف، 2/233.

(4) فتح الباري، 8/318. ن: شرح النووي، 9/115، وأحكام القرآن للطحاوي، ت: سعد الدين أونال، مركز البحوث الإسلامية، 1998، 1/133-2/125، وأحكام القرآن لأبي الحسن الكيا الهراسي، ت: موسى محمد علي، دار الكتب العلمية، 1985، 4/173-177.

(5) ن: سبل الهدى والرشاد، 12/74.

الوَبْرِ وَالْمَدْرِ . وقد انْحَلَّتْ الكَلِمَةُ (أَذَان) إِلَى مضمونها في قولهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ . وفي هذا الإِعلانِ قِطْعٌ للمعاذير . وقد جرى تنويع صيغة التَّبَرِّي لغرضِ البَيانِ أو الإِطنابِ الحاصلِ لاختلافِ أَفهامِ الناسِ، وتباينِ تَلَقُّيهِم لمضمونِ الكلامِ، فلا بدَّ -والحالُ هذه- من استقصاءِ الوُسْعِ في التَبليغِ .

وصيغةُ (بريء) للمبالغةِ دالَّةٌ على التجدُّدِ والحدوثِ⁽¹⁾ استيفاءً لتوعُّدِهِم أَنَّهُ إِذَا أَصْرُوا وَاسْتَمَرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ مُجَدِّدٌ لَهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ النَّبَرِيِّ مِنْ كُلِّ عَهْدٍ أَوْ صَلَاةٍ، وَمِنْ النِّكَالِ بِهِمْ، وَالنِّكَايَةِ فِيهِمْ فِي حِينِ أَنْ الْمَصْدَرُ: (براءة) لَهُ ثَبُوتُ الْاسْمِيَةِ وَانْسِلَاخُهَا عَنِ التَّجَدُّدِ، وَهُوَ الْأَلْيَقُ بِمُفْتَتِحَاتِ النَّظْمِ . وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فِيهِ إِضْمَارٌ لِلْوَصْفِ، وَمَقْصُودُهُ إِظْهَارُ أَنَّ بَرَاءَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْمُشْرِكِينَ هِيَ مِنْ بَرَاءَتِهِ تَعَالَى، فَهُوَ إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنِ أَمْرِ رَبِّهِ فِي كُلِّ شَأْنِهِ الرَّسَالِيَّةِ، وَتَصَرُّفَاتِهِ التَّكْلِيفِيَّةِ .

2242 تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾: (2)

من شَدَائِدِ الْقُرْآنِ تَهْوِيلُ الْقَعُودِ عَنِ الْغَزْوِ، ففِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ مَا فِيهِ؛ إِذْ إِنَّ التَّقَاعَسَ عَنِ النَّصْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي إِبَّانِ النَّفِيرِ وَالْحَاجَةِ إِلَى الْخُرُوجِ يَتَضَمَّنُ حَظْرًا عَلَى الْفَرْدِ، وَعَلَى الْأُمَّةِ، إِذَا خَلَا عَنِ الْأَعْدَارِ، فِي وَقْتٍ لَمْ تَلُنْ فِيهِ شَوْكَةُ النِّفَاقِ إِلَّا مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ، فَتَلَفِي

(1) ن: النحو الوافي، 30/3-387/1.

(2) التوبة، 91-92.

دواعي التهمة متأكدٌ تتطلبُهُ الحصافةُ والفتنةُ فضلاً عن الإيمانِ الراسخِ والإخلاصِ لله تعالى.

ومن المُخَلَّفِينَ كالأعرابِ مَلُومٌ ومعدورٌ في القعود، وأهلُ النفاقِ لا يخلو بعضهم من ضعفٍ عن الخروج؛ ولكنهم قَسَمَ واحدٌ من حيثُ أصلُ إضمارِ الكفرِ أو التذبذبِ بينه وبين الإسلام.

وهذه السورةُ بابٌ فريدٌ عظيمٌ في شؤونِ القتالِ وأحكامِ الجهاد، نزلت في أخرياتِ سني الدعوةِ في السنةِ التاسعةِ التي شهدت في رَجَبٍ منها غزوةَ العسرةِ،⁽¹⁾ وأمامَ المسلمين حروبٌ طويلةٌ وصراعاتٌ مع الدولِ المتجبرةِ في المنطقة، وذلك بعد استقرارِ حاضرتي الإسلامِ مكةَ والمدينة. وقد ابتدأ الأمرُ بالقتالِ من السورةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.⁽²⁾ وفي آيةٍ تاليةٍ بيانٌ للضرورةِ الإيمانيةِ للجهاد، وما ينبغي عليه من حقيقةِ الإخلاص، وصدقِ النية، وروحِ التضحية، وعدامِ السلبيةِ أو الوقوفِ موقفَ الخيانةِ أو التَّربُّصِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَاةً﴾،⁽³⁾ وفي الأمرِ بقتالِ الرومِ الَّذِينَ أَعَدَّ جَيْشُ الْعُسْرَةِ لِيَوْمِ نَاحِيَّتِهِمْ وَرَدَّ قَوْلُهُ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾،⁽⁴⁾ وفي ذمِّ التناقلِ والأمرِ بالنفيرِ: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾،⁽⁵⁾ ﴿انْفِرُوا

(1) ن: ت ت ت، 10/97-151.

(2) التوبة، 5.

(3) السابق، 16.

(4) السابق، 29.

(5) السابق، 38-41.

خَفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»⁽¹⁾ وفي بيانِ أحوالِ المنافقينِ وشيءٍ من خِصَالِهِمْ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾، ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾، ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾⁽²⁾.

ونفي المؤاخذه عن أصحاب الأعدار في آية ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ يُعَدُّ استثناءً لهم من الطوائف المتقدمة، إذا أحببت قلوبهم بقرينة النصح لله ورسوله. وهذه توطئة للآية مدار البحث، وهي آية ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ﴾ التي تضمنت ذكر المعسرين بالنفقة، وقد تميزوا بالتفصيل ذون قرنائهم من المعذورين من الضعفاء والمرضى؛ لأن صحيح البدن ظاهر العافية في عين الناس والذي لا يجد نفقة الجهاد هو محط للريبة ولقالة السوء، وهم أحرى بالدفع عن أنفسهم، وبأن تعرض الآية لموقفهم وللحالة الشعورية التي يَمرون بها.

"وَالْحَمْلُ يُطْلَقُ عَلَى إِعْطَاءِ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ أَي إِذَا أَتَوْكَ لِتُعْطِيَهُمُ الْحَمُولَةَ أَي مَا يَرْكَبُونَهُ وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِ سِلَاحَهُمْ وَمَوْنَهُمْ مِنَ الْإِبِلِ. وَجُمْلَةٌ: قُلْتُ لَا أَجِدُ، إِخ، إِمَّا حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الْمُحَاطَبِ فِي أَتَوْكَ، وَإِمَّا بَدَلٌ اشْتِمَالٍ مِنْ فِعْلِ أَتَوْكَ؛ لِأَنَّ إِتْيَانَهُمْ لِأَجْلِ الْحَمْلِ يَشْتَمِلُ عَلَى إِجَابَةِ، وَعَلَى مَنْعٍ.

(1) السابق، 41.

(2) السابق، 43-45، 86-90.

وَجُمْلَةٌ تَوَلَّوْا جَوَابُ إِذَا، وَالْمَجْمُوعُ صَلَّةُ الَّذِينَ. وَالتَّوَلَّى: الرَّجُوعُ. وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ * فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ". (1)
وهؤلاء هم البكَّاءُ من الأشرعبيين، أو من مُرَيِّنَةٍ، أو أنهم رَهَطٌ من الأنصارِ
سبعة نَفَرٍ. (2)

وصورة هذه الجماعة من المؤمنين تتضمن سرِّدَ أفعالِ الإتيان، والحمل، والقول
متتالية لبيان تسارع أجزاءِ القصةِ المشهد؛ وهو ما أسفر عن حالةٍ من الحُزنِ والبكاء،
فالشعورُ بضيقِ ذاتِ اليدِ والعجزِ عن تحمُّلِ نفقاتِ الغزوِ في سبيلِ الله أسوةً بالقادرين من
الموسرين ومن يجدون سعةً للإنفاق - هذا الشعورُ يَغْذُوهُ في نفوسِ المؤمنين رغبتُهم
الصادقة في مرافقةِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في هذه الرحلةِ العظيمةِ إلى نواحي
الشام، وهي رحلةٌ امتحانٍ للمخلصين، وكشفٍ لشراذمِ النفاقِ التي لم تنزل بها بقيةً قوةً في
هذه السنة المتأخرة من تاريخ الدعوة المباركة.

وكانت الركائبُ من أعزِّ ما يتطلَّبُهُ أهلُ ذلك الزمانِ في حروبهم وأسفارهم، أعزَّ من
السلاحِ الَّذِي يُستعاضُ عن أحدِ أنواعِهِ بِآخَرٍ، ثُمَّ إن من الجنْدِ عيوناً، وحُرَّاساً، ومُسْعِفِينَ،
وَجَلَّابَ مؤونة، كذا والرَّادُ يُتَبَلَّغُ باليسيرِ منه، وقد يُصْبِرُ عليه اليومَ أو اليوميْن. وجوابُ
النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيه استقصاءٌ للحُمْلانِ؛ إظهاراً لِشِدَّةِ الحالِ وَقَلَّةِ مؤونةِ
جيشٍ يخرجُ لقتالِ الرُّومِ. وتصويرُ الأعينِ الفائضةِ بالدمعِ في حالِ تَوَلِّيهِمْ مع بيانِ سببِ
ما هم فيه جرى بعبارةٍ مُشْهَبَةٍ، وهو ما يمتدُّ به استقرارُ الصورةِ التي يُسْفِرُ تأملُها عن
كمالِ التعاطفِ والاستجابةِ الوجدانيةِ لتأثيراتِ هذا الموقفِ المُخْلِصِ

وقد خُتِمَتِ السورةُ بِآيَةٍ نَصَّتْ على رَأْفَةِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ورحمتهِ
بالمؤمنين، وكأنما استدعت الآيةُ مدارُ البحثِ هذا المعنى الَّذِي استدعته -أيضاً- طبيعةُ
موضوعاتِ السورةِ التي تدورُ حولِ قضايا القتالِ، وأحكامِ في الجهادِ، وحديثٍ عن النفيرِ،

(1) ت ت ت، 295/10، * الأيتان: 142-205.

(2) ن: السابق، 296/10، وجامع البيان، 421/14.

وضرورات الإنفاق والتضحية في سبيل نصره الدين، ونشر الدعوة، وهذه تكاليف تختلف النفوس في تقبل تمحيصها والصبر على متطلباتها المعنوية والمادية. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽¹⁾ ومع ذلك فقد ابتدأت السورة بمنحة الإمهال لمشركي الجزيرة، وحثمت بندااء الرحمة لأهل الإيمان، قال تعالى ذكروه:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾⁽²⁾

(1) البقرة، 216.

(2) التوبة، 128-129.

الدلالات العلمية لظاهرتي الليل والنهار في القرآن

جاء في الموسوعة العربية العالمية في مادة الليل:

"اليوم هو الزمن (الوقت) الذي تستغرقه الأرض في الدوران حول نفسها، ويسمى اليوم الشمسي. ونطلق كلمة يوم -في العادة- على الوقت الذي تكون فيه الشمس ساطعة على ذلك الجزء الذي نعيش فيه على الأرض. ونطلق -أيضاً- كلمة ليل على الوقت الذي يكون فيه الجزء الذي نعيش فيه مظلماً، أو بعيداً عن الشمس. ولكن الليل -في حقيقة الأمر- ما هو إلا جزء من اليوم... ويبدأ اليوم عند منتصف الليل وفق التقويم الزوالي. ففي معظم البلدان ينقسم اليوم إلى جزأين يبلغ طول كل منهما 12 ساعة".⁽¹⁾

كان الشروق يُمثل بداية اليوم عند البابليين القدماء، وكان الغروب بدايته عند المسلمين واليهود. وكان المصريون والرومان أول من عرف نظام بدء اليوم عند منتصف الليل.⁽²⁾

المقصود من إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل هو إدخال المواضع الليلية في مكان المواضع النهارية والنهارية مكان الليلية، كما في قوله -تعالى- من سورة آل عمران: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.⁽³⁾ وهذا يلزم منه كون الأرض كروية الشكل نظراً لانسحاب المواضع أو حركة المكان الأرضي بحيث يدخل في ظلمة الليل، أو في ضياء النهار. وهو ما يلزم من مد الأرض وبسطها، فالشكل المستدير هو أكثر الأشكال المكانية امتداداً وانسحاباً عند التحقيق. ودخو الأرض كذلك يشير إلى

(1) تحت عنوان: اليوم=Day

(2) ن: السابق والموضع.

(3) الآية: 27.

استدارتها. يَرِدُ ذلك في سورِ الرعد، ونوح، والنازعات: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾. (1)

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، (2) تعودُ معاني التَّغْشِيَةِ وَالْإِغْشَاءِ إِلَى التَّغْطِيَةِ وَالْإِخْفَاءِ. (3) ومن معاني ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أن الله يغطي بظلمة الليل مكان نور النهار على الأرض شيئًا فشيئًا، فيصير ليلاً، ويغطي بنور النهار مكان ظلمة الليل على الأرض كذلك، فيصير نهارًا، وهي إشارةٌ ضمنيةٌ إلى كلِّ من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمسِ دورةً كاملةً في كلِّ يومٍ مدته (24) ساعة، يتقاسمها -بتفاوتٍ قليلٍ- الليلُ والنهار. (4)

والطلبُ الحثيثُ في الآيةِ يشيرُ إلى السرعةِ والحرصِ، وهذا مندرجٌ في سياقِ خبرِ خلقِ العوالمِ من السماواتِ والأرضِ، حيثُ ثبتَ علميًا أن الأرضَ كانت في البدءِ تدورُ في مدارها بسرعةٍ فائقةٍ، وصدُرُ الآيةِ يتحدثُ -صراحةً- عن الخلقِ الأولِ والاستواءِ على العرشِ، كما أنه لم يُذكرْ وصفُ الطلبِ الحثيثِ في آيةٍ أخرى سواها من مجموعِ الآياتِ التي تتناولُ صفةَ الأرضِ وحركتها. وذلك في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (5)

(1) الآيات: 2، 19، 30. من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 41853-9 يوليو-2001 م.

(2) الأعراف، 54.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (غشي)، 126/15.

(4) من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 41853-9 يوليو-2001 م.

(5) الرعد، 3. ن: من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 41853-9 يوليو-2001 م.

والومضة العلمية في الآية تشير إلى ما كانت عليه معدلات الحركة المتسارعة للأرض في دورانها أمام الشمس، وإلى ما كان عليه تتابع الليل والنهار في بداية التكوين، وهذا هو سرُّ التعبير بالحث في الآية. وقد أثبتت دراسة مراحل النُّمو المتتالية في هياكل الحيوانات، وفي جذوع الأشجار المعمرة والمتأخِّرة حقيقة تسارع حركة الأرض في بداية خلقها. والعلمُ التطبيقيُّ الَّذِي يُعنى بهذا الفرع من العلوم هو: تحديدُ الأزمنة بواسطة الأشجار=Drochronology⁽¹⁾.

الأرضُ تفقدُ من سرعة دورانها حول محورها أمام الشمسِ واحداً من الألف من الثانية في كلِّ قرنٍ من الزمانِ بسببِ كلِّ من عمليتي المدِّ والجَزْرِ وفعلِ الرياحِ المعاكسة لاتجاهِ دورانِ الأرضِ حول محورها. وهذه العملياتُ من عواملِ إبطاءِ سرعة الأرضِ حول محورها. وبتأملِ لحظة تيبسِ القشرة الخارجية للأرضِ تأملاً علمياً في بداية خلقِ الكوكبِ أي قريباً من بداية خلقِ الأرضِ على هيئتها الكوكبية منذ حوالي 4,600 بليون سنة مضت ووصلَ عددُ الأيامِ بالسَّنَةِ إلى 2200 يوم تقريباً، ووصل طولُ الليلِ والنهارِ معا إلى حوالي (4 ساعات)، ومعنى هذا أن سرعة دورانِ الأرضِ حول محورها أمام الشمسِ كانت ستة أضعافِ سرعتها الحالية⁽²⁾.

الليلُ والنهارُ ظرفاً زمانياً لا بُدَّ لهما من مكان، ومكانهما الأرضُ، ولولا كروية الأرضِ ودورانها حول محورها أمام الشمسِ، لَمَا ظَهَرَ ليلٌ ولا نهارٌ، ولا تبادلٌ نصفَي سطحِ الأرضِ. ووجهُ الاستدلالِ على ذلك في آية الأنبياءِ هو اتصالُ ضميرِ الجمعِ بالمضارعِ عوداً على متعدّدٍ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ

(1) ن: السابق والموضع.

(2) "ولنفادي ما ثبت من تناقص سرعة دوران الأرضِ حول محورها، ومن ثمَّ زيادة متوسط طول اليوم الشمسي بنحو 0.001 من الثانية في القرن الواحد، فقد تم الاتفاقُ على تعيين طول الثانية ذرياً بأنها الفترة التي يتردد منها قفزُ الإلكترون من مدار إلى آخر حول نواة ذرة نظير عنصر (السيوم 133) نحو تسعة بلايين مرة (9.192.631.770 مرة)، كما يمكن تقسيم الثانية إلى وحدات أقل"، السابق، عدد: 42287-16 سبتمبر-2002 م-عدد: 41853-9 يوليو-2001 م.

يَسْبَحُونَ»⁽¹⁾ ولو كان المقصودُ سَبَحَ كُلِّ مِنَ الشمسِ والقمرِ، فحسب، لاتصل الفعلُ بألفِ التنثية: (يسبحان)، كما أنَّ السَّبْحَ لا يكون إلا للأجسامِ الماديةِ في وسطِ أقلِّ كثافةٍ منها، والسَّبْحُ -في اللغة- هو: الانتقالُ السريعُ للجسمِ بحركةٍ ذاتيةٍ فيه من مثلِ حركاتِ كُلِّ من الأرضِ، والشمسِ، والقمرِ في جَزْيِ كُلِّ منها في مدارِه المُحدَّدِ له، فحركةُ الليلِ والنهارِ بالجريِّ تعبيرٌ قرآنيٌّ عن حركةِ الكوكبِ في مدارِه حولِ الشمسِ، وعن تكورهِ ودَوْرانِه حولِ محورهِ أمامِ الشمسِ. وقد كشفتْ بحوثُ علومِ الفضاءِ والدراساتُ الفلكيةُ عن أنواعِ حركاتِ الأرضِ، كما يتضحُ من هذا العرضِ:

الحركةُ المحوريةُ الدَّورانيةُ أو المَعْرَلِيَّةُ للأرضِ، وفيها تدورُ الأرضُ⁽²⁾ حولِ محورهاِ الوهميِّ من الغربِ إلى الشرقِ أمامِ الشمسِ بسرعة: (كم1674) في الساعة. والحركةُ التَّرتُّبِيَّةُ للأرضِ: (Precession)، وهي حركةٌ بطيئةٌ تَتَمَّائِلُ فيها الأرضُ من اليمينِ إلى اليسارِ بالنسبةِ إلى محورهاِ العموديِّ. وتؤدي هذه الحركةُ إلى تَأرجحِ: (زحزحة) محورِ دَوْرانِ الأرضِ حولِ نفسها تدريجيًّا، وهو ما يؤدي إلى تغييرِ موقعِ كُلِّ من قطبي الأرضِ الشماليِّ والجنوبيِّ وحركةِ المَيْسَانِ: النودانِ أو التذبذبِ للأرضِ: (Nutation)، وهي حركةٌ تَجَعْلُ من تَرْتُّحِ الأرضِ حولِ محورهاِ مسارًا متعرجًا بسببِ جذبِ كُلِّ من القمرِ والشمسِ للأرضِ. وتُتِمُّ هذه الحركةُ دورةً كاملةً في (26.040 سنة) تقريبًا. وحركةُ التباطؤِ في سرعةِ دَوْرانِ الأرضِ حولِ محورها، ويتمُّ هذا التباطؤُ بمقدارِ جزءٍ من الثانيةِ في كُلِّ قرنٍ من الزمانِ في حينِ يُسرِعُ القمرُ في دورتهِ المحوريةِ بالمعدَّلِ نفسه. ويؤدي ذلك إلى تغييرِ تدريجيٍّ في حالةِ التوازنِ بينِ الأرضِ والقمرِ، وهو ما يؤدي في النهايةِ إلى انفلاتِ القمرِ من عقالِ جاذبيةِ الأرضِ وارتمايهِ في باطنِ الشمسِ: ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾⁽³⁾.

(1) الآية: 33.

(2) "قال ابنُ عباسٍ: يدورون كما يدور المغزلُ في الفلْكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدورُ المغزلُ إلا بالفلْكة، ولا الفلْكةُ إلا بالمغزل، كذلك النجومُ، والشمسُ، والقمرُ، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن"، تفسير ابن كثير، 579/6-341/5.

(3) القيامة، 9.

والحركة الانتقالية المدارية للأرض: (سبح الأرض): وفيها تجري الأرض في مدارٍ ببيضاويٍّ: (إهليلي) حول الشمس بسرعة (كم30) في الثانية. وحركة استدارة فلك الأرض، وبها يتم تقريب مدار الأرض الإهليلي حول الشمس إلى مدارٍ أقرب إلى شكل الدائرة. وتستغرق هذه الحركة (92.000) سنة. وحركة جزي الأرض مع المجموعة الشمسية في مسارٍ باتجاه كوكبة الجاثي بسرعة (كم20) في الثانية. وحركة جري الأرض مع بقية المجموعة الشمسية حول مركز المجرة التي تتبعها (سكة التبانة) في مدارٍ لولبيٍّ بسرعة (كم206) في الثانية= (كم741.600) في الساعة لتتم دورة كاملة في مدة (250) مليون سنة وحركة جري الأرض، والمجموعة الشمسية، والمجرة بسرعة (كم980) في الثانية= (كم3.528.000) في الساعة لتؤدي إلى ظاهرة اتساع السماء بتباعد مجرتنا عن بقية المجرات. وقد يكون للأرض حركاتٍ أخرى لم تُكتشف بعد. (1)

ومن آيات الإعجاز العلمي آية قاطعة بكروية الأرض: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾، (2) فالتكوير يعني لف الشيء على غيره مستديرًا باستدارته. (3) ويعضد هذا المعنى آيات الإغشاء والإيلاج التي تقدمت، وهاتان الحالتان بمعنى التغطية والإدخال.

وأول من تبنى نظرية كروية الأرض فلاسفة وعلماء بلاد الرافدين من البابليين حوالي 2000 ق.م، وانتقل هذا التصور العلمي إلى (أنبادوقليس) في (أكرجاس) و(فيثاغورس اليوناني) في القرن السادس الميلادي، وهو الذي أكد أن الشكل الكروي هو

(1) من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 42049-21 يناير-2002 م، ن: الموسوعة العربية العالمية،

تحت عنواني: الفصل-الفلك، علم=Astronomy-Season.

(2) الزمر، 5.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (كور)، 154/5.

أكثر الأشكال الهندسية انتظامًا لكمال انتظام جميع أجزاء الكرة بالنسبة إلى مركزها، وعلى ذلك فإنَّ كلَّ أجرام السماء كروية الشكل. (1)

وهذا ما ذهب إليه علماء الحضارة الإسلامية كالكندي، والرازي، والبيروني، وابن سينا، والبتاني، مخالفين بذلك ما ذهب إليه أرسطو في نظريته باستواء الأرض التي أخذها عنه علماء الإغريق فيما بعد. (2)

ولم يقتصر الأمر على العلماء الطبيعيين فحسب؛ بل تبنى غيرهم من علماء التفسير هذه النظرية كالإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، حيث يقول:
"كرة الأرض بما فيها من المفاوز، والجبال، والبلاد المعمورة. وثانيها: كرة الماء، وهي البحر المحيط، وهذه الأبحر الكبيرة الموجودة في هذا الربع المعمور، وما فيه من الأودية العظيمة... وثالثها: كرة الهواء". (3)

"يُكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ": * بيان لكيفية تصرفه -تعالى- فيهما بعد بيان خلقهما، فإنَّ حدوث الليل والنهار في الأرض منوطٌ بتحريك السموات أي يغشى كل واحدٍ منهما الآخر، كأنه يلقفه عليه لفّ اللباس على اللابس، أو يُعَبِّهُ به، كما يُعَيَّبُ المَلْفُوفُ بِاللُّفَافَةِ، أو يجعله كازًا عليه كُورًا متتابعًا تتابع أكوار العمامة. وصيغة المضارع للدلالة على التجدد". (4)

ويقول ابن خلدون:

"اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أنَّ شكل الأرض كروي، وأنها محفوفة بعنصر الماء، كأنها عنبة طافية عليه، فانحسر الماء عن بعض

(1) ن: قصة الحضارة، 441/2-382/5-139/7-139/29.

(2) ن: السابق، 41/14.

(3) 106/1. ن: 144/2-872/13-213/6-195/28.

(4) تفسير أبي السعود، 242/7 * الزمر، 5.

جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها". (1)

في قوله -تعالى- من سورة الشمس: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ (2) يعود الضمير المتصل على الشمس، وهي المتقدمة في صدر السورة. وإغشاء الليل للشمس إشارة علمية دقيقة إلى حقيقة ظلمة الكون وسيادة الظلام فضاء السماء الدنيا، وهي الحقيقة التي كشفتها رحلات رواد الفضاء في ستينيات القرن الماضي، حيث ظهرت لهم الشمس قرصاً أزرق في ظلمة الكون. والليل المقصود في هذه الآيات هو ليل السماء الذي يعدُّ ليل الأرض امتداداً له، ومتصلاً به، ولولا ما يقطعهُ أي ليل الأرض من أنوارٍ تنشُج عن انعكاسات ضوء القمر، وضوء النجوم، وما يَحْدُثُ من إنارةٍ بسبب استعمالات البشر العديدة لوسائل تنير ظلام الليل الدامس - وانعكاس كل ذلك على جزيئات الغبار والغازات المختلفة المتناثرة دقائقها في مستويات الغلاف الجوي الدنيا، لكان الظلام مطبقاً على كل شيء في أنحاء الأرض. وليل الأرض يمثل ظل نصف الأرض المواجه للشمس، وهو يضاها الفترة الزمنية من الإظلام التي تعترض نصف الأرض البعيد عن مواجهة الشمس. وهو إظلام مؤقت متحرك مع حركة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس. أما ليل السماء، فهو إظلام دائم يبدو فيه موقع

(1) المقدمة، ص: 44. يقول ول ديورانت في موسوعته عن قصة الحضارة: "واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية، ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد؛ وليحققوا كشاف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس. واتخذوا كرية الأرض أساساً بدءوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجار في وقت واحد. وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلاً وثلاثي ميل، وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر، ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل. ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية، وكانوا يسيرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة. وكتب أحدهم -الفرغاني- من أهل فرغانة -وهي ولاية وراء جيحون- حوالي عام 860 كتاباً في الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوروبا وغربي آسيا سبعمائة عام. وأوسع منه شهرة التبانني الذي ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها. وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من (المعاملات الفلكية) تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام"، 42/14.

(2) الآيات: 1-4. ن: هامش: 1-ص: 97 من هذه الدراسة.

الشمس قرصًا باهتًا الزرقة في صفحةٍ سوداءٍ حالكةٍ السواد. وكذلك تبدو مواقع النجوم على هيئة نقاطٍ متباعدةٍ باهتةٍ الزرقة في صفحةٍ سوداء. والسببُ في ذلك هو التناقصُ الشديدُ في كثافةِ المادةِ بين الكواكبِ وفيما بينها وبين الشمس. والمادةُ بينَ الأرضِ وبينَ الشمسِ عبارةٌ عن خليطٍ من الغازاتِ الخفيفةِ من مثلِ غازِ الإيدروجينِ المتأينِ (على هيئة بروتون موجب وإلكترون سالب منفصلين عن بعضهما)، وكذلك نوى بعض ذرات الهيليوم، وبعض الجسيماتِ الصلبةِ من الغبارِ المتناهي الدقة. (1)

عَشْيَانُ اللَّيْلِ لِلشَّمْسِ مَعْنَى مُتَوَعِّجٌ فِي الْقُرْآنِ، وَكُونُهُ يُقْصَدُ بِهِ حَالَةُ الْإِظْلَامِ الْعَامِّ فِي الْكُونِ مُتَرْتَّبٌ مِنْ فَهْمِ آيَاتٍ عَدِيدَةٍ: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾، (2) إِذْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ السَّمَاءِ، ثُمَّ نُسِبَ إِلَيْهَا اللَّيْلُ الَّذِي أَغْطَشَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ أَيَّ أَظْلَمَهُ. (3)

وتتصلُ معاني الإِغْطَاشِ بِالْإِظْلَامِ، وَالْعَمَى، وَضَعْفِ الْبَصْرِ، وَإِظْلَامِ الْعَيْنِ، وَهُوَ مَا يَقْوِي وَضَفَ اللَّيْلِ بِحَالَتِهِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي قُدِّرَتْ فِي الْكُونِ. وَمَعَ قُوَّةِ التَّعْبِيرِ فِي لَفْظِ: (أَغْطَشَ) وَغَرَابَةِ جَرْسِهِ الشَّدِيدِ يَتَنَبَّهُ السَّامِعُ إِلَى أَنَّهُ لَيْلُ الْكُونِ الْعَظِيمِ بِسَوَادِهِ وَهَيْمَنَتِهِ عَلَى الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ. وَمِنْ ذَلِكَ إِيرَادُ لَفْظِ الظُّلْمَةِ مُتَعَدِّدًا وَالنُّورِ مُفْرَدًا فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ فِي سِيَاقِ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُفْتَتِحِ السُّورَةِ، وَهُوَ مَا يَشِيرُ إِلَى اتِّسَاعِ النِّسْبَةِ بَيْنَهُمَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. (4)

وضوءُ الشمسِ عَلَى الْأَرْضِ لَا يُرَى إِلَّا فِي طَبَقَةِ النَّهَارِ الرَّقِيقَةِ الَّتِي لَا تَتَجَاوَزُ مَسَافَةَ (كَم 200) فَوْقَ مَسْتَوَى سَطْحِ الْأَرْضِ، وَهِيَ مَسَاحَةٌ -عَلَى أَهْمِيَّتِهَا- لَا تُذَكَّرُ

(1) من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 42259 - 19 أغسطس-2002 م.

(2) الآيات: 27-29.

(3) ن: لسان العرب، مادة: (غطش)، 324/6.

(4) الآية: 1. من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 42259 - 19 أغسطس-2002 م.

بالنسبة إلى عِظَم مسافاتِ إِظلامِ الكونِ الممتدَّةِ عَبْرَ بلايينِ السنينِ الضوئية. وهذه الطبقةُ النهاريةُ هي ضحَى للأرضِ كما هي ضحَى للسماء. ولرقة هذه الطبقة بالقياسِ إلى عِظَم مساحاتِ الظلامِ في الكونِ ناسبَ أن يصفها القرآنُ وصفًا دقيقًا بأنها كجلدِ الذبيحةِ أي كغشاءٍ ينزَعُ من جسمٍ عظيمٍ هو الليلُ أو هو باقي جسمِ الحيوانِ وهو الجزءُ الأعظمُ منه قياسًا إلى رقةِ الغشاءِ الجلديِّ الَّذِي يُسلَخُ عنه: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (1).

وَأَمَّا تجليَّةُ النهارِ للشمس: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَآلَاهَا﴾ (2) فهي تُشيرُ إلى حقيقةٍ مسؤوليةِ طبقةِ النهارِ بمكوناتِها عن حالةِ الإضاءةِ الأرضيةِ حيثُ يتمُّ انعكاسُ وتشتتُ ضوءِ الشمسِ على ملايينِ الهباءاتِ من الغبارِ، وقُطيراتِ الماءِ وبخارهِ، وجزيئاتِ غازيةِ، وغيرها من مكوناتِ هذا الجزءِ السفليِّ من الغلافِ الغازيِّ للأرض. (3)

وفي آيةِ الإسراءِ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (4) إشارةٌ إلى ظاهرةِ الفجرِ القطبيِّ وأطيافِه التي هي بقايا حالةٍ عامَّةٍ كانت تُعْمُ أفاقَ الأرضِ في بداياتِ التكوين. وهذه الظاهرةُ (Aurora and Auroralspectra) التي تُعرَفُ -أيضًا- بظاهرةِ الأضواءِ القطبيةِ ظاهرةٌ نورانيةٌ يراها الناظرُ إلى صفحةِ السماءِ في المناطقِ القطبيةِ وشبه القطبيةِ، وتتركزُ -أساسًا- في المنطقتينِ الواقعتينِ بين كلِّ من قطبيِّ الأرضِ المغناطيسيينِ وَخَطِّي العرضِ المغناطيسيينِ: (67) درجة شمالًا، 67 درجة جنوبًا. وهي مجموعةٌ من الأطيافِ زاهيةِ الألوانِ تتنوعُ بين الأحمرِ، والأخضرِ، والأبيضِ المشوبِ بزرقه، والبنفسجيِّ، والبرتقاليِّ. ويدومُ توهجُها لثوانٍ أو لِدَقَائِقٍ، ثُمَّ تخبو لتعودَ إلى

(1) يس، 37. ن: من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 42259-19 أغسطس-2002.

(2) الشمس، 3.

(3) ن: من أسرار القرآن، صحيفة الأهرام، عدد: 42448-24 فبراير-2003 م.

(4) الآية: 12.

اللمعان من جديد. وتشغل أفقياً مساحاتٍ شاسعةً على هيئة هالاتٍ حلقيّة، أو قوسيّة متموجة، تُكوّن عددًا من الستائر النورانية المطوية المتدلّية من السماء، وهي تُرى ليلاً في نطاق القطبين في ظلمة الليل حالكة السواد، وبخاصّة عند اشتداد الثورات الشمسية التي تقذف الشمس من خلالها بالأشعة الكونية باتجاه الأرض، ويقوم المجال المغناطيسي للأرض بتوجيه الأغلبية العظمى لهذه الإشعاعات إلى القطبين، وهو ما يحمي بقية أقاليم الأرض من آثارها السلبية. (1)

والتفسير العلمي لهذه الظاهرة يتلخص في حركة الأشعة الكونية بأنواعها محاذيةً خطوط المجال المغناطيسي للأرض في حركة لولبية، وبانحناء هذه الخطوط تُصَبُّ في قطبي الأرض المغناطيسيين. وفي هذه الرحلة تسحب معها موجات الأشعة الكونية، وذلك لاستحالة عبور مغناطيسية الأرض، وباصطدام الشحنات المتعددة يتم تفرغها من شحناتها الكهربائية، ومن ثم تتحقّق ظاهرة الفجر القطبي. وللأرض نُطقٌ حماية هي نطاق الأوزون، نُطقُ التآين المتعددة، أحزمة الإشعاع، والنطاق المغناطيسي للأرض، وهي مندرجة في الغلاف الجوي للأرض تقوم بحمايتها من عوادي الرجح السماوية، ولم تكن موجودة في بدء خلق الأرض، ولم تتكون إلا على مراحل متتالية من بداية خلق الأرض. فقد كان ليل الأرض يعجُّ بأطياف ظاهرة توهج الهواء، وأضواء النجوم والمجرات، والفجر القطبي؛ ولم تزل هذه الأنواع تُرى في صفحة السماء ليلاً؛ غير أنّها كانت عظيمة التوهج واللمعان بسبب انعدام أو ضعف نُطق الحماية التي تكونت بشكل تدريجي، ولم تزل هذه النُطقُ تشكل حيزاً ضعيفاً في منطقة القطبين ممّا ينتج عنه ظاهرة الشفق القطبي. (2)

والتعبير بالمحو في آية الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ يشير إلى محو وإزالة آثار وصورة الظاهرة النورانية من أنحاء

(1) من أسرار القرآن بتصرف، صحيفة الأهرام، عدد: 41867-23 يوليو-2001

(2) السابق والموضع.

الأرض التي يتركز فيها العمرانُ البشريُّ مع بقاء هذه الحالة النورانية في منطقة القطبين، فالمحوُّ محوٌ للآثارِ السلبية مع بقاء صورة الظاهرة تُذكِّرُ برعاية الله وحفظه لخلقه في الأرض التي استعمرهم فيها.

ونسبة الإبصارِ إلى النهارِ بصيغة اسم الفاعلِ إشارةً ضمنيةً إلى تجلية النهارِ للشمسِ وكونه مسؤولاً عن إنارة الأرضِ بانعكاسِ أشعة الشمسِ على جزيئات الغلافِ الغازي، وتردُّها عليها، وتشتتها في أنحاءِ الجو، ومن ثمَّ تحقُّقُ نورِ النهارِ على الأرض.

خاتمة

تبلورت فكرة هذه الدراسة تأسيسًا على النظر في قُدسيّة الكلمة القرآنية وطبيعتها الخاصة من خلال دورها في الأداء المعنوي الذي يبني على إبداعية الاتصال في النصّ أي جمالية الانتظام في السياق المُسفر عن علاقاتٍ لا حصر لها تُنتج تفسيرها القراءة الممعنة في تمثّل القيم الجمالية المعنوية. وذلك عبر سياق حصر مستويات الكلمة أو أبعادها المُعدّة للبحث في ثمانية أبعاد: لغوية فنية- أسلوبية جمالية. أي من خلال الكلمة الحرف، والمستوى المصدرى، والبعد الاشتقائي، وحالة الجمود النحوي الدالّ دلالةً فنية. وهذا هو الإطار اللغويّ الفني. وأمّا الإطار الأسلوبيّ الجماليّ، فتم عبْره دراسة الوظيفة والصيغة الأسلوبية للكلمة، وقيم الزمان والمكان للكلمة، وهو المستوى الظرفي، والدلالة الرمزية باعتبارها إحدى أهمّ الدلالات المعنوية للكلمة، والدلالة الموضوعية باعتبارها المستوى المكمل لمجموع الدلالات على أساس أهمية الموضوع في السياق المعنوي. وخاصة فيما يتعلق بالنصّ القرآني.

وفي ما يلي عرضٌ لأهمّ نتائج الدراسة وتوصيات الباحث:

أولاً: يُعدّ التحليل البلاغيّ أو القراءة الجمالية للنصّ القابل لهذا النوع من التناول الأسلوب الأمثل في التذوق ورصد ما في المادة التي تتمّ دراستها من سماتٍ فنيةٍ وعناصرٍ إبداعية. **ثانياً:** تُنتج الدراسة التحليلية للكلمة القرآنية معرفةً نوعيةً بعمقٍ مبدأ الإعجاز وفكرة الجمال المطلّق في نظم القرآن على أن تتمّ هذه الدّراسة بالارتباط الدلاليّ -دلالةً فنية- بالسياق أي بسياق الجملة، والآية، والسورة.

ثالثاً: يَضِبُّ مصطلح القيم المعنوية كلّ ما يمكن أن يُمثّل معنىً خاصاً -على مستوى الأداء الجمالي- من عناصر التعبير، والإشارات، والإيماءات، والمعارف المتنوّعة التي يتصلُّ بها النصّ القرآنيّ، أو يستعملها في التعبير عن المضمون الكليّ أو الجزئيّ.

رابعاً: أهمية السياق باعتباره أساساً من أسس قراءة النصّ القرآنيّ قراءةً تستند إلى فنية الأساليب.

خامساً: من نتائج البحث أنّ العلوم اللغوية تُوصف بأنها مداخل وآليات تُمدّ الدرس الجماليّ الأسلوبيّ بعناصر تضيء الفهم، وتدعّم طبيعة البحث المعرفية.

سادساً: من توصيات الباحث أنّ يتمّ الاهتمام الخاصّ المميّز بدراسة القرآن دراسةً تعتمد مستويات التحليل، وتعمّق أسرار التعبير القرآنيّ لافتقار المكتبة العربية إلى هذه الأنماط التي تبحث في التراكيب والأساليب. وبخاصة على مستوى الرسائل الجامعية.

سابعاً: أنّ يتبنّى الباحثون في الحقول الأدبية، وفي دراسة النصّ القرآنيّ النظرية الجمالية، أو الدراسة الأسلوبية في مستواها الفنيّ التحليلي، بعيداً عن جفاف المنهجيات اللسانية التي تلائم علماء اللغة والألسنية، وبعيدا عن مخزجات المنهج البنيويّ وما بعده، والقراءات الحداثيّة لدى الغربيين ومروّجي هذه الثقافات في الشرق.

ثامناً: أنّ تتمّ العناية بتجديد الفكر البلاغيّ بتعميق توظيف المنهج الأسلوبيّ الجماليّ مع مناقشة عناصر الفكر البلاغيّ قديماً وحديثاً. مع العناية بتنوع مصادر الدراسة دون الاقتصار على المؤلف والمشتهر من المصادر العلمية.

تاسعاً: أنّ تكون الأولوية في القراءة التحليلية متصلةً بالرؤية التذوقية للنص، ومتصلةً باستمداد الرؤى من منتاليات التعبير وعلاقاتها الخاصة لكون قواعد العلم أو تعقيدات علوم البلاغة قد لا تفي باستحقاقات المادة ودواعيها الضمنية في التفاعل والتأثر الوجدانيّ والعقليّ.

عاشراً: أنّ يستحضّر الباحثون -دائمًا- فُدسيّة القرآن ومنزلته العظمى بالاحترار في القيام بعملية التفسير الجماليّ بأن يكون البحث منضبطاً بمقتضيات اللغة وكتب التفسير المعتمدة. وهذا يؤدي إلى اجتناب مستويات القراءة العلمانية التي تؤمن بتاريخية النصّ القرآنيّ وقابليته للنقد والتوجيه.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ملاحظة: إذا أُقْتَصِرَ على إيراد تاريخين ميلادي وهجري بعد اسم المؤلف، فَهُمَا للوفاة.

القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم، مركز النور، القاهرة- الزيتون، 1985 م.

1. آراء أهل المدينة الفاضلة، الفيلسوفُ المُعَلِّمُ الثاني أبو نصر محمد بن محمد بن طرخام بن أوزلغ الفارابي: (260-339 هـ=874-950 م)، ت: أ. ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، ط: 4، 1982.
2. إبراز المعاني من حرز الأمانى في القراءات السبع، الإمام المؤرِّخ شيخ دار الحديث الدمشقية أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة: (599-665 هـ=1202-1267 م)، ت: أ. إبراهيم عوض، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ع: 2، د.ت.
3. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر- ويُسمَّى: منتهى الأمانى والمسرَّات في علوم القراءات، العلامَّةُ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدميَّاطي الشهير بالبَّناء: (1117 هـ=1705 م)، ت: أ. أنس مهرة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1، 1419 هـ=1998 م.
4. الإتيقان في علوم القرآن، الإمامُ الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى الشافعى: (849-911 هـ=1445-1505 م)، ت: أ. محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع: 4، 1394 هـ=1974 م.
5. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الرحالةُ الجغرافيُّ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البَّناء المقدسى البشارى: (336-نحو

- 380 هـ (=947- نحو 990)، ت: أ. غازي طليعات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق- سوريا، 1980.
6. الإحكام في أصول الأحكام، الإمامُ الأصوليُّ سيفُ الدين أبو الحسن علي بن أبي عليِّ بن محمد بن سالم التَّغْلِبِي الأَمَدِي الشافعي: (551/631 هـ=1156-1233 م)، ت: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 2، ع: 4، 1406 هـ=1986 م.
7. الإحكام في أصول الأحكام، الإمامُ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم بن غالب بن صالح الأندلسي القرطبي الظاهري: (384-456 هـ=994-1064 م)، دار الحديث، القاهرة، ط: 1، ع: 8، 1404 هـ=1984 م.
8. أحكام القرآن، الإمامُ القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلامة الأزدي الحجري الطحاوي الحنفي المصري: (238-321 هـ=852-933 م)، ت: أ. سعد الدين أونال، مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، ط: 1، ع: 2، 1418 هـ=1998 م.
9. أحكام القرآن، شيخ الشافعية مدرس النظامية شمس الإسلام نزيل بغداد عماد الدين أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري الكيا الهراسي: (450-504 هـ=1058-1110 م)، ت: أ. موسى محمد علي- عزت عبده عطية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ع: 4، 1405 هـ=1985.
10. إحياء علوم الدين، الإمامُ حُجَّةُ الإسلامِ زَيْنُ الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي الخراساني الشافعي: (450-505 هـ=1058-1111 م)، دار المعرفة، بيروت، ع: 4، 1983.
11. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، المؤرِّخ الرحالة المعتزلي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي البغدادي نزيل

- مصر: (346 هـ = 957 م)، إشراف: لجنة من الأساتذة، دار الأندلس، بيروت، ط: 2، د.ت.
12. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: تفسير أبي السعود، الإمام القاضي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي التركي المستعرب: (898-982 هـ = 1493-1574 م)، دار إحياء التراث، بيروت، ع: 9، د.ت.
13. أساس البلاغة، العلامة جاز الله أبو القاسم محمود بن عمّار بن محمد الخوارزمي الزمخشري المعتزلي: (467-538 هـ = 1075-1144 م)، دار الفكر، بيروت، 1399 هـ = 1979 م.
14. أسباب النزول، الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن متّويه الواحدي النيسابوري الشافعي: (468 هـ = 1076 م)، مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، توزيع: دار الباز للنشر والتوزيع، القاهرة- مكة المكرمة، 1968 م.
15. أسرار البلاغة، الإمام النحويّ صاحب نظرية النّظم أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني الشافعي الأشعري: (471 هـ = 1078 م)، ت: الشيخ محمد رشيد رضى، دار المنار، القاهرة، ط: 4، 1947 م.
16. الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ الإمام أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الكفاني العسقلاني الشافعي: (773-852 هـ = 1372-1449 م)، ت: أ. الشيخ محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط: 1، ع: 8، 1412 هـ = 1992 م.
17. أصول السرخسي، القاضي الأصولي المجتهد شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي الخراساني الحنفي: (483 = 1090 م)، ت: أ. أبو الوفاء الأفغاني، عُنِيَتْ بنشره لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الدكن بالهند، دار الكتاب العلمية، بيروت- لبنان، ط: 1، ع: 3، 1414 هـ = 1993 م.

18. الأصول في النحو، الإمام العلامة أبو بكر محمد بن السري بن سهل بن السراج البغدادي: (316 هـ=929 م)، ت: د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 3، ع: 3، 1988.
19. إعجاز القرآن، الإمام القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني البصري البغدادي المالكي الأشعري: (338-403 هـ=950-1003 م)، تقديم: السيد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط: 5، د.ت.
20. إعلام المؤقعين عن رب العالمين، الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ابن قيم الجوزية: (791-851 هـ=1292-1350 م)، ت: أ. طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ع: 4، 1973 م.
21. إغائة اللهفان من مصائد الشيطان، الإمام ابن القيم، ت: د. محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط: 2، ع: 2، 1395 هـ=1975 م.
22. الأغاني، العلامة الأديب أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم الأصفهاني الأموي المرواني: (284-356 هـ=897-967 م)، ت: أ. سمير جابر - علي مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: 2، ع: 24، د.ت.
23. أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، الإمام زين الدين مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي: (1033 هـ=1624 م)، ت: أ. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1406 هـ=1986 م.
24. اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الخضر النميري ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي: (661-728 هـ=1263-1328 م)، دراسة وتحقيق: أ. ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ط: 7، ع: 2، 1419 هـ=1999 م.

25. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، العلامة أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبّيد الله الأنباري الأنصاري الشافعي نزيل بغداد: (513-577 هـ=1119-1181 م)، ت: أ. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ع: 2، 1982.
26. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: تفسير البيضاوي، القاضي الفقيه اللغوي ناصر الدين أبو سعيد أو أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي الشافعي: (585 هـ=1286 م)، ت: أ. عبد القادر عزّفات، دار الفكر، بيروت، ط: 1، ع: 5، 1416 هـ=1996 م.
27. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، الإمام العلامة أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد ابن هشام الأنصاري: (708-761 هـ=1309-1360)، ت: أ. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ع: 4، 1399 هـ=1979 م.
28. الإيضاح في علوم البلاغة، العلامة قاضي القضاة أبو المعالي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر الشافعي، الخطيب القزويني خطيب دمشق: (666-739 هـ=1268-1338 م)، ت: أ. بهيج غزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، ط: 4، 1998 م.
29. إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجل، الإمام الأنباري الأنصاري، ت: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مَجْمَع اللغة العربية بدمشق، (1971).
30. بحر العلوم، الإمام الفقيه الزاهد أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي الحنفي الملقّب بإمام الهدى: (373 هـ=983 م)، ت: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، ع: 3، د.ت.

31. نَسَبُهُ أ. الزركلي في الأعلام إلى الإمام علاء الدين السمرقندي القرماني المتوفى نحو: 880 هـ. وبيّن خطأ مَنْ نسبَه إلى الإمام أبي الليث السمرقندي. ن: 32/5.
32. البحر المحيط في أصول الفقه، الإمام الأصولي بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي المصري ثم التركي: (745-794 هـ = 1344-1392 م)، ت: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ع: 4، 1421 هـ = 2000 م.
33. البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، العلامة أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني الإدريسي الأنجزي الفاسي المالكي الشاذلي: (1160-1224 هـ = 1774-1809 م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، ع: 8، 1423 هـ = 2002 م.
34. البدء والتاريخ، المؤرخ المُطَهَّر بن طاهر المقدسي: (تَعَدَّ: 355 هـ = تَعَدَّ: 966 م)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، ع: 6، د.ت.
35. بدائع الفوائد، الإمام ابن القيم، ت: أ. هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المُكْرَمَة، ط: 1، ع: 4، 1416 هـ = 1996 م.
36. البداية والنهاية، الإمام الحافظ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمَرَ بن كثير بن ضوء القرشي البُصروي ثم الدمشقي: (701-774 هـ = 1302-1373 م)، ت: أ. عبد الله عبد المحسن التركي، دار هجر، الجيزة- القاهرة، ع: 20، 1997 م.
37. البرهان في أصول الفقه، إمامُ الحَرَمينِ شيخ الشافعية رُكنُ الدين أو ضياء الدين أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حَيُّوَيْه الجويني النيسابوري: (419-478 هـ = 1028

- 1085 م)، ت: أ. صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط: 1، ع: 2، 1418 هـ=1997 م.
38. البرهان في علوم القرآن، الإمام الزركشي، ت: أ. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط: 1، ع: 4، 1957 م.
39. بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وأهل الإلحاد القائلين بالحلول والاتحاد، شيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة العلوم والحكم، ت: د. موسى بن سليمان الدويش، ط: 1، 1408 هـ=1988 م.
40. بيان إعجاز القرآن - مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: سلسلة: ذخائر العرب - 16، الإمام الفقيه المحدث أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب البستي الملقّب بالخطّابي: (319-388 هـ=931-998 م)، ت: أ. محمد خلف الله- د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط: 3، 1976 م.
42. البيان والتبيين، الإمام العلامة المعتزلي أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي الشهير بالجاحظ: (163-255 هـ=780-869 م)، ت: أ. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 7، ع: 4، 1418 هـ=1988 م.
43. البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، الإمام قاضي الجماعة أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي: (450-520 هـ=1058-1126 م)، ت: د. محمد حجي وآخرين، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط: 2، ع: 20، 1408 هـ=1988 م.
44. البيان في عدّ آي القرآن، الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان الداني المعروف بابن الصيرفي: (371-444 هـ=981-1053 م)، ت: د. غانم

- قدوري حمد، منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت، ط: 1، 1414 هـ=1994 م.
45. البيان في غريب إعراب القرآن، الإمام أبو البركات الأنباري، ت: د. طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع: 2، 1980.
46. تاج العروس من جواهر القاموس، العلامةُ المُحدِّثُ الأديب أبو الفيض محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي ثم الواسطي الملقَّب بمرتضى: (1145-1205 هـ=1732-1790 م)، ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ع: 40، د.ت.
47. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الإمام الحافظ المؤرِّخُ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي الدمشقي ثم التركماني: (673-748 هـ=1274-1348)، ت: أ. عُمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، ع: 52، 1407 هـ=1987 م.
48. تاريخ الرسل والملوك - تاريخ الطبري، الإمامُ المفسر أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الطبري: (224-310 هـ=839-923 م)، دار الكُتُب العلمية، بيروت، ط: 1، ع: 5، 1987 م.
49. التبيان في أقسام القرآن، الإمام ابن القيم، دار الفكر، بيروت، د.ت.
50. تحبيرُ التَّيسير في القراءات العَشْر، الإمامُ شمسُ الدِّين أبو الخير محمد بن محمد بن علي بن يوسف بنُ الجَزْرِي العمري الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي: (ابن الجَزْرِي (751-833 هـ=1350-1429 م)، ت: د. أحمد محمد مفلح القضاة، دار الفرقان، الأردن، ط: 1، 2000 م.
51. تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، الإمامُ مُحدِّثُ الديار الشامية أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ابن الزكي أبي محمد المُزِّي القُضاعي

- الكلبي: (654-742 هـ = 1256-1341 م)، ت: أ. عبد الصمد شرف الدين،
المكتب الإسلامي - الدار القَيْمَة، ط: 2، ع: 13، 1403 هـ = 1983 م.
52. تفسير البحر المحيط، الإمام اللغويّ الموسوعيّ أبو حَيَّان أَثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حَيَّان الغرناطيّ الأندلسيّ الجيانيّ النَّفزيّ: (654-745 هـ = 1256-1344 م)، ت: أ. عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض - د. زكريا عبد المجيد النوقي - أحمد النجوليّ الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، ع: 8، 1422 هـ = 2001 م.
53. تفسير الصنعاني، الإمام المُحدِّثُ أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحِميريّ الصنعانيّ: (126-211 هـ = 744-827 م)، ت: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط: 1، ع: 3، 1410 هـ.
54. تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ت: أ. سامي سلامة، دار طيبة، ط: 2، ع: 8، 1420 هـ = 1999 م.
55. التفسير الكبير: مفاتيح الغيب، الإمامُ أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين النَّيْمِيُّ البكريّ الرَّازيّ المعروف بخطيب الرَّيِّ: (544-606 هـ = 1250-1210 م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ع: 32، 1421 هـ = 2000 م.
56. التقرير والتحبير: شرحُ ابن أمير الحاج عليّ تحرير ابن الهُمام في أصول الفقه الجامع بين اصطلاحَي الحنفية والشافعية، الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن أمير حاج الحَلْبِيّ الحنفيّ (ابن الموقت): (825-879 هـ = 1422-1474 م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 3، ع: 3، 1403 هـ = 1983 م.

57. تلبیس إبلیس، الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن عبید الله الجوزي: (508-597=1114-1201 م)، ت: د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، 1985.
58. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، الإمام أبو عمَرَ يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النَّمري القرطبي المالكي: (368-463 هـ=978-1071 م)، ت: أ. مصطفى بن أحمد العلوي- محمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ع: 22، 1387 هـ.
59. تناسق الدرر في تناسب السور، الإمام السيوطي، ت: أ. عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1406 هـ=1986 م.
60. الجامع لأحكام القرآن، الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي: (671 هـ=1273 م)، ت: أ. هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ع: 20، 2003 م.
61. جامع البيان في تأويل القرآن: (تفسير الطبري)، ت: أ. أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط: 1، ع: 24، 1420 هـ=2000 م.
62. جامع رسائل ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، جدة- المملكة العربية السعودية، ط: 2، ع: 2، 1405 هـ=1985 م.
63. الجامع الصحيح: سنن الترمذي، الإمام الممَحَّدُ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سُورَة بن موسى بن الضحاک الترمذي السلمي: (209-279 هـ=824-892 م)، ت: أ. أحمد محمد شاكر وآخرين، إحياء التراث، بيروت، ع: 5، د.ت.
64. الجامع الصحيح المسمّى صحيح مسلم، الإمام الحافظ المَجُودُ أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن وَرْد بن كُوشاذ القشيري النيسابوري: (204-261 هـ=820-875 م)، تعليق: أ. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ع: 5، د.ت.

65. جامع المسائل للإمام ابن تيمية، ت: أ. محمد عزيز شمس - إشراف: أ. بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط: 1، ع: 6، 1422 هـ.
66. الجمهرة في اللغة، العلامة اللغوي أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد البصري ثم الأزدي من أزد عُمان: (223-321 هـ=838-933 م)، ت: أ. رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ع: 3، 1987.
67. الجنى الداني في حروف المعاني، العلامة الأديب المفسر أبو محمد بدر الدين الحسن بن قاسم بن عبد الله المرادي المصري ثم المغربي المعروف بابن أم قاسم: (749 هـ=1348 م)، ت: د. فخر الدين قباوة - محمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 2، 1983.
68. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الإمام ابن تيمية، ت: د. علي حسن ناصر - عبد العزيز إبراهيم العسكر - حمدان محمد، دار العاصمة، الرياض، ط: 1، ع: 6، 1414 هـ.
69. الجواهر الحسان في تفسير القرآن: تفسير الثعالبي، الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري: (786-875 هـ=1384-1470 م)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ع: 4، د.ت.
70. الحروف والأدوات، إمام العربية أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الأزدي اليحمدي الفراهيدي البصري من أزد عُمان: (100-170 هـ=718-786 م)، ت: د. هادي حسن حمودي، المطبعة الشرقية، ط: 1، 2007 م.
71. الحيوان: كتاب الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: أ. عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ع: 8، 1416 هـ=1996 م.
72. خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، العلامة المُتقِنُ عبد القادر بن عمَر البغدادي ثم المصري: (1030-1093 هـ=1620-1682 م)، ت: أ. محمد نبيل طريفي - إميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ع: 13، 1998 م.

73. الخصائص، العلامة اللغوي أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي ثم البغدادي: (392 هـ=1002 م)، ت: أ. محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت، ع: 3، د.ت.
74. دُرَّةُ التَّنْزِيلِ وَغَرَّةُ التَّأْوِيلِ، الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي: (420 هـ=1029 م)، ت: د. محمد مصطفى أيدين، وزارة التعليم العالي، السعودية، 1422 هـ=2001 م.
75. الذَّررُ فِي اخْتِصَارِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ، الإمام ابن عبد البر، ت: د. شوقي ضيف، وزارة الأوقاف- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط: 1، 1995 م.
76. دقائق التفسير: مختارات من تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ع: 6، 1404 هـ=1984.
77. دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني، ت: د. محمد رضوان الداية- د. فايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط: 2، 1407 هـ=1987.
78. ديوان أبي ذؤيب الهذلي، الشاعر المُخَضَّرَم نزيل المدينة أبو ذؤيب خُوَيْلِد بن خالد بن مُحَرِّث الهذلي: (نحو: 27 هـ=نحو: 648 م)، ت: د. أنطونيوس بطرس، دار صادر، ط: 1، 2003 م.
79. ديوان الأخطل، شاعرُ بني أُمَيَّةَ أبو مالك غياث بن غوث بن الصَّلْت بن طارقة بن عمرو التُّغَلْبِي: (19-90 هـ=640-708 م)، ت: أ. راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ط: 1، بيروت، 1992 م.
80. ديوان الأعشى، أبو بصير صَنَاجَةَ العربِ صاحب المعلقة الأعشى الكبير ميمون بن قيس بن جندل الوائلي من بني قيس بن ثعلبة: (7 هـ=629 م)، ت: لجنة الدراسات بدار الكتاب اللبناني، إشراف: أ. كامل سليمان، بيروت، ط: 1، د.ت.

81. ديوان امرئ القيس، صاحب المعلّقة امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكندي اليماني من بني آكل المزار: (نحو: 130-80.ق.ه=نحو: 497-545 م)، ت: أ. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط: 5، د.ت.
82. ديوان جرير: شرح ديوان جرير، ابن عطية بن حذيفة بن بدر بن سلمة الخطفي النجدي ثم التميمي: (28-110 ه=640-728 م)، ت: أ. إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، ط: 2، د.ت.
83. ديوان الحارث بن حلزة، صاحب المعلّقة والمفاخر ابن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي من أهل بادية العراق: (نحو: 50.ق.ه=نحو: 570 م)، ت: أ. مروان عطية، دار النووي- دار الهجرة، ط: 1، 1994.
84. ديوان الخطيب، الهجاء المخصرم أبو مليكة جزول بن أوس بن مالك العبسي: (45 ه=665 م)، اعتنى به: حمدو طماس، دار المعرفة، ط: 1، 2003 م.
85. ديوان طرفة، الشاعر الجاهلي صاحب المعلّقة أبو عمرو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، (نحو: 86-60.ق.ه=نحو: 538-564 م)، شرح وتقديم: أ. مهدي محمد ناصر الدين، دار الكُتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1987.
86. ديوان العجاج، مخصرم الدولتين الراجز الحجة أبو الجحاف روبة بن عبد الله العجاج بن روبة التميمي السعدي: (145 ه=762 م)، رواية وشرح: الإمام الأصمعي، ت: د. سعدي ضناوي، دار صادر، بيروت، ط: 1، 1997.
87. ديوان عمر بن أبي ربيعة، أبو الخطّاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي: (23-93 ه=644-712 م)، تقديم: أ. قذري مايو، عالم الكتب، بيروت، ط: 1، ع: 2، 1997.

88. ديوان عمرو بن مَعْدِ يَكْرِب، فارس اليمين أبو ثور عمرو بن ربيعة بن عبد الله الزَّبيدي: (21 هـ=642 م)، جمعه: أ. مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط: 2، 1985.
89. ديوان عنتر، صاحب المعلقة عنتر بن شداد بن عمرو بن معاوية بن فراد العبسي النجدي: (22 ق.هـ=600 م)، اعتنى به وشرحه: أ. حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط: 2، 2004 م.
90. ديوان قيس بن الملوّح، الشاعر المُنَمِّم قيس بن الملوّح بن مزاحم العامري النجدي: (68 هـ=688 م)، ت: د. حسين نصار، دار مصر للطباعة، 1960.
91. ديوان الكُميت: شعر الكُميت، شاعر الهاشميين أبو المُستَهَل ابن زيد بن خنّس الأسيدي الكوفي: (60-126 هـ=680-744 م)، جمع وتقديم: د. داود سلوم، عالم الكتب، بيروت، ط: 2، ع: 2، 1997.
92. ديوان لبيد بن ربيعة، صاحب المعلقة المُخَضَّرُ الصَّحَابِيُّ أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن مالك العامري من عالية نجد: (41 هـ=661 م)، ت: أ. حمدو طماس، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط: 1، 2005 م.
93. ديوان ليلي الأخيلية، ليلي بنت عبد الله بن الرّحّال بن شداد بن كعب من بني عامر بن صعصعة: (نحو: 80 هـ=نحو: 700 م)، تحقيق وشرح د. واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط: 1، 1998 م.
94. ديوان المُنتَبِّي مع فهارسه ومعانيه، شاعر العربية أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي: (303-354 هـ=915-965 م)، شرحه: أ. عبود أحمد الخزرجي، المكتبة العالمية، بغداد، 1988 م.
95. دَمُّ التَّأْوِيل، الإمام مُوَفَّقُ الدِّينِ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الجماعلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي: (541-620 هـ=1146-1223 م)، ت: أ. بدر البدر، الدار السلفية، الكويت، ط: 1، 1986 م.

96. الرسالة الشافية- مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: سلسلة: ذخائر العرب- 16، الإمام عبد القاهر الجرجاني.
97. رسالة للفارابي في الرد على يحيى النحوي في الرد على أرسطوطاليس- ضمن رسائل فلسفية للكِندي والفارابي وابن باجة وابن عدي، ت: د. عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت، 1983.
98. رسالة منازل الحروف، العلامةُ أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرُّماني البغدادي ثم السامرائي المعتزلي: (296-384 هـ=908-994 م)، ت: د. إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمان، د.ت.
99. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامةُ المتصوِّفُ المُجَدِّدُ أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي الحسيني البغدادي الآلوسي الكبير: (1217-1370 هـ=1802-1954 م)، دار إحياء التراث، بيروت، ط: 4، ع: 30، 1985.
100. الروض المِعْطَار في خبرِ الأقطار، الإمامُ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور الحِميري الأندلسي السبتي: (900 هـ=1495 م)، ت: د. إحسان عباس، مؤسسة الناصر للثقافة، بيروت، مطابع دار السراج، ط: 2، 1980 م.
101. ریحانة الكُتَّاب وَنُجْعَة المُنْتَاب، ذو الوزارتین المؤرِّخُ الأديبُ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللُّوشي الأصل الغرناطي المشهورُ بلسان الدين ابن الخطيب: (713-776 هـ=1313-1376 م)، ت: أ. محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 1، ع: 2، 1980.
102. زاد المسير في علم التفسير، الإمام ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 4، ع: 9، 1407 هـ=1987 م.

103. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكّر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، الإمام الزاهد محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الصالحي الشامي: (942 هـ)، ت: أ. عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط: 1، ع: 12، 1414 هـ=1993 م.
104. السراج المنير في تفسير القرآن، المفسر الفقيه شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني الشافعي المعروف بالخطيب الشربيني: (977 هـ=1570 م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ع: 4، د.ت.
105. سرُّ صناعة الإعراب، العلامة ابن جني، ت: د. حسن هندائي، دار القلم، دمشق، ط: 1، ع: 2، 1985.
106. سنن أبي داود، الإمام الحافظ مُحَدِّث البصرة سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شدّاد السجستاني الأزدي: (202-275 هـ=817-889 م)، ت: أ. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ع: 4، د.ت.
107. سنن الدارقطني، الإمام أبو الحسن علي بن عمَرَ بن أحمد بن مهدي الدارقطني البغدادي الشافعي: (306-385 هـ=919-995 م)، ت: أ. السيد عبد الله هاشم يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، ع: 4، 1386 هـ=1966 م.
108. السنن الكبرى، الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني البيهقي الشافعي: (384-458 هـ=994-1066 م)، ت: أ. محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المُكْرَمَة، ط: 1، ع: 10، 1414 هـ=1994 م.
109. سِيرُ أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، ت: مجموعة محققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط: 3، ع: 23، 1985.
110. السيرة النبوية للإمام ابن كثير، ت: أ. مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ع: 4، 1976 م.

111. شذور الذَّهَب في معرفة كلام العرب، الإمام ابن هشام، ت: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، ط: 1، 1984.
112. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، قاضي القضاة الإمام بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد ابن عقيل القرشي العقيلي المصري الهمداني الشافعي: (694-769 هـ = 1294-1367 م)، ت: أ. محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط: 2، ع: 4، 1985.
113. شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، العلامة زين الدين خالد بن عبد الله بن أبي بكر محمد الجرجاوي المصري الأزهري المُلقَّب بالوَقَّاد: (838-905 هـ = 1434-1499 م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، ع: 2، 1421 هـ = 2000 م.
114. شرح الرُّضِيِّ على كافية ابن الحاجب، العلامة نجم الدين محمد بن الحسن الرُّضِيِّ الإستراباذي: (686 هـ = 1287 م)، تصحيح وتعليق: د. يوسف حسن عمَر، منشورات جامعة بنغازي، ع: 4، 1498 هـ - 1978.
115. شرح شافية ابن الحاجب- ومعه شرحُ شواهدِه للإمام عبد القادر البغدادي، العلامة رضي الدين الإستراباذي، ت: د. محمد نور الحسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ع: 4، 1395 هـ = 1975 م.
116. شرح شذور الذَّهَب في معرفة كلام العرب، القاضي الفاضل شمسُ الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجَوْجَرِي القاهري الشافعي: (821-889 هـ = 1418-1484 م)، ت: أ. نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة- المملكة العربية السعودية، ط: 1، ع: 2، 1423 هـ = 2004 م.
117. شرح صحيح الإمام البخاري لابن بَطَّال، العلامة المُحَدِّثُ أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بَطَّال البكري القرطبي ثم البلبنسي المعروف بابن اللِّجَام:

- (449 هـ = 1057 م)، ت: أ. أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض - السعودية، ط: 2، ع: 10، 1423 هـ = 2003 م.
118. شرح العقيدة الطحاوية، الإمام الطحاوي، تحقيق وتعليق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي - أ. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 13، ع: 2، 1419 هـ = 1998 م.
119. شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ، العلامة ابن مالك، ت: أ. عدنان الدوري، مطبعة العاني، بغداد، 1397 هـ.
120. شرح مُختَصَر الرُّوضَةِ، العلامةُ الفقيهُ الأصوليُّ نَجْمُ الدين أبو الربيع سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري العراقي الحنبلي: (657-716 هـ = 1259-1316 م)، ت: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: 1، ع: 3، 1407 هـ = 1987 م.
121. شُعب الإيمان، الإمام البيهقي، ت: د. عبد العلي عبد الحميد حامد - أ. مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، الهند - بومباي، مكتبة الرشد، الرياض، ط: 1، ع: 14، 1423 هـ = 2003 م.
122. الشِّفَا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي المُحدِّث النَّسَابَةُ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي المغربي السبتي المالكي: (476-544 هـ = 1083-1149 م)، ومعه: حاشيةٌ مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء، العلامة أبو العباس تقيُّ الدين أحمد الشمني الإسكندري الحنفي: (801-872 هـ = 1399-1468 م)، دار الفكر، بيروت، ع: 2، 1409 هـ = 1988.
123. الصِّحَاح: تاج اللغة وصحاح العربية، العلامة اللغوي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي: (393 هـ = 1003 م)، ت: أ. أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 4، ع: 6، 1407 هـ = 1987.

124. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الإمام المحدث المؤرخ القاضي أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي البستي: (354 هـ=965 م)، ت: أ. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 2، ع: 18، 1414 هـ=1993 م.
125. صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه، الإمام أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي: (194-256 هـ=810-870 م)، ت: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة-بيروت، ط: 3، ع: 6، 1987.
126. الصواعق المرسله على الجهمية والمُعطلّة، الإمام ابن القيم، ت: د. علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط: 3، ع: 4، 1418 هـ=1998 م.
127. الطبقات الكبرى، الإمام المحدث أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البغدادي البصري الزُّهري مولاَهُم: (168-216 هـ=784-845 م)، دار صادر، بيروت، ع: 8، د.ت.
128. طبقات المفسرين، الإمام جلال الدين السيوطي، ت: أ. علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 1، 1396 هـ=1976 م.
129. الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: الإمام الناقد يحيى بن حمزة الحسيني العلوي الطالباني الزيدي الملقب بالمؤيد: (669-745 هـ=1270-1344 م)، ت: أ. محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، ع: 3، 1995 م.
130. علل النحو، العلامة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن العباس ابن الوراق: (381 هـ=991 م)، ت: أ. محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض-السعودية، ط: 1، 1420 هـ=1999.

131. العمدة في صناعة الشعر ونقده، الناقد الأديب المؤرّخ أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني المغربي المَسِيلِي المالكي الأزدي مولاهم: (390-463 هـ=1000-1071 م)، ت: أ. محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط: 5، د.ت.
132. العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي: (468-543 هـ=1076-1148 م)، ت: أ. محب الدين الخطيب- محمود مهدي الإستانبولي، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط: 2، 1407 هـ=1987 م.
133. عون المعبود شرح سنن أبي داود، الإمام المُحَدِّثُ أبو الطيب شرف الحق أبو عبد الرحمن محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر الصديقي العظيم آبادي من علماء الهند: (تَعَدَّ: 1310 هـ=تَعَدَّ: 1892 م)، ت: أ. عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة النبوية، ط: 2، ع: 14، 1388 هـ=1968 م.
134. عيون الرسائل والأجوبة على المسائل، الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: (1225=1293 هـ)، ت: أ. حسين محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط: 1. د.ت.
135. غاية المرام في علم الكلام، الإمام سيف الدين الآمدي، ت: أ. حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1391 هـ.
136. الفتاوى الكبرى: شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني، ت: أ. محمد عبد القادر عطا- مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط: 1، ع: 6، 1408 هـ=1987 م.
137. فتح الباري شرح صحيح البخاري، الإمام ابن حجر العسقلاني، إشراف: أ. محمد فؤاد عبد الباقي- مُحِبُ الدين الخطيب، مراجعة: الشيخ عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ع: 13، 1379 هـ.

138. فتح القدير الجامع بين فَنِّي الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام المُجَدِّدُ القاضي محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشُّوكاني: (1173-1250 هـ=1760-1834 م)، دار الفكر، بيروت، ع: 5، د.ت.
139. الفروق اللغوية، العَلَّامةُ أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: (بَعْدَ: 395 هـ=بَعْدَ: 1005 م)، تنظيم: بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ط: 1، 1412 هـ.
140. الفوائد، الإمام ابن القَيِّم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، 1393 هـ=1973 م.
141. القاموس المحيط، العَلَّامةُ اللغوي نزيل اليمن القاضي الأديب مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عُمَر الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي: (729-817=1329-1415 م)، ت: مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة بإشراف أ. محمد نعيم العرقسوسي، ط: 5، بيروت، 1996 م.
142. الكامل في التاريخ، المؤرِّخُ العَلَّامةُ أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ابن الأثير: (555-630 هـ=1160-1233 م)، ت: أ. عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، ع: 10، 1415 هـ.
143. كِتَابُ البديع، الإمامُ العَلَّامةُ الشاعر أبو العباس المُرتضي بالله عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي المعروف بابن المُعْتَز: (247-296 هـ=861-909 م)، ت: أغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، بيروت- لبنان، (1982).
144. الكِتَابُ لسبويه، إمامُ النحاةِ أبو بَشْر عمرو بن عثمان بن قنبر الشيرازي الحارثي بالولاء المُلقَّبُ بسبويه: (148-180 هـ=765-796 م)، ت: الشيخ عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ع: 5، 1414 هـ=1993 م.

145. كتاب المصاحف، الإمام الحافظ أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث بن أبي داود الأزدي السجستاني: (230-316 هـ=844-929 م)، ت: أ. محمد بن عبده، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، 1423 هـ=2002 م.
146. كُتُب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية في الفقه، ت: أ. عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، مكتبة شيخ الإسلام ابن تيمية، ع: 35، د.ت.
147. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: مُدَيَّلًا بحاشية ابن المنير وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي، الإمام الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ع: 4، 1407 هـ=1987.
148. الكشف والبيان: تفسير الثعلبي، المفسر المؤرِّخ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري: (427 هـ=1035 م) ت: أ. أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: أ. نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، ع: 10، 1422 هـ=2002 م.
149. الكليات: كتاب الكليات، القاضي اللغوي أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي الحنفي: (1094 هـ=1683 م)، ت: أ. عدنان درويش- محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419 هـ=1998.
150. اللامات: (كتاب اللامات)، العلامة النحوي أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزَّجَّاجي: (337 هـ=949 م)، ت: د. مازن المبارك، دار الفكر، دمشق، ط: 2، 1405 هـ=1985 م.
151. أُنْبَاب التَّوِيل فِي مَعَانِي التَّنْزِيل: تفسير الخازن، الإمام الفقيه المُحَدِّثُ علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشَّيْحِي الحلبِي ثم البغدادي الشافعي الشهير بالخازن: (678-741 هـ=1280-1341 م)، دار الفكر، بيروت- لبنان، ع: 7، 1979 م.

152. اللباب في علل البناء والإعراب، العلامة اللغويّ الرياضي أبو البقاء مُحِبُّ الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله البغدادي العُكْبَرِي: (538-616 هـ=1143-1219 م)، ت: أ. غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، ط: 1، ع: 2، 1995.
153. اللُّباب في علوم الكتاب، الإمام سراج الدين أبو حفص عُمر بن علي بن عادل الدِّمَشْقِي الحنبلي: (تُعَدُّ: 880 هـ=بُعَدُّ: 1475 م)، ت: أ. عادل أحمد عبد الموجود- علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط: 1، ع: 20، 1419 هـ=1998 م.
154. لُباب النقول في أسباب النُّزول، الحافظ السيوطي، ضبط وتصحيح: أ. أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
155. لسان العرب، الإمام العلامة اللغويّ الحُجَّةُ القاضي أبو الفضل جمال الدين محمد بن مَكْرَم بن علي ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي: (630-711 هـ=1232-1311 م)، دار صادر، بيروت- لبنان، مرفق بالكتاب حواشي اليازجي وآخرين، ط: 1، ع: 15، د.ت.
156. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، العلامة أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجَزْرِي المعروف بابن الأثير الكاتب: (558-637 هـ=1163-1239 م)، ت: أ. محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ع: 2، 1995 م.
157. مجاز القرآن، الإمام اللغوي النحوي أبو عبيدة مَعْمَر بن المُتَنَّى التَّمِي بالولاء البصري: (110-209 هـ=728-824 م)، ت: د. محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي- دار الفكر، القاهرة- بيروت، ط: 2، 1390 هـ.
158. مجالس ثعلب، العلامة الراوية إمام نحاة الكوفة أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيَّار البغدادي الشيباني بالولاء المعروف بثعلب: (200-291 هـ=816-

- 914 م)، ت: أ. عبد السّلام هارون، دار المعارف، مصر، ط: 4، ع: 2، 1980.
159. مَجْمَع الأمثال، الإمام أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري: (518 هـ=1124 م)، ت: أ. محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ع: 2، د.ت.
160. المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، الإمام ابن جني، وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ع: 2، 1420 هـ=1999 م.
161. المُحَرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: تفسير ابن عطية، الإمام أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي: (481-542 هـ=1088-1148 م)، ت: أ. عبد السّلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، لبنان، ع: 5، 1993 م.
162. المُحَكَّم والمحيط الأعظم، الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده المرسي: (398-458 هـ=1007-1066 م)، ت: أ. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000 م.
163. مختصر المعاني، العلامة المنطقي اللغوي نزيل سرخس سعد الدين مسعود بن عمّار بن مسعود النفتازاني الخراساني: (712-793 هـ=1312-1390 م)، دار الفكر، بيروت، ط: 1، 1411 هـ.
164. المُخَصَّص، ابن سيده المرسي، ت: أ. خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 1، ع: 5، 1417 هـ=1996.
165. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، الإمام ابن القيم، ت: أ. محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط: 1، ع: 3، 1393 هـ=1973 م.

166. المستدرک علی الصحیحین - ومعہ تعلیقات الإمام الذہبی فی التلخیص، الإمام الحافظ القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري الشهير بالحاكم ويُعرف بابن البيع: (321-405 هـ=933-1014 م)، ت: أ. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، ع: 4، 1411 هـ=1990 م.

167. المُستَنصَفِي مِن علم الأصول، الإمام الغزالي، دراسة وتحقيق: أ. محمد بن سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط: 1، ع: 2، 1417 هـ=1997 م.

168. مُسَنَدُ الإمام أحمد، الإمام الحافظ الحجّة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المروزي البغدادي الوائلي: (164-241 هـ=780-855 م)، ت: أ. شُعَيْب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط: 2، ع: 50، 1420 هـ=1999 م.

169. مشكاة المصابيح، الإمام المُحَدِّثُ وليُّ الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي: (741 هـ=1340 م)، ت: الشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: 3، ع: 3، 1405 هـ=1985.

170. مُشْكَلُ إعراب القرآن، المفسِّرُ المُقْرَأُ الخطيبُ أبو محمد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القرطبي القيسي القيرواني المولد: (355-437 هـ=966-1045 م)، ت: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ع: 2، 1985.

171. معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، الأديبُ المُؤرِّخُ الجغرافي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: (574-626 هـ=1178-1229 م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ع: 5، 1988 م.

172. معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت، ع: 5، د.ت.

173. المُعْجَم الصَّغِير، الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مُطَيَّر الطبراني اللُّحْمِي: (260-360 هـ=873-971 م، ت: أ. محمد شكور محمود أمير، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان، ط: 1، ع: 2، 1985.
174. معْجَم العَيْن، الإمام الخليل بن أحمد، ت: د. مهدي المخزومي- إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، لبنان، ع: 8، 1988.
175. المعجم الكبير، الإمام الطبراني، ت: أ. حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء الحديثة، الموصل، ط: 2، ع: 25، 1404 هـ=1983 م.
176. مُعْجَم مقاييس اللغة، العلامة أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي: (329-395 هـ=941-1004 م)، ت: أ. عبد السلام هارون، دار الجبل، بيروت، ع: 6، 1420 هـ=1999 م.
177. المُعْرَب في ترتيب المُعْرَب، العلامة اللغوي الأديب نزيل بغداد أبو الفتح برهان الدين ناصر بن عبد السيد أبي المكارم بن علي المُطَرِّزي الخوارزمي الحنفي المعتزلي: (538-610 هـ=1144-1213 م)، ت: أ. محمود فاخوري- عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط: 1، ع: 2، 1979.
178. مُعْنِي اللَّيْبِ عن كُتُب الأعراب، الإمام ابن هشام الأنصاري، ت: د. مازن المبارك- أ. محمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط: 6، 1985.
179. المُفْرَدَات في غريب القرآن، الإمام العارف المُحَقِّق أبو القاسم الحسين بن محمد بن المُفَضَّل المعروف بالراغب الأصفهاني: (502 هـ=1108 م)، ت: أ. محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ط: 1، د.ت.
180. المُفَضَّل في صنعة الإعراب، العلامة الزمخشري، ت: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط: 1، 1993.
181. المُقْتَضَب، الأديب اللغوي الإخباري أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأَكْبَر الأَزْدِي الثَّمَالِي البصري ثم البغدادي المُلقَّب بالمُبَرِّد أو المُبَرِّد: (210-

286 هـ (=826-899 م)، ت: أ. محمد عَظِيمَة، عالم الكتب، بيروت، ع: 4، د.ت.

182. مقدمة ابن خلدون، المؤرِّخ الاجتماعي المفكِّر القاضي المالكي ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي من ولد وائل: (732-808 هـ =1332-1406 م)، دار القلم، بيروت، 1984.

183. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الإمام الغزالي، ت: أ. بسام الجابي، مؤسسة الجفاني والجابي، قبرص، ط: 1، 1987.

184. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، الإمام الحافظ المؤرِّخ أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي: (627-708 هـ =1230-1308 م)، الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

185. المِلَلُ والنَّحْلُ، البارع الكلامي الفيلسوف نزيل بغداد أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني المُلقَّب بالأفضل: (479-548 هـ =1086-1153 م)، ت: أ. عبد العزيز الوكيل، شركة البابي الحلبي، مصر، 1387 هـ.

186. منازل الحروف، العلامَةُ الرُّماني، ت: د. إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمَّان، ط: 1، 1984.

187. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، الناقدُ الأديبُ أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم القرطاجني الأندلسي ثم المغربي: (608-684 هـ =1211-1285 م)، ت: د. محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

188. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الإمام الفقيه نزيل دمشق محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مُري بن حسن الحِزَامي الحوراني النَّووي الشافعي:

- 631-676 هـ (= 1233-1277 م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 2، ع: 18، 1392 هـ.
189. المواقف، المتكلم الأصولي أبو الفضل عَضُدُ الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار الإيجي الفارسي، ت: د. عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط: 1، ع: 3، 1997.
190. النشر في القراءات العشر، الإمام ابن الجَزْرِي، تصحيح: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتب العلمية، ع: 2، د.ت.
191. نَظْمُ الدَّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الآيَاتِ وَالسُّورِ، الإمامُ المجاهدُ برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاطِ بن علي بن أبي بكر البِقَاعِي: (809-885 هـ = 1406-1480 م)، الكتب العلمية، بيروت، ط: 2، ع: 8، 2002 م.
192. نقد الشعر، المنطقي الناقد أبو الفرج قُدَامة بن جعفر بن قُدَامة بن زياد البغدادي: (337 هـ = 948 م)، ت: د. عبد المنعم خفاجي، مكتب الكليات الأزهرية، القاهرة، ط: 1، 1978 م.
193. النكت في إعجاز القرآن - مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: سلسلة: ذخائر العرب - 16، العلامة الرُّمَاني.
194. النهاية في غريب الأثر والحديث، الإمامُ المُحَدِّثُ الأصولي أبو السعاداتِ مُجَدُّ الدين المبارك بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجَزْرِي الموصلي الشافعي ابن الأثير: (544-606 هـ = 1150-1210 م)، ت: الشيخ طاهر أحمد الزاوي - أ. محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ع: 5، 1399 هـ = 1979.
195. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، الإمام السيوطي، ت: أ. عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، مصر، ع: 3، د.ت.
196. وَفِيَّاتِ الأَعْيَانِ وَأَنْبَاءِ أبنَاءِ الزمان، المؤرخ الحجة الأديب قاضي القضاة نَزِيل مصر والشام شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خَلِّكان

البرمكي الإزيلي الشافعي: (608-681 هـ = 1211-1282 م)، ت: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ع: 7، 1994 م.

ثانيا: المراجع:

197. ابن جَبِّي النَّحْوِي، د. فاضل السامرائي، دار النذير للطباعة والنشر، بغداد، 1969 م.

198. ابنُ الرُّومِيِّ حَيَاتُهُ مِنْ شِعْرِهِ، أ. عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 6، 1967.

199. أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، 1970 م.

200. أثر الوقف على الدلالة التركيبية، د. محمد حبص، دار الثقافة العربية، 1414 هـ = 1993 م.

201. أدوات النص، أ. محمد تحريشي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000 م.

202. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، ناصر السنّة محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، 1985.

203. الأساس في التفسير، أ. سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط: 2، 1989.

204. أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، د. محمود السيد شيخون، دار الهداية، القاهرة، د.ت.

205. الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: 3، 1974 م.

206. الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة، أ. تركي علي الربيعو، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، 1992 م.

207. الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في نقد الأدب، د. عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس- ليبيا، 1977 م.

208. الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس- ليبيا، ط: 1، د.ت.
209. إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني، د. محمود توفيق، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط: 1، 1412 هـ.
210. الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، د. أحمد سعد محمد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط: 1، 1419 هـ=1999 م.
211. أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، أ. التيجاني عبد القادر حامد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- دار البشير، فرجينيا- عمان، ط: 1، 1995 م.
212. إضاءة النص، د. اعتدال عثمان، دار الحداثة، بيروت، ط: 1، 1988 م.
213. الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي، دار المعارف، ط: 3، د.ت.
214. إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب، الفكر العربي، القاهرة، 1964.
215. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، أ. مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط: 3، 1982.
216. الإعراب عند النحويين ونظرية العامل، د. عبد العزيز أبو عبد الله، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلام والمطابع، ليبيا، ط: 1، 1982.
217. إعراب القرآن وبيانه، أ. محيي الدين الدرويش، دار الإرشاد، سوريا، ع: 10، د.ت.
218. الأعلام، أ. خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 15، 2002 م.
219. أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، د. فاضل مصطفى الساقى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1977 م.
220. الألسنية العربية، أ. ريمون طحان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: 1، د.ت.

221. الإمام البقاعي ومنهجه في تأويل بلاغة القرآن، د. محمود توفيق محمد سعد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 1، 1424 هـ.
222. الإملاء والترقيم في الكتابة العربية، أ. عبد العليم إبراهيم، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.
223. الأيدولوجية الانقلابية، د. نديم البيطار، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.
224. البحث الدلالي عند الأصوليين، د. محمد يوسف حبص، مكتبة عالم الكتب، القاهرة، ط: 1، 1411 هـ=1991 م.
225. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط: 17، 2005 م.
226. البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المُطَلِّب، الشركة المصرية العالمية- لونجمان، القاهرة- بيروت، ط: 1، 1994 م.
227. البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1976 م.
228. البلاغة العربية، د. علي عشري زايد، مكتبة الشباب، القاهرة، 1977 م.
229. البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المُطَلِّب، الشركة المصرية العالمية، ط: 1، القاهرة، 1997 م.
230. بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، بيروت، 1987.
231. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 2، 1988 م.
232. بلاغة الكُتَّاب في العصر العباسي، د. محمد نبيه حجاب، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، 1965 م.

233. بلاغة الكلمة والجملة والجُمْل، د. منير سلطان، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1977 م.
234. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار عمار، عمّان، ط: 1، 1999 م.
235. البيان العربي، د. بدوي طبانة، المكتبة الأنجلو-المصرية، القاهرة، ط: 3، 1962 م.
236. البيان القرآني، د. محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط: 1، 2001 م.
237. تاريخ الأدب العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1960 م.
238. تاريخ الأدب العربي، أ. عمر فَرْوْخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 4، 1984.
239. تاريخ الأدب العربي، المستشرق كارل بروكلمان، دار المعارف، القاهرة، ط: 2، 1968 م.
240. تاريخنا، إشراف، أ. الصادق النهوم، ستة كُتُب، 1976 م.
241. تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط: 4، 1983 م.
242. تأملات في سورة البقرة، أ. محمد حسن باجودة، مكتبة مصر، القاهرة، 1992 م.
243. التَّأْوِيل النَّحْوِيُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، د. عبد الفتاح أحمد الحموز، مكتبة الرشد، الرياض، ط: 1، 1404 هـ= 1984 م.
244. تُحْفَةُ الْأَحْوَذِيِّ بِشَرْحِ جَامِعِ التَّرْمِذِيِّ، الحافظُ مُحَمَّدُ الْمُبَارِكْفُورِيِّ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1410 هـ.
245. التحليل الاجتماعي للأدب»، أ. السيد ياسين، دار التنوير، بيروت، 1982.
246. التراث والحداثة، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط: 1، 1991 م.

247. التصوير الجمالي في القرآن الكريم، د. عيد يونس، عالم الكتب، القاهرة، ط: 1، 2006 م.
248. التصوير الفني في القرآن، أ. سيد قطب، دار الشروق، ط: 14، القاهرة، 1993 م.
249. التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمّان، ط: 1، 1998 م.
250. التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 1، 1999 م.
251. التفسير والتأويل في القرآن الكريم، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، عمّان، ط: 1، 1996 م.
252. تفسير التحرير والتوير: تَحْرِيرُ الْمَعْنَى السَّيِّدِ وَتَنْوِيرُ الْعَقْلِ الْجَدِيدِ مِنْ نَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ، الإمام محمد الطاهر بن عاشور، دار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ع: 15، 1984 م.
253. تفسير روح البيان، أ. إسماعيل حقي الإستانبولي، إحياء التراث، د.ت.
254. تفسير سورة الأنعام، أ. محمد البهي، دار الفكر، بيروت، ط: 1، 1974 م.
255. تفسير القرآن الحكيم: تفسير المنار، أ. محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمهورية مصر العربية، ع: 12، 1990 م.
256. تفسير القرآن الكريم وبيانه وإعرابه، أ. محمد علي طه الدرة، دار الفكر، دمشق - بيروت، 1423 هـ = 2002 م.
257. التفسير القرآني للقرآن، د. عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ع: 6، د.ت.
258. تفسير المراغي، الشيخ أحمد مصطفى المراغي: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ع: 30، د.ت.

259. التفسير المظهري، أ. محمد ثناء الله العثماني المظهري، المكتبة الرشدية - دار إحياء التراث، باكستان - بيروت، 1425 هـ = 2004 م.
260. التفسير والمفسرون، أ. محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط: 2، 1976 م.
261. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: 2، ع: 30، 1418 هـ.
262. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، عمان، ط: 1، 1997 م.
263. التفسير الوسيط، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط: 1، ع: 3، 1422 هـ.
264. التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره حتى القرن السادس الهجري، أ. حمادي صمود، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981 م.
265. التفكير اللغوي الدلالي عند علماء العربية المتقدمين، أ. حمدان حسين محمد، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط: 1، 2002 م.
266. الثابت والمتحول، أ. خالد أحمد سعيد أدونيس، دار العودة، ط: 1، بيروت، 1978 م.
267. جرس الألفاظ ودلالاته في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، وزارة الثقافة والإعلام في العراق، مطبعة الحرية، بغداد، 1980 م.
268. جمالية الخبر والإنشاء - دراسة بلاغية جمالية نقدية، د. حسين جمعة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005 م.
269. جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة، أ. محمد عوني عبد الرؤوف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004 م.
270. حروف الجرِّ وأثرها في الدلالات، أ. محمد الطيب، من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ط: 1، 2002 م.

271. حديث الأربعاء، د. طه حسين، دار المعارف، مصر، ط: 10، د.ت.
272. الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، أ. جورج لونتينو، ترجمة: أ. سليم طه التكريتي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1979 م.
273. خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 7، د.ت.
274. خصائص الحروف العربية ومعانيها، د. حسن عباس، منشورات اتحاد الكُتاب العرب، 1998 م.
275. الخطاب الآخر - مقارنة لأبجدية الشاعر ناقدا، د. علي حداد، اتحاد الكُتاب العرب، دمشق، 2000 م.
276. خطاب الحكاية: بحث في المنهج، أ. جيار جينيت، ترجمة: أ. محمد معتصم، المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط: 2، 1997 م.
277. الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريرية: قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، د. عبد الله الغدامي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ط: 1، 1985.
278. خفايا التوراة، د. كمال الصليبي، دار الساقى، لندن، 1988.
279. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، أ. محمد عبد الخالق عزيمة، دار الحديث، القاهرة، د.ت.
280. دراسات جديدة في إعجاز القرآن، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 1، 1996 م.
281. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط: 2، 1419 هـ = 1999 م.
282. دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عُمَر، عالم الكُتب، القاهرة، ط: 2، 1997 م.

283. دروس في الألسنية العامة، أ. فرديناند دي سوسير، تعريب: أ. صالح القرمادي - محمد الشاوش - محمد عجينة، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا، 1985 م.
284. دلائل النظام، أ. عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، الهند، 1388 هـ.
285. دلالة السياق: منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم، أ. عبد الوهاب أبو صفية الحارثي، عمّان، ط: 1، 1986 م.
286. دور الكلمة في اللغة، أ. ستيفن أولمان، ترجمة: د. كمال بشر، مكتبة الشباب، ط: 10، 1986 م.
287. رحلة الكلمات، د. علي فهمي خشيم، دار اقرأ: طرابلس - روما، ط: 1، 1986 م.
288. الرحيق المختوم، أ. صفيّ الرحمن المباركفوري، منشورات دار السلام، الرياض، ط: 1، 1418 هـ.
289. الرد القويم البالغ على كتاب الخليلي المسمى بالحق الدامغ، د. علي بن محمد ناصر الفقيهي، دار المآثر، المدينة النبوية، د.ت.
290. زهرة التفاسير، أ. محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، مصر، د.ت.
291. السبع المعلقات - مقارنة سيميائية أنثروبولوجية، د. عبد الملك مرطاض، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998 م.
292. سبل الاستنباط من القرآن والسنة: دراسة بيانية ناقدة، د. محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، مصر، ط: 1، 1413 هـ.
293. سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن، د. عودة الله منيع القيسي، دار البشير، عمّان - الأردن، 1996 م.
294. سياق الحال في الدرس الدلالي: تحليل وتطبيق، د. فريد عوض حيدر، مكتبة النهضة المصرية، د.ت.
295. شظايا ورماد، أ. نازك الملائكة، المكتب التجاري، ط: 2، بيروت، 1959 م.
296. صفوة التفاسير، أ. محمد علي الصابوني، دار الصابوني، ع: 3، د.ت.

297. الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس، د. وحيد صبحي، اتحاد الكُتاب العرب، دمشق، 1999 م.
298. صيغة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، د. محمود توفيق، مطبعة الأمانة، القاهرة، د.ت.
299. ضحى الإسلام، أ. أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1974 م.
300. ضياء السالك إلى أوضح المسالك، أ. محمد عبد العزيز النجار، مؤسسة الرسالة، ط: 1، ع: 4، 1422 هـ-2001 م.
301. الظاهرة الشعرية العربية- الحضور والغياب، د. حسين خمري، اتحاد الكُتاب العرب، دمشق، 2001 م.
302. عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المُفْتَنُّ في العربية ونحوها، د. البدرابي زهران، دار المعارف، القاهرة، ط: 4، 1987 م.
303. عبقرى من البصرة، د. مهدي المخزومي، وزارة الإعلام العراقية، 1972 م.
304. علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 2، 1998 م.
305. علم الجمال، أ. بنديتو كروتشه، ترجمة: أ. نزيه الحكيم، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، المطبعة الهاشمية، 1963 م.
306. علم الجمال، أ. داني هويمان، ترجمة: أ. ظافر الحسن، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 2، 1972 م.
307. علم الدلالة العربي، د. فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 1405 هـ=1985 م.
308. الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط: 4، ع: 10، 1992 م.

309. فقه التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، أ. محمد السيد محمد يوسف، دار السلام، مصر، ط: 1، 1418 هـ-1997 م.
310. فقه التمكين في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي، دار الوفاء، المنصورة، ط: 1، 1421 هـ-2001 م.
311. فقه الزكاة، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط: 8، 1985 م.
312. الفلاسفة والفكر الإسلامي، أ. محمد أبو حمدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1985.
313. فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1981 م.
314. فلسفة المكان في الشعر العربي - قراءة موضوعاتية جمالية، د. حبيب منسي، اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، 2001 م.
315. الفن القصصي في القرآن، د. محمد خلف الله، مطبعة النهضة، مصر، 1957.
316. فورد مادوكس فورد والحداثة، أ. لطيفة الزيات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1996 م.
317. في جمالية الكلمة: دراسة جمالية بلاغية نقدية، د. حسين جمعة، اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، 2002 م.
318. في ظلال القرآن، أ. سيد قطب، دار الشروق، القاهرة- بيروت، ط: 11، ع: 6، 1985 م.
319. القَصَصُ القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط: 1، 1998 م.
320. قضايا ومواقف في التراث البلاغي، د. عبد الواحد علام، مكتبة النصر - جامعة القاهرة، 1992 م.

321. القيم الجمالية في الشعر العربي الحديث: 1950-1975، سعد الدين كليب، جامعة حلب، 1989 م.
322. القيم الروحية في الشعر العربي، أ. ثريا ملحس، الكتاب اللبناني، د.ت.
323. كتابة البحث العلمي ومصادر الدراسات الإسلامية، د. عبد الوهاب أبو سليمان، دار الشروق، جدة، ط: 3، 1986 م.
324. الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، د. محمد شحرور، دار الأهالي، دمشق، ط: 5، د.ت.
325. الكلمة: دراسة لغوية ومعجمية، د. حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، 1980 م.
326. الكلمة- الفعل في مسرح سعد الله ونوس، أ. إسماعيل فهد إسماعيل، دار الآداب، بيروت، 1981.
327. الكلمة في الرواية، أ. ميخائيل باختين، ترجمة وتقديم: أ. يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، 1988.
328. الكلمة والمجهر في نقد الشعر، د. أحمد درويش، دار الشروق، القاهرة، ط: 1، 1996 م.
329. اللسانيات والدلالة- الكلمة، أ. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب- سوريا، 1996 م.
330. اللغة والأسلوب، أ. عدنان بن ذريل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1980 م.
331. اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 2، 1979 م.
332. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط: 7.

333. مبادئ النقد الأدبي، أ. إ. رتشاردز، ترجمة وتقديم: د. مصطفى بدوي، مراجعة: أ. لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1962 م.
334. مداخل إلى علم الجمال الأدبي، د. عبد المنعم تليمة، دار الثقافة، القاهرة، 1978.
335. مدار الكلمة- دراسات نقدية، أ. أمين ألبرت الريحاني، دار الكتاب اللبناني- دار الكتاب المصري، بيروت- القاهرة، ط: 1، 1980 م.
336. مدخل إلى ظلال القرآن، د. صلاح الخالدي، دار المنارة، جدة- المملكة العربية السعودية، ط: 1، 1406 هـ= 1986 م.
337. مدخل إلى القرآن الكريم، أ. محمد دراز، دار القلم، الكويت، 1971.
338. المسبار في النقد الأدبي: دراسة في نقد النقد للأدب القديم وللتناص، د. حسين جمعة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003 م.
339. مشاهد القيامة في القرآن، أ. سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط: 12، 1993.
340. مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين الأسد، دار المعارف، القاهرة، ط: 7، 1988 م.
341. مصادر اللغة، د. عبد الحميد الشلقاني، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط: 2، 1982.
342. معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم، د. إسماعيل أحمد عمارة- عبد الحميد مصطفى السيد، مؤسسة الرسالة، 1986.
343. معجم أعلام المورد، أ. منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 1، 1992 م.
344. معجم البلاغة العربية، د. بدوي طبانة، دار المنارة، جدة، ط: 3، 1408 هـ.
345. معجم علوم القرآن، أ. إبراهيم الجرمي، دار القلم، دمشق، ط: 1، 2001.

346. معجم الفرائد القرآنية، أ. باسم البسومي، مركز نُون للأبحاث والدراسات القرآنية، ط: 1، 1422 هـ=2001 م.
347. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، أ. عمر رضى كحالة، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 2، 1968 م.
348. معجم اللسانيات الحديثة، أ. سامي عياد حنّا- كريم زكي حسام الدين- نجيب جريس، مكتبة لبنان ناشرون، ط: 1، (1997 م).
349. المُعْجَم المُفْصَّل في علوم البلاغة، د. إنعام عكاوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1، 1992 م.
350. المعجم الوسيط، د. أحمد الزيات- أ. إبراهيم مصطفى- حامد عبد القادر- محمد النجار، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، إستانبول- تركيا، ط: 2، ع: 2، د.ت.
351. مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، د. ميشال عاصي، دار العلم للملايين، بيروت، 1974 م.
352. المُفْصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دار الساقى، ط: 4، ع: 20، 2001 م.
353. مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، د. أحمد جمال العمري، دار المعارف، مصر، 1984 م.
354. مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، د. نصر حامد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م.
355. من أسرار المُغَايِرَة في نَسَقِ الفاصلة القرآنية، د. محمد الأمين الخُضْرِي، القاهرة، 1994 م.
356. مناهج البحث البلاغي، د. عبد السلام عبد الحفيظ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1978 م.

357. مناهج البحث عند مفكري الإسلام، د. علي سامي النشار، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: 1، 1367 هـ=1947 م.
358. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1، ع: 2، 1415 هـ=1995 م.
359. من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، نهضة مصر، ط: 3، 1950.
360. المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة، د. علي سامي النشار، دار المعارف، القاهرة، 1971 م.
361. منهج البحث البياني عن المعنى القرآني في سياق السورة، د. محمود توفيق سعد، مطبعة الإخوة الأشقاء، مصر، د.ت.
362. منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، د. زياد الدغامين، دار البشير، عمّان، ط: 1، 1416 هـ=1995 م.
363. الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية، د. أحمد مصطفى متولي، دار ابن الجوزي، ط: 1، القاهرة، 2005 م.
364. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عدّة دُور نشر: ذات السلاسل: الكويت- دار الصفوة: مصر- مطابع الوزارة بالكويت، عدد الأجزاء، 45، 1404 هـ=1983 م-1427 هـ=2006 م.
365. الموسوعة الفلسفية، إشراف: أ. روزنتال- ب. يودين، ترجمة: أ. سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1987.
366. موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط: 1، 2004 م.
367. موقف ابن تيمية من الأشاعرة، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، الرياض، ط: 2، 1415 هـ=1996 م.

368. النبأ العظيم- نظرات جديدة في القرآن، أ. محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة- قطر، 1985 م.
369. النحو والدلالة: مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسة عبد اللطيف، ط: 1، القاهرة، 1983 م.
370. النحو الوافي، د. عباس حسن، دار المعارف، ط: 15، ع: 4، د.ت.
371. نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، د. عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية، بيروت، 1975 م.
372. نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي، أ. محمد بن عبد الغني المصري، دار مجدلاوي، عمان- الأردن، ط: 1، 1987 م.
373. نظرية الأدب، أ. رينيه ويلك- أوستن ورن، ترجمة: أ. محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 2، 1997 م.
374. نظرية الأدب في النقد الجمالي والبنوي، أ. شايف عكاشة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.
375. نظرية التراث، د. فهمي جدعان، دار الشروق، عمان، ط: 1، 1985 م.
376. نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغيًا، أ. هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط: 1، 1986 م.
377. نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، أ. تامر سلوم، منشورات دار الحوار، اللاذقية، 1983 م.
378. نظرية المنهج الشكلي- نصوص الشكلايين الروس، ترجمة: أ. إبراهيم الخطيب، نشر الشركة المغربية للناشرين المتحدين، ط: 1، 1982.
379. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دمشق، ط: 1، 1980 م.
380. النقد الأدبي، د. سهير القلماوي، دار المعرفة، القاهرة، ط: 2، 1959 م.

381. النقد الأدبي، أ. سيد قطب، دار الشروق، بيروت- لبنان، د.ت.
382. النقد الأدبي والعلوم الإنسانية، أ. جان لوي كابانيس، ترجمة: أ. فهد عكام، دار الفكر، بيروت، ط: 1، 1982.
383. النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، أ. ستانلي هايمن، ترجمة: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط: 1، 1960 م.
384. النقد والحداثة، د. عبد السلام المسدي، دار الطليعة، ط: 1، بيروت، 1983 م.
385. نقد الفكر الديني، د. صادق جلال العظم، دار الطليعة، بيروت، 1970 م.
386. وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي، د. محمد النويهي، معهد البحوث والدراسات العربية، 1966-1967.
387. وظيفة الفن الاجتماعية، أ. غروموف وكاجان، ترجمة: أ. عدنان مدانات، دار ابن خلدون، بيروت- لبنان، 1980.
388. الوعي والإبداع، دراسات جمالية ماركسية، عدة مؤلفين، ترجمة رضا الطاهر، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، 1985 م.
389. الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام، د. فؤاد المرعي، دار الأبجدية، دمشق، 1989 م.
390. يأجوج ومأجوج فتنة الماضي والمستقبل، أ. شفيق الماحي أحمد، دار ابن حزم، 2001 م.
- ثالثا: الكتب الإلكترونية:**
391. الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن، د. محمد بن سعيد السرحاني، موقع صيد الفوائد: www.saaaid.net.
392. أسئلة الحداثة بين الواقع والشطح، ميخائيل عيد، موقع اتحاد الكتاب العرب، <http://www.awu-dam.org>، دمشق، 1998 م.

393. أسباب نزول الآيات، الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري الشافعي، ت: أ. عصام بن عبد المحسن الحميدان، موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف <http://www.qurancomplex.com> .:
394. أصول الإيمان، الإمام محمد بن عبد الوهاب، موقع الإسلام: <http://www.al-islam.com>، ت: أ. باسم فيصل الجوابرة، ط: 5، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 1420 هـ.
395. إعراب القرآن، الإمام ابن سيده المُرسي، موقع المكتبة الشاملة: <http://www.shamela.ws>.
396. البلاغة العربية: أسسها وعلومها وفنونها، أ. عبد الرحمن الحبنكة الميداني، المكتبة الشاملة، نسخة من إعداد أ. عبد المجيد بومريقة.
397. الله، لعباس العقاد، المكتبة الشاملة.
398. التُّخْفَةُ السَّنِّيَّةُ بِشَرْحِ الْمُقَدِّمَةِ الْأَجْرُومِيَّةِ، أ. محمد محيي الدين عبد الحميد K www.ahlalhdeth.com
399. تعجيل الندى بشرح قطر الندى، الشيخ عبد الله بن صالح الفوزان، موقع صيد الفوائد.
400. التفسير البنائي للقرآن، أ. محمود البستاني، موقع الحوزة: www.u-of-islam.net.
401. تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، العلامة الفيروزآبادي، موقع التفاسير، <http://www.altafsir.com>
402. تهذيب سيرة ابن هشام، أ. عبد السلام هارون، موقع الوراق، <http://www.alwarraq.com>.
403. جامع الدروس العربية، أ. مصطفى الغلاييني، شبكة مشكاة الإسلامية : www.almeshkat.net

404. حاشية الصَّبَّان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، العلامة محمد بن علي الصبان، شبكة مشكاة الإسلامية.
405. حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، د. حسن عباس، موقع اتحاد الكُتَّاب العرب، 2000 م.
406. خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ابن الوردي، موقع الوراق.
407. الدليل إلى المتون العلمية، الشيخ القاضي عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم، المكتبة الشاملة.
408. دليل السالك إلى ألفية ابن مالك، الشيخ عبد الله بن صالح الفوزان، www.alfuzan.islamlight.net
409. ديوان كعب بن زهير، المكتبة الشاملة.
410. رحلة ابن فضلان، موقع الوراق.
411. الروضُ الأنْف، الإمام عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، موقع الإسلام.
412. السلسلة الصحيحة - مختصرة، الشيخ الألباني، موقع المكتبة الشاملة.
413. شرح الحماسة، العلامة المرزوقي، موقع الوراق.
414. العواصم من القواصم، القاضي أبو بكر ابن العربي، موقع الإسلام.
415. عودة التاريخ - الأنثروبولوجية المعرفية العربية: دراسة في الأناسة المعرفية العربية التاريخية اللغوية ووحدها، د. جمال الدين الخُصُور، موقع اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، 1997 م.
416. الفتوحات المكية، ابن عربي، موقع الوراق.
417. القراءة والحداثة - مُقارَبة الكائن والممكن في القراءة العربية، د. حبيب مُنسي، موقع اتحاد الكُتَّاب العرب، دمشق، 2000 م.
418. قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، د. راغب السرجاني، المكتبة الشاملة، نسخة من إعداد أ. عبد المجيد بومريقة.

419. قصة الحضارة، ول ديورانت، المكتبة الشاملة، نسخة من إعداد أ. عبد المجيد بومريقة.

420. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، القلقشندي، موقع الوراق.

421. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، دار عمار، موقع المكتبة الشاملة.

422. مجموع فتاوى ابن تيمية، الإصدار الثاني، شيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق: أ. عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية- المملكة العربية السعودية، 1416 هـ = 1995 م. إعداد: موقع روح الإسلام: (www.islamspirit.com).

423. المحيط في اللغة، صاحب ابن عبّاد، موقع الوراق.

424. معجم قبائل المملكة العربية السعودية، حمد الجاسر، موقع الوراق.

425. معجم القواعد العربية، أ. عبد الغني الدقر، مكتبة مشكاة الإسلامية.

426. مفتاح العلوم، الإمام السكاكي، موقع الوراق.

427. مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، موقع يعسوب، موافق للطبوع.

428. الموسوعة العربية العالمية: أَوَّلُ وأضخُّ عملٍ من نوعه، وحجمه، ومنهجه في

تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، عملٌ موسوعيٌّ ضخمٌ اعتمدَ في بعضِ أجزائه

على النسخة الدولية من: (دائرة المعارف العالمية: World Book

International، شارك في إنجازهِ أكثرُ من ألفِ مساهم.

429. موسوعة الكتاب المقدّس، برمجة إلكترونية: أ. شحاتة بشير.

430. الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية

للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حمّاد الجهني،

المصدر: موقع الدرر السنية. <http://www.dorar.net>، ع: 2.

431. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، موقع صيد الفوائد.

432. النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، د. عبد الله أبو هيف، موقع اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2000 م.

رابعاً: الصحف والدوريات:

433. أثرُ تعدُّد الآراء النحوية في تفسير الآيات القرآنية، د. سامي عوض - أ. ياسر محمّد، مجلة جامعة تشرين للدراسات، 2007 م.

434. أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، أ. خليل يحيى نامي، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة.

435. النبوية وما بعدها من ليفي ستراوس إلى دريدا، أ. جون ستروك، ترجمة: أ. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير، 1996.

436. جهود المستشرقين في مجال الكشف الإسلامي، د. عبد الستار الحلوجي، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1396 هـ = 1976 م.

437. الدلالة الصوتية والدلالة الصرفية عند ابن جني، أ. عبد الرحمن عبد الكريم مجاهد، مجلة عالم الفكر، السنة الرابعة - عدد: 26 - آذار - 1982 م.

438. ظاهرة الترادف بين القدماء والمُحدّثين، د. أحمد مختار عمر، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، ربيع 1982.

439. ظاهرة المشترك اللفظي ومشكلة غموض الدلالة، د. أحمد نصيف الجنابي، مجلة المَجْمَع العلمي العراقي، محرم - 1405 هـ = تشرين الأول - 1984.

440. الفواصل الصوتية في الكلام وأثرها على المواقع النحوية: دراسة للوقف والسكت، د. مصطفى النحاس، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، 1986.

441. مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة، د. عبد القادر المهيري، ضمن حوليات الجامعة التونسية، عدد: 11، 1974.

442. من أسرار القرآن: الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالاتها العلمية، قضايا وآراء، د. زغلول النجار، صحيفة الأهرام.

خامسا: الرسائل الجامعية:

443. التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين: دراسة أصولية فكرية معاصرة، رسالة ماجستير - جامعة القدس، الطالب: إبراهيم محمد طه بويدانين، إشراف: أ. د. حسام الدين عفانه، أغسطس - 2001 م.

444. التصوير الفني لمشاهد الطبيعة في القرآن، رسالة ماجستير، تحت إشراف: د. العربي سالم الشريف، الطالب: عادل مصطفى الكور، جامعة الزاوية - ليبيا، 2005 م.

445. التناسب البياني في القرآن، رسالة ماجستير، الباحث: أحمد أبو زيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم: 19، المملكة المغربية، 1990 م.

446. التناسب في سورة البقرة، رسالة ماجستير، الباحث: طارق مصطفى محمد حميدة، إشراف: د. حاتم جلال التميمي، عمادة الدراسات العليا، جامعة القدس، 2007 م.

447. التناسب القرآني عند الإمام البقاعي: دراسة بلاغية، رسالة ماجستير، الباحث: مشهور موسى مشاهرة، الجامعة الأردنية، 2001 م.

448. الروابط اللفظية في سورة البقرة: دراسة نحوية دلالية إحصائية، رسالة ماجستير، الباحثة: رهام يعقوب، جامعة القدس، 2003 م.

449. شرح تنقيح الفصول - من بداية الباب الثالث عشر إلى نهاية الكتاب، الإمام الأصولي، شهاب الدين القرافي، رسالة ماجستير، دراسة وتحقيق: الطالب:

ناصر بن علي الغامدي، إشراف: د. حمزة بن حسين الفعر، 2000 م:
<http://www.shamela.ws>

450. العلمانيون والقرآن، رسالة دكتوراه، الباحث: صلاح يعقوب، جامعة الأزهر - كلية الدعوة وأصول الدين.

451. المسائل البلاغية بين ميثم البحراني وابن سنان الخفاجي، رسالة ماجستير، الباحث: عبد المنعم السيد رزق، إشراف: د. محمد إبراهيم عبد العزيز شادي، جامعة الأزهر - كلية اللغة العربية بالمنصورة - الدراسات العليا، 2000 م.

452. نَظْمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الآيَاتِ وَالسُّورِ لِلإِمَامِ البِقَاعِي: دراسة وتحقيق للمُقَدِّمة وسُورَتِي الفاتحة والبقرة، رسالة دكتوراه، الباحث: إسماعيل الحاج أمين نواهضة، كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، 1403 هـ.

أ.....	الآية
ب.....	الإهداء
ج.....	شكر وتقدير
د.....	الرموز والاختصارات:
1.....	المُقدِّمة:
11	الباب الأول: قِيمُ التعبير اللغوي
12	الفصل الأول: الحروف والأدوات
13.....	المبحث الأول: الحروف المُقطَّعة
20	المبحث الثاني: مِنْ حروفِ الجَر:
20	اللام:
20	مِمَّا اخْتَصَّ اللهُ بِهِ أَهْلَ التَّقْوَى:
22	مِنْ قِصَّةِ الخُلُق:
25	الباء:
25	الإيمان بالغيب:
26	بين آلِ عمرانَ وَزَكْرِيَا عَلَيْهِمُ السَّلَام:
30	الحرفان: (من - إلى):
30	مَشْهُدٌ مِنْ لَيْلَةِ الإِسْرَاء:
33	الحرفان: (عن - على):
33	التأييدُ والثَّبات:
35	قِصَّةُ أصحابِ الجَنَّة:
42	الحرف: (في):
42	وَعَدٌ وَبِشَارَةٌ:
46	المبحث الثالث: الحروف البليغة

46	تمهيد:
51	(ما) البليغة:
51	مِنْ عَالَمِ الحشرات:
55	الرحمةُ المُهداة
56	نَقْضُ ميثاقِهِمْ معِ اللَّهِ تعالى
60	(مِنْ) البليغة
60	مِنْ مشاهدِ السماء: البَرْدُ وَسَنَا البَرَقِ
65	المبحث الرابع: حروفٌ وأدواتٌ أخرى
65	لامُ التعريف:
65	زَمَنُ الوحي:
67	إِنَّ الناسخَةَ الثقيلة
67	قِوامُ الأُمَّة: الأمانةُ والعدل
69	إِنَّ الشَّرْطِيَّة
69	مِنْ دعاوى المنافقين
71	يا النداءِ وَإِلَّا المُسْتَثْنِيَّة
71	الوفاءُ لِلَّهِ تعالى
74	لا الناهية
74	الأخوةُ الإيمانيَّة
76	لا النافية للجنس
76	كِتابُ هُدَى مِنْ رَبِّ العالَمين
80	المبحث الخامس: الدلالات الصوتية

80	تمهيد
82	مِنْ أحوالِ الخِروجِ إلى الجِهادِ
82	النموذج الأول من سورة النساء
83	النموذج الثاني من سورة التوبة
84	من أحوالِ أهلِ الجحيم
84	النموذج الأول من سورة التوبة
85	النموذج الثاني من سورة الشعراء
86	حُزْنٌ وَأَسْفٌ
88	من علاماتِ السَّاعةِ
89	تَعَنُّنٌ في استيعابِ المُقَدِّماتِ وإدماجِها
92	من هداةِ الليلِ إلى إشراقِ الصُّبحِ
94	استنْفَازٌ ووَسْوَسةٌ
95	الفصل الثاني: المصادر
96	المبحث الأول: من صفاته تعالى: الرحمة- الهدى
96	الرحمة
116	المبحث الثاني: من قضايا القرآن: نفي الريب عن الكتاب
116	الكتاب
122	لا ريب فيه
129	الفصل الثالث: المشتقات
130	المبحث الأول: أولياء الله هم المتقون
137	المبحث الثاني: من حكمة الكتاب

137.....	المُشْتَقَّ: الحكيم
143.....	المشتقان: ساحر - مبین
146.....	المُشْتَقَّ: شفيح
150.....	المشتق: الصالحات
152.....	المشتق: منازل
156.....	الفصل الرابع: الاسم المبني
158.....	المبحث الأول: الضمير
159.....	مِنْ نارِ الصَّحراءِ إِلَى نُورِ الرِّسالةِ
169.....	المبحث الثاني: اسم الإشارة
169.....	سُمُوُّ وَحيِ السَّماءِ
169.....	ذلك الكتاب
172.....	ذلك مِنْ أنباءِ الغيب:
175.....	وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك
176.....	العِصْمَةُ والإِخْلاص
178.....	المبحث الثالث: الموصول
178.....	أهلُ الإِيمانِ
181.....	التي نَقَضَتْ غَزْلَها
183.....	مَرِيْمُ البَتُّونِ عليها السَّلَام
187.....	الباب الثاني: القيم الأسلوبية
188.....	الفصل الأول: مِنْ وظائفِ الكلمةِ وصيغِها الأسلوبية
189.....	المبحث الأول: من وظائف الكلمة: الاستيعاب والشمول ^(١)

189.....	الغيب
203.....	المبحث الثاني: الوظيفة الفنية لعنصري السكون والحركة
203.....	في نماذج من سورة الكهف
203.....	مع أصحاب الكهف
212.....	موسى والخضر عليهما السلام
221.....	بين مغرب الشمس ومطلعها
235.....	المبحث الثالث: الصيغ الأسلوبية: الإفراد والتثنية والجمع
237.....	ريح طيبة وريح عاصف
239.....	من اتخذ إلهه هواه
242.....	التثنية
242.....	لا تتخذوا إلهين اثنين
245.....	ربُّ المشرقين وربُّ المغربين
246.....	الجمع
246.....	بين مشركي مكة وملا فرعون
252.....	الفصل الثاني: قيم الزمان والمكان
253.....	المبحث الأول
253.....	مشاهد من قصة نبي الله سليمان مع بلقيس ملكة سبأ
262.....	ولسليمان الريح
264.....	المبحث الثاني
264.....	القرية- المدينة في آيات القرآن
264.....	المجتمعات القروية وارتباطاتها المعنوية

284.....	المدينة وارتباطاتها المعنوية في آيات القرآن
297.....	خلاصة للارتباطات المعنوية للقرية والقرى في القرآن
298.....	رؤية
303.....	الفصل الثالث: الدلالة الرمزية
304.....	حول الرّمز
306.....	المبحث الأول: الله نُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ
315.....	المبحث الثاني: إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلَام
325.....	الفصل الرابع: الدلالات الموضوعية
326.....	المبحث الأول: تطوُّرُ الدلالة المعنوية لكلمة التَّأْوِيلِ
345.....	المبحث الثاني: مِنْ عَالَمِ السَّيْرَةِ
355.....	المبحث الثالث
355.....	الدلالات العلمية لظاهرتي الليل والنهار في القرآن
366.....	خاتمة
368.....	قائمة المصادر والمراجع

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ